

فَتْحَاتُ الْقُرْآنِ

الجزء السادس
لِلْعَادَةِ فِي الْقُرْآنِ (١٠)

أُسْلُوبٌ جَدِيدٌ فِي التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

سَمَاحَةُ الْعَلَامَةِ الْمُحَقِّقِ الشَّيْخِ نَاصِرِ مَكَارِمِ الشَّيرَازِيِّ

بِمُسَاعَدَةِ جَمْعٍ مِنَ الْفَضَلَاءِ

سماحة العلامة المحقق
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

نفحات القرآن

اسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

الجزء السادس
المعاد في القرآن (٢)

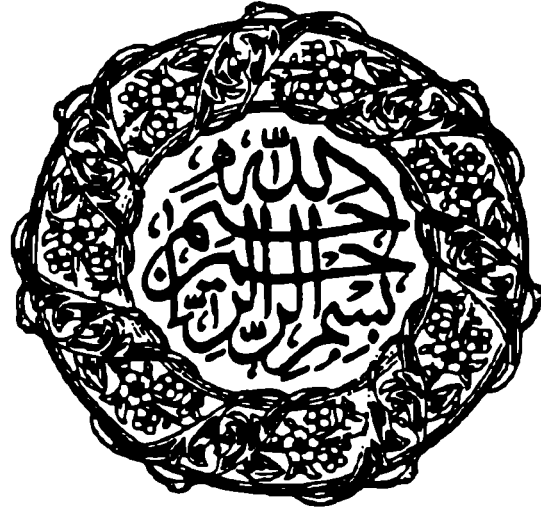
بمساعدة
مجموعة من الفضلاء



هوية الكتاب

- الكتاب نفحات القرآن / ج ٦
- المؤلف آية الله العظمى مكارم الشيرازي
- عدد النسخ ٢٠٠٠
- قطع وزيري ٤٩٦ صفحة
- المطبعة
- الناشر مؤسسة أبي صالح للنشر والثقافة

شابک ۷-۵-۱۵۹-۹-۹۶۴



الاهداء:

الى الذين يعشقون القرآن .
الى الذين يريدون أن يشربوا من عين الحياة الصافية أكثر .
والى الذين يريدون ان يعرفوا القرآن ويفهموه أكثر .

بمساعده العلماء الافاضل وحجج الاسلام السادة:

محمد رضا الآشتياني .

محمد جعفر الامامي .

عبد الرسول الحسني .

محمد الاسدي .

حسين الطوسي .

سيد شمس الدين الروحاني .

محمد محمدي الاشتهاري .

المقدمة

ما هو التفسير الموضوعي ؟

وما هي المشكلات التي يعالجها ؟

إن الجواب على هذين السؤالين له الاثر الكبير في فهم مواضيع مثل هذا الكتاب بشكل أصح وأفضل ، وما لم يتضح الجواب على هذين السؤالين لا يمكن معرفة الهدف الذي ترمي اليه مثل هذه الكتب .

اما بالنسبة للجواب عن السؤال الاول فنود ان نذكر بأن المدّة التي تنزل فيها القرآن المجيد دامت (٢٣) سنة ، وذلك نظراً للمتطلبات والظروف الاجتماعية المختلفة والأحداث المتنوعة ، فكان القرآن يسير وفقاً لتطورات المجتمع الاسلامي .

إن اكثر الآيات والسور التي نزلت في مكة كانت ترمي الى تركيز دعائم الايمان وترسيخ الاعتقاد بالتوحيد والمعاد ، وكانت تختص بالهجوم الشديد والمستمر ضد الشرك وعبادة الاوثان ، بينما ركزت الايات والسور التي نزلت في المدينة - وذلك بعد تأسيس الحكومة الاسلامية طبعاً - على وضع القوانين الاجتماعية والعبادية

والسياسية وتأسيس بيت المال والنظام القضائي الاسلامي والشؤون المتعلقة بالحرب والهدنة والجهاد ضد المنافقين وامثال ذلك من الامور التي كان الدين الاسلامي يواجهها .

ومن البديهي إن المسائل المذكورة لم توضع على شكل رسالة لبيان الاحكام الشرعية او على شكل كتاب منهجي كما هو المتعارف ، بل كانت الآيات تنزل وفقاً للمتطلبات والمناسبات والحاجات ، فإننا نرى مثلاً احكام الجهاد وفنون القتال واحكام المعاهدات والاسرى والفدية وامثال هذه الامور نزلت متفرقة وبشكل غير مرتب ؛ وذلك لانها نزلت مناسبة لكل غزوة ومتطلباتها ، كما هو الحال في وصفات العلاج التي يكتبها الطبيب الماهر ، فإنه يصفها للمريض في كل يوم بما يناسب حاله حتى يصل الى الشفاء التام .

فلو فسرنا آيات القرآن الكريم في آية سورة من السور بالترتيب الذي نزلت عليه فهذا التفسير يسمى بـ «التفسير الترتيبي» ، واما اذا جمعنا الآيات المختصة في «موضوع» واحد من سائر سور القرآن ووضعناها على شكل فصول وفسرناها فهذا التفسير يسمى بـ «التفسير الموضوعي» .

فمثلاً اذا جُمِعَتْ كل آيات الجهاد التي نزلت خلال عشر سنين من السور المدنية ، او جُمِعَتْ الآيات الخاصة باسماء وصفات الله التي نزلت خلال (٢٣) سنة من جميع سور القرآن ، وُضِمَتْ الى بعضها ، وفسرت بعضها البعض الآخر فإن هذا يسمى بالتفسير الموضوعي ، بينما لو فُسرت كل آية في موضعها وبشكل مستقل فإن هذا هو التفسير الترتيبي .

إن كل واحد من هذين النوعين له مزايا وآثار بحيث لايمكننا الاستغناء عن احدها بالآخر كما يقول المثل «لكل مقام مقال» ، إن كلا النوعين من التفسير لازم وضروري للباحثين في القرآن الكريم . (ومن الطبيعي ان يُقدَّم التفسير الترتيبي في البداية على التفسير الموضوعي) .

مزايـا « التفسير الترتيبي » :

تُعرف اغراض الآيات ومفاهيمها من خلال زمان ومكان النزول ، مع ضمّها الى ما قبلها و ما بعدها من الآيات ، ومن خلال القرائن الداخلية والخارجية ، وبدون هذا لا يمكن فهم معنى الآية بدقّة .

وبعبارة اخرى فإن التفسير الترتيبي ينظر بدقّة الى كل آية في موضعها الذي نزلت من اجله ، ويأخذ بنظر الاعتبار صلّتها بحياة المجتمع الاسلامي وتطوره وتكامله ، وتكشف هذه الصلة بدورها عن مسائل كثيرة .

بينما في التفسير الموضوعي تخرج الآيات عن قلبها الجزئي وتأخذ موضعها في قالب كلي وتبتعد الى حد كبير عن موضعها الذي نزلت من اجله .

وعلى ذلك فإن التفسير الموضوعي يمكنه ، أن يرفع الستار عن الامور التالية :

١ - يجمع الابعاد المتشعبة في طيات الآيات المتعلقة بالموضوع ، وينظر الى المواضيع بشكلها المتعدد الابعاد ، وهذا ينتهي طبعاً باستخراج حقائق جديدة لتلك المواضيع .

٢ - يُزيل الابهامات التي تُشاهد في بادئ الامر في بعض الآيات طبقاً للمبدأ القائل بأن « القرآن يفسر بعضه بعضاً » .

٣ - يُمهّد للخوض في نظرية المعرفة الاسلامية بشكل عام وفي كل مسألة من مسائلها .

٤ - لا يمكن رفع النقاب عن الكثير من اسرار القرآن الخفية الا من خلال التفسير الموضوعي ، ولا يتيسر الخوض في اعماق آياته - على قدر الطاقة البشرية - الا بواسطته .

وبناءً على هذا فإن أيّ مسلم مهما بلغ من المعرفة والتعمّق لا يمكنه الاستغناء عن كلا هذين النوعين من التفسير. وبالرغم من ان التفسير الموضوعي كان موضع اهتمام منذ اقدم الأيام بل حتى في عصر أئمة الهدى عليهم السلام ، فقد كتب علماء الاسلام

في هذا المجال كُتِبَ جُمَّةٌ كُتِبَ «آيات الاحكام» التي تعتبر نموذجاً واضحاً لذلك ،
 إلا إنه يجب الاعتراف بأن التفسير الموضوعي لم يحضَ بالتطور اللائق به ، وهو لحد
 الآن يطوي مراحله الابتدائية ، ويجب ان يرقى الى محلّه اللائق من خلال جهد
 وعطاء العلماء .

إن كتاب «رسالة القرآن» الذي بين يديك هو ابداع واسلوب جديد تماماً في
 التفسير الموضوعي للقرآن ، وقد خطى في هذا الموضوع خُطًى جديدة فاستقبلَ -
 والحمد لله - بشكل واسع ومستمر من قِبَل الكثيرين ونحن بعدُ في اول الطريق ،
 ونحتاج الى عون ودعم اكثر من العلماء المسلمين والمفسرين المحترمين للوصول
 الى الهدف الرئيسي ، ونحن نتقبل دوماً الآراء البناءة من أهل الخبرة والاطلاع ،
 ونسأل الله دوام الهداية والتوفيق .

قم - الحوزة العلمية

ناصر مكارم الشيرازي

منازل الآخرة

منازل الآخرة

المقدمة

ان مسألة المعاد مسألة واسعة جداً، لان الحديث عنها هو حديث عن عالم واسع، وربما ان عالم المعاد عالم مجهول ويختلف من جهات عديدة عن عالمنا هذا لذلك سيكون البحث في هذا المجال بحثاً معقداً، ومع كونه معقداً فهو ممتع وجذاب في نفس الوقت ويعود ذلك لسببين:

الاول: لكونه موضوعاً مثيراً، وهذا ما يبعث عند كل انسان حب التطلع وكشف المجهول.

الثاني: ان التوجه الى هذه المسألة ومعرفة جزئياتها له اثر نفسي وروحي وتربوي كبير في بناء النفس الانسانية، اذ انها تشتمل على جميع مراحل حياة الانسان، وربما هذا هو السبب الذي جعل القرآن الكريم يتناول الكثير من الموارد والمسائل التي تتعلق بالمعاد، وهذا ما لانجده في غيرها من المسائل.

اننا في بادئ الامر كنا قد ارتأينا ان نجمع جميع البحوث المتعلقة بـ (المعاد وفق المنظور (القرآني) في مجموعة واحدة (كتاب واحد) ونضعها بين يدي القاريء الكريم تحت عنوان (تفسير رسالة القرآن).

ولهذا نحن بذلنا جهدنا في تلخيص هذه البحوث بالقدر الذي لا يؤثر على المحتوى العام، مع الحرص على تلافي اي خلل او نقص في المسائل المطروحة فيه، ولكن وبعد أن

خضنا في اعماق الآيات القرآنية - بهذا الفكر القاصر - عثرنا على كنوز من الجواهر النفيسة بحيث لا يمكن جمعها في كتاب واحد ، وإلا أصبح عدد صفحاته يزيد على الألف ولا مناص لنا إلا ان نعيد النظر في هذا الكتاب وندوّن فيه مجلدين .

واتفق ان البحوث المتناولة في المجلد الاول مغايرة تماماً لبحوث المجلد الثاني ، المجلد السابق كان الحديث يدور حول المسائل المرتبطة بالمعاد ، اما هذا المجلد فيتناول جزئيات وخصوصيات المعاد وفق المنظور القرآني ، وبتعبير آخر لو اننا شبّهنا مسألة المعاد ببناء عظيم وشامخ لكان المجلد الاول يمثل اساس هذا البناء ، وهذا المجلد (الثاني) يتناول جزئيات وتفاصيل البناء وما يتعلق به .

ولهذا كان من المناسب ان نسمي هذا الكتاب باسم (منازل الآخرة) أو منازل القيامة . ولا بد لنا من الإشارة الى ان البحث حول المعاد عموماً وما يرتبط بجزئياته خصوصاً يثير الكثير من الاسئلة . لهذا فقد سعينا واستطعنا ان نجيب عن جميع الاسئلة من القرآن نفسه او من الاحاديث الشريفة او الأدلة المنطقية الفعلية .

كذلك بذلنا جهدنا لتقريب هذه المفاهيم المهمة والمعقدة الى الاذهان بضرب الامثلة الحية ، ولقد استفدنا في هذا المجال من التجارب التي حصلنا عليها من خلال البحوث العقائدية والتفسيرية ، أملين التوفيق في هذا الطريق ، والرأي لكم .

ولاشك ان هذا العمل سيمهّد الارضية لبذل جهود اكبر في المستقبل .. وهو عامل مساعد في استمرارية هذه الجهود في هذا المجال ، ولا يمكن ان يدّعي احد بانه قال في هذا المجال كل شيء ، ولم يبق ما يقال .

نسأله تعالى ان يعصمنا من الزلل سواء كان في العلم او في العمل ، في القلم او في الكلام ، كما نطلب منه تعالى ان يسلمنا ويدخلنا في المنازل الرفيعة منازل الرحمة ، رحمته (جنات عدن) ، (جنة الخلد) ولا يمكن لأحد ان يدخلها بسلام إلا ان تشملها الطاف وعناية الباري عز وجل .

أشراط الساعة

١- اشراط الساعة

الفصل الاول «علامات القيامة»

تمهيد :

يبدأ المنزل الاول من منازل الآخرة بظهور امارات القيامة ، وهذه الحقيقة الملموسة نجدها بكثرة في القرآن الكريم حيث ان الكثير من الآيات القرآنية تتحدث عن علامات قرب الساعة ، وقد عُرِفَت هذه الأمارات بـ(اشراط الساعة) وقد أخذ هذا العنوان -كما سنرى ذلك - من القرآن الكريم نفسه :

اشراط جمع شَرَط على وزن هَدَف بمعنى (العلامة)

و(الساعة) هنا تعنى القيامة ، وهذه العلامات عبارة عن حوادث مهمة ورهيبة تحدث قبل يوم القيامة تنذر كل منها بنهاية هذا العالم او هي البداية لقيام الساعة. ولا بد ان نشير هنا الى ان هذه الحوادث ليست متشابهة بل هناك فوارق واختلافات بينها ، وبمنظرة عامة يمكن تقسيم هذه الحوادث الى ثلاثة اقسام وهي :

١ - الحوادث المهمة «قبل نهاية هذا العالم» .

٢ - الحوادث المرعبة على «اعتاب نهاية هذا العالم» .

٣ - الحوادث الرهيبة ايضاً عند «بداية البعث» والعودة الى حياة جديدة ولا بد من التأمل في كل واحدة منها وبهذه الاشارة نعود الى القرآن الكريم ونبدأ «بالقسم

الاول» منها ونستعرض الآيات التي تدور حول هذا الموضوع وهي .

١ - ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ محمد-١٨.

٢ - ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ القمر-١.

٣ - ﴿ فَازْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ دخان-١٠.



تفسير موجز :

ظهور علامات القيامة :

إن الآية الاولى من آيات هذا البحث تشير اشارة عابرة الى (اشراط الساعة) من دون بيان مصداقها، فتقول : هل ينتظر هؤلاء (الكفار والمستهزئون) ان تقوم الساعة بغتة حتى يؤمنوا في حين أتتهم علاماتها ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ ﴿ عِنْدُنَا لَا يَنْفَعُ أَيْمَانُهُمْ ﴾ ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ وكما أشرنا سابقاً فان اشراط جمع شرط بمعنى العلامة - وبناء على هذا فان معنى (اشراط الساعة): علامات القيامة .

أما ما المراد من تحقيق هذه العلامات التي اخبرت عنها الآيات السابقة الذكر؟ فنبيّنه كالآتي :

للمفسرين آراء مختلفة في ذلك فيرى اغلبهم ان المقصود من (اشراط) هنا هو مبعث النبي (ﷺ) وقيامه بالدعوة ونزول القرآن الكريم الذي هو آخر كتاب سماوي، والدليل على هذا الرأي هو الاحاديث الواردة عن الرسول (ﷺ) بهذا الخصوص كالحديث المشهور الذي روى عنه (ﷺ) (بعثت انا والساعة كهاتين،

وضم السبابة والوسطى^(١).

ولقد عدّ البعض الآخر من المفسرين انشقاق القمر من (اشراط الساعة) هذا فيما لو كانت جميع الآيات التي تحدثت حول (اشراط الساعة) تشير الى قرب الساعة وليس الى امكانية المعاد إلا أنّ البعض اختار المعنى الثاني وقال: ان اصل خلق الانسان هو من تراب، وان خلق السموات والارض كلها علامات على قدرة الله تبارك وتعالى على اعادة الحياة من جديد بعد الممات وعليه ستكون جميع دلائل امكانية المعاد جزءاً من علامات القيامة و (اشراط الساعة).

ولكنّ المعنى الاول هو الاصح خصوصاً ان بعض الروايات الاسلامية عدّت بعض الامور من علامات قرب القيامة و (اشراط الساعة) مثل الحديث المنقول عن الرسول (ﷺ) (من اشراط الساعة ان يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويفشو الزنا)^(٢).

حتى أن بعض الروايات عدّت قيام المهدي (عج) لمقارعة الظلم والفساد جزء من أشراط الساعة.



اقتربت الساعة:

تحدث الآية الثانية عن قرب القيامة وانشقاق القمر قال تعالى ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ القمر-١.

وهذا جواب عن سؤال طالما تكرر على الرسول الاكرم (ﷺ) وهو متى تقوم

١ - نقل هذا الحديث الكثير من مفسري الشيعة واهل السنة بقليل من الاختلاف مثل مجمع البيان . تفسير القرطبي في ظلال القرآن ، روح البيان في تفاسير اخرى .

٢ - تفسير نور الثقلين : ١١ .

الساعة...؟ فيجيب (ﷺ) (أنه قريب ومن علاماتها شق القمر) مضمون الحديث وكما انها دليل على قدرة الله عز وجل على كل شيء (بضمنهما قدرته على احياء الموتى) كذلك فهي تتحدث عن صدق دعوى الرسول الاكرم (ﷺ) الذي هو آخر السفراء الالهيين ، وتُخبر كذلك عن قرب وقوع القيامة ، كما ذكرنا في شرح الآية السابقة بان الرسول (ﷺ) نفسه قال : (بعثت انا والساعة كهاتين ..).

ولكن بعض المفسرين المتقدمين والمتأخرين يرون ان الآية تشير الى حوادث ستقع في نهاية هذا العالم قبيل القيامة .

ومن جملة هذه الحوادث تكوير الشمس ، اي ذهاب ضوئها ونورها وانشقاق القمر ، اما لماذا عبرت الآية عن هذه الحادثة (انشق) بصيغة الماضي ؟ فجوابه : ان اللغة العربية تعبر عن المسائل المستقبلية الحتمية الوقوع بصيغة الماضي .

ولكن هذا الرأي (اي ان الآية ناظرة الى حوادث اخر الزمان لم يأخذ به اكثر المفسرين ، لان ظاهر الآية بصيغة الماضي ومرتبطة به وليس من الصحيح ان تفسر الآية بكونها تدل على المستقبل من دون أية قرينة واضحة ..).

ويقول صاحب تفسير (في ظلال القرآن) : (فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع هذا الحادث وتحديد مكانه في مكة) ^(١) .

وينقل العلامة المرحوم الطباطبائي في الميزان .

(وقد روي انشقاق القمر بدعاء النبي (ﷺ) بطرق مختلفة كثيرة) ^(٢) .

باستثناء بعض المفسرين القدماء غير المعروفين .

ويقول ابو الفتوح الرازي : (ان من يقول ان الآية اعلاه تشير الى الحوادث

المستقبلية هو خلاف لاجماع واتفاق العلماء) ^(٣) .

١ - في ظلال القرآن : المجلد ٧ ص ٦٤٤ .

٢ - تفسير الميزان : المجلد ١٩ ص ٦٠ - ٦١ .

٣ - تفسير (أبو الفتوح الرازي) : المجلد ١٠ ص ٣٦٤ .

وهناك بحوث كثيرة تتعلق بمسألة كيفية شق القمر.. وشرح هذا الاعجاز النبوي والروايات المتعلقة به ، وامكانية وقوعه من الناحية العلمية ، وبما انها خارجة عن هدفنا الرئيس وهو شرح (اشراط الساعة) لذا فقد صرفنا النظر عنها وللمزيد من المعلومات في هذا المجال راجع تفسير (نمونة) المجلد : ٢٣ ص ١٢ - ١٩ .

يوم تأتي السماء بدخان مبين :

تشير الآية الثالثة الى علامة اخرى من علامات قرب الساعة وهي (الدخان) حيث يغطي دخان كثيف صفحة السماء في ذلك اليوم ويأتي على شكل عذاب ﴿فَازْتَقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولقد ذكر المفسرون آراء عديدة في تفسير هذه الآية نذكر ثلاثة منها :

الاول :يرى البعض ان الدخان اشارة الى عذاب يوم القيامة وهو دخان مرعب شره مستطير يظلل رؤوس المجرمين، ولكننا نرى هذا الاحتمال بعيداً لأننا نجد في ذيل الآية ان المجرمين يطلبون رفع هذا العذاب الالهي ويظهرون الايمان ويأتيهم الخطاب ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ الدخان - ١٥ .

فلا يمكن تصوّر وقوع هذا المعنى في يوم القيامة خاصة وان الآية التي بعدها تشير الى القيامة وعقوباتها بشكل مستقل وهذا يدل على ان ما ذكر قبلها يتعلق بغير يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ الدخان - ١٦ .

الثاني :يرى ان الآية تشير الى ان الكفار بعد ان حلت بهم المجاعة والجذب جاؤوا الى النبي يطلبون منه الدعاء لرفع هذا العذاب فدعا النبي (ﷺ) فرفع العذاب عنهم ولكنهم عادوا الى عتوهم وجحودهم .

وبناءً على ذلك فان الدخان هنا يراد به المعنى المجازي؛ لأن الادب العربي يستخدم كلمة دخان كناية عن الشر والبلاء الغالب ، كما ذكر ذلك الفخر الرازي في

تفسيره^(١).

او قد يراد بالدخان الاتربة والغبار الذي يغطي صفحة السماء اثناء سنوات القحط حيث لا وجود للمطار التي تزيل هذا الغبار وهذه الاتربة^(٢)، من هنا يطلق على سنة القحط بـ (السنة الغبراء) أو (عام الرماد).

والمأخذ الذي يؤاخذ عليه هذا التفسير هو ان الدخان الوارد في الآية الكريمة لم يستعمل بمعناه الحقيقي وقد حمل على معناه المجازي بدون اية قرينة.

اما الثالث: فيرى ان الآية تشير الى احدى علامات قرب القيامة حيث تغطي السماء بدخان مبين فيلجأ الناس الى لطف الله تعالى ليكشف عنهم العذاب فيرفع بكرمه ولطفه عنهم قليلاً منه ورغم كل هذا لا يؤمن المنكرون.

ان هذا التفسير اضافة الى كونه مطابقاً لظاهر الآية فانه يتفق مع الاخبار المتعددة التي وردت في مصادر تفسير الشيعة والسنة، ونقرأ هنا حديثاً عن الرسول الاكرم (ﷺ): حيث يقول: (عن حذيفة قال: قال رسول الله (ﷺ): اول الآيات خروج الدجال ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من قعر عدن ابين تسوق الناس الى المحشر تبيت معهم اذا باتوا وتقبل معهم اذا قالوا، وتصبح معهم اذا أصبحوا وتمسي معهم اذا امسوا. قلت: يا نبي الله وما الدخان؟ فتلا هذه الآية: ﴿فَازْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث اربعين يوماً وليلة اما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام واما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينه واذنيه ودبره)^(٣).

ولقد ورد هذا المعنى في مصادر الشيعة بشيء من الاختلاف فنقل الامام علي (عليه السلام) عن الرسول الاكرم (ﷺ) (عشرة قبل الساعة لا بد منها: السفيناني،

١- التفسير الكبير: المجلد ٢٧ ص ٢٤٢.

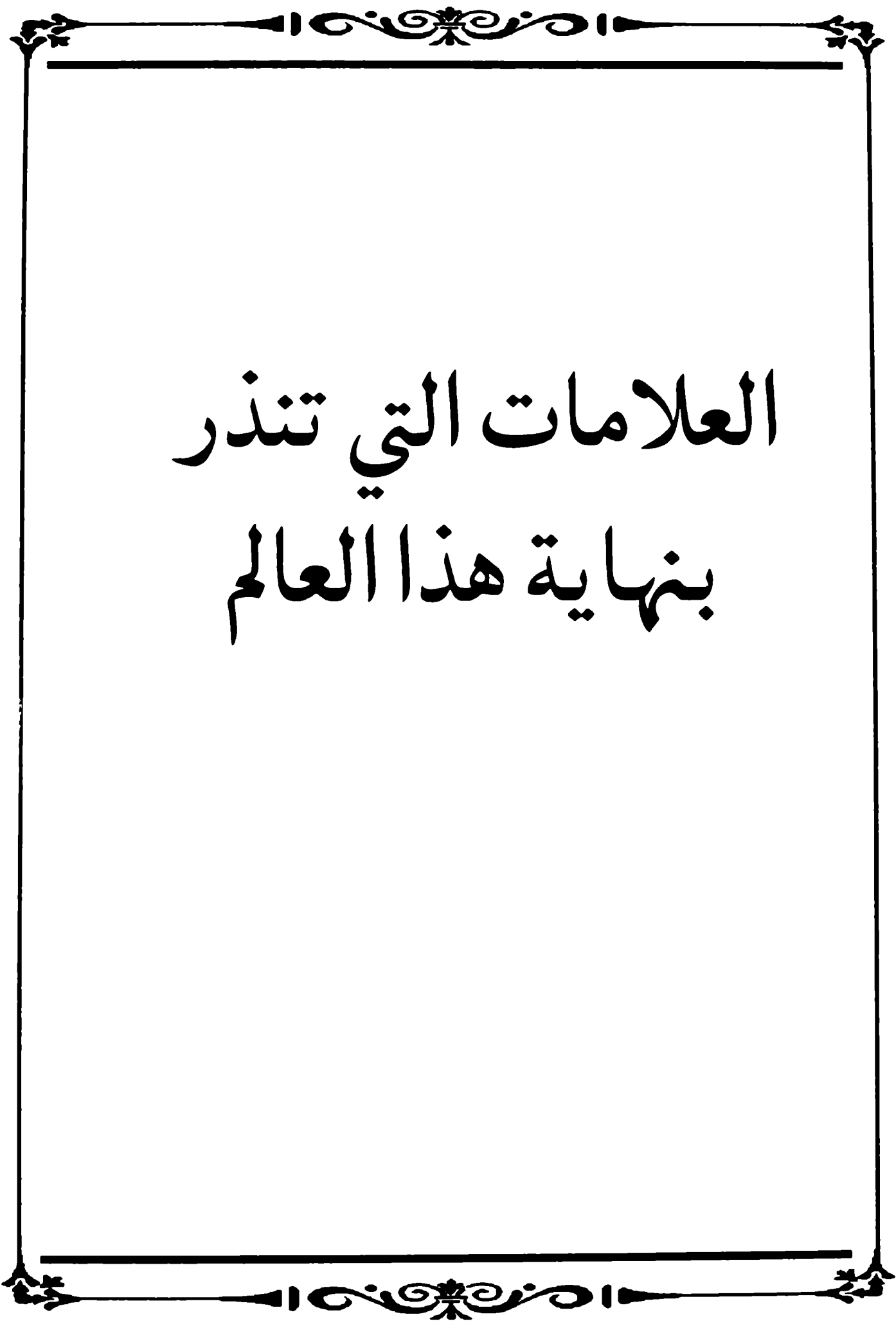
٢- روح المعاني: مجلد ٢٥ ص ١٠٧ وروح البيان: مجلد ٨ ص ٤٠٦.

٣- تفسير القرطبي: ج ١٦ ص ١٣١.

والدجال ، والدخان ، والدابة ، وخروج القائم ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى (عليه السلام) ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس لى المحشر^(١) .

وقد وردت روايات اخرى تؤيد هذا المعنى .
وبناء على ذلك يكون التفسير الثالث للآية الشريفة هو التفسير الافضل .
هذه هي أهم (اشراط الساعة) التي ذكرها القرآن الكريم .

١ - بحار الانوار: مجلد ٥٢ ص ٢٠٩ وفي تفسير القرطبي: المجلد ٩ ص ٥٩٥، وغيرها من الاحاديث تنقل نفس هذا المضمون.



العلامات التي تنذر بنهاية هذا العالم

الفصل الثاني

العلامات التي تنذر بنهاية هذا العالم

يستفاد من طائفة اخرى من آيات القرآن الكريم حدوث اضطراب عظيم في نظام الكائنات والارض والسماء بنهاية هذا العالم وبتعبير آخر ان انتهاء العالم لا يكون تدريجياً وانما يكون مباغتاً ومفترناً بمشاهد وحوادث مرعبة .
ومن جملة هذه الحوادث التي تعد قسماً من علامات الساعة ما يأتي :

١ - تلاشي الجبال :

لذا ورد هذا الموضوع في آيات متعددة من القرآن الكريم وذكر له عدة مراحل مختلفة ويمكن تقسيمها وتلخيصها في سبعة مراحل هي :

١ - المرحلة الاولى : اهتزاز الجبال : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ الزمل - ١٤ .

٢ - المرحلة الثانية : قلعها : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ .. ﴾ الحاقة - ١٤ .

٣ - المرحلة الثالثة : تسييرها : ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ الطور - ١٠ .

٤ - المرحلة الرابعة : الدك والهدم ﴿ فَدَكَّتْ دَكَّةً وَاحِدَةً .. ﴾ حاقة - ١٤ .

وفي هذه المرحلة تصبح الجبال كالكتبان المتراكمة ﴿ وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ الزمل-١٤.

٥ - المرحلة الخامسة: تصبح فيها الجبال كالغبار المتفرق ﴿ وبُست الجبال بساً فكانت هباءً منبثاً ﴾ الواقعة-٦٥.

٦ - المرحلة السادسة: تكون الجبال فيها كالعهن المنفوش اي كالصوف المندوف المتطاير في الريح الشديدة ولا يرى في السماء إلا لونها ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ القارة-٥.

٧ - المرحلة السابعة: تلاشي الجبال ولا يبقى منها إلا شبح كشبح سراب في صحراء قفر ﴿ وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾ النبأ-٢٠.

وهكذا سوف تزول الجبال تماماً ولا يبقى منها اي اثر وتبدل الى ارض مستوية لا نرى فيها عوجاً ولا امثاً ﴿ فيذرهما قاعاً صفضاً ﴾ طه-١٠٦.^(١)

والسؤال الذي يطرح هنا هو: هل ان هذه الحوادث العجيبة والمرعبة تقع للجبال على اثر انفجارات داخلية فيها واندثار لنظامها الذري وتحرر الطاقة الكامنة في داخلها؟ ام انها على اثر ضربة خارجية توجه اليها من اصطدام الاجرام السماوية بسرعة وجاذبيه عالية بعضها مع البعض الآخر..؟ أم هناك علل اخرى لم يكتشفها العلم اليوم..؟

لا يمكن لأي شخص اعطاء جواب صحيح عن هذه الاسئلة فالعلوم اليوم عاجزة عن تفسير هذه الظواهر.

ان هناك انفجارات عظيمة حدثت وتحدث في الاجرام السماوية ، ولكن العلم يعجز عن تفسير علل تلك الانفجارات فنحن لانعرف إلا ما اخبرنا عنه القرآن من ان هذه الحوادث تقع في نهاية هذا العالم.

١ - القاع: الارض الملساء المستوية و(صفض) الارض الخالية من اي نبات أو الارض الملساء المستوية وفي هذه الحالة يكون المعنيان مترادفين - لفرض التاكيد.

٢- انفجار البحار:

من العلامات الاخرى لنهاية هذا العالم وقرب قيام الساعة انفجار البحار، ونقرأ في هذا الصدد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ الانفطار ٢.

وقال في موضع آخر ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ التكوين ٦. وقال في الآية السادسة من سورة الطور بعد ان أقسم بأيمان متعددة ومتتابعة ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾.

بلا شك ان الآية الاولى والثانية اشارتا الى (اشراط الساعة) وذلك لان الآيات التي وردت بعدها دلت على هذا المعنى بشكل واضح اما فيما يتعلق بالآية الثالثة فقبل في تفسيرها بأنها كانت ناظرة الى علامات القيامة.

ولقد وردت في احد موارد هذه الايات عبارة (فُجِّرَتْ) وهذه الكلمة مشتقة من (فَجَرَ) واستعملت بمعنى الانفجار ومن الممكن ان تكون هذه اشارة الى انفجار البحار.

لقد اصبحت هذه الحالة اليوم مفهومة نظراً لآل الماء يتكون من عنصرين، الاول هو الاوكسجين والثاني هو الهيدروجين وهذان العنصران قابلان للاحتراق فلو كان هناك عامل يسبب في تجزئة الماء لتبدلت البحار الى كتلة عظيمة من نيران محرقة. وتكفي قدحة صغيرة لاحراق العالم بأسره.

ويحتمل ان تكون الزلزلة الشديدة التي تقع قبيل القيامة هي السبب في تشقق الارض واتصال البحار مع بعضها البعض وعلى اثر ذلك سوف تتصل جميع البحيرات الموجودة على الارض والبحار وهذا ايضاً احد الاقوال التي ذكرت في تفسير هذه الآية.

وهناك تفسير ثالث يقول: عندما تتلاشى الجبال يسقط غبارها في البحار فتمتلئ ويطنى الماء على اليابسة فتصير كلها بحراً واحداً.

وبهذه المعاني الثلاثة فسرت الكلمة الثانية سُجِّرَتْ المشتقة من مادة (تسجير)

وذلك لأن التسجير في الاصل يعني الايقاد ويأتي احياناً بمعنى الملى ولذا يقال للتنور المملوء بالنار (مسجر).

وقد يكون اشتعال البحار بسبب تجزئتها الى عنصرين قابلين للاحتراق (الاوكسجين والهيدروجين) او لعلل اخرى نجهلها. اما امتلاء البحار فهو إما بسبب تلاشي الجبال وسقوطها في البحار او بسبب سقوط الاحجار السماوية الكبيرة فيها او لعلل اخرى غير معروفة .



٣- الزلزال العظيم المدمر

من العلامات الاخرى لنهاية هذا العالم وقرب قيام الساعة وحدث زلزلة عظيمة ليس لها نظير بحيث تهز جميع انحاء الكرة الارضية فتدمر كل شيء ويدفن جميع الناس في لحظات بقول القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ الحج-١ ثم يقول ﴿ يَوْمَ تَرْوُهَا تَدْمَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ الحج-٢.

وسنشير في الفصل الثالث تحت عنوان (اشراط الساعة) الى ان هناك زلزلة اخرى تقع قبيل احياء الاموات أشارت اليها بعض الآيات الكريمة ، ويحتمل ان تكون الآية الكريمة التي نحن بصددھا قد أشارت الى هذا المعنى بقريئة : ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ، وبهذا يجب ان نفسر المراد بالمرضعات والحوامل تفسيراً مجازياً فشدة الهلع والخوف الناشئ من اثر الزلزلة العظيمة تجعل كل امرأة حامل تسقط جنينها، وهذا التفسير على خلاف ظاهر الآية. وعلى اية حال ان هذا المعنى ورد ايضاً في الآية ١٤ سورة المزل : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ ^(١) وجاء نظير هذا

١ - ترجف مشتقة من مادة (رجف) على وزن كشف وهي بمعنى الاضطراب والهزة العنيفة .. من هنا يطلق على الاخبار الكاذبة التي تسبب في اضطراب المجتمع بـ (الاراجيف).

المعنى في سورة الواقعة آية ٤: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا وَبُنِتِ الْجِبَالُ بُنًى﴾ .



٤ - ذهاب ضوء الشمس والقمر والكواكب

من العلامات الاخرى لقرب الساعة انطفاء قرص الشمس واختفاء ضوء الكواكب كما ذكرت الآية ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ التكويد-١-٢ .

(كورت) مشتقة من مادة تكوير، وهي بمعنى الطي أو اللف أو جمع الشيء مثل لف العمامة على الرأس، وكذلك جاءت هذه الكلمة بمعنى الانطفاء أو الاسقاط، والظاهر من هذين المعنيين فيما يتعلق بالشمس انها من باب اللازم والملزوم، فيذهب ضوء الشمس بالتدرج وتعم الظلمة أما (انكدت) فهي مشتقة من مادة (انكدار) وهي الظلمة أو السقوط والتناثر، والظاهر ان كلا المعنيين بخصوص الكواكب من باب اللازم والملزوم، نعم وحسب شهادة القرآن ينطوي ويجمع في نهاية هذا العالم اعظم مصدر للنور في منظومتنا الشمسية وهو الاساس لاضاءة جميع السيارات وبهذا سيكون مصير الكواكب الاخرى نفس مصير الشمس ويقول الفخر الرازي: (ان البعض يرى ان كلمة «كورت» مأخوذة من مادة (كور) ^(١) بمعنى الاعمى وهذا يعني ايضاً ذهاب ضوء الشمس ونورها).

ويعتقد علماء اليوم ان مصدر الطاقة الشمسية هو الانفجارات الذرية (التي يكون وقودها الهيدروجين ورمادها الهليوم) ^(٢).

وبناءً على ذلك سوف ينقص من وزن هذا الكوكب ٣٥٠/٠٠٠ مليون طن في كل ٢٤ ساعة وهذا الامر يكون سبباً في ضعف وقلة ضوء الشمس تدريجياً وهذا هو مفهوم جمع نور الشمس وانطفائها. وهما المعنيان الكامنان في مادة (تكوير) حسب

١ - التفسير الكبير: المجلد ٣١ ص ٦٦.

٢ - زندكي ومرك ستاركان: ص ٩٢ (الكتاب باللغة الفارسية).

ما يذكر أرباب اللغة بالرغم من ان نقص هذا المقدار وبحكم الظروف الحالية ليس له تأثير فوري عليها وذلك بسبب كبر حجمها.

فاذا حسبنا سرعة النقصان بمقاييسنا الحالية فمن الممكن ان يطول تحقق ذلك ملايين او مليارات السنين .

ولا أحد يعلم ماذا يحدث غداً في هذا العالم فمن الممكن ان تحدث امور تعجل في نقصان هذه الاشعة الكونية وتساعد في انطفاء هذا المصدر العظيم للنور وللحرارة بصورة كلية وفي فترة قصيرة .

ويصدق هذا المعنى على سائر الاجرام السماوية فينحل النظام الذي يجمع الكواكب ، وينحل كذلك توازن القوة الجاذبية والدافعة التي لها ارتباط بالاجرام وسرعة حركتها .

ولعل هذا هو نفس الشيء الذي يذكره القرآن في موضع آخر ﴿وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَشَرَتْ﴾ الانفطار-٢. وسوف نتعرض الى تفسير هذه الآية في بحث لاحق ان شاء الله . ونقرأ في سورة القيامة ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ* وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ* يَقُولُ الْإِنْسَانُ أَيْنَ الْمَفْرُ﴾ القيامة-٧.

يتضح من خلال هذه الآيات ان جميع هذه الحوادث تقع بصورة مباغته وليست تدريجية وإلا سوف لا يكون هناك انسان في ذلك الزمان يقول ﴿أَيْنَ الْمَفْرُ﴾ (فتأمل ..).

ومن الممكن ان يكون جمع الشمس والقمر بفعل فقدان تعادل القوي الجاذبة والطاردة وسوف ينجذب القمر الى مركزه الاصلي وهو الشمس .

ونتهي هذا الحديث بالاشارة الى آية اخرى من القرآن في هذا المجال قال تعالى ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ المراتل-٨.

هذا التعبير يتوافق مع الآيات السالفة الذكر ومن لوازمها ايضاً ونذكر في نهاية هذا المطاف ان هذه الامور موجودة في عالمنا وتسير بشكل تدريجي ولكن تزداد

شدتها في نهاية الكون حيث تحدث سلسلة حوادث متصلة سريعة ومباغته تزيل هذا النظام وتنهى عمره بأمر من الله تعالى .



٥ - انشقاق الاجرام السماوية :

من العلامات الاخرى لنهاية العالم اختلال نظام الكواكب وانشقاق الاجرام السماوية، ولقد اشار القرآن الكريم في آيات عديدة وبتعابير مختلفة الى ذلك فأحياناً عبر عنه بـ (الانشقاق) ، ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ الانشقاق - ١ ، وجاء نظير هذا المعنى في الآية ١٦ سورة الحاقة ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ كما ورد نفس هذا المعنى بشيء من الاختلاف في الآية ٢٥ سورة الفرقان ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾ .

والمراد من السماء في هذه الآيات هي الاجرام السماوية حيث تشقق هذه الاجرام في نهاية العالم على اثر الانفجارات المتتالية ، أما المقصود من تشقق السماء بالغمام فيحتمل ان يرافق انشقاق السماء حصول غمام كثيف بفعل الاتربة والغبار المتولد عنها والباء في قوله (.. بالغمام) كما يحتمل ذلك صاحب الميزان للملابسة أي تنفتح السماء متلبسة بالغمام (اي متغيممة) ^(١) .

ولكن المرحوم العلامة الطباطبائي لم يستبعد ان يكون الكلام كناية عن انكشاف غمة الجهل و بروز عالم السماء وهو من الغيب و بروز سكانها وهم الملائكة ونزولهم الى العالم الارضي (فالباء في هذه الآية تكون بمعنى (عن) أي تذهب الغيوم جانباً ويظهر غيب العالم) .

ولكن لما لم يكن هناك دليل على هذا التفسير الكنائي فيكون من الصعب قبوله .

ومن المناسب ان نذكر حديثاً للامام علي (عليه السلام) في هذا الصدد فيقول (انها تنشق من المجرة)^(١).

ان هذا التعبير الرائع ينطبق مع اخر الاكتشافات التي توصل اليها العلماء في مجال المجرات فيقولون: ان المنظومة الشمسية والكواكب التي نشاهدها هي جزء من مجرات عظيمة «درب التبانة» ويمكن رؤيتها بالعين المجردة ويكون انشقاق الشمس والقمر والكواكب مصاحباً لانشقاق هذه المجرات الكبيرة (تأمل ..).

واحياناً يعبر القرآن بالانفطار ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ الانفطار ١، ولقد ورد نظير هذا المعنى في الآية ١٨ سورة المزمل ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ ، وكما ذكرنا سابقاً فان كلمة انفطار مشتقة من مادة (فطر) وهي بمعنى الانشقاق .
واحياناً يقول تعالى ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ التكويد - ١١.

فيمكن ان يكون هذا التعبير اشارة الى ازالة الحجب المانعة عن رؤية ملكوت السموات والملائكة والجنة والنار في ذلك اليوم فتزال الحجب وتنكشف للانسان حقائق عالم الوجود وفي هذه الحالة سوف لا يكون للآية علاقة بتلاشي السموات . ولقد فسر بعض المفسرين امثال المرحوم الطبرسي في مجمع البيان هذه الآية بقوله (ازيلت عن موضعها كالجلد عندما يزال عن الجزور ثم يطويها الله وقيل معناها قلعت كما يقلع السقف)^(٢) وقال تعالى في موضع آخر ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِّرَتْ ﴾ الرسل - ٩، ان كلمة مادة (فطر) و(فرج) تدل على نفس المعنى بشئ من الاختلاف فيطلق على حل عقدة المشاكل والمحن بالفرج وهو ما يقابل الشدة والعسر ..

وعبر احياناً اخرى بـ (فتح) كما نقرأ في سورة النبا آية ١٩ ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ ويمكن ان يكون هذا التعبير اشارة الى انشقاق السماء ، كما ذكر ذلك

١ - تفسير الفخر الرازي ج ٣١ ص ١٠٣ .

٢ - مجمع البيان: مجلد ١٠ ص ٤٤٤ .

بعض المفسرين، وفي هذه الحالة تكون هذه الآية منسجمة مع الآيات السالفة الذكر. اي تحدث شقوق عديدة في السماء كانها ابواب ونوافذ عديدة.

ولكن بعض المفسرين حملوا ذلك على المعنى الكنائي وقالوا ان المراد من فتح السماء هو انفتاح ابواب عالم الغيب وازالة الحجب وارتباط عالم الملائكة بعالم الناس^(١).

واحياناً اخرى يقول ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ الطور-٩.

(مور) على وزن (قول)، وتأتي احياناً بمعنى الحركة العنيفة واحياناً اخرى بمعنى الحركة الدائرية واخرى بمعنى الذهاب والمجيئ المضطرب، ويطلق على الغبار والأتربة التي تحملها الريح الى كل جانب بـ (مور). على كل حال ان هذا التعبير يعني اضطراب الاجرام السماوية واختلال نظمها وزوالها.

واحياناً اخرى يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ المعارج-٨.

ولقد فسر المفسرون كلمة المهل بـ (دُردي الزيت) او الفضة اذ ذابت^(٢). والمعنى الاخير يناسب الآية اعلاه.

على اية حال ان حصول مثل هذه الحالة في الاجرام السماوية انما هو نتيجة لزوالها.

وفي النهاية عبر القرآن بتعبير آخر فقال: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِّلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ الانبياء-١٠٤.

هذا التعبير يوضح ابعاد تغيير السموات والكواكب في نهاية هذا العالم ويدل ايضاً على ان جميع المنظومات والكواكب السيارة والثابتة تطوى كطي السجل للكتاب ويعاد الخلق كما خلقه اول مرة ويضع الله سبحانه وتعالى نظاماً جديداً لعالم

١ - لقد اختار التفسير الاول - الطبرسي والفخر الرازي ومفسرون آخرون اما التفسير الثاني فقد اختاره صاحب الميزان.

٢ - الكشف: الزمخشري: ٤، ٦٠٩، طبعة: دار الكتاب العربي.

الوجود وتقوم القيامة على هذا العالم الجديد .

فنستنتج من مجموع هذه الآيات السالفة الذكر ان القيامة هي ليست استمراراً للحياة الدنيا بل ان هذا النظام يتغير تغيراً كاملاً وذلك لوقوع انفجارات عظيمة وزلازل مرعبة تدمر كل شيء ثم يقوم نظام جديد بعد ذلك وتقوم القيامة فيه .



الفصل الثالث

علامات بدء القيامة

الفصل الثالث

علامات بدء القيامة

عند بداية القيامة تحدث حوادث عظيمة فكما ان الدنيا تنتهي بوقوع حوادث عظيمة ، كذلك تفتن بداية القيامة بحوادث عظيمة ايضاً وقد ورد هذا المعنى في آيات مختلفة من القرآن الكريم .

١ - قال تعالى : في سورة ابراهيم : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ابراهيم ٤٨ .

هذا التبديل هو اشارة واضحة الى المرحلة الثالثة وذلك لانه تعالى يقول في ذيل الآية ﴿ وبرزوا لله الواحد القهار ﴾

وهذه النكتة جديدة بالاهتمام بفليس المراد من تبديل الارض بأرض اخرى هو تبديل لذات الارض كما يتصور البعض بل ان المقصود هو تبديل صفاتها مثل ازالة الجبال أو استوائها وصيرورتها قاعاً صفصفاً كما يذكر القرآن الكريم أو زيادة مساحتها وغير ذلك من دون تبديل ذاتها .

ودليل هذا الكلام آيات عديدة عن نشر الاموات من قبورهم وبالخصوص الآية ٥٥ طه . اذ تذكر ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ .

على كل حال ذكر المفسرون اراء عديدة حول هذه الآية ولا يوجد لديهم أي دليل إلا بعض الروايات المرسلة . أو الاستناد الى بعض اقوال الاخرين فاحياناً

يقولون ان الارض تبدل بالفضة والسماء بالذهب واحيانا اخرى يقولون ان الارض تبدل بالنار والسماء بالجنان أو كل قطعة من الارض تبدل اما الى فضة أو الى نار حسب ما يناسب وضعها مع المؤمنين والكفار.

وكل ما نستفيدة من هذه الآية بشكل عام: ان هناك تغيرات عظيمة لا تتضح جزئياتها لنا.

٢ - قال تعالى في موضع آخر ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ الزلزال-١-٢.

وهنا يطرح هذا السؤال هل ان هذه الزلزلة هي نفس الزلزلة التي تعم جميع انحاء الكرة الارضية عند نهاية الكون وتؤدي الى تدمير العالم بأسره؟ أم أنها هي التي تقع اثناء يوم القيامة؟ هناك اختلاف بين المفسرين بصدد هذه الآية ولقد نقل الفخر الرازي في تفسيره كلا التفسيرين^(١) ولكن اذا تأملنا الآية الثانية من هذه السورة ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ لكان المعنى الثاني هو الانسب مع سياق الآية، وذلك لان الاثقال جمع ثقل أي يخرج كل مادن في الارض وهناك احتمال قوي ان المراد بالاثقال الموتى حيث يخرجون من قبورهم كما ذكرت ذلك الآية ٤ من سورة الانشقاق ﴿ وَالْقَت مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾.

وبهذا المعنى تحدث الزلزلة الثانية قبل احياء الاموات وشروع القيامة وهذه الزلزلة تعم كل الكون على خلاف سائر الزلازل التي تتحدد بمنطقة صغيرة فان تعبير ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴾ يفيد الاطلاق وتعبير زلزالها يؤكد هذا المعنى.

ولقد ورد ما يشابه هذا التعبير بل وبصورة اوضح في سورة ق آية ٤٤ ﴿ يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾^(٢).

١ - التفسير الكبير: المجلد ٣٢ ص ٥٨.

٢ - تُشَقُّ: كانت في الاصل تشقق فحذفت احدى التائين.

يتضح من الآيات اعلاه ان انشقاق الارض باسرها وخروج الناس دفعة واحدة من قبورهم يكون متزامناً مع وقوع زلزلة عنيفة تشمل كل ارجاء العالم .

ان هذه الزلزلة تقع قبيل احياء الاموات وليس في نهاية العالم خاصة وقد ورد في الآية تعبير (حشر) بدلا من احياء الاموات ، والحشر يعني (اجتماع الناس بعد احيائهم او جمع اجزاء الابدان المتفرقة أو جمع الارواح والاجساد) ان هذه الزلزلة وعلى خلاف سائر انواع الزلازل زلزلة بناء واعمار فهي ليست مدمرة أو مميتة بل انها تاتي لأخراج الناس من قبورهم ليستأنفوا حياة جديدة .

وقد ورد نظير هذا المعنى في سورة النازعات ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ .

ويرى الكثير من المفسرين ان الآية الاولى هي اشارة الى نفخة الصور الاولى (وهي الصيحة العظمى التي تنهي العالم) اما الآية الثانية فهي اشارة الى النفخة الثانية (صيحة الاحياء) وهي الصيحة التي تبدأ بها القيامة ، وهذا المعنى على خلاف ظاهر الآية وذلك لان الراجفة مشتقة من رجف وهي على ما ذكره صاحب مقاييس اللغة تعني الاضطراب .

وقد ذكر، الراغب في مفرداته (الرجفة) بمعنى الاضطراب الشديد، ويقال للبحر الهائج (بحر رجاف) و(اراجيف) هي الاخبار التي تزلزل الافكار العامة للمجتمع . صحيح ان الصيحات العظيمة تفرق عادة مع الزلازل ولكن لا توجد هناك ضرورة لترك المعنى الحقيقي للزلزلة الاولى والثانية واختيار الكناية أو المعنى اللازم .

٣ - ان تبدل سطح الكرة الارضية من احدى علامات شروع القيامة فتصبح الارض مسطحة ملساء تماماً ويبرز جميع الناس بوضوح على سطح الكرة الارضية ﴿ يَوْمَ تُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ الكهف-٤٧.

ان حركة الجبال هي مقدمة لتدمير الارض وعلى اثر هذا التدمير الوارد في الآية التي نحن بصدددها وبعض الآيات الاخرى ايضاً تصبح الارض قاعاً صفصفاً: اي ملساء مستوية لا يعلوها شيء ويظهر جميع الناس عليها بشكل واضح .

ولو تأملنا في هذه الآيات ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً * لا ترى فيها عوجاً ولا امناً * يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له .. ﴿ طه-١٠٥-١٠٨ . لاتضح لنا بأن هذه الآيات تعرض لنا مشاهد من حوادث نهاية العالم ومشاهد اخرى من حوادث بداية .. القيامة .

هذه خلاصة للبحوث المتعلقة بـ (اشراط الساعة) وامارات القيامة ولقد عرضناها في ثلاثة فصول وذلك بالاستفادة من الآيات القرآنية وكذلك عرضنا مشاهد من التغيرات العظيمة التي تقع في نهاية العالم وبداية القيامة .



نسخة الصور

٢- نفخة الصور

نفخة «صرخة الموت والحياة»

تمهيد :

لقد اشار الكثير من الآيات القرآنية الى نفخة الصور ويستفاد مما ورد فيها بان هناك نفختين بالصور:

الاولى وتقع في نهاية العالم وهي التي تسبب في موت جميع الخلائق .. وتسمى بنفخة الموت .

اما النفخة الثانية فتقع قبيل يوم القيامة وتعمل على احياء جميع الاموات وتسمى نفخة الحياة .

وفي الحقيقة ان توقف هذا العالم وبدء حركة عالم آخر يشبه توقف وحركة القطعة العسكرية حيث يتوقف افرادها عند سماعهم لصوت بوق خاص ويتحركون مرة اخرى عند سماعهم لصوت بوق آخر .

وهنا يطرح هذا السؤال : ما معنى الصور ؟ وما المقصود بالنفخة .. ؟

لقد خصصنا لهذا الموضوع بحثاً مفصلاً سنتطرق اليه فيما بعد - انشاء الله -

والجدير بالذكر ان القرآن ذكر ستة تعابير مختلفة حول هذا الموضوع .

فأحياناً يعبر عنه بـ (نفخة الصور) .

واحيانا اخرى بـ (الصبيحة).

وثالثة بـ (النقر في الناقور).

ورابعة بـ (الصاخة).

وخامسة بـ (القارعة).

وسادسة (الزجرة).

وسوف نشرح هذه العناوين من خلال الآيات الآتية مستمعين اليها بخشوع:

١ - ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ الزمر-٦٨.

٢ - ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَافَزٌ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ النمل-٨٧.

٣ - ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ يس-٥١.

٤ - ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ الحاقة-١٢-١٤.

٥ - ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ المؤمنون-١٠١.

٦ - ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ الكهف-٩٩.

٧ - ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ طه-١٠٢.

٨ - ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ النبأ-١٨.

٩ - ﴿ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ انعام-٧٣.

١٠ - ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ ق-٢٠.

١١ - ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ يس-٥٢.

١٢ - ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ يس-٤٩.

١٣ - ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ ص-١٥.

١٤ - ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ ق-٤٢.

١٥ - ﴿ فَإِذَا نُفِثَ فِي النُّاقُورِ ﴾ فذلِكَ يَوْمٌ مِثْلُ يَوْمِ عَسِيرٍ ﴿ الدثر-٨-٩ .

١٦ - ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿ عبس-٢٢-٢٤ .

١٧ - ﴿ الْقَارِعَةُ مَالْقَارِعَةُ ﴾ وَمَا أَدَارُكَ مَالْقَارِعَةُ ﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ

الْمَبْثُوثِ ﴿ القارعة-١-٤ .

١٨ - ﴿ فإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ الصافات-١٩ .

تفسير موجز :

نفخة الموت ونفخة الحياة !

لقد عبرت الثمان عشرة آية السالفة الذكر- كما اشرنا الى ذلك سابقاً - عن نفخة الصور تحت ستة عناوين مختلفة . وقد جمعنا هذه الآيات مع بعضها كي نسلط الاضواء على تفسيرها حتى يتضح المفهوم الحقيقي لنفخة الصور من خلال المقارنة بينها .

لقد اشارت الآية الاولى الى نفخة الصور الاولى وكذلك الى نفخته الثانية وهذه هي الآية الوحيدة الي جمعت كلا النفختين ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ويرى صاحب كتاب (مقاييس اللغة) بان مادة صعق على وزن صُعِقَ يعني الصوت الشديد ، ويرى بان الصاعقة مشتقة من نفس المعنى . وهي سبب الموت والدمار ، وجاءت هذه المادة ايضاً بمعنى الموت .. وذكر صاحب كتاب لسان العرب ان المعنى الاول للصعق هو الاغماء ، وشل العقل على اثر سماع الصوت الشديد وذكر بان (الموت) من المعاني الاخرى لهذه الكلمة . حتى انه ذكر قول بعضهم على ان الموت هو احد معاني الصاعقة .

على اية حال ان مفهوم الصعق في الآية يعني الموت المابغت الذي يعم جميع اهل السموات والارض وذكرت الآية الكريمة ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ فما المقصود من هذه العبارة ؟ هناك كلام للمفسرين في هذا الصدد قال بعضهم : ان هذه العبارة

هي اشارة الى جمع من ملائكة الله الصالحين وهم (جبرائيل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وعزائيل) وقال بعض آخر انهم الشهداء ، وقيل ان الآية تشمل ايضاً اضافته الى الملائكة الاربعة الذين سبق ذكرهم حملة العرش الالهي ومع ذلك فالنتيجة ان جميع هؤلاء يذوقون الموت بحكم قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ آل عمران - ١٨٥ ولم يسبق إلا وجه الله الذي هو حي لا يموت ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ص-٢١.

ولقد اشار ذيل الآية الى النفخة الثانية ﴿ثُمَّ تُفْخَعُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ .

الصور في الاصل بمعنى البوق الذي يستخدم عادة لايقاف او لتحريك الجند واحيانا القوافل .. ولقد استخدم في هذه الآية بمعنى توقف الحياة بأسرها في عالم الوجود ومن ثم حركتها مرة اخرى .

وهناك شرح مفصل لهذا الموضوع سنتعرض اليه - ان شاء الله - في فقرة (التوضيحات).

وقد اشارت الآية الثانية الى النفخة الثانية فقط ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَقَرَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ .

ولم يستبعد البعض ومنهم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان ان المراد من هذه الآية كلا النفختين .

ولكن ذيل الآية يذكر ﴿وَكُلُّ أَنفَةٍ دَاخِرِينَ﴾ وهذا يدل على ان المقصود هو النفخة الثانية وفي هذه الآية ايضاً نواجه الجملة الاستثنائية ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ حيث اشرنا الى تفسيرها في ذيل الآية الاولى .

اما الآية الثالثة فتشير الى النفخة الثانية (نفخة الاحياء) ﴿وَتُفْخَعُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾^(١) .

١ - اجدات جمع جدث (على وزن قفس) وهو بمعنى القبر وينسلون من مادة نسل (على وزن فصل) وهو بمعنى

ولقد ذكر المفسرون بان هذه الآية تختص بالنفخة الثانية ويشهد على هذا المعنى ذيل الآية . وما بعدها من آيات .

ويطرح البعض هذا السؤال اذا كان الناس يهلعون في ذلك اليوم من الحساب الالهي فكيف يفزعون اليه ؟
ف قيل في جواب ذلك بأن هذه الحالة حالة لا اراديه .

وبهذه الوسيلة يدعوهم الله تعالى الى محكمة عدله .
والآية الرابعة ناظرة الى النفخة الاولى وهي نفخة امانة جميع المخلوقات وفناء العالم بأسره ﴿ فَأَذَا تُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيُؤْمَتُ ذُو الْقُرَىٰ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ .

ان تعبير (واحدة) الذي تكرر مرتين في هذه الآية يدل على ان هذه الحوادث تتحقق بصورة مباغته على شكل ضربة مميتة ومن جهة اخرى ان هذه الآيات تبين القدرة اللامتناهية لله سبحانه وتعالى حيث تفنى جميع المخلوقات بنفخة صور واحدة بالضبط مثل نفخة البوق التي تحرك جيشاً عظيماً أو توقفه في مكانه .

بلا شك ان الآيات السابقة اشارت الى النفخة الاولى اما الآيات اللاحقة فقد ورد فيها اضافة الى ذلك كلام عن حوادث المحشر وصحيفة الاعمال واوصاف الجنة ، وبحكم كون الحوادث المذكورة تقع في نهاية العالم وبداية القيامة ولا توجد فاصلة كبيرة بينهما لهذا السبب نرى في كثير من الآيات القرآنية ان حوادث نهاية العالم وقيام القيامة جاءت مرادفة لبعضها البعض .

ويرى بعض المفسرين الكبار . ومنهم صاحب الميزان انها النفخة الثانية قال : (والذي يسبق الى الفهم من سياق الآيات انها النفخة الثانية التي تحيي الموتى) ^(١) ونحن نستبعد ان

السير السريع ويقول الراغب ان المعنى الاصلى لها أخذ من الفصل ويرى انه من هذه الجهة يطلق «نسل» على بني ادم .

١ - تفسير الميزان : المجلد ١٩ ص ٣٩٧ .

تكون هذه الآية قد اشارت الى النفخة الثانية حيث انها لا تتوافق مع سياق الآية التي تليها والتي تخبر عن دك الارض والجبال ولعل الآيات التي وردت (بفاصلة) عن هذه الآية هي التي ساقته الى هذا المعنى ، في حين ان التأمل في الآيات المختلفة التي تتحدث عن القيامة يدل على ان هذه الآيات تذكر احياناً حوادث هاتين النفختين سويةً ويُميزُ بينهما بالقرائن .

اما الآية الخامسة فقد اشار بوضوح الى (النفخة الثانية) وذلك لأنها تخبر عن عدم تأثير روابط الانساب بين الناس اثناء (نفخة الصور) ﴿ فَأَازَا تُفْعَح فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ فمن الواضح ان السؤال سواء كان بمعنى التساؤل عن احوال بعضهم البعض أو بمعنى طلب العون والمساعدة فان كل هذا يحدث في نفخة القيامة (نفخة الحياة) .

ومن الغريب ان نرى بعض المفسرين يحتملون ان المراد في هذه الآية النفخة الاولى .

على اية حال ان عدم سؤال بعضهم للبعض الاخر محمول على كلا الاحتمالين بحكم انشغال كل بنفسه وبالاحوال التي يتعرض اليها فلا يفكر بالآخرين . من هنا يطرح هذا السؤال وهو كيف تتوافق هذه الآية مع غيرها من الآيات التي تذكر ﴿ فَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ الصافات-٥٠ .

وكذلك قوله تعالى ﴿ وَبَرِّزُوا لِهٖ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً قَهْلَ أَنْتُمْ مَقْتُونٌ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ابراهيم-٢١ .

فيتضح الجواب عن هذا السؤال من خلال ملاحظة الآيات الكريمة بالنسبة الى غيرها .. فيستفاد من الآيات بأن هناك مراحل ومواقف متعددة يوم القيامة ولكل مرحلة من هذه المراحل خصائصها والشاهد على هذا الكلام حديث للرسول الاكرم (ﷺ) في جوابه عن هذا السؤال نفسه حيث قال (ﷺ) : (ثلاثة مواطن تذهل فيها كل نفس : حين يرمى الى كل انسان كتابه ، وعند الموازين ، وعلى جسر

جهنم^(١).

اما الآية السادسة والسابعة فقد اشارتا ايضاً الى النفخة الثانية قال تعالى:

﴿ وَتَرْكُنَا بِعَضْفِهِمْ يَوْمَئِذٍ يَمْوجُّ فِي بَعْضٍ ﴾

فهل ان هذا المشهد العظيم يكون بسبب تراكم الناس ام بسبب حالة الخوف والهلع ام لسيادة الفوضى في نهاية العالم ؟

يرى البعض ان هذه الآية هي اشارة الى (قوم ياجوج وماجوج)^(٢) بعد بناء سد ذي القرنين (حسب سياق ما قبلها من الآيات) ولكننا نستبعد هذا المعنى بقربنة الآيات التالية لها.. (تأمل..).

على كل حال يضيف تعالى في نهاية الآية ﴿ وَتُفْخَعُ فِي الصُّورِ وَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ وقال في الآية التي تليها ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾.

زرق : جمع «ازرق» وفي الاصل بمعنى زرقاء اللون.. ومن الممكن ان يكون هذا اللون اشارة الى ان الله سبحانه وتعالى يحشر المجرمين زرق الابدان أو عمياً أو عطاشاً لشدة العطش الذي تتعرض له ابدانهم.

اننا نرى ان المعنى الاول هو الانسب وذلك لانه معنى حقيقي اما الثاني والثالث فله بعد كنائي (مجازي).

اما الآية التاسعة والعاشرة: فقد اشارتا ايضاً الى النفخة الثانية أي نفخة الحياة والقيامة فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ وقال ﴿ وَتُفْخَعُ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ ﴾ ان الاتيان افواجاً في ذلك اليوم قد يكون لورود كل امة مع امامها الى المحشر (الانبياء وغيرهم) أو ان كل زمرة من المجرمين الذين اقترفوا ذنباً معيناً يحشرون سوية.

١- روح البيان: المجلد ٦ ص ١٠٧.

٢- راجع قصة ياجوج وماجوج: في المجلد ١٢ تفسير نمونة ص ٥٥١ ذيل الآية ٩٨ الكهف.

على أية حال فهذه الآية لا تتنافى مع الآية ٩٥ من سورة مريم ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ وذلك - كما اشرنا سابقاً - ان هناك مواطن ومواقف مختلفة في يوم القيامة فمن الممكن ان يحشر الناس في البداية على شكل مجموعات ثم يحضرون في محكمة العدل الالهي فرادى (فتأمل..)

الوعيد: تستعمل هذه المفردة على قول الراغب الاصفهاني ومجموعة من المفسرين واهل اللغة في الشر في حين كلمة وعد تستعمل في الخير والشر واستخدمت الآية الكريمة هذا اللفظ (الوعيد) لانذار المجرمين من ذلك اليوم بالرغم من ان القيامة تشتمل على الوعد بالخير والوعيد بالشر.

الآيتان الحادية عشرة والثانية عشرة اللتان وردتا في سورة يس تنذران بوقوع صيحة شاملة تحدث في نهاية هذا العالم هي (صيحة الموت) أو (صيحة الحياة) التي تقع في بداية القيامة.

ففي مورد واحد اشار الى صيحة ونهاية العالم.

فهؤلاء كانوا يسألون دائماً متى يتحقق الوعد الالهي...؟ فكانوا يظنون ان هذا الامر عسير على الله سبحانه وتعالى. فيقول الله تبارك وتعالى: ليس الامر كما يعتقد هؤلاء ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

واشار في المورد الثاني الى الصيحة الثانية (صيحة الاحياء) ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

والصيحة حسب ما يقول الراغب الاصفهاني (في الاصل بمعنى رفع الصوت واصله) تشقيق الصوت من قولهم انصاح الخشب أو الثوب اذا انشق فسمع منه صوت وصبح الثوب كذلك ومن ثم اطلقت هذه الكلمة على جميع الاصوات العالية واحياناً تعني هذه الكلمة طول القامة كما ورد مثلاً في شجرة عالية فكانها تصبح بالناس وتدعوهم اليها!

ولكن صاحب كتاب مقاييس اللغة ذكر ان المعنى الاصلي للصيحة هو الصوت العالي و(تصيح) بمعنى تشقيق الخشب وهي كلمة أصلها واوي، ويقول انها كانت في الاصل (تصوح) (فتأمل).

على اية حال ان المفسرين يرون ان الصيحة الاولى هي نفخة الصور الاولى والصيحة الثانية هي نفخته الثانية في حين ان الآية ٥١ من نفس السورة والتي تقع بين هاتين الآيتين قد اشارت صراحة الى نفخة الصور ونشور الاموات من قبورهم وقيل ان لا منافاة بين الآيتين حيث ان الآية الثانية جاءت موضحة ومفسرة للآية الاولى ويكون مفهومها ان نفخة الصور الثانية ماهي إلا صيحة عظيمة .. «فاذا هم جميع لدينا محضرون».

ان جميع هذه التعابير تدل على هذه الحقيقة وهي ان نهاية الدنيا وبداية قيام الساعة امر سهل يسير على الله القادر سبحانه وتعالى ولا مبرر لعجب المخالفين من وقوع هذا الامر فالكل يموت بصيحة واحدة عظيمة ثم يصبحون رميماً وتراباً وبصيحة عظيمة اخرى يرجعون مرة اخرى الى الحياة .. ويحضرون جميعاً امام الله تبارك وتعالى.

الاية الثالثة عشرة والرابعة عشرة: اشارتا مرة اخرى الى الصيحتين (صيحة الموت وصيحة الحياة).

تقول الآية الاولى: ﴿ مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِّمَّا مِنْ فَوْقِ ﴾ وهناك عدة اقوال في تفسير هذه الآية ، فقيل انها تشير الى عذاب الاستئصال (وهو العذاب الدنيوي الذي يستأصل جذور الكافرين والظالمين مثل عذاب قوم نوح ولوط وغيرهما).

وقيل: ان الآية اشارت الى نفخة الصور والمعنى الاول يتفق مع سياق الآيات السابقة للآية التي نتحدث عن مجازاة قوم نوح وعاد وثمود وامثالهم ولكن مع اخذ ذلك بنظر الاعتبار فان هذه الآية جاءت تهديداً لكفار مكة مع ان هؤلاء مستثنون من عذاب الاستئصال بحكم الآية ٣٣ من سورة الانفال: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾.

وعلى هذا الاساس لا يمكن تفسير الآية بعذاب الاستئصال فيكون الرأي

الثاني هو الانسب .

وبناء على ذلك فهل ان الآية اشارت الى نفخة الصور الاولى أم الثانية ؟ هناك اختلاف بين المفسرين ولكن وبلا شك ان لحن الآية يتوافق مع النفخة الاولى ذلك لان ذيل الآية يقول : ﴿ مالها من فواق ﴾ وهذا التعبير يقال عادة لنفخة الموت ولقد استشهد بحديث نقل عن الرسول الاكرم (ﷺ) حول هذه الآية لبيان النفخة الاولى^(١) .

«فواق» : حسب قول الكثير من المفسرين واهل اللغة هو ما بين حلبتي الناقة واصله من الرجوع يقال افاق من مرضه اي رجع الى الصحة . وعلى اية حال فان صبيحة فناء العالم لا تعطي فرصة لأحد .. وينتهي كل شيء في وقت قصير ويصبح هشيماً تذروه الرياح ويقوم سد محكم يحول بين الانسان وماضيه .

ولقد اشارت الآية اللاحقة الى صبيحة يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ .

ويعتقد المفسرون ان هذه «الصبيحة» هي نفس صبيحة القيامة حيث ان ذيل الآية دليل واضح على ذلك والمراد من (الحق) كما يقول المرحوم الطبرسي في مجمع البيان والفخر الرازي في التفسير الكبير والالوسي في روح المعاني هو نفس البعث والنشور .

ولكن ظاهر الآية ان المراد بالحق الوارد في الآية الكريمة هو نفس معناه الاصلي ، وبتعبير (الميزان) يعني القضاء الحتمي والنشور هو مصداقه اما تعبير يوم الخروج فالمقصود منه يوم خروج الناس من قبورهم .

وهنا يطرح هذا السؤال ومن الذي يسمع هذه الصبيحة ؟ هل تسمعها الارواح قبل ورودها الاجساد ؟ أم ان الابدان تحيي وترجع اليها الارواح عند الصبيحة ؟ وبهذا

١ - تفسير القرطبي: المجلد ٨ ص ٥٦٠١، وتفسير الفخر الرازي: مجلد ٢٦ ص ١٨٣ .

يستمر الناس في سماعهم للصيحة ومثل ذلك كمثّل ساعة الجرس التي تدق قرب شخص نائم فتوقظه . وهناك اقوال اخرى والمعنى الثاني هو الانسب لسياق الآية .
 في الآية الخامسة عشر نجد تعبيراً جديداً وهو (نقر) قال تعالى : ﴿ فَإِذَا تُنْفَرُ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمٌ مِّنْ يَّوْمٍ عَسِيرٍ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (نقر) يقول ارباب اللغة في الاصل يعني طرق شيء والمنقار هي وسيلة الطرق ومن هنا يكون الطرق ملازماً للصوت وتأتي هذه الكلمة احياناً بمعنى ايجاد الصوت أو سببه وهو هنا النفخ في الصور ولذا نجد ان مجموعة من المفسرين فسروا الآية بشكل مباشر بالنفخ في الصور، فالنقر بمعنى النفخ والناقور بمعنى الصور^(١) .

وهناك احتمال آخر وهو ان هذا التعبير (النقر) جاء لان الصوت الذي ينبعث من البوق من العظمة والشدة وكأنه ينقر الاذن نقراً ويغوص الى المخ .
 على اية حال ان هذا التعبير هو اشارة الى النفخة الثانية بشهادة الآيات التي بعد هذه الآية والتي تخبر عن الوضع العسير الذي يعيشه الكافرون في ذلك اليوم ..
 ويقول الفخر الرازي : اذا كان المقصود هو النفخة الاولى (كما يحتمل المفسرون) فسوف لا يكون ذلك اليوم عسيراً على الكافرين لأنهم يموتون في تلك الساعة انما اليوم الشديد على الكافرين عند صيحة الأحياء ولذلك يقولون باليتها كانت القاضية^(٢) .

وفي الآية السادسة عشر نلاحظ تعبيراً جديداً هو الصاخة قال تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ .

الصاخة : مشتقة من مادة (صخ) ويقول الراغب هو الصوت الشديد الذي ينبعث من اصحاب النطق .

وقال صاحب مقاييس اللغة . هي الصيحة التي تصم الآذان وفسرها البعض :

١ - راجع تفسير مجمع البيان : وروح البيان وتفسير الرازي في ذيل الآية المذكورة .

٢ - راجع تفسير مجمع البيان : تفسير روح المعاني ، روح البيان - الفخر الرازي .

بمعنى طرق رأس الانسان بالحجر^(١). وقيل : الاستماع والانصات ، فالصاخة هي التي تصخ الأذان حتى تكاد تصمها^(٢) وتسمى بالصاكة لشدة صوتها.

وفي كل الاحوال فهذا التعبير اشارة الى «نفخ الصور» النفخة الثانية تلك الصبيحة العظيمة التي هي صبيحة الصحو والحياة ، حيث يساق الجميع الى عرصات المحشر ، وكل واحد مشغول بنفسه الى الحد الذي يفر من اخيه وابيه وامه واصدقائه .

ونواجه في الآية السابعة عشر تعبيراً آخرأ حول مسألة نفخ الصور يقول تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ مَالْقَارِعَةُ * وَمَا أَذْرَاكَ مَالْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .

القارعة : من مادة (قرع) على وزن (فرع) وفي الاصل بمعنى الطرق الشديد الذي ينبعث منه صوت عال . ومنها (المقرعة) .

فما المقصود من القارعة في هذه الآيات :

قال بعض المفسرين ان هذا التعبير هو أحد اسماء القيامة وذلك لأن الحوادث التي تقع فيها حوادث شديدة وتقرع القلوب لشدتها وهولها ولقد صرح البعض من المفسرين بان هذا التعبير يطلق على مجموعة حوادث القيامة التي تبدأ من نفخة الصور الاولى وتنتهي بخاتمة المحكمة الالهية^(٣) .

يقول الفخر الرازي في تفسيره (واختلفوا في لمية هذه التسمية على وجوه^(٤) :

اولها : ان سبب ذلك هو الصبيحة التي تموت منها الخلائق .

١ - روح المعاني ، روح البيان ، الفخر الرازي .

٢ - راجع تفسير مجمع البيان : المجلد ١٠ ص ٤٤٠ والتفسير الكبير : المجلد ٣١ ص ٤٣ روح المعاني : المجلد ٣ ص ٤٨ القرطبي المجلد : ١٠ ص ٧٠١٥ .

٣ - روح البيان : المجلد ١٠ ص ٤٩٩ وروح المعاني : المجلد ٣٠ ص ٢٢٠ .

٤ - الفخر الرازي : مجلد ٣٢ ص ٧٠ .

ثانيها: ان الاجرام العلوية والسفلية يصطكان شديداً عند تخريب العالم فيسببان تلك القرعة فسميت القيامة بالقارعة .

ثالثها: ان القارعة هي التي تفرع الناس بالاهوال والافزاع .

رابعها: انها تفرع اعداء الله بالعذاب والخزي والنكال .

ولكن الآيات التي تاتي بعد هذه الآيات تدل بأن هذا التعبير ناظر الى النفخة الاولى وهي النفخة التي ترعب جميع الناس ثم تهلكهم وتخرّب الجبال ، ولقد ذكرت في تعقيب هذا الموضوع حوادث القيامة كتسلسل طبيعي .

على اية حال ان التعبير اعلاه اما انه يشير الى نفخة الصور الاولى أو ان النفخة الاولى جزء منها واما ان يكون قد اشار الى النفخة الثانية وهذا ما لا يتوافق مع سياق الآيات فمن المستبعد جداً ان تكون الآية ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ قد اشارت الى النفخة الثانية والآية التي بعدها ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ اشارت الى النفخة الاولى (تأمل) .

اما الآية الثامنة عشر فنلاحظ فيها تعبيراً جديداً آخر الا وهو (الزجرة) (الصيحة العظيمة). في جواب من يعجب من رجوع الحياة بعد الموت اذ تقول الآية لا تعجبوا فذلك ليس بالعسير ﴿ فَأَنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ .

زجرة في الاصل الصيحة من قولك زجر الراعي الابل أو الغنم اذا صاح عليها فريعت لصوته^(١) كشاف زمخشري وزجره يزجره اذا صاح بمنعه ثم استعملت بمعنى الطرد وترد احياناً بمعنى الصوت وجملة (ينظرون) فمن الممكن ان تعني النظر بحيرة من شدة الخوف أو نظر احدهم الى الآخر أو انتظار الحكم النهائي .

على اية حال فظاهر الآية الكريمة يشير بوضوح الى نفخة الحياة ونشور الناس من قبورهم وتهيئتهم للحساب ، وان اغلب المفسرين قد أشاروا الى هذا المعنى . يستفاد من مجموع الآيات ان نهاية وبداية العالم الآخر انما تحدثان بصورة مباغته

١ - راجع مادة زجر في مقاييس اللغة والمفردات للراغب .

وتتزامن عند وقوع صبيحة عظيمة، ولقد عبر القرآن الكريم عن ذلك تعابير مختلفة فأحياناً استخدم الصبيحة وأحياناً الزجرة والصاخة والتي هي معنى الصبيحة وأخرى بالنقر كما عبر عنها في كثير من الموارد بنفخة الصور.

وفي الظاهر لم يلاحظ في هذه الآيات شرحاً أو توضيحاً لكيفية النفخ وحكم هذه الحادثة في الواقع كحكم سائر الحوادث المتعلقة بمشاهد يوم القيامة التي لم ترسم لنا صورة تفصيلية عنها إلا أن الاحاديث التي سنوردها بهذا الصدد قد تعرضت إلى هذه الحوادث وفصلتها إلى حد ما ولكنها لم ترفع الاتهامات بشكل كلي، وبعبارة أخرى لم تستطع أن ترفع هذه الاشكالات وذلك لأن هذه الأمور من أسرار العالم الآخر من جهة، ومن جهة أخرى أن عقولنا المحدودة بحدود هذه الدنيا عاجزة عن ادراك هذه الحوادث على حقيقتها.

ونواجه في الآية السابعة عشر تعبيراً آخر حول مسألة نفخ الصور يقول تعالى ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَذْرِيكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَفِي كُلِّ الْاِحْوَالِ فَهَذَا التعبير اشارة إلى الصبيحة الثانية، تلك الصبيحة العظيمة التي هي صبيحة الصحو والحياة حيث يساق الجميع إلى عرصات المحشر، وكل واحد مشغول بنفسه إلى الحد الذي يفر من أخيه وأبيه وامه وأصدقائه

توضيحات:

١- ما المراد بـ (نفخة الصور) أو صرخة الموت والحياة:

علمنا أن الصور وحسب قول الكثير من أرباب اللغة يعني البوق أو القرن العظيم (كانوا يصنعون البوق من قرن الحيوان).

فكانوا ينفخون فيه من جهة فيخرج الصوت عالياً من الجهة الأخرى.

هل ان هذا التعبير تعبير مجازي كناية عن الامر الصادر من قبل الله تبارك وتعالى ينذر بنهاية العالم المباغته وبداية القيامة؟ أي هل هو تشبيه لما اعتاد عليه الناس في ايقاف الجند أو التوافد أو تحريكها.. فهي وسيلة تستعمل لأعلام الجميع

بالوقوف أو الحركة ؟ (حيث أن لحن بوق الوقوف يختلف عن لحن بوق الحركة) حيث لا زال هذا الاسلوب معمولاً به في بعض الثكنات والقطعات العسكرية فهناك بوق النوم وبوق النهوض وبوق التجمع^(١) ؟ أم ان هذا التعبير ليس له بعد كنائي وانما هي نفخة حقيقية ؟ ولكن من الواضح أن هذا البوق ليس بوقاً عادياً وانما هو صاعقة وصيحة عظيمة تعم أرجاء السموات والارض وتسبب في موت جميع الموجودات الحية أو احيائها وبعث الحياة والحركة فيها .

إن هذا الاحتمال هو الأرجح ويتناسب مع ظاهر الآيات : ونقرأ في هذا الصدد حديثاً ورد عن الامام علي بن الحسين (عليه السلام) (إِنَّ الصُّورَ قَرْنٌ عَظِيمٌ لَهُ رَأْسٌ وَاحِدٌ وَطَرَفَانِ، وَبَيْنَ الطَّرْفِ الْأَسْفَلِ الَّذِي يَلِي الْأَرْضَ إِلَى الطَّرْفِ الْأَعْلَى الَّذِي يَلِي السَّمَاءَ مِثْلُ مَا بَيْنَ تَحُومِ الْأَرْضِينَ السَّابِعَةِ إِلَى فَوْقِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فِيهِ اثْنَابٌ بَعْدَ أَرْوَاحِ الْخَلَائِقِ، وَسِعَ قَمَّةُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)^(٢) .

ولقد ورد في حديث آخر عن الرسول (ﷺ) .

(الصُّورُ قَرْنٌ مِنْ نُورٍ فِيهِ اثْنَابٌ عَلَى عَدَدِ أَرْوَاحِ الْعِبَادِ)^(٣) .

وهذين الحديثين يؤكدان ان هذا التفسير هو كناية عن موضوع هام بين في هذا المجال .

ولكن نلاحظ في اقوال بعض المفسرين ان (الصور) مأخوذ من جمع (صورة) وقالوا ان المراد النفخ في صور وابدان الناس فتدب الحياة فيهم .

إن هذا التفسير يتناسب مع النفخة الثانية أي نفخة الاحياء وليس النفخة الأولى ولقد رُفض هذا التفسير من قبل بعض أرباب اللغة ولقد نُقل هذا المعنى في (لسان العرب) عن بعض علماء اللغة قال : هذا خطأ فاحش ونوع من التحريف في

١ - ورد هذا الكلام في تفسير أبي الفتوح الرازي : المجلد ٩ ص ٤٢١ .

٢ - لآلي الاخبار : مجلد ٥ ص ٥٣ الطبعة الجديدة .

٣ - علم اليقين ص ٨٩٢ .

كلام الله تعالى وذلك لأنه ورد جمع (الصورة) في آيات قرآنية أخرى على (صُور) على وزن فُعَل وليس (صُور) وإذا قرأ أحد جملة «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ» «نُفِخَ فِي الصُّورِ» بفتح الواو فقد آفترى على الله وحرّف كتابه فكما أن هذا التفسير لا يتوافق مع الروايات السالفة الذكر كذلك لا يتوافق مع الآيات التي وردت فيها تعابير (صعقة) (وزجرة) و(ناقور) وغيرها.

ولا يستبعد أن يكون هذا ناتجاً عن عدم هضم معنى (نفخ في الصور) في حين ان الصور ليس بوقاً عادياً وليست النفخة شبيهة بنفخاتنا. وعلى اية حال فإن التفسير الثاني هو الأنسب من بين التفاسير الثلاثة التي قيلت بهذا الصدد، حيث انه ينسجم وسياق ظاهر الايات ولا بد لنا من الاعتراف بعجزنا عن اعطاء توضيح كامل عن نفخة الصور.



٢- تأثير الامواج الصوتية على الانسان وسائر الموجودات:

من المعلوم أن الصوت نوع من الامواج التي تتحرك في الهواء وفي السوائل أو الجمادات. والاصوات التي تسمعها اذن الانسان يجب ان لا تقل ذبذباتها عن ٢٠ في الثانية ولا تزيد عن ٢٠٠٠٠ فيها .. وهناك مخلوقات تسمع الاصوات التي تزيد ذبذباتها عن ذلك ومن بينها طائر الخفاش حيث أن لهذا الحيوان القابلية على سماع الاصوات التي يبلغ مقدار ذبذباتها ١٤٥ ألف ذبذبة^(١) في الثانية، ومن المعروف ان الحيوانات تدرك الهزة الارضية قبل الانسان ولعل السبب في ذلك يعود الى هذا العامل حيث انها تسمع الامواج الصوتية المنبعثة منها والتي لا يتمكن الانسان من ادراكها كما هو معلوم ان الامواج الصوتية الشديدة تسبب احيانا في تدمير كل شيء

١- يراجع كتاب الصوت: ص ٥٧ والنجوم للجميع: ص ٩٠

وما تأثير القنابل والمواد المتفجرة على الانسان والابنية الا بفعل هذه الامواج الشديدة التي يُعبّر عنها بـ (امواج الانفجار) فهي قادرة في لحظة واحدة على تحطيم أي مقاومة تواجهها ، فتحول الانسان والابنية الى حطام متناثر.

على هذا الاساس ليس من العجب ان تكون صيحة القيامة هي السبب في اماتة الناس وجميع المخلوقات وازالة الجبال في مدة قصيرة ويُحبذ ان ننقل كلاماً للامام علي (عليه السلام) ورد في نهج البلاغة (وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَزْهُقُ كُلُّ مُهْجَةٍ وَتَبْكُمُ كُلُّ لَهْجَةٍ وَتَذُلُّ الشُّمُ السُّوَامِجُ وَالصَّمُ الرُّوَاسِخُ فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمَلَقاً)^(١).

فحريّ بنا أن ندرك ان هذه الاشياء تخص (نفخة الاماتة) ومن البديهي ان (نفخة الاحياء) شيء آخر فهي صرخة النهوض والحياة والحركة والنشاط .
وتبقى معرفتنا بهذه النفخة وسائر المسائل المتعلقة بيوم القيامة محدودة جداً.



٣- إجابات حول نفخة الصور :

١- هل أن نفخة الصور تقع مرتين فقط ؟

من المعلوم أن الآيات القرآنية تشير الى وجود نفختين (نفخة الإمامة ونفخة الإحياء) وقد لاحظنا ذلك في الآيات السالفة الذكر.

ولكن يستفاد من بعض الروايات أن نفخة الصور تتحقق ثلاث مرات حتى ان بعض الروايات تستدل بالقرآن على ذلك ولقد نُقل في كتاب لآلي الاخبار عن

١- نهج البلاغة : خطبة ١٩٥.

المرحوم (الديلمى) في كتاب ارشاد القلوب هذا الحديث (وله اي «اسرافيل» ثلاث نفحات «نفخة القرع» و«نفخة الموت» و«نفخة البعث») فاذا فنيت الدنيا امر الله اسرافيل ان يهبط الى الارض وينفخ نفخة الفزع كما قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَقَرَحَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ النمل-٨٧... وتزلزلت الارض وتذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها ويميد الناس ويقع بعضهم على بعض كأنهم سكارى وما هم بسكارى ، واما نفخة الاحياء فقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ الزمر-٦٨ كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ الزمر-٦٨^(١).

ولقد اضاف البعض نفخة رابعة الى هذه النفحات الثلاث وهي نفخة الجمع والحضور والظاهر ان هذه النفخة اخذت من الآية ٥٣ سورة يس ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ولكن في الواقع انها نفس هاتين النفختين .. اتسعتا وتبدلتا الى اربع نفحات . وذلك لان الفزع الاكبر ماهو الا مقدمة لموت الناس الذي يحدث على أثر إدامة واستمرار نفخة الحياة ويمكن أن نُؤكد هذا المعنى بالرجوع الى الآيات ٦، ٧ سورة النازعات ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ (تأمل).

٢- من الملك المأمور بنفخة الصور:

ورد في الاحاديث الشريفة ان هذا الملك هو اسرافيل ويعتقد البعض ان هذه الكلمة تعني في اللغة السريانية (عبدالله) ولقد ورد في حديث عن الامام السجاد (عليه السلام) ان الله يأمر اسرافيل فيهبط الى الدنيا ومعه صور...^(٢).

١- لثالي الاخبار : المجلد ٥ ص ٥٤ (مع التلخيص).

٢- بحار الانوار: مجلد ٦ ص ٣٢٤ حديث ٢.

ويستفاد من بعض الروايات ان اسرافيل هو اقرب الملائكة لله ^(١) وهو اول من سجد لأدم من الملائكة ^(٢).

وما كون نفخة الموت والحياة بيده إلا دليلاً على عظمة منزلة هذا الملك ويستفاد من الرواية الواردة عن الامام السجاد (عليه السلام) ان نفخة الموت تكون من قبل اسرافيل وبعدها يقول الله لاسرافيل: مت فيموت اسرافيل وتنفخ نفخة الحياة من قبل الخالق نفسه تبارك وتعالى ^(٣).



٣- ما الفاصلة بين النفختين:

يستفاد من آيات القرآن الكريم بشكل عام ان هناك فاصلة زمنية بين نفختي الامامة والاحياء وان تعبير (ثم) الذي ورد في الآية ٦٨ الزمر يؤكد هذا المعنى ولكن ورد في بعض الروايات ان امد هذه الفاصلة اي (ان مابين النفختين اربعون سنة) أي ولا أحد يعلم هل أن هذه السنين من سنّي الدنيا ام من سنّي الآخرة التي يعادل كل يوم منها خمسين الف سنة.

وعلى اية حال ان هناك حوادث عظيمة تقع مابين النفختين يتشكل خلالها عالم جديد وحياة جديدة للناس ، ولم يبق في هذه الفترة أي مخلوق حي في العالم باسره إلا وجه الله الحي القيوم . واما ما جاء في الآيتين ٦٨ الزمر ٨٧ النمل اللتين ذكرتا جملة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ لا يعني ان هؤلاء لا يشملهم الموت بل ان موتهم موكول الى زمان لاحق .. أي ان اجلهم يتأخر والشاهد على ذلك جملة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ آل عمران- ١٨٥ ^(٤) حيث وردت في ثلاث آيات من القرآن الكريم والجدير

١ - لفتنامه رهخدا: (مادة اسرافيل).

٢ - سفينة البحار: المجلد ١ ص ٤١٤ مادة سرف.

٣ - نور الثقلين: المجلد ٤ ص ٥٠٢ حديث ١١٦.

٤ - آل عمران: ١٨٥. الأنبياء: ٣٥. العنكبوت: ٥٧.

بالذكر هنا ان (النفس) مفهوم واسع يشمل جميع الموجودات الحية اما من هم الذين إستثنتهم الآية فقد ذكر المفسرون احتمالات عديدة في ذلك فقال البعض انهم مجموعة من ملائكة الله المقربين امثال (اسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل) ولقد اضاف بعضهم جملة العرش .. وقيل ارواح الشهداء (في الابدان المثالية) وقيل : خزنة الجنة ومالكو النار.

ويستفاد من رواية الامام السجاد (عليه السلام) ان جميع الكائنات تموت عند الصيحة الاولى ماعدا اسرافيل الذي ينفخ في الصور ثم يموت بعد ذلك بأمر الله تعالى.



٤ - فلسفة نفخة الصور؟

اذا كانت حقيقة نفخة الصور غير واضحة لنا بشكل تام ، فلم تكن فلسفته التربوية خافية علينا .. والمهم لنا هو الاثار التربوية لهذه العقائد الحقّة .
فنفخة الصور تبين لنا :

١ - إimate واحياء جميع المخلوقات ليست حالة عسيرة على الله تبارك وتعالى فهو تعالى قادر على اimate جميع الخلائق بأسرها بصيحة واحدة تصعقها جميعاً ، وكذلك هو قادر على أن يحيي جميع الخلائق بنصيحة عظيمة اخرى وكان المخلوقات كانت في سبات فتبعث هذه الصيحة على ايقاظهم من نومهم العميق وهذا جواب لمن يشك في المعاد أو لمن يعتقد بأن المعاد من الامور المستحيلة الوقوع كما كانوا يسألون رسول الله (ﷺ) مراراً .

٢ - نفخة الصور انذار لجميع الناس بعدم الركون الى الدنيا والاطمئنان اليها لكي لا يقعوا في الغرور والغفلة وان يؤمنوا بان صيحة القيامة ونفخة الموت ممكنة الوقوع في كل حين وانهم سائرون الى ديار العدم الى الموت الذي يطوي جميع

آمالهم وامانيهم .

٣ - تعتبر نفخة الصور وايعازها بنهاية هذا العالم وبداية عالم آخر من الدروس التربوية العميقة للناس .. فالإيمان بذلك يجعلهم متهيئون لاستقبال مثل هذه الحادثة العظيمة واذا آمنوا بذلك فانهم لن يتواكلوا بتأخير الاعمال الى الغد فليس هناك تاريخ معين لوقوع هذه الحادثة المابغثة فهي التي تشرع بلا مقدمات .

ونذكر حديثاً للامام السجاد (عليه السلام) في هذا المعنى ينقله الراوي بعد شرح موجز حول نفخة الصور فيقول : عندما يصل الامام (عليه السلام) الى هنا (رأيت علي بن الحسين يبكي عند ذلك بكاءً شديداً) (فالامام في غاية الوجل من مسألة النهاية المابغثة للدنيا وحلول الآخرة والحضور امام الله تبارك وتعالى) ^(١) .

١ - تفسير علي بن ابراهيم : ذيل الآية ٦٨ زمر مجلد ٢٣٥ . بحار الانوار : مجلد ٦ ص ٣٢٤ .

كتاب الأعمال

٣- كتاب الاعمال :

ملاحظة : نجد في كثير من الآيات القرآنية بحوثاً واسعة حول كتاب الاعمال (صحف الاعمال) قد ذكرتها بتعابير مختلفة، فقد ورد في اكثر الآيات تعبير (الكتاب) الذي يحمل مفهوماً واسعاً فهو يشمل الصحيفة ويشمل الكتاب ايضاً. ولقد ورد في البعض الآخر تعبير (زُبر) جمع (زبور) وهذا التعبير له مفهوم قريب من الكتاب .

وكذلك ورد في البعض الآخر منها تعبير (طائر) وهو الطير الذي كان العرب يتفاءلون به وكانوا يعتقدون بأن مصيرهم مرتبط به فيقول القرآن لهم ان طائر الخير والشر هو نفس صحيفة اعمالكم وقد وردت في بعض الآيات اشارة الى كلام كتاب صحف الاعمال وعبرت عنهم بتعابير مختلفة كالرقيب والعنيد أو رسل الله أو (كراماً) (متلقيان) وكل واحد منهم مأمور بعمل خاص (تأمل ..).

من هنا نقول : ماهي صحيفة الاعمال ؟ وهل ان لكل انسان صحيفة اعمال واحدة، أم اكثر من ذلك ؟ ومن هم كتاب صحف الاعمال ؟ وكيف يتم تسجيل هذه الصحف ؟ وكيف تعطى باليمين أو بالشمال ؟

هناك بحث واسع في هذا الصدد سنتعرض اليه بعد ذكر الآيات التي تدور حول هذا الموضوع ، مع عدم الغفلة عن التعرض بالدرجة الاولى للمسائل التربوية والاخلاقية في هذه الآيات :

١ - ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يس-١١.

٢ - ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ الكهف-٤٩.

٣ - ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ الزخرف-٨٠.

٤ - ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا...﴾ هذا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿الجاثية ٢٨-٢٩.

٥ - ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَانِهِ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ اقرأ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿الاسراء-١٣-١٤.

٦ - ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُنْتَظَرٌ ﴿المر ٥٤-٥٣.

٧ - ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ النبأ-٢٩.

٨ - ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿كَلَّا إِنَّ

كِتَابَ الْإِبْرَارِ لَفِي عُلَّيْنٍ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عُلَّيْنٌ ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ يَشْهَدُهُ

الْمَقْرُوبُونَ ﴿المطففين ٧-٩-١٨-٢١.

٩ - ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ

رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ن-١٧-١٨.

١٠ - ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الانفطار-١٠-١٢.

١١ - ﴿فَإِمَّا مَن أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُ كِتَابِيهِ...﴾ واما من اوتي

كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ ﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا

حِسَابِيهِ﴾ الحاقة-١٩-٢٥-٢٦.

١٢ - ﴿فَإِمَّا مَن أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ

مَسْرُورًا﴾ وَأَمَّا مَن أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ وَيَصْلِي

سَعِيرًا ﴿الانشاق-٧-١٢.

١٣ - ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ

الْمَشْأَمَةِ﴾ الواقعة-٨-٩.

١٤ - ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَأَصْحَابُ

الشُّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشُّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ الواقعة-٢٧-٢٨-٤١-٤٢.

١٥ - ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ التكويد-١٠-١٤.

جمع الآيات وتفسيرها

تحدث الآية الاولى عن الحياة بعد الموت وعن كتاب الاعمال ذلك الكتاب الذي يكتب بيد القدرة الالهية وتثبت فيه اعمال الناس كلها وعبر عنه بـ ﴿الامام المبين﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

فما المراد بالآثار ؟..

قيل ان عبارة (ما قدموا) اشارة الى الاعمال التي يؤديها الانسان (وآثارهم) اشارة الى السنن التي يخلفها بعد موته أو آثار الخير والصدقات الجارية مثل الابنية والالوقاف والكتب العلمية والتربوية.

وقيل ايضاً: ان المراد بـ (ما قدموا) النيات التي تحصل قبل اداء العمل و(آثار) اشارة الى الاعمال التي تنجز بعد النية وقيل أن (ما قدموا) اشارة الى الاعمال الصالحة والسيئة و(آثار) اشارة الى الخطوات التي يخطوها الانسان لانجاز هذه الاعمال.

يقال للقدم من هذه الجهة (أثر) حيث تترك الاقدام اثرها على الارض وخاصة الترابية.

ونذكر حديثاً حول نزول هذه الآية حيث ان فريقاً من الانصار (طائفة من بني

سلمة) كانوا في ناحية المدينة فشكوا الى الرسول بعد منازلهم من المسجد والصلاة معه فأرادوا النقلة فقال (ﷺ): ان الله يكتب خطواتكم ويشيبكم عليه فألزموا بيوتكم^(١).

(الامام المبين) هو اللوح المحفوظ الذي ثبت فيه جميع الحقائق حسب قول الكثير من المفسرين، وبناءً على ذلك يستفاد من التعبير اعلاه ان الامام المبين هو غير صحيفة الاعمال التي تختص بكل فرد، بل هو كتاب عمل عام، فهذا اللوح بمنزلة سجل عام تحصي فيه جميع اعمال الناس، وسوف نوضح هذا الكلام في موضوع (تعدد صحف الاعمال).

عبارة (مبين) اشارة الى وضوح اللوح المحفوظ وكتاب الاعمال لجميع الاعمال نظراً لأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الاعمال الصالحة أو السيئة إلا احصاها.

ولقد جاء في روايات متعددة ان المراد من (الامام المبين) هو الامام المعصوم الذي يبين جميع الحقائق بأمر الله تعالى ويتعليم من الرسول (ﷺ) ومن جملتها ورد حديث عن امير المؤمنين (عليه السلام) في تفسير علي بن ابراهيم (عليه السلام) قال:

(انا والله الامام المبين! ابين الحق من الباطل ورثته من رسول الله ﷺ)^(٢).

ومن خلال هذه التفاسير يتبين ان للامام المبين مفهوماً واسعاً فكما يشير ظاهرة الى كتاب الاعمال الذي يدون جميع أعمال الناس كذلك يشير باطنه الى الامام المعصوم الذي يُبين الحق من الباطل من خلال العلم الذي يرثه عن الرسول (ﷺ).

ولقد اشارت الآية الثانية الى هذا المعنى بصراحة اكثر ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

١- مجمع البيان: مجلد ٤ جزء ٢٢ ص ٤١٨ تفسير فخر الرازي: مجلد ٦ ص ٤٩، القرطبي: مجلد ٨ ص ٥٤-٥٦.

٢- تفسير علي بن ابراهيم: مجلد ٢ ص ٢١٢.

إِلَّا أَحْصَاهَا» فهل ان هذا الكتاب هو كتاب اعمال الناس الذي اشارت اليه الآية الاولى؟ أم انه كتاب اعمال كل امة أو كتاب اعمال كل انسان؟ (وذلك لانه وكما سنوضح ذلك في البحوث المقبلة ان شاء الله ان هذه الانواع الثلاثة من كتاب الاعمال .. اخذت من آيات القرآن الكريم).

فلاحتمالات الثلاثة ممكنة في تفسير هذه الآية ولو أن من الممكن ان يكون ذكر (الكتاب) بصورة المفرد اشارة الى كتاب اعمال جميع الناس ويستفاد من الآية الكريمة ان هذا الكتاب يعرض جميع جزئيات اعمال الانسان الصالحة والسيئة الكبيرة والصغيرة، حتى ان اصحابها يصيبهم الوجل والخوف من اعمالهم وسبب وجلهم يعود الى حضورهم في محكمة العدل الالهي من جهة ومن جهة اخرى انهم قد نسوا الكثير من الاعمال أولم يعطوها أهمية ولكنها اليوم تجسدت امام اعينهم، ومن جهة ثالثة، هو الفضيحة العظمى امام الخلائق.

ويجب ان ننتبه الى هذا المعنى وهو ان كلمة (يفادر) مشتقة من مادة (غَدَر) بمعنى الترك وبناء على ذلك يكون مفهوم هذه الجملة هو ان هذا الكتاب لا يترك شيئاً الاً سجلاً، ويقال لنكث العهد غدر وذلك بسبب عدم الوفاء به.

وتتحدث الآية الثالثة عن كتابة رسل الله تبارك وتعالى ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

ومن الواضح ان لا يوجد هناك تضارب بين هذه الآية والآية التي تقول ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ أَثَرَهُمْ﴾ نظراً لان عمل الرسل والملائكة انما هو في الحقيقة عمل الله تبارك وتعالى لانه يجري بأمره، وهناك احتمال بان كتاب اعمال الناس جميعاً (الامام المبين) يكتب بيد القدرة الالهية، اي بصورة مباشرة اما كتاب اعمال كل انسان الذي عرض في هذه الآية فيكتب بواسطة الملائكة اما تعبير (الرسل) وهو جمع رسول فالمراد به هنا الملائكة المأمورون بكتابة الاعمال.. وليس المقصود وجود عدد من الملائكة لكل انسان بل يمكن ان يكون لكل فرد

ملك واحد أو ملكان فيكون بصورة الجمع بالنسبة لمجموع الناس .
يقول الزمخشري في الكشاف (السَّر) ما حَدَّث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال اما النجوى ما تكلموا به فيما بينهم همساً^(١) .



الكتاب الذي يتكلم :

الآية الرابعة تنسب عملية تدوين الاعمال الى الله سبحانه وتعالى اضافة الى ذلك دلت بأن صحف الاعمال تنطق يوم القيامة ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا...﴾ هذا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿.

فهي تتحدث بوضوح عن كتاب اعمال الامم والذي هو احد الاقسام الثلاثة لكتب الاعمال وتعدد هذه الكتب يؤكد حقيقة تسجيل كل اعمال الانسان وعدم ترك صغير ولا كبير منها .. ويدل تعبير - تُدْعَى - على أنهم يدعون ليقروا كتبهم وبالتالي يكونون هم المحاسبين لأنفسهم كما جاء صراحة في الآية ١٤ سورة الاسراء ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ .

وجائية : مشتقة من (الجثو) على وزن عَلَو بمعنى الجلوس على الركب السبب في اتخاذ هذه الجلسة من قبل اهل المحشر يعود اما لشدة الخوف أو هي شَبَه للحالة التي كان يتخذها المتهمون في قديم الزمان عند الحضور في المحكمة لابداء الرأي حيث يجلسون جلوس القرفصاء .. وهو الوضع الذي يتخذه الانسان عند انتظاره للحوادث المهمة .

ومن الملفت للنظر هنا نسبة تسجيل الاعمال الى الله سبحانه وتعالى وهذا يدل على ان كاتب الاعمال ليس بالذي تتصور فيه الغفلة او الخطأ وهو عليم ومحيط بكل شيء (نستنسخ) من مادة (نسخ) وحسب قول اهل اللغة ان النسخ ازالة شيء

بواسطة شيء آخر ويلازمه نفي شيء وإثبات شيء آخر وتستعمل هذه الكلمة بمعنى النفي أحياناً وأخرى بمعنى الإثبات وثالثة بمعنى الإثبات والنفي معاً.

من هنا يتبين أن الاستنساخ يعني إثبات موضوع مع صرف النظر عن آخر. ونجد في الآية الخامسة تعبيراً آخر هو (الطائر) ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَانِهِ طَائِرَةٌ فِي حَقِّهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً .

والطائر في الأساس هو الطير ويراد به العمل أو كتاب الاعمال حسب قول الكثير من المفسرين ، ويعود هذا الربط إلى العادات والتقاليد العربية حيث كانوا يتفاءلون للخير والشر بواسطة الطيور فبعض الطيور يبشر بالسعادة واليمن والبركة فإذا عرض لهم هذا الطير أثناء خروجهم من منزلهم أو من مدينتهم استبشروا ورأوا ذلك دليلاً على الانتصار والنجاح وعلى عكس بعض الطيور التي يعتقدون بأنها نذير شؤم. فالطائر يستخدم للتفاؤل والتشاؤم معاً، لذا فقد قال بعض المفسرين إن ما يقابل كلمة طائر في اللغة الفارسية هو (البخت) ومن هنا يعتبر القرآن الكريم أن العامل الرئيس للسعادة والشقاء هو أعمال الإنسان وقد استعملت هذه الكلمة للتعبير عن كتاب هذه الاعمال وبهذا المعنى فقد صنع القرآن الكريم من مفهوم خرافي لا أساس له حقيقة واقعية ودعا الناس إليها، مع الأخذ بنظر الاعتبار جملة ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ حيث يمكن القول أن تفسير الطائر بالعمل أنسب من تفسيره بكتاب الاعمال وذلك لأنه ذكر كتاب الاعمال بشكل مستقل فلكون الاعمال متعلقة بعنق الإنسان فهي لا تنفك عنه أبداً فإن كان العمل صالحاً فيسعد ويأنس به صاحبه وإن كان سيئاً فيؤذي صاحبه كالغل أو السلسلة .

وهناك مسألتان أخريان في هذه الآية :

الاولى: عرض كتاب الاعمال يوم القيامة وإطلاع الآخرين عليه ، فيكون عاملاً

في فضيحة صاحبه لدى جميع الخلائق .

الثانية : ان كتابة كتاب الاعمال واضحة بحيث لا حاجة الى الحسب بل يكفي ان يطلع الانسان على اعماله ويحاسب نفسه بنفسه .

فكما يدل اصفرار اللون والكتابة على وجود حالة مرضية كذلك تدل الطراوة وامتلاء الوجنات والنشاط على الصحة والسلامة وبهذا يستطيع المريض ان يحكم على نفسه بالمرض أو السلامة ولا حاجة لشهادة الآخرين .

في الآية السادسة نلاحظ تعبيراً جديداً بخصوص الاعمال وهو كلمة (زبر) والزبر جمع زبور وهو بمعنى الكتاب قال تعالى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّبْرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ ومع ان هذه الآية اشارت الى وضع الاقوام السابقة التي كانت لديها اعمال كأعمال الكفار الذين عاصروا الرسول الاكرم (ﷺ) لكن من البديهي انه تعالى عندما يذكر بأن جميع اعمالهم مثبتة ومسجلة في كتاب فهذا المفهوم يعني ان اعمال جميع الناس تكون على هذا النحو..

وزُبر: مشتق من زُبْرَه (على وزن سفره) بمعنى قطعة الحديد الكبيرة ثم اطلقت هذه الكلمة على الخطوط العريضة التي تكتب على الصفحات الكبيرة لذا يقول الراغب الاصفهاني في مفرداته كل كتاب غليظ الكتابة يقال له (زُبور) ويستفاد من هذا التعبير ان الزبور لا يطلق على كل كتاب بل يشترط فيه عظمة الخط وغلظته وان اختيار هذا التعبير لكتاب الاعمال يعبر عن عمق المعنى فهو يبين ثبوت ووضوح هذا الكتاب .

ان تعبير (الصغير) و(الكبير) وتقديم الصغير على الكبير الذي لم يرد في هذا الموضع من القرآن فقط بل في مواضع متعددة اشارة الى عدم وجود اي استثناء في تسجيل اي عمل واي شخص .

اما مستطر فمأخوذة من مادة (اسطر) وتعني الكتابة وهذا تأكيد آخر على ان تسجيل الاعمال وجميع الاقوال وحتى النيات قد جمع في مفهوم الآية (تأمل ..) وقد صرحت الآية السابعة بأن الكافرين يظنون انهم لن ينالوا جزاء اعمالهم يوم

القيامة ، فهم يكذبون الآيات الالهية في حين. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ .
 واحصيناه مأخوذة من مادة (احصاء) ومشتقة في الاصل من احصى حيث
 كانوا في الماضي يستعملون الحصى لعد الاشياء بدلاً من اصابع اليد وكلمة احصاء
 بمعنى العد وجاءت لحفظ الحساب يقول بعض المفسرين ان مفهومها هنا ينطبق مع
 مفهوم الكتابة ولهذا السبب اعربوا كتاباً مفعولاً مطلقاً لأحصينا في حين يجب ان
 يكون المفعول المطلق من مادة نفس الفعل الذي قبله وبما ان معنى الكلمتين واحد
 فيمكن ان يحل أحدهما محل الآخر^(١).



كتب في عليين وأخرى في سجين

الآية الثانية التي وردت في موضعين من سورة المطففين تشير الى كتاب
 اعمال الابرار والفجار وقد كشفت عن جزئيات اكثر فقد ذكرت اولاً كتاب اعمال
 الفجار ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ .
 وبعد عدة آيات من نفس السورة جاء بذكر كتاب اعمال الابرار ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ
 الْاَبْرَارِ لَفِي عَلِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِّينَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمَقْرُؤُونَ﴾ .
 وقد ورد في هذه الآيات كلام عن (سجين) و(عليين) التي تحفظ فيها كتب
 اعمال الفجار والابرار لذا يجب توضيح معنى هاتين الكلمتين بدقة :
 سجين: هي صيغة مبالغة مشتقة من مادة (سجن) بمعنى السجن ولقد ذكر
 المفسرون معانٍ مختلفة لهذه الكلمة مثل النار أو موضع خاص من النار تحفظ فيه
 كتب الفجار ونحن نقول : ان اصح الاقوال بأن سجين كتاب جامع تجمع فيه كتب
 اعمال جميع الفجار وبتعبير اوضح ان هذا الكتاب كمثّل السجل العام الذي يسجل
 فيه حساب جميع الدائنين والمدينين .

١ - وقيل ان (كتاباً) حال .. ولكن الاحتمال الاول هو الاصح .

اما (عليين) فهي جمع (على) على وزن (ملى) وهو فى الاصل مشتق من العلو وهو اشارة الى المكان المرتفع ولذا يطلق هذا الاسم على الاشخاص الذين يسكنون المناطق المرتفعة من الجبال ، وحسب قول بعض المفسرين ان المراد بعليين اعلى اماكن الجنة أو اعلى مكان فى السماء ، ومن خلال المقارنة بين الآراء اعلاه حول سجين يتضح ان عليين كذلك يعني السجل الكبير الذي تجمع فيه كتب اعمال الابرار والصالحين وهو سجل عالي المرتبة والمقام فى جوار الله تبارك وتعالى^(١).



الملائكة المراقبون :

الآية التاسعة لم تتحدث فى الظاهر عن كتاب الأعمال لكونها عرضت هذه الحقيقة بتعبير آخر ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ فمن الواضح ان التلقي هنا اشارة الى التسجيل فى صحف الاعمال ثم قال تعالى للتأكيد اكثر ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

(يتلقى) مشتق من مادة (لقاء) ولكن تلقي الاعمال هنا كتابة عن اخذها وتسجيلها.

المتلقيان : هما الملكان المأموران بأخذ وتسجيل اعمال الناس (قعيد) من مادة قعود وهو الجلوس ويراد منها الملازم والمراقب كما نقول فى كلامنا المتداول ان فلان جليس فلان بمعنى الملازم والمراقب له^(٢).

(يلفظ) مشتقة من مادة (لفظ) بمعنى قذف السن كما يقال (لفظت الرحى الدقيق) وتطلق هذه الكلمة على ما يخرج الانسان من فمه فكأنها اشياء تقذف الى

١ - يجب الالتفات الى ان عليين جمعت حسب قاعدة جمع المذكر السالم فى حين ان سجين مفرد ولكن هذا لا يمنع من ان يطلق ذلك على المكان المرتفع والمقام العالي بسبب علو مكانته ومنزلة ساكنيه.

٢ - المتلقيان مثني وعلى هذا فلا بد ان يكون (قعيد) مثني أيضاً ولكن هناك حذف فى الآية والتقدير: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد وحذفت الاولى بقرينة الثانية.

الخارج .

(رقيب) قال الراغب في مفرداته مشتق من مادة (رقبة) ويطلق على الشخص الذي يحافظ ويراقب شيئاً معيناً أو شخصاً .

(عتيد) مشتق من مادة (عتاد) على وزن جهاد بمعنى اعداد عدة وذخيرة شيء قبل الحاجة ، لذا يطلق على الشخص المستعد لاداء فعل معين بـ (عتيد) .

ولقد قال صاحب كتاب مقاييس اللغة ان المعنى الاصلي لـ (عتيد) القوة والضرب وهذا المعنى بالنسبة للمعنى السابق كنسبة اللازم الى الملزوم ، على كل حال هل ان كل واحد من هذين الوصفين مختص بأحد الملكين والآخر بالملك الثاني فيكون الاول مراقباً والثاني معداً للتدوين والتسجيل أم ان كليهما يدلان على هذا المعنى أي كلاهما يقومان بمراقبة أعمال الانسان وتسجيل وتثبيت أعماله ايضاً . يعتقد بعض المفسرين ان الرقيب هو أسم لملك اليمين (الذي هو مأمور بكتابة اعمال الخير) والعتيد اسم لملك الشمال (الذي هو مأمور بكتابة اعمال الشر) .

ولكن يظهر من اقوال بعض المفسرين ، انهم ذكروا كلا الوصفين لكلا الملكين أي ان كل واحد منهما رقيب وفي عين الحال عتيد ايضاً ولقد نقلت حول هذين الملكين روايات عديدة باللغة الأهمية نذكر من جملتها حديثاً عن الرسول الاكرم (ﷺ) (صاحب اليمين امير على صاحب الشمال فاذا عمل حسنة كتبها له اليمين بعشر امثالها واذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين امسك فيمسك عنه سبع ساعات فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيء وان لم يستغفر الله كتب له سيئة واحدة) ^(١) .

ونحمل مثل هذه الروايات للانسان رسالة تربوية واضحة ، ونستنتج من خلال

١ - مجمع البيان: المجلد ٩ ص ١٤٤ وكذلك في روح المعاني: ٢٦ ص ١٦٤ وكذلك ورد في تفسير المراغي: المجلد ٢٦ ص ١٦١ .

هذه الرواية وبعض من الروايات الاخرى بأن عمل كل من هذين الملكين منفصل عن الآخر وسوف نفصل الموضوع اكثر في فقرة (التوضيحات).

كتاب صحيفة الاعمال :

لقد ورد في نفس هذه الآية كلامٌ عن (الكاتبين) وسعة اطلاعهم ومعلوماتهم ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ .

فمن الواضح ان المراد بـ (حافظين) الملائكة المأمورين بحفظ وتسجيل الاعمال وليس المراد حفظ الانسان من الحوادث المختلفة ، والله تبارك وتعالى وصف هؤلاء الملائكة بأربعة أوصاف ولكنها لازمة وملزومة لبعضها في نفس الوقت وهذه الاوصاف هي :

١ - حفظ ومراقبة الاعمال .

٢ - (الكرام) وكرام جمع (كريم) وهي اشارة الى عظمتهم وعلو شأنهم وان كانوا مأمورين بأحضار أعمال الانسان لكن هذا العمل لا يشوبونه بالغلظة والقوة بل يقرنونه باللطف والكرامة .

وقيل انهم كرام لانهم يكتبون الاعمال الصالحة مباشرة بعشرة امثالها اما الاعمال السيئة وكما ذكر في الرواية السالفة فانهم يمهلون صاحبها سبع ساعات لعله يتوب .

وقيل انهم كرام لأنهم يطهرون بالأعمال الصالحة الى السموات ويعرضونها على الملائكة اما الاعمال السيئة ويحكم كونه تعالى (ستار العيوب) فانهم يسترون عليها ، وكونهم كراماً يجعل الانسان يراقب اعماله اكثر وذلك لانه يستحي من ان يرتكب عملاً قبيحاً في محضر رجل كريم .

٣ - (كاتبين) وهذا الوصف يعني كيفية حفظهم الاعمال بصريح قوله تعالى

فهم يكتبون كل الاعمال ولا يعزب عنهم شيء ومن المعلوم ان الحفظ والكتابة بحاجة الى اطلاع واسع من جميع الجوانب .

٤ - (يعلمون ما تفعلون) وهذا التعبير يشمل قول الانسان واعمل جوارحه والعمل الفعلي ايضاً .

وذكر كلمة (حافظين) بصورة الجمع أما ان يكون هناك ملكان في النهار وملكان آخران في الليل يراقبون اعمال الانسان (كما جاء في بعض الروايات) ^(١)، أو لكون المخاطب جمع الناس وبهذا فيكون الملائكة الذين يراقبون الجميع جمعاً .

كتاب الاعمال في اليمين أو في الشمال :

تسير الآية الحادية عشرة الى موضوع جديد وهو اتيان كتاب الاعمال فيؤتى الاشرار والسيئون كتابهم بشمالهم أما الصالحون والاخيار فيؤتون كتابهم بايمانهم وهذه علامة فارقة لتمييز الاخبار من الفجار في محكمة العدل الالهي ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ فِي يَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُومٌ أَقْرَأُ كِتَابِيهِ...﴾ . وعلى العكس ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ * وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيهِ * يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ ، فهل ان اليد اليمنى واليسرى اشارة الى هذا العضو الخاص من البدن أم هو كناية عن الخير والشر ولماذا اليد اليمنى كناية عن الخير واليسرى كناية عن الشر ؟

لقد ورد هذا المعنى (كاحتمال) في تفسير (في ظلال القرآن) ولكن نقول لا توجد ضرورة لهذا التأويل لأن اتيان كتاب اعمال الصالحين باليد اليمنى والاشرار باليد اليسرى وسيلة لتمييزهم والتعرف عليهم .

اما كلمة (هاؤم) فهي على رأى الكثيرين من المفسرين وارياب اللغة مركبة من هاء وهي اسم فعل (أمر) بمعنى خذ وميم وهو ضمير جمع مذكر مخاطب ، وهذه الكلمة تعامل معاملة فعل الامر فيقال (هَاءِ ، هَاءِ ، هَائِماً ، هَؤُوم ، هَئِثْن) للمفرد ،

المذكر والمفرد المؤنث والمثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث) وأحياناً تبدل الهمزة بالكاف فيقال: (هاك، هالك، هاك، هاكن) أما الهاء الواردة في آخر كلمة كتابية (وحسابية) فيطلق عليها اصطلاحاً بـ (هاء السكون) وهي ليست بضمير وإنما هي للاستراحة في الكلام وليس لها مفهوم خاص.

ولقد ورد في حديث عن عبدالله بن حنظلة المعروف بغسيل الملائكة وهو من شهداء أحد قال: ان الله يوقف عبده يوم القيامة فييدي سيئاته في ظهر صحيفته فيقول له انت عملت هذا فيقول نعم اي رب فيقول له اني لم افضحك به واني قد غفرت لك فيقول عند ذلك هاؤم اقرؤا كتابيه اني ظننت اني ملاق حسابيه حين نجا من فضيحتي يوم القيامة^(١).

لقد ورد نفس هذا المعنى بشيء من الاختلاف (ابتاء كتاب اعمال الابرار باليمين والفجار بالشمال) في الآية الثانية عشرة من الآيات السالفة الذكر ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾.

فذكرت الآيات السابقة ان كتاب اعمال الفجار يؤتى بالشمال اما هذه الآيات فذكرت ان كتاب الفجار يؤتى (وراء الظهر) ويراد بهذا المعنى ان المجرمين عندما يعطون كتبهم بشمالهم فانهم ولشدة حياثهم يجعلون ايديهم وراء ظهورهم حتى تقل رؤية الجمع لهذا السند سند الجريمة والفضيحة، أو لان ايدي الشمال مغلولة وراء ظهورهم فكما انهم جعلوا كتاب الله وراء ظهورهم في الحياة الدنيا فهنا تجعل كتب اعمالهم وراء ظهورهم، أو لكون وجوههم مقلوبة وراء ظهورهم ولاجل رؤية كتب اعمالهم فهم يأخذون كتبهم من وراء ظهورهم ولا منافاة لأي من هذه المعاني الثلاثة للآية وما ورد في الآيات السابقة.

١ - تفسير الدر المنثور: المجلد ٦ ص ٢٦١ وتفسير في ظلال القرآن المجلد ٨ ص ٢٥٦ ولو ان هذا الحديث نقل عن عبدالله بن حنظلة ولكنه قد سمعه بالواسطة عن الرسول الاكرم (ﷺ).

ما المراد بـ (الاهل) الذي ذكرته الآية الكريمة ؟

قيل ان المراد بالاهل هم النساء والاولاد والآخرين من اهل الايمان الذين يدخلون الجنة قبلهم وقيل ان الاهل هنا اشارة الى الحور العين وقيل ان المقصود بالاهل هم سائر المؤمنين الذين لهم سبق قدم في الجنة وذلك لأن المؤمنين كلهم اهل لبعضهم البعض وفي الحقيقة (انهم جزء من عائلة واحدة) ، ونرى ان التفسير الأول هو الانسب بدليل ان نفس هذا التعبير ورد في الآية ١٣ من نفس السورة ويراد به العائلة والزوجة والاولاد والاقرباء واتحاد السياق يدل على ان المعنى واحد .
ولقد قسمت الآية الثالثة عشر هذا التقسيم (اصحاب اليمين واصحاب الشمال) بشكل آخر ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ .

الميمنة: مشتقة من مادة اليمين بمعنى السعادة والبركة ولقد فسرنا البعض وقال : انها مأخوذة من مادة يمين أي اليد اليمنى يقولون : انهم الافراد الذين يعطون كتبهم بأيمانهم (صحيح ان مادة يمن) و(يمين) مشتقة من اصل واحد ولكن يعني احدهما الخير واليمن والسعادة ، ويعني الآخر اليد اليمنى التي يرونها مظهراً من مظاهر البركة .

ويعتقد الراغب - كما ورد في مفرداته - ان اساس الكلمتين يحمل نفس مفهوم اليد اليمنى فيرى ان الخير واليمن والبركة تحصل بالافعال التي تنجز بواسطة اليد اليمنى .
فهذه الكلمة جاءت بمعنى الخير والبركة ويقابلها كلمة المشئمة .

والمشئمة: مشتقة من (شؤم) وعلى قول صاحب كتاب مقاييس اللغة ان المعنى الاصل لهذه الكلمة هو نفس اليد اليسرى وانهم يعتقدون بأن اليد اليسرى والاعمال التي تنجز بواسطتها اشارة الى الشر وسوء الحظ .. ولهذا استعملت كلمة شؤم بهذا المعنى وبهذا السياق يكون المراد من (اصحاب الميمنة) و(اصحاب المشئمة) في الاصل نفس معنى اصحاب اليمين واصحاب الشمال الذين يؤتون

كتبهم اما باليمن أو بالشمال وبهذا فان تفسير الآية بمجموعه تكون (سعيدة مسرورة) واخرى (شقية تعيسة) بعد المعنى الثاني من معاني الآية الكريمة ولقد فسر الفخر الرازي اصحاب الميمنة بـ (اصحاب الجنة) يقول^(١) :

هم اصحاب الجنة وتسميتهم بأصحاب الميمنة اما لكونهم من حملة كتبهم بأيمانهم واما لكون ايمانهم تستنير بنور من الله تعالى كما قال تعالى ﴿يَسْمَعُ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ الحديد-١٢. واما لكون اليمن يراد به الدليل على الخير، والعرب تتفاءل بالسانح وهو الذي يقصد جانب اليمن من الطيور اذ يتفاءلون بها بالخير والتي تطير من الشمال للشر.

جملة (ما اصحاب الميمنة وما اصحاب المشئمة) جاءت على صيغة استفهامية وهذه اشارة الى المقام الرفيع جداً للطائفة الاولى والمقام السحيق جداً للطائفة الثانية فكان منزلة وبركات الطائفة الاولى من العلو والكثرة بحيث تخرج عن مستوى تفكير الانسان وهذا التفسير كناية لطيفة عن هذا المعنى، على عكس التعبير الثاني الذي هو كناية عن شدة الانحطاط والتدني، ومع عدم ورود كلام عن كتاب الاعمال في هذه الآيات الا اننا اذا اخذنا سائر الآيات القرآنية التي اوردت هاتين الكلمتين بنظر الاعتبار يكون التفسير اعلاه مناسباً لهذا المعنى.

اما الآية الرابعة عشر من الآيات السالفة الذكر والتي وردت في نفس سورة الواقعة ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الشَّامِلِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِلِ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ والآيات اللاحقة ﴿وَأَصْحَابُ الشَّامِلِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِلِ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾.

فقد ذكر المفسرون في تفسير هذه الآيات نفس المعاني التي وردت في تفسير الآيات السابقة.

ف قيل هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم او بشمالهم أو هم اصحاب اليمن

والبركة أو تعيسي الحظ أو الذين يتجهون نحو الجنة من اليمين أو نحو الجحيم من اليسار أو هم الذين يظهر نورهم على يمينهم^(١).



كتاب اعمالنا امام انظار الجمع :

نلاحظ في الآية الخامسة عشرة تعبيراً جديداً حول كتاب الاعمال وهذا التعبير عميق المحتوى ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أُخْفِئَتْ ﴾ (نشرت) مشتقة من مادة (نشر) بمعنى الفتح اما سبب ذكر هذا التعبير بخصوص كتاب الاعمال فاما لكون الكتاب يطوى اثناء الموت ويعاد فتحه عند الحساب يوم القيامة ومثله كمثل الملف الذي يغلقه بختم المحقق ثم يفتح اثناء المحكمة واما تكون الصحف كلها مجموعة عند الله تبارك وتعالى وتنشر وتقسم بين اصحابها يوم القيامة .

لقد انتخب بعض من المفسرين احد المعنيين السالفين واحتمل البعض كلاهما ، ونحن نقول ان التفسير الاول هو الانسب لسياق الآية ، على اية حال ان صحف الاعمال سوف تنشر في ذلك اليوم بحيث لا يطلع عليها اصحابها وحسب بل يطلع عليها اهل المحشر ايضاً وتستذكر جميع الاعمال المنسية ، وهذا هو أحد عوامل الفرج واستبشار الصالحين وعذاب وثبور وخزي أهل النار ، تقول الآية ١٣ سورة الاسراء ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ وهذه شهادة على هذا المعنى .

يستفاد مما ورد في مجموع الآيات السالفة الذكر انه اضافة الى احاطة وعلم الله تبارك وتعالى باعمال الناس وشهادة الجوارح وسائر شهود يوم القيامة فان اعمالنا مسجلة في كتاب وهذا التسجيل يؤدي بواسطة رسل وملائكة الله .

١ - تفسير البيان : مجلد ٩ ص ٤٩٣ وتفسير البيان وتفسير الفخر الرازي وتفسير في ظلال القرآن (ذيل الآيات) .

وفي يوم القيامة يؤتى الاخبار كتب اعمالهم باليمين والاشرار بالشمال وتنطق هذه الكتب وتخبر عن كل ما فيها ، وتنشر الصحف وتعرض على الخلائق ويطلع اهل المحشر على اسرار واخبار هذه الصحف فأصحاب الاعمال الصالحة يتلقون كتبهم مسرورين مستبشرين ويدعون الجميع لقراءة كتبهم اما اصحاب الشمال فيعلوا صراخهم وعويلهم وثبورهم من شدة خوفهم وھلعهم .
ونحن نجد في هذه التعابير الكثير من الجوانب التربوية ، سنتعرض اليها في فقرة التوضيحات .



التوضيحات :

١ - كتب الاعمال في الروايات الاسلامية :

ان لموضوع كتب الاعمال أو صحف الاعمال صدئ واسعاً في الروايات الاسلامية وقد جاءت بعض الروايات كتعبير للآيات السابقة ، وهناك روايات مستقلة عن الآيات .

وسنشير الى بعض من هذه الروايات التي تتضمن كل واحدة منها جوانب تربوية هامة :

١ - نقرأ حديثاً ورد عن الامام الصادق (عليه السلام) :

(اذا كان يوم القيامة دفع الى الانسان كتابه ثم قيل له اقرأ قلت : فيعرف ما فيه؟ فقال : ان الله يذكره فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم ولا شيء فعله الا ذكره كأنه فعله تلك الساعة فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها .

٢ - نقرأ في إحدى خطب نهج البلاغة ان الامام امير المؤمنين (عليه السلام) قال :

(ونستغفره مما احاط به علمه واحصاه كتابه ، علم غير قاصر وكتاب غير مغادر) ^(١) .
 ٣ - جاء في حديث عن الامام الباقر (عليه السلام) ^(٢) (وليست تشهد الجوارح على مؤمن ، انما تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب ، فأما المؤمن فيوتى كتابه بيمينه) .

٤ - ونقرأ حديثاً آخر للامام الصادق (عليه السلام) ^(٣) : (ان الله تبارك وتعالى اذا اراد ان يحاسب المؤمن اعطاه كتابه بيمينه وحاسبه فيما بينه وبينه فيقول عبدي : فعلت كذا وكذا وعملت كذا وكذا فيقول نعم يارب قد فعلت ذلك ، فيقول غفرتها لك وابدلتها حسنات فيقول الناس سبحان الله اما كان لهذا العبد سيئة واحدة ؟ وهو قول الله عز وجل ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيُنْقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ .

٥ - نقل في سنن الترمذي عن رسول الله (ﷺ) :

(يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الايدي : فأخذ بيمينه وأخذ بشماله) ^(٤) :

ان هذا التعبير تضمن اشارة الى تطاير الكتب الذي جاء في عبارات مختلفة واتضح من خلال هذا الحديث ان صحف الاعمال تتحرك من محلها الاصل (عند العرش أو عليين أو سجين الذي هو مركز جمعها) فتلقى بيد صاحبها فهذا التعبير يدل بوضوح على ان كتاب الاعمال هو ليس صفحة الروح الانسانية بل هو الاثار التي تثبت خارج وجوده (تأمل) .

١ - نهج البلاغة : خطبة ١١٤ .

٢ - بحار الانوار : المجلد ٧ ص ٣١٨ حديث ١٤ .

٣ - بحار الانوار : المجلد ٧ ص ٣٢٤ حديث ١٧ .

٤ - سنن الترمذي : المجلد ٤ ص ٦١٧ الحديث ٢٤٢٥ .

٢- ماهية كتاب الاعمال :

مما لا شك فيه ان كتاب الاعمال الذي يعرض يوم القيامة ليس كمثل الاوراق والدفاتر والكتب المتداولة وانما هو نقوش معبرة غير قابلة للانكار فلو ان كتاب الاعمال كمثل هذه الاوراق والدفاتر المستعملة اليوم لاستوجب الامر آلاف الاوراق لكتابة اعمال الانسان خلال فترة عمره ولما امكن للجميع مطالعة مثل هذا الكتاب ولما كان موجباً لخزي وفضح الاشرار وفخر الاخيار، في حين يستفاد من الآيات والروايات بأن اعمال الانسان مثبتة بحيث يمكن الوقوف عليها بالقاء نظرة واحدة، اضافة الى ذلك ان الخطوط والنقوش الاعتيادية ليست بالشكل الذي لا يمكن انكارها في حين يتضح من الآيات والروايات ان خطوط هذا الكتاب ليست قابلة للانكار وهي سند حي وواضح لكل شخص حتى لاصحابها.

نتطرق هنا بدقة الى بعض التفاسير المختلفة التي قيلت بخصوص كتاب

الاعمال :

١- قيل في تفسيرها: (هي بعينها نفس الانسان التي رسخت فيها آثار اعماله بحيث

نقشت بها).

وجاء ما يطابق هذا التعبير في كتاب المرحوم الفيض الكاشاني حيث يقول

(إن كتاب الاعمال هو كناية عن نفس الانسان التي رسخت فيها آثار اعماله).^(١)، الا

ان هذا المعنى الكنائي لا يتوافق مع ظواهر آيات القرآن الكريم وذلك لأن القرآن يذكر

إتيان كتاب اعمال اصحاب اليمين بيمينهم وكتاب الفجار بشمالهم أو من وراء

ظهورهم وهذا التعبير لا يتلائم مع التفسير المزبور إلا اذا حمل تعبير (يمين) و

(شمال) وسائر التعابير الاخرى على المعنى الكنائي وهذا خلاف الظاهر وهو غير

جائز بدون دليل اضافة الى ذلك لا يمكن ان يتوافق هذا التعبير مع تطاير الكتب الذي ذكرناه سابقاً.

٢ - للمرحوم العلامة الطباطبائي تعبير آخر في هذا الصدد فيقول في تفسير الميزان مستفيداً من الآية ٣٠ (سورة آل عمران) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ (ان الكتاب يتضمن نفس الاعمال بحقائقها دون الرسوم المخطوطة على حد الكتب المعمول بها فيما بيننا في الدنيا فهي نفس اعمال يطلع الله الانسان عليها عياناً ولا حجة كالعيان ان كتاب الاعمال بحقائقها مستورة عن ادراك الانسان محجوب وراء حجب الغفلة وانما يخرج الله سبحانه وتعالى يوم القيامة فيطلعه على تفاصيله)^(١).

كذلك لا ينسجم هذا المعنى بما يتعلق بـ (الملائكة الكاتبين) وسائر الصفات الأخرى التي وردت في الآيات والروايات وذلك لأن المراد من حقائق الاعمال على الظاهر هو نفس الآثار التي تترك أثراً في داخل نفس الانسان وهنا يرد نفس الاشكال على تفسير المرحوم الفيض الكاشاني.

ولقد ذكر صاحب كتاب (روح المعاني) نفس هذا التفسير بشيء من التفصيل ثم اعترف بأن هذا التفسير لا ينسجم مع ظاهر آيات القرآن الكريم^(٢) ومن الممكن ان يقال كما تترك اعمال الانسان أثراً في داخل نفسه كذلك تترك أثراً في العالم الخارجي ايضاً، وتترك أثراً في الفضاء والهواء وعلى الارض التي يعيش عليها وفي كل شيء وكان اعماله نقشت بها نقشاً طبيعياً غير قابل للانكار.

وهذه النقوش تنقش في اعماق هذه الموجودات بواسطة قوى عالم الوجود والملائكة ويوم القيامة يكشف عنها الحجب وتظهر للعيان وتعطى بيد كل انسان

١ - تفسير الميزان: ذيل الآية ١٣ اسراء مجلد ١٣ ص ٥٨ مع التلخيص.

٢ - روح المعاني: المجلد ٥ ص ٣٢:

وتكفي نظرة واحدة عليها للاطلاع على حال كل شخص .

من البديهي ان هذه الاثار لا يمكن ادراكها والاحساس بها في هذه الدنيا رغم انها موجودة ومثبتة وعندما يأتي ذلك اليوم الذي يكشف فيه هذا الغطاء ويصبح البصر حديداً فسوف نراها عياناً ونقرؤها فنصدق .

استطاع علماء اليوم من خلال دراسة علم الآثار دراسة المتحجرات المتبقية من الكائنات الحية منذ ملايين السنين فكشفوا اضافة الى شكل هياكلها عن الكثير من حقائق حياتها مع ان المتحجر ليس حيواناً بعينه بل هو بقايا منه بقيت لحقب طويلة داخل الطبقات الارضية .

الصخور الارضية هي في الواقع كتاب اعمال واشكال تلك الحيوانات مدون بخطوط غير قابلة للتكرار .

نحن لا نقول ان كتاب الاعمال الذي يعرض يوم القيامة هو على هذه الصورة وذلك لأننا ذكرنا اكثر من مرة بأننا لا ندرك من القيامة والمسائل المتعلقة بها الا نزرأً يسيراً، ولكن في بعض الاحيان يمكن ان يكون الاثر الطبيعي هو نفس الاثر، ومن المناسب هنا ان نذكر حديثاً للامام الصادق (عليه السلام) ورد في تفسير الآية ١٤ (سورة الاسراء): (يذكر العبد جميع ما عمل وما كتب عليه، حتى كأنه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها) ^(١) .

٣ - احتمال البعض ان كتاب الاعمال هو (الضمير الباطن) للانسان فقد اثبت علم النفس اليوم ان اعمال الانسان تؤثر في وجدان الانسان أو اللا شعور، وهذا التعبير لا يختلف عن تعبير الفيض الكاشاني وسائر المفسرين الذين اشرنا اليهم سابقاً، وفي الواقع ان هذا التعبير هو تعبير جديد مشتق من المعنى القديم، والتفسير الثالث هو الانسب من بين التفاسير الاربعة .

على اية حال يجب ان نقول بما ان مسألة كتاب الاعمال وردت في القرآن الكريم وأكدها الروايات المختلفة لذا يجب ان نؤمن بها حتى وان لم ندرك مفهومها ومحتواها بشكل تفصيلي مثلها كمثل سائر المسائل المتعلقة بيوم القيامة ، أو ان كتاب الاعمال هو مجموعة الآثار التي خطتها اعمالنا خارج وجودنا ونجمع يوم القيامة وتوضع بين ايدينا حسب الامر الالهي، وبتعبير آخر هي مجموعة الآثار التكوينية التي يمكن تشبيهها من بعض الوجوه بالافلام أو اشرطة التسجيل أو ما شاكلها .

ونحن لا نجزم بأن الامر هكذا بل نقول ان هناك اوجه للشبه بينها .

٣ - فلسفة كتاب الاعمال

مما لا شك فيه ان البيان المفصل لكتاب الاعمال في الآيات القرآنية والروايات ، مع الأخذ بعين الاعتبار ان هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من اعمالنا واقوالنا ونياتنا إلا احصاها يهدف بالدرجة الاولى الى الآثار التربوية له . ولقد ذكرنا ان القرآن اتخذ من بيان جميع المعارف الواقعة وسيلة لتهديب النفوس وتكامل الارواح وتنمية مكارم الاخلاق وتقوية عامل التقوى عند الانسان كما انذر الناس كافة ليراقبوا افعالهم واقوالهم وسلوكهم وصرح بأن كل شيء في كتاب وسوف تعرض الاعمال من خلاله يوم القيامة من غير نقصان .

حقاً ان الاحاطة العلمية لله تعالى هي فوق كل شيء ومن يؤمن ايماناً كاملاً بالاحاطة العلمية لله وحضوره الوجودي في كل شيء وفي كل زمان لا حاجة له بكتاب الاعمال ولكن في الغالب يمكن ان يكون الالتفات لهذه الحقيقة منشأً لكثير من الآثار على اغلب الناس فمن يعلم بأن هناك اشرطة لتسجيل صوته اينما كان وهناك جهاز مجهز بافلام لتصوير كل حركاته وسكناته ، سرها وعلنها ، ظاهرها

وباطنها ، وأن هذه الاشرطة والافلام سوف تعرض على شكل ملف كامل غير قابل للاتكار في إحدى المحاكم الكبيرة ، فيقينا ان مثل هذا الانسان سوف يراقب كل افعاله وأقواله وسلوكه بشكل كامل وتكون التقوى هي الحاكمة على ظاهره وباطنه . ان الايمان بكتاب الاعمال الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها والايمان بالملائكة الذين يراقبون الانسان ليلاً ونهاراً ويحصون عليه كل اعماله ، وكذلك الاعتقاد بأن هذه الصحف سوف تنشر يوم القيامة في ساحة المحشر ويكشف فيها عن جميع السرائر فتوجب الخزي والفضيحة امام الاصدقاء والاعداء ، كلها لها اثر عجيب في الكف عن الذنوب وارتكاب المآثم .

هذا على عكس كتاب الابرار الذي يكون موجباً للفخر والكرامة في المحشر وحتى انه افضل واعلى وأكثر تأثيراً مما ذكر في مقال الشريط والقلم ، وهذا عامل مهم جداً للتزود من الاعمال الصالحة ولولا ضعف الايمان احياناً ووجود حجب الغفلة التي تكون العامل في ابعاد الانسان عن هذه الحقائق المهمة لكان الاعتقاد بهذا المبدأ القرآني كافياً لتربية وتزكية كل انسان .

ونذكر هنا بأن بعض الادعية تتضمن دروساً تربوية للانسان تركز على ابراز هذا المعنى فتقرأ في الدعاء المعروف بدعاء كميل (وكل سيئة امرت بأثباتها الكرام الكاتبين الذين وكلتهم بحفظ ما يكون مني ، وجعلتهم شهوداً عليّ مع جوارحي ، وكنت انت الرقيب عليّ من ورائهم والشاهد عليّ ما خفي عنهم) .

ونختم هذا البحث بذكر حديث للامام الصادق (عليه السلام) ، جاء في الاحتجاج للطبرسي أنه : سأل رجل الامام الصادق (عليه السلام) : عن علة وجود الملائكة المأمورين بتثبيت الاعمال الصالحة والسيئة ونحن نعلم بأن الله (عالم السر والخفيات وما هو اخفي) . فقال الامام (عليه السلام) : استعبدهم بذلك وجعلهم شهوداً عليّ خلقه ليكون العباد بملازمتهم اياهم اشد على طاعة الله مواظبةً وعن معصيته اشد انقباضاً ، وكم من عبد

يهم بمعصية فذكر مكانهما فارعوى وكف ، فيقول ربي يراني ، وحفظني عليّ بذلك تشهداً!

٤ - اقسام كتب الاعمال :

كما اشرنا سابقاً ومن خلال الآيات القرآنية ان هناك ثلاثة انواع من كتب الاعمال :

الاول: هو الكتاب الذي يختص بكل انسان ويعرض جزئيات الاعمال ويعطى باليمين أو بالشمال .

ولقد ورد هذا المعنى في كثير من الآيات التي سبق ذكرها ومن جملتها الآية ١٣ (سورة الاسراء) ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عَقِبِهِ ۖ وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۚ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۖ﴾ ، ان تعبير كُلُّ إِنْسَانٍ ، وكذلك تعبير كِتَابَكَ اشارة واضحة الى كتاب الاعمال الخاص ، وكذلك جملة ﴿هَآؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهِ﴾ ، وجملة ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَوتَ كِتَابِيهِ﴾ وفي سورة الحاقة الآيات ١٩ ، ٢٥ اشارات اخرى الى هذا المعنى .

الثاني: كتاب اعمال الامم ، أي الكتاب الذي تجمع فيه اعمال الامة كما ورد في سورة الجاثية ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ وقد ورد تعبير كتاب بصيغة المفرد وليس بصيغة الجمع وهذا يدل على ان المراد (الامة الواحدة) .

الثالث: الكتاب الذي ثبت فيه اعمال جميع الأمم وكافة الناس من الاولين والآخرين ، فهو بمثابة السجل المركزي العام الذي تسجل فيه جميع الحسابات ، ولقد اشارت الآية ٤٩ (سورة الكهف) اليه ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ ، وجاء هذا التعبير بصورة اوضح في الآية ١٢ (سورة يس) بعد ذكر الاموات وبيان كتابة الاعمال وآثارها من قبل الله تبارك وتعالى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ

مُبين، فورد الكتاب في هذه الآية بصيغة نكرة (التي تفيد الافراد) وهذا يدل على احصاء جميع اعمال الخلائق بل ان كل الاشياء قد جمعت في كتاب واحد.

وقد اشار المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان الى هذه الكتب الثلاثة^(١)، ولو أن هناك اختلاف بين الآيات التي استشهد بها وبعض هذه الاقسام التي ذكرناها.

ويمكن ان نستفيد من آيات سورة المطففين (الآية ٧، ٨) بأن (الابرار) أو (الفجار) كل منهم له كتاب خاص وهذا يعد النوع الرابع من كتب الاعمال.

على اية حال لا توجد اية منافاة بين هذه الكتب ولا مانع من تسجيل عمل ما في عدة كتب وسجلات مختلفة لغرض التأكيد والدقة وهذا ما نلاحظه في حياتنا اليومية.

ان هذه الكتب وعلى اختلاف انواعها كلها تؤكد على حقيقة واحدة مفادها أن يكون الانسان واعياً يقظاً وليعلم بأن اعماله لم تسجل في مكان واحد بل انها مثبتة في عدة اماكن وسجلات، ومن غير الممكن ان يصدر من الانسان عمل ما ولا يحاسب عليه يوم القيامة، يجب ان نعلم بأن الله تعالى هو الرقيب على الانسان من وراء كل هذه الكتب والشهود.

٥- خصائص كتاب الاعمال :

من مجموع الآيات والروايات السابقة يمكن تحديد الخصائص الاتية لكتاب الاعمال وهي :

١- كتاب الاعمال هو صحيفة عمل لمجموع عمر الانسان وهو لا يفادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها.

٢- كتاب الاعمال حي ناطق ولا مجال فيه لادنى شك أو ريب وهو غير قابل للانكار وكل شخص يتمكن من الفصل والحكم بمشاهدته وحتى المجرمون انفسهم .

٣- ان كاتبى صحيفة الاعمال ملكان وقد عبر عنهما القرآن بـ (رقيب) و(عتيد) وكما ذكرنا - يستفاد من بعض الروايات ان ملائكة الليل والنهار منفصلون عن بعضهم البعض وكل واحد منهم يعطي مكانه للآخره ولقد اشارت بعض آيات القرآن الكريم اشارة عابرة الى هذا المعنى .

٤ - يظهر من بعض الروايات انه اضافة الى ذلك يوجد ملائكة آخرون توكل بهم مهمة تسجيل بعض الاعمال الخاصة كما ورد في حديث عن الرسول الاكرم (ﷺ): (اذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من ابواب المسجد ملائكة يكتبون الاول فالاول ، فاذا جلس الامام طروا الصحف وجاؤوا يستمعون الذكر)^(١) .

٥ - يستفاد من بعض الروايات ان الحسنات تكتب فوراً اما السيئات فتكتب بعد حين (لعل صاحبها يتوب عن فعله) .

ونختم هذا البحث بذكر بعض الجمل القيمة من ادعية الامام السجاد (عليه السلام) والتي وردت في (الصحيفة السجادية) ولتردد معه سوية هذا الدعاء (اللهم يسر على الكرام الكاتبين مؤنتنا، واملأ لنا من حسناتنا صحائفنا ولا تخزننا عندهم بسوء اعمالنا)^(٢) فصل على محمد وآله واجعل ختام مأثصى علينا كتبة اعمالنا توبة مقبولة)^(٣) .

١ - صحيح مسلم: المجلد ٢ ص ٥٨٧ الحديث ٨٥٠، ولعل مفهوم الحديث هو اذا تأخر المصلي عن الوقت المحدد لصلاة الجمعة فسوف لن يكتب اسمه في تلك الصحف .

٢ - الصحيفة السجادية الدعاء السادس .

٣ - الصحيفة السجادية: الدعاء الحادي عشر .

تجسيد الأعمال

٤- تجسيد الاعمال

تمهيد:

المطلعون على الآيات القرآنية يعلمون جيداً بأن بعضاً منها يتحدث عن «تجسيم» الاعمال يوم القيامة.

أي ان عمل كل شخص يعرض امامه في ذلك اليوم خيراً كان أو شراً، ويكون موجباً لنشوته وسعادته أو عذابه ومعاناته، موجباً للفخر والكرامة أو للفضيحة والعار. فهل من الممكن ان تبقى أعمال الانسان في حين انها عبارة عن مجموعة حركات تمحي وتزول حال انقضائها؟ وهل من الممكن ان يتحول «العمل» الذي هو جزء عوارض وجود الانسان الى مادة وجسد ويظهر بصورة مستقلة؟

ان الكثير من المفسرين عجزوا عن الاجابة عن هذه الاسئلة، فما كان لهم من حيلة إلا القول بالحذف والتقدير فقاولوا مثلاً ان المراد بـ (حضور الاعمال) أو مشاهدة العمل «حضور وشهادة جزاء العمل وثوابه وعقابه».

ولكننا نعتقد اليوم بأن لكل من هذه المسائل جواب وعلى هذا الاساس لانجد أي دليل لانكار ظواهر هذه الآيات التي تدل على تجسّد أعمال الانسان. والجدير بالذكر، ان محتوى هذه الآيات مع الأخذ بنظر الاعتبار معناها الحقيقي لا المجازي، ذات معنى عميق ونافذ ومؤثر ويحل لنا الكثير من المشاكل

ويجيب عن الكثير من الاسئلة التي تطرح حول عالم القيامة والحساب، كما تترك أثراً كبيراً ومفيداً في حياة الانسان من الناحية التربوية، وقبل ان نتناول هذا الموضوع نستمع خاشعين لبعض الآيات القرآنية التي تشير الى مسألة نجس الاعمال :

١ - ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ اَشْتَاتًا لِّيرَوُاْ اَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ الزلزال ٦-٨٧.

٢ - ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ الكهف-٤٩.

٣ - ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ آل عمران-٣٠.

٤ - ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ﴾ الزمر-٤٨^(١).

٥ - ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ آل عمران-٣٠.

٦ - ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ

مَا احْضَرَتْ﴾ التكوير-١٢-١٤.

٧ - ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوفِّيَهُمْ اَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ الاحقاف-١٩.

٨ - ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ الزمر-٧٠.

٩ - ﴿وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّى اَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ البقرة-٢٧٢^(٢).

١٠ - ﴿ثُمَّ تُوفَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ البقرة-٢٨١، آل عمران-١٦١.

١١ - ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ

هَذَا مَا كُنَزْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ التوبة-٣٥^(٣).

١٢ - ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الطور-١٦، التحريم-٧^(٤).

١ - وجاء ظير هذا المعنى في الآية ٥١ سورة الزمر.

٢ - هناك آيات اخرى بهذا المضمون: النمل ١١١، آل عمران ٢٥ هود: ١١١.

٣ - سورة الزمر الآية ٢٤ تفيد نفس المعنى.

٤ - هناك آيات اخرى بنفس المضمون في: الاعراف ١٤٧ و ١٨٠، سبأ ٣٣.

جمع الآيات وتفسيرها

يومئذ يرى كلُّ عمله :

لقد اشارت الآيات الاولى الواردة في آخر سورة الزلزال ثلاث مرات الى مسألة تجسم الاعمال «يومئذ يصدر الناس أشتاتاً لئيروا أعمالهم» و «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» ثم «وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» :

اشتاتاً : جمع (شت) على وزن شط بمعنى «التفرق» ، وقد يكون سبب تفرق صفوف الناس في ذلك اليوم ورود كل امة بإمامها أو ان يتفرق أهل الايمان عن أهل الكفر والعلماء عن المتعلمين والشهداء عن غيرهم ^(١) .

مثقال : بمعنى وزن والذرة هي الاجزاء الصغيرة جداً لذا فقد فسّرت الذرة احياناً بذرات الغبار واخرى بالنملة الصغيرة جداً، ويشير ظاهر الآيات بوضوح ان الاعمال الصالحة أو السيئة تتجسد امام صاحبها في المحشر، ولو ان بعض المفسرين -ويسبب عدم قبولهم لمسألة تجسم الاعمال للأسباب التي أشرنا اليها في بداية الموضوع - قالوا بالتقدير فقدروا كلمة «جزاء» والمراد حضور ومشاهدة جزاء الاعمال ، وقال البعض ان الرؤية هنا بمعنى العلم والمعرفة أي المشاهدة بعين العقل وقال البعض الآخر المراد مشاهدة كتاب الاعمال ومن المسلم ان التفاسير الثلاثة لاتتوافق مع ظاهر الآية وذلك لأن تقدير اخذ (الجزاء) أو (صحف الاعمال) ، مخالف لظاهر الآية والرؤية هنا بمعنى المشاهدة بالعين لا بمعنى بالقلب التي تنصب مفعولين، فمن المعلوم ان الرؤية القلبية تتعدى الى مفعولين والرؤية الظاهرية تتعدى الى مفعول واحد وبما اننا نجد في هذه الآية مفعولاً واحداً لا أكثر (فتأمل) .

والجدير بالذكر ان ابن عباس وبالرغم من كونه أقدم المفسرين قد قبل هنا بمسألة تجسم الاعمال فيقول في رواية وردت عنه :

١ - تاج العروس في شرح القاموس مادة (شت) ويقول البعض انها جمع شتيت والبعض الآخر جمع شتات.

(ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله اياه، اما المؤمن فيغفر له سيئاته ويثيبه بحسناته، واما الكافر فيرد حسناته تحسيراً له)^(١).

ونرى في أحاديث المعصومين الواردة في تفسير الآيات تعابير واضحة تدل على تجسّم الاعمال، منها ما قاله أمير المؤمنين في هذا المعنى:

(فمن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من خير وجده ومن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من شر وجده)^(٢)

ونجد في الآية الثانية تعبيراً آخر في هذا المعنى، فبعد الإشارة الى كتاب الاعمال قال تعالى ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.

وقال تعالى ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

لقد استبعد جمع من المفسرين فكرة تجسّم الاعمال في هذه الآية فقد فسروها احياناً بمعنى حضور اخبار الاعمال في كتاب الاعمال وحياناً اخرى بمعنى حضور جزاء الاعمال ولكن البعض الآخر احتمل حضور نفس العمل^(٣).

وعلى حد قول المرحوم العلامة الطباطبائي «يمكن ان يكون ذيل الآية شاهداً على هذا الموضوع، وذلك لأن حضور نفس العمل لاثبات نفي الظلم عنه تعالى افضل وأوضح، (فتأمل جيداً).

ولقد طرحت الآية الثالثة هذا التعبير بصراحة وتفصيل أكثر، وذلك لأن الكلام كان يدور في الآية السابقة حول الكافرين والمجرمين اما في هذه الآية «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امداً بعيداً» فهناك قولان في تفسيرها:

الاول: هو ان يجد كل انسان ما عمل من أفعال الخير والشر محضرة يوم

١- تفسير روح البيان: المجلد ١٠ ص ٤٩٤.

٢- تفسير نور الثقلين: المجلد: ٥، ص ٦٥٠.

٣- روح المعاني: المجلد ١٥ ص ٢٦٧ وروح البيان: المجلد ٥ ص ٢٥٤.

القيامه.

الثاني: هو ان يجد كل انسان ماعمل من اعمال الخير محضرة ويود ان تكون هناك فاصلة زمانية بينه وبين اعماله السيئة، ويرجع هذا الاختلاف في تفسير الآية الى مكان الوقوف فيها، فمنهم من قال: ان الوقوف بعد (محضرا) ومنهم من قال: ان الوقوف بعد سوء^(١).

لكن النتيجة في كلا التفسيرين واحدة، وذلك لان المستفاد من المعنى الثاني ايضاً هو حضور اعماله السيئة لديه وان كان يتمنى وجود فاصلة بينه وبينها. وقد ورد احتمال آخر لبعض المفسرين فيرى ان المجرمين يودون لو ان بينهم وبين السوء الذي عملوه امداً بعيداً أو أن بينه وبين هذا اليوم امداً بعيداً^(٢).

من المعلوم ان الانسان يتمنى ان يكون بينه وبين الامور التي ينفر منها فاصلة مكانية بعيدة في حين ان المراد بـ (امداً بعيداً) الذي ورد في الآية الكريمة الفاصلة الزمانية البعيدة. ومن الممكن ان يكون سبب هذا التعبير هو ان احتمال الحضور والتلاقي يكون أكثر في الفواصل المكانية، اما احتماله في الفواصل الزمانية فهو معدوم.

فمثلاً ان الشخص الذي يعيش خلال سنوات الحرب العالمية يشعر بنوع من القلق والاضطراب حتى وان كان بعيداً عن ساحة العمليات العسكرية. اما الذين تفصلهم فواصل زمنية (بعيدة) عن تلك الحرب فهم لا يشعرون بأي قلق أو اضطراب بسببها.

ومن المعلوم ان (الامد) يأتي دائماً للزمان، ويقول الراغب في مفرداته ان معناه يقترب من معنى (ابد) مع فارق بسيط هو ان (ابد) زمان ليس له أي حد محدود اما (امد) فهو زمان له حد مجهول.

فالحديث في الآية السابقة يدور حول حضور الاعمال، وتحدث هذه الآية

١ - الحالة الاولى (واو) وما عملت من سوء استثنائية اما الحالة الثانية فلكون الواو: عاطفة وجملة «تود» جملة حالية.

٢ - ورد هذا الاحتمال في تفسير (روح البيان) المجلد ٢ ص ٢١ وفي تفسير في ظلال القرآن - المجلد الاول ٥٦٩.

عن احضار الاعمال ، اي انها تتناول موضوعاً اوسع ، ووفقها فان الله تعالى وبقدرته المطلقة يحضر جميع الاعمال الصالحة والسيئة شاء صاحبها ام أبى ، ولذا قال بعض المفسرين ان هذا التعبير هو أكثر اخافة وافزاعاً من تعبير الآية السابقة .

ونواجه في الآية الرابعة تعبيراً جديداً أيضاً حول هذا الموضوع ، قال تعالى : ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق﴾ ، ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾

بدا : مشتقة من مادة (بدو) بمعنى الظهور التام ، ولهذا قالوا للبراري (البادية) لظهورها بعكس المدن التي كانت تحاط بالاسوار والحصون فتختفي وراءها .

(سيئات ما كسبوا) تعني أعمال السوء ، وقد فسرها البعض بمعنى جزاء هذه الاعمال ، أو انهم قدروا كلمة جزاء . لكن ظاهر الآية يفيد ان أعمالهم السيئة تظهر واضحة جليلة في ذلك اليوم وذلك لأن السيئات - جمع سيئة - تعني العمل السيء وليس سوء العمل (تأمل جيداً) .

ومن الممكن ان يكون هذا التعبير اشارة الى ان الكثير من الاعمال السيئة في هذا العالم تخفي صورتها الحقيقية مثل الرياء الذي يراد به غير الله تعالى . ولكن في ذلك اليوم وهو يوم الكشف عن السرائر ويوم الظهور يكشف عن الوجه الحقيقي لجميع الاعمال ، كما نقرأ في الحديث الوارد عن الرسول الاكرم (ﷺ) في تفسير هذه الآية (هي الاعمال حسبوها حسنات فوجدوها في كفة السيئات) .

وهذا الحديث بدوره شاهد آخر على نظرية تجسّم الاعمال^(١) .

ونواجه في الآية الخامسة تعبيراً جديداً ايضاً . فبعد ان ذمت الآية البخل واخبرت بأن البخل ليس خيراً لهم وانما هو ضرر عليهم ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ .

يستفاد من هذا التعبير ان الاموال التي لم تدفع الحقوق المتعلقة بها ولم ينتفع بها أحد ستكون على شكل طوق تطوّق به رقاب البخلاء يوم القيامة ، فكما كان وزرها على عواتق

اصحابها دون الانتفاع بها كذلك الامر في يوم القيامة .

ولقد ورد في تفسير العياشي نقلاً عن الامام الباقر (عليه السلام) في توضيح معنى هذه الآية قال : (ما من عبد منع زكاة ماله الا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً في عنقه)^(١) .

ولكن ما المقصود بالبخل (مما آتاهم الله من فضله) ؟

يعتقد بعض المفسرين ان الآية ناظرة الى البخل في العلم والمعرفة وحسب ما جاء في سبب نزولها حيث نقل عن ابن عباس ان الآية نزلت في كتمان اليهود لعلامات الرسول (ﷺ)^(٢) .

في حين نجد ان هناك روايات عديدة ذكرت بأن الآية تتعلق بمانعي الزكاة ولا يستبعد أن يكون للآية مفهوماً واسعاً بحيث تشمل كل الهبات الالهية التي ذكرناها والتي لم نذكرها.

ويلاحظ ان جمعاً من المفسرين لم يأخذوا بظاهر الآية وفسروها بجزاء الاعمال ، وقال البعض منهم ان المراد بالآية الكريمة البخلاء فهم مكلفون يوم القيامة بالاتيان بمثل هذه الاموال ولكنهم لن يتمكنوا من ذلك (اي ان الذي سيطوقون به هو التكليف وليس نفس الاموال) .

ولكن هذا النوع من التفاسير اضافة الى كونه يفتقر الى الدليل كذلك فهو مخالف لظاهر الآية ولا يتوافق مع الروايات الكثيرة المنقولة عن أئمة الهدى (عليهم السلام) في تفسير هذه الآية .

وتتحدث الآية السادسة عن موضوع جديد وهو (حضور واحضار العمل) قال تعالى : ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ .

قال المرحوم الطبرسي في مجمع البيان : ما احضرت بمعنى ما وجدت

١ - تفسير العياشي : المجلد ١ ص ٢٠٧ حديث ١٥٨ .

٢ - لقد وردت رواية ابن عباس في كثير من التفاسير من جملة تفسير القرطبي ، تفسير روح المعاني ، تفسير المنار ، ذيل الآية مورد البحث .

حاضراً من عملها، والعجيب انه يقول على اثرها ان لاحضار الاعمال معنى مجازياً لأن العمل ليس بالشيء الذي يبقى اذ انه يفنى بعد الاداء. وقال البعض ان المقصود هو حضور صحيفة الاعمال^(١).

في حين - كما سنوضح ذلك في فقرة (التوضيحات) - ان الاعمال لا تفنى ابداً ولا مانع من تجسمها على شكل صور مناسبة في ذلك اليوم. ان احضار العمل سواء كان بمعنى (الاحضار) أو (الحضور) (حيث فسّر بكلاً المعنيين) يدل على مانصبوا اليه من هذا البحث.

* * *

استيفاء الاعمال يوم القيامة:

يلاحظ في الآية السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرية تعبيراً آخر في مسألة تجسم الاعمال، حيث ورد في هذه الآيات ان أعمال الانسان الصالحة والسيئة (الخير والشر) ترجع الى الانسان يوم القيامة كاملة غير منقوصة، والظاهر من كل هذه الآيات ان المراد هو استيفاء العمل نفسه وليس جزاء العمل أو كتاب العمل. قال تعالى في الآية السابعة: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾.

وقال تعالى في الآية الثامنة بعد الاشارة الى محكمة القيامة وكتاب الاعمال والشهود ونفي الظلم: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. فكان هذه الآية تبين علّة الحكم بالحق وعدم ظلم الآخرين الذي ورد في الآية التي تسبقها فتقول: كيف يقع الظلم والجور على أحد في حين ان نفس أعماله توفى اليه؟! اضافة الى ذلك ان هذه المحكمة تدار من قبل من هو أعلم بما يفعلون.

ولقد جاء نفس هذا المعنى في الآية التاسعة ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ

وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ» .

وكذلك ورد في الآية العاشرة نفس هذا المعنى ايضاً ولكن بعبارات أكثر عمومية وشمولية «ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» .

(ووفيت وتوفى ويوفى) كلها مشتقة من مادة (وفا) التي تعني الوصول الى الكمال و (توفيه) بمعنى دفع الشيء بصورة كاملة و(توفى) بمعنى أخذ الشيء كاملاً.

ويجب ان نذكر بأن القرآن يشير في بعض الموارد بقوله : «إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (الزمر / ١٠) .

ولكنه يقول في الآيات السابقة وبعض الآيات الاخرى انهم يستوفون نفس أعمالهم. ونحن نقول : انه لا منافاة بين الاثنين وذلك للاستفادة من مجموع الآيات الكريمة انه اضافة الى تعلق الاجر والجزاء بالاعمال ان اعمال الانسان تستوفى في ذلك اليوم ، ويمكن ان نشبه هذه المسألة بالسائق الذي يخالف مقررات المرور فكما انه يتعرض لخسارة الاصطدام كذلك يجب عليه دفع الغرامة .
ولقد فسّر الكثير من المفسّرين هذه الآيات بأنها كناية عن أخذ جزاء الاعمال ، لكننا نقول هذا كلام لا دليل له بل وكما لاحظنا ان هناك الكثير من الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة (التي سنشير اليها لاحقاً) تدلل على تجسّم اعمال الانسان يوم القيامة.

لذا فنحن ندع الآيات ومعناها الظاهري ..

وعلى هذا الاساس نقيم بحث تجسّم الاعمال كما فعل ذلك جمع من أهل التحقيق والتفسير والحديث .

وفي الآية الحادية عشرة اشار الى الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، وكذلك اشار الى العذاب الأليم الذي ينتظر هؤلاء ، فتذكر هذه الآية بوضوح ان الدراهم والدنانير التي اكتنزوها ولم ينفقوها في سبيل الله سوف تظهر في

عرصات القيامة وسوف يحمى عليها في نار جهنم وتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم،
ويقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم (فتأمل جيداً)

من هنا يطرح هذا السؤال : لماذا خصّ هذه الاعضاء الثلاثة دون غيرها ؟
قال البعض : لأنها تشمل معظم البدن (وانما خص هذه الاعضاء لأنها معظم
البدن)^(١).

وقيل : لأن صاحب المال اذا رأى الفقير قبض جبهته وزوى يمينه وطوى عنه
كشحه وولاه ظهره.

وقيل : ان المقصود من كسب الاموال حصول فرح في القلب يظهر أثره في
الوجوه، وحصول شبع ينتفخ بسببه الجنبان، ولبس ثياب فاخرة يطرحونها على
ظهورهم، فلما طلبوا تزيين هذه الاعضاء الثلاثة، لاجرم ان حصل الكي على الجباه
والجنوب والظهور^(٢).

صحيح ان هذه الآية لم تذكر صراحة تجسّم الاعمال ولكنها دلت على
حضور الاموال في عرصات يوم القيامة، ويمكن ان نعتبر نفس هذا التعبير اشارة الى
مسألة تجسّم الاعمال. وبالرغم من الزوال والفناء الظاهري لهذه الاموال ولكنها
بحكم المعاد سوف تعود وتتجسد هناك ويحمى عليها في نار جهنم وتكوى بها
جباههم وجنوبهم وظهورهم.

ثم يطرح هذا السؤال : ما المراد بالكنز هنا ؟ هناك آراء عديدة في الاجابة عنه :
فمما لاشك فيه ان الكنز مفهوم واسع يشمل جميع الاموال النفيسة التي تجمع
وتدخر في مكان ما، فهل يدل مفهوم الآية على حرمة ادّخار جميع الاموال الفائضة
عن الحاجة ويترتب عليه ماورد في هذه الآية من عقوبات ؟ ام ان الآية تخصّ الذين
يمتنعون من اداء الحقوق الشرعية كالزكاة وغيرها ؟ اما الذين يؤدون الحقوق الواجبة

١ - مجمع البيان : المجلد ٥ ص ٢٦.

٢ - لقد ذكر الفخر الرازي ستة أوجه في تفسير هذه الآية (المجلد ١٦ ص ٤٨) وأشار الى هذا المعنى تفسير روح
البيان وروح المعاني والقرطبي.

فلن تشملهم هذه الآية وماورد فيها من عقوبات؟

المشهور بين الفقهاء والمفسرين والمحدثين : هو المعنى الثاني ولقد وردت بهذا الخصوص أحاديث كثيرة منقولة عن الطرفين (السنة والشيعه) ومن جملتها الحديث المنقول عن الرسول الاعظم (ﷺ) : (أي مال أدت زكاته فليس بكنز)^(١). كما ان هناك احتمالاً آخر وهو أن المجتمع الاسلامي اذا تعرض نتيجة تجميد رؤوس الاموال الى أزمة اقتصادية شديدة، فيجب على اصحاب رؤوس الاموال اخراجها، اما عن طريق الانفاق أو عن طريق استثمارها في مجالات العمل المختلفة من أجل تأمين المتطلبات الضرورية للمجتمع.

فاذا اكتنزوا أموالهم في مثل هذه الاوضاع ولم يخرجوها للتداول والاستثمار فسوف تشملهم الآية الكريمة، ولعل ما يؤكد هذا المعنى ما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) اذ قال : (ما زاد على أربعة آلاف فهو كنز أدّى زكاته أو لم يؤدها وما دونها فهي نفقة فبشرهم بعذاب اليم)^(٢).

جزاؤكم هو أعمالكم :

يلاحظ في الآية الثانية عشرة تعبير جديد في هذا الصدد وخلاصته ان جزاءكم يوم القيامة هو نفس أعمالكم ونجد هذا التعبير في كثير من الآيات القرآنية فتارة يقول تعالى : ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ولقد ورد عين هذا التعبير في الآية ١٦ سورة الطور والآية ٧ سورة التحريم.

وقال في الآية ٥٤ من سورة يس : ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

١ - تفسير المنار: المجلد ١٠ ص ٤٠٦، وفي صحيح البخاري هناك باب تحت عنوان (مأدى زكاته فليس بكنز) المجلد ١ الجزء ٣ ص ١٣٢.. وكذلك نور الثقلين: المجلد ٢ ص ٢١٣.

٢ - تفسير نور الثقلين: المجلد ٢ ص ٢١٣ الحديث ١٣٢.

وفي الآية ٩٠ من سورة النمل: ﴿مَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

وفي الآية ٥٢ من سورة يونس: ﴿مَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

وهناك تعابير أخرى من هذا القبيل بشيء من الاختلاف، وبناءً على ما جاء في ظاهر هذه الآيات فإن جزاء الإنسان نفس عمله، فأعماله ترجع إليه فتكون سبباً إما في ازعاجه ومعاناته وإما في سعادته وسروره، وهذا دليل واضح على مسألة تجسّم الأعمال وعودتها إلى صاحبها وهذا من العدل الإلهي .

وقد اعتبر بعض المفسرين أن (الباء) هي الباء السببية فيصبح المعنى ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إنما تجزون بسبب الأعمال التي اقترفتوها ^(١) .

في حين أن هذا التعبير على خلاف ظاهر الآية وهو غير جائز من غير دليل ولا علة للتقدير في الآيات السالفة الذكر، فما المانع من أن تحضر هناك نفس أعمال الإنسان لتشكّل القسم الأعظم من جزائه .

يقول المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان ذيل الآية ٧ سورة التحريم (أي أن العذاب الذي تعذبون به هو عملكم السيء الذي عملتموه وقد برزت لكم اليوم حقيقته) ^(٢) .



يتضح من مجموع الآيات التي تعرضنا إلى تفسيرها أننا إذا لم نتلاعب بظواهرها ولم نؤولها أو نحملها على معنى آخر ولن نقدر لها أي تقدير كجملة أو كلمة، ويتعبّر أوضح أن فسّرنا ظواهر الآيات كما هي عليه توضّح بأن أعمالنا تتجسد في يوم القيامة وفي محكمة العدل الإلهي أو المواقف الأخرى من ذلك اليوم. فتتجسّم وتبرز أمامنا بأشكال تناسب تلك الأعمال فتظهر السيئة على صورة موجودات قبيحة

١ - قدر البعض كلمة (على) فيصبح المعنى (على ما كنتم تعملون).

٢ - تفسير الميزان: المجلد ١٩ ص ٢٨٨.

مخفية ومزعجة ، اما الصالحة فتتجسد على صورة موجودات لطيفة مسلية وتكون قرين الانسان .

توضيحات :

١ - ذكر تجسم الاعمال في الروايات الاسلامية :

لقد طرحت مسألة التجسم بنطاق واسع في الروايات الاسلامية المنقولة عن الشيعة وأهل السنة، وهذه الكثرة بلغت الى حد جعل المرحوم الشيخ البهائي يقول في احدي محاضراته : (تجسم الاعمال في النشأة الآخروية قد ورد في أحاديث متكررة من طرف المخالف والمؤلف)^(١). وسنتطرق هنا الى بعض من هذه الاحاديث :

١ - ورد في حديث عن الرسول (ﷺ) : روي اصحابنا «رضي الله عنهم» عن قيس بن عاصم قال : وفدت مع جماعة من بني تميم على النبي (ﷺ) فدخلت عليه فقلت : يا نبي الله عظنا موعظة ننتفع بها، فانا قوم نعبر في البرية، فقال الرسول الاعظم (ﷺ) : (يا قيس ان مع العز ذلاً، وان مع الحياة موتاً وان مع الدنيا آخرة، فان لكل شيء حسيباً، وان لكل أجل كتاب وانه لا بد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وانت ميت، فان كان كريماً أكرمك، وان كان لثيماً اسلمك ثم لا يحشر الا معك، ولا تحشر إلا معه، ولا تسأل الا عنه فلا تجعله الا صالحاً فانه ان صلح انست به وان فسد لا تستوحش الا منه وهو فعلك).

وورد في ذيل الرواية ان قيس قال : يا رسول الله احب ان يكون هذا الكلام ابياتاً من الشعر نفتخر بها على من يلينا ونذخرها فأمر من يأتيه بحسان ، فقال الصلصال (كان حاضراً في المجلس) يا رسول الله قد حضرني ابيات أحسبها توافق ما أراد قيس ، فقال هاتها. فقال :

تجنب خليطاً من مقالك انما قرين الفتى في القبر ما كان يفعل

وان يصحب الانسان من قبل موته ومن بعده الا الذي كان يعمل! ^(١)

٢ - في حديث آخر نقله ابو بصير عن الامام الباقر (عليه السلام) أو الامام

الصادق (عليه السلام) :

(اذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ست صور، فيهن صورة أحسنهن وجهاً وأبها من هيئة، وأطيبهن ريحاً، وانظفهن صورة، قال : فتقف صورة عن يمينه، واخرى عن يساره، واخرى بين يديه، واخرى خلفه، واخرى عند رجله وتقف التي احسنهن فوق رأسه، فان أتى عن يمينه منعت التي عن يمينه ثم كذلك الى ان يؤتى من الجهات الست قال : فتقول التي أحسنهن صورة: ومن انتم جزاكم الله عني خيراً؟ فتقول التي عن يمين العبد: انا الصلاة، وتقول التي عن يساره انا الزكاة وتقول التي بين يديه انا الصيام، وتقول التي خلفه : انا الحج والعمرة وتقول التي عند رجله. انا بر من وصلت من اخواني؛ ثم يقلن من أنت ؟ فانت أحسننا وجهاً، وأطيبنا ريحاً وأبها مناهية؟ فتقول انا الولاية لآل محمد صلوات الله عليهم اجمعين) ^(٢)

٣ - ورد في حديث عن الرسول (ﷺ) : انه قال : (قال لي جبرائيل : يا محمد!

عش ماشئت فانك ميت. واعمل ماشئت فانك ملاقيه) ^(٣).

٤ - وفي حديث آخر عن الرسول (ﷺ) : (ان المؤمن اذا خرج من قبره صور له

عمله في صورة حسنة فيقول له من انت ؟ فوالله اني لاراك امراً صدق، فيقول له انا عمالك فيكون له نورا وقائدا الى الجنة) ^(٤).

١ - نفس المصدر: ص ٢٢٨ و ٢٢٩ ولكن يستفاد من رواية المرحوم الصدوق في كتاب الخصال ان هذين البيتين قالهما قيس بن عاصم بالبداة. وكان البيت الاول وحسب ما نقله الشيخ الصدوق:

تخير خليطاً من مقالك انما قرين الفتى في القبر ما كان يفعل.

(الخصال المجلد ١ باب الثلاثة الحديث ٩٣).

٢ - كتاب الحسن طبق نقل العلامة المجلسي: البحار: ج ٦، ص ٢٣٤، الحديث ٥٠.

٣ - كنز العمال: المجلد ١٥ ص ٥٤٦.

٤ - كنز العمال: المجلد ١٤ ص ٣٦٦.

٥ - في الختام نذكر حديثاً ورد عن الامام الصادق (عليه السلام):

(اذا وضع الميت في قبره مثل له شخص وقال له يا هذا كُنَّا ثلاثة، كان رزقك فانقطع بانقطاع اجلك، وكان أهلک فخلفوك وانصرفوا عنك، وكنْتَ عملك فبقیت معك، اما اني كنت أهون الثلاثة عليك)^(١).

والاحاديث الواردة في هذا المجال كثيرة ومن جملتها احاديث المعراج، حيث لما عرج بالرسول (ﷺ) مرَّ على الجنة والنار فرأى كل زمرة من العاصين تعذب بعذاب شبيه بأعمالهم، كذلك شاهد أعمال الصالحين وهم منعمون برفقة أعمالهم.

وما الاخبار الواردة حول الغيبة وتجسمها على صورة قطعة لحم متعفنة يتناولها المغتاب إلا دليلاً آخر على هذا المعنى.

ويمكن ان نستنتج من مجموع الروايات والآيات السابقة بأن أعمال الانسان تتجسم في عالم البرزخ والقيامة في صور متناسبة مع العمل. وان تعبير «الذين يأكلون أموال اليتيم ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا»^(٢) يدل على ان باطن العمل يتمتع بنوع من التجسم فأكل مال اليتيم يتجسم في باطنه على شكل نار محرقة ومن لم تكن له عين باصرة لا يرى حقيقة هذا الامر.

من هنا نقول انه ليس من الضروري حمل جميع هذه الآيات والروايات على المعنى المجازي والكنائي أو ايجاد تأويل أو تقدير لها مع العلم بأنه لا يوجد أي مانع من العمل بظواهر مثل هذه الآيات وكما سنبين ذلك لاحقاً.

١ - فروع الكافي: المجلد ٣ (كتاب الجنائز) ص ٢٤٠ الحديث ١٤.

٢ - سورة النساء: الآية ١٠.

٢ - تجسم الاعمال في منطق العقل :

الاشكال الاول الذي يرد على مسألة تجسم الاعمال - كما يتضح من بعض كلمات المرحوم الطبرسي في مجمع البيان - هو ان العمل من جنس «العرض» لا «الجوهر» فلا يحمل خواص المادة ولا هو مادة بنفسه لذا فهو ينعدم بعد حدوثه .
والاشكال الثاني : هو ان العمل يمحى ويزول بعد وجوده، لذا فاننا لانجد اثراً من أحداثنا وأفعالنا الماضية الا ما أحدثت تغييراً في بعض المواد الموجودة كتحول الحصى والخشب والجص الى بيت معين، وهذا ليس بتجسم وانما هو تحوّل ناشيء من العمل (تأمل).

ولكن اذا أخذنا النكتتين ادناه بنظر الاعتبار فسوف تتضح الاجابة عن الشبهتين السالفتين وكذلك تتضح مسألة تجسم الاعمال :
النكتة الاولى : لقد اثبت اليوم بأن المادة لا تفنى بل ان أعمالنا تظهر على شكل طاقات مختلفة .

فان تحدّثنا فستنتقل اصواتنا على شكل أمواج صوتية الى الفضاء المحيط بنا وتصطدم بالاجسام التي تعترضها من جدران وأبنية وأجسام اخرى وتتحول الى طاقة اخرى، ومن الممكن ان يتغير شكل هذه الطاقة مرات عديدة ولكنها لن تفنى، وما حركات أيدينا وارجلنا الا نوعاً من الطاقة وهذه الطاقة (الميكانيكية) لا تفنى ابداً وانما تتحول الى طاقة حرارية أو طاقة اخرى .

والخلاصة : ليست المادة لا تفنى فقط بل وحتى طاقتها فهي ثابتة ولا تفنى أيضاً ولكنها تتحول من شكل الى آخر .

النكتة الثانية : وقد تم اثباتها بشكل قاطع من خلال بحوث العلماء وتجاربهم وهي : ان هناك علاقة قريبة بين المادة والطاقة، اي ان المادة والطاقة مظهران لحقيقة واحدة، فالمادة عبارة عن طاقة (متراكمة) اما الطاقة فهي مادة غير متراكمة (منتشرة)، لذا يمكن ان تتحول احدهما الى الاخرى تحت شروط معينة، فالطاقة

الذرية هي تحول المادة الى طاقة ، ويتعبّر آخر ان الطاقة الذرية : هي انشطار نواة الذرة وتحرير طاقتها الكامنة، ولقد اثبت العلماء بأن الطاقة الحرارية للشمس تحصل نتيجة الانفجارات الذرية فيها،ولهذا السبب تفقد مقداراً كبيراً من وزنها كل اربع وعشرين ساعة ولو ان هذا النقصان ضئيل قياساً بوزن وحجم الشمس .

بلا شك وكما ان المادة قابلة للتحول الى طاقة كذلك الطاقة فانها قابلة للتحول الى مادة،اي اذا تراكمت الطاقة المنتشرة فانها تأخذ حالة الجسم المادي .

وعلى هذا الاساس لا يوجد أي مانع من عدم فناء ومحو أعمالنا وأقوالنا التي هي طاقات مختلفة وارجاعها مرة اخرى بأمر الله على صورة جسم .

ومن المسلّم له ان كل عمل سيكون جسماً بما يتناسب مع خواصه وصفاته، فالطاقات التي تبذل في سبيل الاصلاح وخدمة الناس والتقوى تظهر على شكل صورة جميلة تتناسب مع ذلك العمل .

اما الطاقات التي تستعمل في مجال الظلم والجور والقبائح والفساد فتتجسم على شكل صورة قبيحة مخيفة .

وعلى هذا الاساس تعتبر حالة تجسّم الاعمال احدى المعاجز العلمية للقرآن ، وكما اتضح ان بقاء الطاقة وتحول المادة اليها وبالعكس لم تكن مطروحة آنذاك،فان الآيات والروايات تحدثت عن هذا الأمر بشكل واضح،وبناءً على ذلك لم تكن هناك مشكلة لا من حيث كون الاعمال من جنس «العرض» ولا من حيث اذاتها .كما اشرنا - لا تنفى وان العرض والجوهر وجهان لحقيقة واحدة ويتضح هذا المعنى أكثر بالالتفات الى حركة الجوهر حيث ان القائلين بحركة الجوهر يستدلون بالحركات التي تقع في العرض ويرون ان العرض والجوهر لا ينفكان عن بعضهما البعض .

ومن المناسب ان نشير الى هذه النقطة في نهاية الموضوع :

ان العالم الفرنسي (لافوازيه) استطاع بعد جهود حثيثة ان يكتشف اصل بقاء المادة واثبت ان مواد العالم لا تنفى أبداً بل تتحول من شكل الى آخر .

ولم يمر طويلاً إلا واكتشف (بيركوري وزوجته) ولأول مرة العلاقة بين الطاقة والمادة من خلال تجاربه على المواد النشطة إشعاعياً (وهي اجسام تتكون من ذرات غير ثابتة وتتحول بعض أجزائها تدريجياً الى طاقة) وبهذا الاكتشاف تبدل قانون بقاء المادة الى قانون بقاء (المادة - الطاقة).

وبهذا تزلزل أصل بقاء المادة وحلّ محله أصل بقاء مجموعة (المادة - الطاقة)، واخذت عملية تحول المادة الى طاقة عن طريق انشطار الذرة بعداً علمياً واسع النطاق.

ومن خلال هذا تبين بأن هناك علاقة قريبة بين انشطار المادة والطاقة ويمكن ان تتحول احدهما الى الاخرى، وبعبارة اخرى ان المادة والطاقة شكلان لحقيقة واحدة.

ان هذا الاكتشاف العلمي الكبير أحدث تحولاً واسعاً في مجال البحوث والتجارب العلمية التي اثبتت وحدة العالم أكثر فأكثر.

ان هذا المبدأ في مسألة المعاد وبحث تجسم الاعمال ودفع الاشكالات التي كان الأقدمون يطرحونها حول هذه المسألة كان له أكبر الاثر في ازالة موانع اثبات تجسم الاعمال.

* * *

٣- تجسد اخلاق وسجايا الانسان:

يستفاد من الروايات الاسلامية اضافة الى مسألة تجسيم الاعمال بأن أخلاق الانسان تتجسد ايضاً في ذلك اليوم على صورة انسان.

وعلى هذا الاساس فان الناس يردون المحشر على صور مختلفة بما يتناسب مع اخلاقهم وطباعهم. فالذين لهم قلوب مملوءة بنور الايمان تظهر وجوههم بيضاء ونورانية منيرة، وبعكس ذلك ذوي القلوب المظلمة الذين كانوا يعيشون في ظلمات الكفر

الكريم: ﴿يَوْمَ تُبْيَضُ وَجُوهُ

وَتَسْوَدُ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»^(١).

وقال تعالى في موضع آخر فيما يتعلق بعاقبة المذنبين والظلمة ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾^(٢).

نعم ، ان ذلك اليوم هو يوم الظهور ويوم التجسم ، فتبرز كل الاخلاق والطباع الداخلية والملكات النفسية ويصطبغ جميع جسد الانسان بلونها الخاص كما قال الشاعر الفارسي :

كُلُّمَا يَسْتَوِطِنُ الْقَلْبُ ، لَهُ هَيْئَةٌ يَوْمَ انْبِعَاثِ الْبَشَرِ
وَالَّذِي كُنْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا فَبِهِ تُحْشَرُ يَوْمَ الْمَحْشَرِ

ونقل بعض المفسرين الكبار عند تفسيرهم قوله تعالى في الآية ١٨ سورة النبأ :
﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ حديثاً عن الرسول (ﷺ) وخلاصته :

كان معاذ بن جبل جالساً بالقرب من رسول الله (ﷺ) في منزل أبي ايوب الانصاري، فقال : يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، فقال : «يامعاذ سألت عن عظيم من الأمر ثم أرسل عينه ثم قال : عشرة أصناف من امتي يحشرون اشتاتا قد ميزهم الله من المسلمين فبعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم عُمِّي يترددون وبعضهم صم بكم لا يعقلون وبعضهم بمضغون ألسنتهم يسيل القبح من أفواههم لعباً بتميزهم أهل الجمع، وبعضهم أشد نتناً من الجيف الحديث» فاما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس، واما الذين على صورة

١- آل عمران : ١٠٦-١٠٧.

٢- يونس : ٢٧.

الخنازير فأهل السحت والعمى الجائرون في الحكم ، والصم البكم المعجبون بأعمالهم ،
والذين يمضغون سنتهم العلماء والقضاة الذين خالفت أعمالهم أقوالهم ، والذين أشد تنأ
من الجيف الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله تعالى في أموالهم^(١) .

١ - مجمع البيان المجلد ١٠ ص ٤٢٣ ولقد نقل هذا الحديث الكثير من المفسرين مثل أبي الفتوح الرازي والقرطبي وروح البيان وتفسير الصافي في ذيل الآية (يوم ينفخ).

محكمة العدل الالهية

محكمة العدل الالهي الشهود والميزان والحساب

تمهيد:

ان أهم منزل من منازل يوم القيامة مرحلة حساب الخلائق في محكمة العدل الالهي بحضور مختلف الشهود، فتوزن الاعمال هناك بميزان خاص .
نعم هي محكمة تزلزل الجمع، محكمة تشير الخوف والوجل.
قاضيا وحاكمها هو الله جل جلاله، وشهودها الملائكة المقربون .
محكمة كتابها لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها فيسأل الانسان فيها عن كل شيء حتى عن نياته .

وآيات المعاد في هذا المجال كثيرة فأحياناً تشير الى أصل محكمة الآخرة
والى قاضيا سبحانه وتعالى، وأحياناً اخرى تشير الى الشهود وثالثة الى الميزان
ورابعة الى كيفية الحساب في ذلك اليوم.

ان الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع اضافة الى ما طرحه من نكات
ظريفة ودقيقة في كافة المجالات، فانها تحمل رسالة تربوية هامة لها أبلغ الاثر في
تنوير القلوب بنور التقوى والهداية وتدفع الانسان الى القيام بمسؤولياته على أكمل

وجه لتوصله الى طريق السعادة والتكامل .

بعد هذه المقدمة نرجع الى القرآن الكريم ولنقرأ هذه الطائفة من الآيات :

- ١ - ﴿وَأَنْ كُلَّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يس-٣٢ .
- ٢ - ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ الحج-٦٩ .
- ٣ - ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بَالَدَيْنِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ التين-٨٧ .
- ٤ - ﴿فَالْيَنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ يونس-٤٦ .
- ٥ - ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ النساء-٤١ .
- ٦ - ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ن-٢١ .
- ٧ - ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النور-٢٤ .
- ٨ - ﴿وَقَالُوا لِمَ لِي جُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ

شَيْءٍ﴾ فصلت - ٢١

- ٩ - ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ الزلزال-٥٤ .
- ١٠ - ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ النبأ-٤٧ .
- ١١ - ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الاعراف-٨-٩ .
- ١٢ - ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ص-٥٣ .
- ١٣ - ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ آل عمران-١٩٩، المائدة-٤، ابراهيم-٥١، غافر-١٧ .
- ١٤ - ﴿إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ الانعام-٦٢ .
- ١٥ - ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ الفاشية-٢٥-٢٦ .
- ١٦ - ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الاسراء-١٤ .

جمع الآيات وتفسيرها

الجميع محضرون في تلك المحكمة العظمى :

الآية الاولى تتحدث عن حضور جميع الامم امام الله تعالى في محكمة عدله، فبعد ان اشارت الى الاقوام السابقة وكيفية هلاكها بذنوبها، قال تعالى: ﴿وان كل لما جميع لدينا محضرون﴾^(١).

صحيح ، ان الناس وجميع المخلوقات في هذه الدنيا وفي كافة الاحوال ، في محضر الله تبارك وتعالى ، فهو حاضر في كل مكان وهو معنا اينما كنا وهو أقرب الى أنفسنا منا، ولكن هذه المسألة تتخذ بعداً آخر يوم القيامة فمن جهة يكشف عن جميع حجب الغفلة والجهل فتصبح الابصار حادة قوية والقلوب ذات بصيرة نافذة ومن جهة اخرى تتجلى في ذلك اليوم آثار الله اكثر من أي وقت اخر فتقام محكمة عدله وتوضع موازين القسط .

حقاً انه مشهد عظيم الكل يحضر ليقف على ما قدم وعمل في الحياة الدنيا، الكل في محضر الله تعالى .

وتتحدث الآية الثانية عن حكمه وقضائه تبارك وتعالى بين الناس في ذلك اليوم، وعن الفصل بين جميع اختلافات ومنازعات الناس في دار الدنيا بمختلف اشكالها وألوانها (العقائدية، أو اليومية) . قال تعالى ﴿اللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ .

من البديهي ان انواع الحجب التي تحيط بفكر وقلب الانسان في هذه الدنيا (حب الذات، الانانية، المصالح الشخصية والطائفية، العصبية حجاب الذنوب)

١ - يرى جمع من المفسرين بان الآية تعرب على هذا النحو: ان : نافية ولما : بمعنى الآ وجميع بمعنى مجموع خبر (كل) وتنوين كل بدل من المضاف اليه المحذوف وكانت في الاصل (كلهم) ومحضرون : اما هو خبر بعد الخبر أو صفة لجميع وعلى هذا المعنى تكون الجملة هكذا (وما كلهم الآ مجموعون يوم القيامة محضرون لدينا) وهناك احتمالات اخرى في اعراب الآية .

لا تسمح بحل اختلافات الاقوام والشعوب ، ولكن عندما ترفع جميع هذه الحجب ويصبح الحكم لله الواحد القهار عند ذلك تنتهي جميع الاختلافات والمنازعات مان المبطلين بعد ازالة هذه الحجب ينقادون ويرجعون الى عقولهم بحيث يصبحوا هم المحاسبون لأنفسهم وسنبين ذلك في البحوث المقبلة .

الآية الثالثة أبرزت نفس هذا المعنى بلباس آخر فتحدثت عن الانسان الجحود الذي خلقه الله سبحانه وتعالى ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ . وعلى اثر سوء اعماله سقط في (أسفل سافلين) فتقول الآية ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالْدِينِ﴾^(١) أي : أي شيء يكذبك أيها الانسان بعد كل هذه الحجج والدلائل بالدين الذي هو الجزاء والحساب (أو أي شيء يكذبك أيها الانسان بعد كل هذه الحجج والدلائل على انكار المعاد) .
﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ، أي (أليس الله بأقضى القاضين فيحكم بينك يا محمد وبين أهل التكذيب بك) .

اجل فهو أحكم الحاكمين لعلمه المحيط بكل شيء فلا تخفى عليه خافية ، فالعلم هو الشرط الاول الذي يجب توفره في الحاكم هذا من جهة، ومن جهة اخرى انه تعالى غير محتاج لأحد وليس له مصلحة في شيء حتى يقضي لأجله على خلاف الحق .

اما الناس فهم محتاجون فيقعون تحت تأثير المصالح الشخصية أو الجماعية وأحياناً العواطف والاحاسيس فيحكمون حكماً على خلاف الحق والعدل، وبما ان الله سبحانه وتعالى منزّه عن كل ذلك فهو أحكم الحاكمين وخير الفاصلين .
والجدير بالذكر ان كثيراً من التفاسير ذكرت هذه الرواية عن الرسول

١ - عد أغلب المفسرين الخطاب موجهاً الى الذين سبق ذكرهم في السورة المباركة واحتمل البعض انه موجه الى النبي الاكرم (ﷺ) . (تفسير مجمع البيان الفخر الرازي والقرطبي وفي ظلال القرآن - وفي الصورة الاولى تفسير كلمة (يكذبك) (يجعلك كاذباً) وفي الصورة الثانية يفسر على معناه الظاهر بمعنى ما ينسبك الى الكذب . وعلى أية صورة كانت فان المراد ان لا مجال لانكار المعاد وتكذيب النبي (ﷺ) لكثرة الآيات والأدلة الواضحة .

الاكرم (ﷺ) وهي انه (ﷺ) عندما كان يكمل هذه الآيات كان يقول : (بلى وانا على ذلك من الشاهدين).

هذا الحديث هو دليل على التفسير الذي ذكرناه سابقاً (تأمل جيداً).

* * *

شهود المحشر :

ورد في الآية الرابعة كلام عن شهود يوم القيامة فأشارت الى الذات الالهية المقدسة فهو تعالى الشاهد الأول ، قال تعالى : ﴿قَالَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾^(١).

فالمحكمة التي يكون حاكمها الله جل جلاله وشاهدها الاول ذاته المقدسة فهل من الممكن ان يغفل عن شيء ويفوته عند الحساب ؟!

ومن البديهي ان تكون مثل هذه المحكمة محكمة مثيرة للقلق والوجل لا لاحتمال الحكم بغير الحق بل بسبب سوء اعمالنا .

لقد فسّر بعض المفسرين الشهادة هنا بمعنى الجزاء والمجازاة في حين انه لاضرورة لمثل هذا التفسير الذي يخالف ظاهر الآية، وذلك لعدم وجود أي مانع لشهادة الذات الالهية المقدسة على اعمال العباد في ذلك اليوم وتعيين شهادته تعالى عن طريق الهام الملائكة المأمورين بالحساب.

وقيل : ان شهادة الله تكون بانطاق اعضاء جسم الانسان فتجيب عما اقترب من اعمال في الدنيا .

الآية الخامسة تحدّثت عن شهود المحشر ايضاً ولكن كان الكلام فيها يدور حول شهادة الانبياء على أممهم وشهادة الرسول الاعظم (ﷺ) على سائر الانبياء

١ - جاء في تفسير الميزان : ان (ثم) الواردة في الآية اعلاه تُفيد التراخي في البيان لا التراخي في الزمان في حين انه يمكن تصور التراخي الزماني في مورد الآية ايضاً. وذلك لأن الله تعالى يحشر الناس أولاً وبعدها يشهد على اعمالهم نظراً لأن المقصود هو الشهادة عند الحساب .

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ .

ومع ان هذه الآية لم تذكر صراحة بأن شهداء كل امة هم انبياءها، ولكن القرائن تؤكد هذه المسألة وذلك لأن نبي كل امة هو أكثر الناس صلاحية للشهادة على امته كما ان الآية الكريمة لم تذكر من المراد بكلمة (هؤلاء) أي من هم بالدقة؟ ولذا فقد ذكر المفسرون احتمالات لذلك قال بعضهم: انها اشارة الى قوم الرسول (ﷺ) فهو الشاهد عليهم يوم القيامة^(١).

ولكن الكثير من المفسرين قالوا: (هؤلاء) اشارة الى الانبياء الذين اشارت اليهم الجملة السابقة وبهذا سيكون الرسول (ﷺ) هو الشاهد على جميع الشهود. ويطرح هنا هذا السؤال: وهو كيف تكون شهادة الانبياء (ﷺ) على اممهم أو شهادة الرسول (ﷺ) على الانبياء مع العلم ان معنى الشهود مقترن مع الحضور، وان كل نبي من الانبياء وبضمنهم الرسول الاعظم (ﷺ) جاؤوا في مقطع زمني محدد من تاريخ اممهم؟

من الممكن ان يكون المعنى ان ارواحهم في عالم البرزخ ناظرة الى احوال اممهم وهذا ينافي قوله تعالى في الآية ١١٧ من سورة المائدة التي تتكلم عن لسان المسيح (ﷺ): ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ . فيتضح من خلال هذه الآية الكريمة ان الشهادة تعني الحضور المقترن بالرقابة والتصدي للانحراف وليس بالحضور فقط، اما فيما يتعلق بالرسول الاكرم (ﷺ) فمن الممكن ان يكون حضور روحه المقدسة على طول تاريخ البشرية هو السبب لهذه الشهادة كما ورد في الروايات أن أول ما خلق الله تعالى نور محمد (ﷺ): عن علي (عليه السلام) ان الله تبارك وتعالى خلق نور محمد (ﷺ) قبل ان يخلق السموات والارض والعرش والكرسي واللوح والقلم والجنة والنار^(٢).

١- ورد هذا الاحتمال في تفسير الكشاف: المجلد ١ ص ٥١٢ وكذلك في مجمع البيان المجلد ٣ ص ٤٩.

٢- بحار الانوار: مجلد ١٥ ص ٤.

وهناك احتمال آخر في معنى الشهادة وهو مقياس الوزن ، وذلك لأن الانسان الانموذج يمكن ان يكون بعمله شاهداً على أعمال الصالحين (الاشخاص الذين تشبه اعمالهم أعمال القدوة) وكذلك شاهداً على أعمال الطالحين. وبهذا المعنى لا ينحصر مفهوم الآية بشهود القيامة .

ومن المناسب ان نذكر حديثاً للرسول الاكرم (ﷺ) في هذا الصدد فقد روي ان النبي (ﷺ) قال لابن مسعود: (اقرأ القرآن عليّ) قال: قلت يا رسول الله انت الذي علمتنيه قال: أحب ان أسمعه من غيري، قال ابن مسعود: فافتتحت سورة النساء حتى انتهيت الى هذه الآية بكى الرسول (ﷺ) قال ابن مسعود فامسكت عن القراءة^(١) . وفي نقل آخر وفي ادامة لنفس هذه الرواية قال: يارب هذا على من انا بين ظهرانهم فكيف من لم أرهم^(٢) .

والظاهر ان بكاء الرسول (ﷺ) انما كان للمواقف المرعبة للمحشر ولثقل المسؤولية التي وضعت على كاهله (ﷺ) الا وهي مسؤولية الشهادة على الحاضرين والأهم منها الشهادة على الغائبين والتي سوف يقدر عليها بالتأييد الالهي. ولقد جاء في الآية السادسة حديث عن شهادة الملائكة في تلك المحكمة العظيمة، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ .

السائق: هو الذي يسوق النفوس الى محكمة العدل الالهي .

الشهيد: هو الذي يشهد على اعمالها .

ومع ان الآية الكريمة لم تصرّح بأن هذا (السائق) و (الشهيد) هو من الملائكة أو من غيرهم ؟ وفي حال كونه من الملائكة فأي ملك منهم ؟

ولكن القرائن تؤكد بانه من الملائكة حتماً نظراً لكونهم الأنسب لتحمل مثل هذه المسؤولية الثقيلة وان هذا العمل يناسب نفس الملكين المأمورين بتسجيل

١ - التفسير الكبير: المجلد ١٠ ص ١٠٥ .

٢ - تفسير القرطبي: المجلد ٣ ص ١٧٦٧ . ولقد نقل هذا الحديث الآخرون بشيء من الاختلاف .

«الحسنات» و «السيئات» حيث انهما أكثر الملائكة اطلاعاً على اعمال بني آدم.

وقيل : ان السائق هو ملك الموت الذي يسوق الانسان نحو الموت والشاهد هو عمل الانسان أو جوارحه أو صحيفة اعماله .

وفسر البعض السائق بالشیطان والشاهد بالملك .

ويلاحظ ان جميع هذه التفاسير لاتنسجم مع ظاهر الآية باستثناء التفسير الاول، على أية حال ان الملك الاول هو المانع من الفرار، اما الملك الثاني فهو المانع من الانكار فيومئذ لا محيص للفرار ولا حيلة لانكار الاعمال .

ويمكن ان نشبه حال هؤلاء كمثل حال المجرمين الذين يساقون في هذه الدنيا الى المحكمة، فهناك مأمور يسوقهم من ورائهم وآخر يتقدمهم بصحيفة أعمالهم .

وجاء في نهج البلاغة : ان الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام) قال بعد هذه الآية : (سائق يسوقها الى محشرها وشاهد يشهد عليها بعملها) ^(١) .

ولقد ورد في الآية السابعة كلام عن (شهادة الجوارح) في تلك المحكمة المرعبة قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ السِّتَةُ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . وقال في موضع آخر: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ دَيْنَهُمُ الْحَقُّ﴾ .

اما الآية الثامنة فهي تشبه الآية السابقة مع شيء من الاختلاف الا وهو حديثها عن شهادة الجلود قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا * قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ .

يظهر من الآيات اعلاه ان الله سبحانه وتعالى يعطي لاعضاء البدن وحتى الجلد القدرة على التكلم والنطق فكل عضو من الاعضاء يجيب عما فعله، فالأذن تجيب عما سمعت والعين عما رأت والجلد عما لمس واللسان عما قال واليد عما

انجزت والقدم عن الطريق الذي سلكته فتعترف كل من الاعضاء الستة عن الاعمال التي اكتسبتها.

ويقول بعض المفسرين ان بعض هذه الاعضاء يشهد على جميع اعمال الانسان كشهادة الزمان وليس على اعمال ذلك العضو فقط، وهذا لا يتناسب مع ظاهر الآيات. ومن هنا يتضح انه اذا لم تذكر بعض الاعضاء (كالقلب والمخ والشفيتين والاسنان بالنسبة للنيات والاغذية والاقوال) فلا يعني ذلك ان الشهادة تنحصر بهذه الاعضاء الستة. وعلى ما يظهر ان كل عضو يجيب عن اعماله وأي شاهد أصدق من هذا!

من الواضح ان هذه الشهادة (شهادة الجوارح) ولو انها تنطق بقدرة الله سبحانه وتعالى الا انها ليست شهادة الله مباشرة ولقد نقل ذلك الفخر الرازي في تفسيره^(١) كأحد التفاسير التي قيلت بشأن هذه الآية.

ومن الطريف، طبق هذه الآيات ان المذنبين يعاتبون جلودهم: ﴿لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ أو - كيف شهدتم ضدنا - (السؤال الاول سؤال عن السبب اما السؤال الثاني فهو سؤال عن الكيفية).

اما بقية الاعضاء الخمسة فلا تُسأل مثل هذا السؤال، ولعل السبب في ذلك هو ان شهادة الجلود أكثر عجباً من سائر الشهادات وانها شهادة غير متوقعة تماماً. اضافة الى ذلك ان الجلود تلمس بشكل من الاشكال جميع الافعال ولا تختص بعضو معين لا كما قال بعض المفسرين بأن هذه اشارة الى «الفرج» فقط.

ونختم كلامنا في هذا البحث بالاشارة الى انه يستفاد من بعض الآيات الكريمة بأن سائر اعضاء الجسم ماعدا «اللسان» تشهد على الانسان اولا، وبعد ان تتضح المسائل يعترف اللسان ايضاً بالحقيقة كما ورد ذلك في الآية ٦٥ سورة يس ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

الآية التاسعة تتحدث عن (شهادة الارض) على الانسان بما عمل قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿بِأَن رَّبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ .

وبهذا تعتبر الارض التي تؤدي عليها اعمالنا احدى أهم الشهادات في ذلك اليوم، كما ورد ذلك في حديث عن الرسول الاعظم (ﷺ) اذا قال: (اخبارها ان تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول عمل كذا وكذا، ويوم كذا وكذا، وهذا اخبارها) ^(١).

وقال ابو سعيد الخدري اذا كنت بالبوادي فارفع صوتك بالاذان فاني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول (لا يسمعه جن ولا انس ولا حجر ولا شجر الا يشهد له) ^(٢). وأعطى بعض المفسرين احتمالات اخرى في تفسير الآية: من جملتها ان الارض تخبر عن قيام الساعة في هذه الاثناء وعندما يشاهد الانسان زلزلة الساعة يقول مالها: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ ^(٣).

وورد هذا الاحتمال ايضاً وهو ان الارض تُحَدِّثُ اخبارها بما اخرجت من اثقالها فتقول (رب هذا ما استودعني)، مشيرة الى الابدان التي تلفظها. ولكن التفسير الاول اضافة الى انه ينسجم مع سياق آيات السورة كذلك يتوافق مع الاحاديث الكثيرة المنقولة عن الرسول الاعظم (ﷺ).

ولقد وردت احاديث كثيرة عن الامام علي (عليه السلام) بخصوص شهادة الارض على الصلاة وعلى تقسيم بيت المال: حيث قال: (صلّوا المساجد في بقاع مختلفة فان كل بقعة تشهد للمصلي عليها يوم القيامة) ^(٤).

١ - تفسير مجمع البيان: المجلد ١٠ ص ٥٢٦ ولقد ورد نفس هذا المعنى في تفسير القرطبي وتفسير روح المعاني وتفسير الفخر الرازي (ذيل الآية).

٢ - مجمع البيان: المجلد ١٠ ص ٥٢٦ - العبارة الموضوعية بين الاقواس هي مطابقة لرواية روح البيان المجلد: ١٠ ص ٤٩٣.

٣ - تفسير القرطبي: ذيل الآية (وقال .) ج ٢٠ ص ١٤٩.

٤ - لآلئ الاخبار: المجلد ٥ ص ٧٩ (الطبعة الجديدة).

وهنا يطرح هذا السؤال: كيف تتحدث الارض عن اخبارها؟ لقد أخذ بعض المفسرين بظاهر الآية بأن الارض ستكون في ذلك اليوم وبقدرة الله ذات ادراك وشعور وقدرة على النطق فهي تجيب عن الحوادث التي جرت على ظهرها ولا عجب من هذا الامر، حيث ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^(١) فحياة القيامة هي الحياة الحقيقية فكل شيء يصبح حيًا وحتى الارض فمن الممكن ان يكون لها نوع من الادراك والشعور.

وقيل ان المراد: هو ان الله سبحانه وتعالى يخلق فيها امواجاً صوتية ففي الواقع ان المتحدث هو الله سبحانه وتعالى: (ويمكن ان نشبه هذا المعنى باشرطة التسجيل حيث ان المتكلم ليس جهاز التسجيل وانما هو الانسان الذي سجل الشريط).

وهناك احتمال آخر: هو ان المقصود من (حديث الأرض) هو اظهار آثار الاعمال التي اكتسبها الانسان على ظهرها حيث ان لكل عمل آثار.. وانسب هذه التفاسير هو التفسير الاول.

نستنتج من مجموع الآيات السالفة الذكر ان في يوم القيامة بالاضافة الى شهادة الله تبارك وتعالى بالنسبة لاعمال العباد كذلك تشهد الانبياء والملائكة والجوارح والأرض.

* * *

ميزان الاعمال:

الآية العاشرة ناظرة الى مسألة «ميزان الاعمال» قال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً).

فكل شيء يوزن بهذا الميزان كبيراً كان أم صغيراً حتى وان كان بمقدار حبة من

خردل فسوف يأتي به الله تعالى للحساب .

وحبة الخردل : حبة صغيرة جداً خفيفة الوزن وتضرب بها الامثال لصغر حجمها وخفتها ، وهي اشارة الى أصغر الاعمال أي كل شيء في ميزان حتى صفائر الاعمال.

موازين : جمع ميزان وهو الوسيلة لقياس الاشياء، وهذا التعبير يدل على ان في ذلك اليوم لا يوجد ميزان واحد للاعمال بل هناك عدة موازين، قيل: من الممكن ان يكون لكل انسان او امة أو عمل ميزانا ، فالصلاة مثلاً توزن بميزان وكذلك الصيام والحج والجهاد أي لكل واحد منها ميزان خاص .

وقيل : ان الميزان هو واحد لا أكثر^(١)، والدليل على هذا القول بعض الروايات في هذا المجال (وسنعرض لها لاحقاً) وما صيغة الجمع (موازين) الا لبيان عظمة الميزان حيث يعادل الاف الموازين . ولكن - وكما سنتطرق الى ذلك - لا يوجد أي دليل على هذا التفسير الذي يخالف ظاهر الآية بل هناك عدة أدلة على تعدد الموازين .

وما يجب معرفته هنا هل ان ميزان القيامة هو كالموازين الدنيوية لكل ميزان كفتان ولكن يختلف عنها بكبره وعظمته ؟

واذا كان الامر كذلك فكيف توزن الاعمال وهي لا وزن لها؟

هناك عدة آراء في هذا المجال :

ف قيل: ان ما يوزن هو صحيفة الاعمال ، وقيل : ان الاعمال تتجسم يوم القيامة ..

ويصبح لها وزن .

والخلاصة ان الذين يعتقدون بأن موازين القيامة تشبه موازين هذه الدنيا قد

اجبروا على القول بأن هناك نوعاً من الأوزان والاثقال حتى يمكن وزنها بمثل هذه

الموازين .

ولكن القرآن يدل بأن المقصود بالميزان هو وسيلة لقياس الاوزان بمعناها العام وذلك لأننا نعلم ان لكل شيء وسيلة وزن تناسبه . فمثلاً وسيلة قياس الحرارة يقال لها ميزان الحرارة أو المحرار ووسيلة قياس الهواء «ميزان الهواء» أو المحرار ايضاً .

وبناءً على ذلك فان المراد بـ (موازين الاعمال) هم الذين تقاس اعمال الاخيار والاشرار بأعمالهم.. كما ينقل المرحوم العلامة المجلسي عن الشيخ المفيد (ان امير المؤمنين والائمة من ذريته (عليه السلام) هم الموازين)^(١) .

وقد نقل في (اصول الكافي ومعاني الاخبار) عن الامام الصادق (عليه السلام) ان شخصاً سأل الامام الصادق (عليه السلام) عن معنى الآية اعلاه فقال : (هم الانبياء والأوصياء)^(٢) .

ونقرأ في احدي الزيارات المطلقة لأمر المؤمنين (عليه السلام) قوله : (السلام على ميزان الاعمال)^(٣) .

فان هذه الشخصيات العظيمة موازين الاعمال، فالاعمال التي تشابه اعمال هذه الشخصيات تعتبر ثقيلة في الميزان والاعمال التي لا تشابه اعمالهم تعتبر خفيفة أو لا وزن لها أصلاً فأولياء الله هم موازين الاعمال في هذه الدنيا ولكن تبرز وتتجسد هذه المسألة في العالم الآخر.

ومن هنا اتضح الجواب عن سبب ورود (الموازين) بصيغة الجمع لكون هؤلاء العظماء متعددين .

وهناك روايات ومسائل اخرى في مجال (ميزان الاعمال) وسوف نتعرض لها في فقرة التوضيحات .

١ - بحار الانوار: المجلد ٧ ص ٢٥٢ .

٢ - تفسير البرهان: المجلد ٣ ص ٦١ . اصول الكافي: المجلد ١ ص ٤١٩ وقد ورد نظير هذا الحديث في تفاسير اخرى.

٣ - المرحوم المحدث القمي في كتابه (مفاتيح الجنان) ولقد أورد هذه الزيارة .. كزيارة أولى من الزيارة المطلقة.

الآية الحادية عشرة جاءت مكملة ومفسرة لموضوع ميزان الاعمال :

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ .

والجدير بالذكر ان الله سبحانه وتعالى جعل لكل انسان عدداً من الموازين ، وهذا التعبير يؤيد التفسير الذي يقول ان لكل عمل ميزان . وهناك احتمال : بأن لكل من الروح والجسم والاقوال والافعال ميزان خاص وهذا المعنى على القول بان الموازين جمع ميزان، في حين يرى البعض ان موازين جمع موزون (يعني الشيء الذي يوزن وهي نفس اعمال الانسان) . فمن المسلم ان يكون لكل انسان والحالة هذه موازين ، اي ان له اعمال متنوعة توزن في ذلك اليوم ، لكن هذا المعنى يبدو بعيداً نظراً لذهاب أغلب ارباب اللغة والمفسرين الى أن الموازين جمع ميزان دلت الروايات السالفة الذكر ان الموازين بمعنى وسائل لقياس الوزن ، وبناءً على هذا يكون ثقل الموازين بسبب ثقل الاعمال التي توضع فيها .

وهناك بحث آخر حول ميزان العدل في يوم القيامة سنتطرق اليه في فقرة

التوضيحات.

السرعة في الحساب :

تحدثت الآية الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة عن يوم الحساب

وسرعة الاعمال في ذلك اليوم من قبل الله تعالى .

ولقد تحدثت الآية الاولى بعد ان اشارت الى الآيات التي قبلها الى جنات

عدن وما فيها من نعم كثيرة من أطعمة وأشربة، وحوور عين .. فقالت .. ﴿هَذَا

مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ .

ان مسألة الحساب يوم القيامة مسألة واضحة جلية بحيث ان ذلك اليوم يسمى

بيوم الحساب^(١).

ولقد ورد في الآية التي بعدها حديث عن سرعة الحساب ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وكذلك ورد هذا المعنى في آيات عديدة من القرآن الكريم^(٢). وهذا التكرار يدل على أهمية وعظمة هذه المسألة، فمن جهة انها بشرى للصالحين.. حيث تخبرهم هذه الآيات بأنهم ينالون جزاءهم بسرعة، ومن جهة اخرى ان هذه المسألة هي وعيد للكافرين والاشرار بأن مجازاتهم لن تتأخر أبداً وسوف ينالون مصيرهم بسرعة كذلك.

ولقد ورت حول هذا الموضوع (سرعة الحساب) روايات مثيرة نذكر منها:
ورد في حديث عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «انه سبحانه يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة»^(٣).

هذا التشبيه في الحقيقة يدل على قصر فترة الحساب. لذا جاء في رواية اخرى:
(ان الله يحاسب الخلائق كلهم في مقدار لمح البصر)^(٤).

ان سبب هذه السرعة واضح.. حيث ان الحساب منوط بالعلم والاطلاع الكامل ومنوط ايضاً بالقدرة الخارقة.. ورعاية العدالة.

وبما ان الله سبحانه وتعالى يمتلك الحد الاكمل من هذه الصفات لذا فانه تعالى له القدرة على محاسبة جميع الناس في لمحة بصر.

ان وضع أعمال الانسان والآثار التي تتركها في روحه وجسمه . تذكرة دائماً، فهي تحتفظ بنفسها بحساب جميع الاعمال. ويمكن تشبيهها من هذه الجهة بالسيارات أو الطائرات أو السفن.. حيث من الممكن حساب جميع ماقطعته السيارة أو الطائرة طيلة عمرها من خلال العدّاد (جهاز الكيلومتر) فكذلك حساب

١ - اللام في (اليوم الحساب) لام الاختصاص . وقيل : انها لام التعليل وهذا غير صحيح.

٢ - بالاضافة الى الآية اعلاه ورد نفس هذا المعنى في الآية ٤ المائدة و ٥١ ابراهيم و ١٧ غافر

٣ - مجمع البيان : المجلد ٣ ص ٣١٣.

٤ - نفس المصدر المجلد الاول والثاني ، ص ٢٩٨.

أعمالنا فلن تحتاج إلا الى نظرة واحدة لترى وتقرأ هذا المقياس في وجود الانسان وعينه واذنه ويده ورجله وروحه .

ان كل هذه التعابير لها اهداف تربوية هامة ، ويتضح هذا بشيء من التأمل والتدبر في هذه الآيات .

لقد تحدثت الآية الخامسة عشرة عن حساب أعمال العباد من قبل الله تبارك وتعالى فقالت صراحة : ﴿إِن إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾ .

في حين ان الآية السادسة عشرة تقول : ﴿إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ . ولكن لا يوجد أي تضاد او منافاة بين الاثنتين ..

فالحسب الاصل هو الله تبارك وتعالى ولكنه يقول للانسان ايضاً .. انت تستطيع ان تحاسب نفسك بنفسك .. وفي النتيجة تكون جميع المحاسبات واحدة . لاتحيد عن الحق والعدل لماذا ؟

لأن أدلة الحساب في غاية الوضوح والجزاء معين ، والقوانين الالهية في ذلك اليوم صريحة جلية فلا مجال للاستنباطات النظرية التي هي منشأ الاختلافات في احكام القضاء .

ومن الجدير بالذكر ان كلمتي «الينا» و «علينا» اللتين وردتا في : ﴿إِن إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ﴾ ، ﴿ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾ ، خبر مقدم تفيدان الحصر ، اي رجوعهم الينا وحدنا ، وسيكون حسابهم علينا فقط . وبهذا الترتيب ان هذا تنفي جميع الاحتمالات والاشكالات الاخرى . على أبة حال ان هذا وعبد للكفار والمجرمين الذين اعرضوا عن آيات الحق وقد اشارت الى هذا المعنى الآيات التي تسبق هذه الآية .

ويمكن ان تكون هذه الآيات بشرى لأولياء الله الذين يعلمون بأن حسابهم على الله وسوف يرجعون الى محبوب قلوبهم فيجزئهم الجزاء الأوفى ، وان كان عندهم زلل أو خطأ فهو يغفر لهم بلطفه وكرمه . وهناك نكتة اخرى جديرة بالاهتمام حيث ورد في بعض الروايات والزيارات ان اياب الخلق وحسابهم على علي (عليه السلام)

والائمة المعصومين (عليه السلام). ولقد انتقد هذا الاعتقاد بعض مفسري أهل السنة مثل الألويسي في روح البيان حيث قال بأن هذا الكلام يتنافى مع ماورد في الآيات اعلاه . في حين نحن نعلم بأن الامام علي والائمة المعصومين (عليه السلام) كلهم مطبقون لأوامر الله واحكامه . وبناءً على ذلك يصبح حسابهم هو حساب الله تعالى وحكمهم كحكم الاعمال التي تقوم بها الملائكة في عالم «التكوين» و «التشريع» وتُنسب جميع هذه الاعمال الى الله سبحانه وتعالى لحكم حصولها بأمره، وفي نفس الوقت تُنسب الى الملائكة ايضاً..

وهناك شبهة اخرى مشهورة طرحها هؤلاء في هذا الصدد وهذه الشبهة هي «ما بالعرض» و «ما بالذات» ويتعبير أوضح انه لا أحد يزعم بأن حساب الخلائق واياها ينسب الى علي والائمة (عليه السلام) بصورة مستقلة بل ان الكل يقول ان هذا الفعل بذاته يختص بالله وينسب بالواسطة الى علي (عليه السلام) والائمة (عليه السلام). وهذه المسألة لا تختلف عن مسألة الشفاعة وعلم الغيب وغيرها من المسائل فجميع هذه الامور تُنسب بالذات الى الله تعالى وتُنسب بالعرض للانبياء والاصياء والملائكة .

ومن العجب ان الألويسي قد التفت في آخر كلامه بشكل عابر الى هذه النكتة، ولكنه عاد وادار مسير الحديث معترضاً بقوله: ان كان المقصود هذا فلماذا يختار علياً (عليه السلام) لاداء هذا العمل من بين الانبياء والمرسلين والملائكة المقربين^(١) . الاجابة عن هذا السؤال واضحة : وهي ان الامام علي (عليه السلام) رجل شامخ وذو درجة رفيعة وكان مجهول القدر بين الامة الاسلامية فشاء الله تعالى ومن هذا الطريق ان يبرز مقامه الرفيع لكافة الناس.

والشاهد على هذا الكلام ان هناك روايات كثيرة رويت عن طرق أهل السنة تدلل بأن الرسول (صلى الله عليه وآله) قال بحق الامام علي (عليه السلام): يا علي انت قسيم النار والجنة .

ومن جملة هذه الاحاديث :

١ - ينقل «ابن المغازلي» في كتاب «مناقب أمير المؤمنين (عليه السلام)» عن رسول الله (ﷺ) انه قال : «انك قسيم الجنة والنار»^(١).

٢ - ورد نفس هذا المعنى ايضاً عن رسول الله (ﷺ) في مناقب الخوارزمي^(٢).

٣ - ينقل ابن حجر في الصواعق المحرقة عن (الدارقطني)، قال الامام علي (عليه السلام) ضمن خطاب طويل في الشورى التي أوصى بتشكيلها عمر (سنة اشخاص) : هل فيكم رجل غيري، قال الرسول بحقه : (يا علي انت قسيم الجنة والنار؟!) فأجاب الجميع : كلا^(٣).

٤ - لقد خصص «الحافظ سليمان القندوزي الحنفي في كتابه «ينابيع المودة» باباً تحت هذا العنوان (في بيان كون علي (عليه السلام) قسيم الجنة والنار) ونقل في هذا الباب الكثير من الروايات^(٤).

٥ - لقد نقل (ابن الاثير) في كتابه «النهاية» هذا الحديث .

٦ - يلاحظ هذا المعنى صراحة في الشعر المنسوب للامام الشافعي :

علي حبه جنة قسيم النار والجنة
وصي المصطفى حقا امام الانس والجنة^(٥)

وهناك أحاديث كثيرة في هذا المجال .

مع كل هذه الأدلة فكيف يجروا الألووسي في روح المعاني ويقول ان هذا الحديث كذب واقتراء على علي (عليه السلام)؟ لماذا يمنع التعصب باب التحقيق العلمي؟

١ - احقاق الحق : المجلد ٤ ص ٢٥٩.

٢ - مناقب : ص ٢٣٤.

٣ - الصواعق المحرقة : ص ١٢٤. (ط . القاهرة).

٤ - ينابيع المودة : ص ٨٣ طبع دار الكتب العراقية .

٥ - ينابيع المودة : ص ٨٦.

توضيحات :

١ - منظر عام للمحكمة الكبرى :

من المعلوم ان سجناء هذه الدنيا لايمكنهم ادراك الحقائق المتعلقة بالقيامة بشكل تفصيلي، وذلك لأن عالم القيامة عالم فوق هذا العالم وهو أعلى حتى من ان تصور المفاهيم المهيمنة على العالم ومثل هذا كمثل الطالب الابتدائي حيث لايمكنه ان يتصور العلوم الجامعية الواسعة .

ومع هذا يمكننا ان نرسم على ضوء الآيات والروايات الواردة في هذا المجال صورة اجمالية عن هذه المحكمة .

ان عالم الآخرة عالم يكشف فيه عن جميع الحقائق المستورة . عالم تعم الحياة فيه كل شيء، وكل مكان، وحتى الجمادات . اليد، الرجل، العين، الاذن، وحتى الجلد وسائر اعضاء البدن كلها تصبح ناطقة وتجب عن الاعمال التي اكتسبها الانسان في الدنيا، هذا من جهة، ومن جهة اخرى تتجسم امام الانسان جميع اعماله، وتعرض صحف الاعمال بخطوط غير قابلة للانكار ويؤتى بالشهود من الملائكة والانبياء والاولياء، والأهم من هذا كله شهادة الذات الالهية المقدسة على اعمال الانسان.

نعم : انها عرصات مرعبة مخيفة فيحاسب الانسان على كل شيء وحتى عن الاعمال التي بمقدار حبة خردل أو مثقال ذرة فتبدو في صحف الاعمال حتى النيات، وفي لحظة واحدة يتم حساب جميع الخلائق وتُظلل راية الحق والعدل جميع ارجاء هذه المحكمة العظيمة، فيحضر فيها الصغير والكبير حتى الانبياء والمرسلون فتطوى جميع الخلافات وينهى كل جدل ويحق حق جميع مظلومي العالم ويرى الناس بأعينهم الكثير من الحقائق التي ماكانوا يصدقون بها من قبل .

ان الايمان والاعتقاد بهذه الحقائق له آثار تربوية عميقة في الانسان فتنقذه من

الضباع والحيرة وتخمد الشهوات وتقضي على المفسد وتصنع من هذا الانسان -
المادي - ملاكاً طاهراً.

وفي الحقيقة ان الهدف من عرض هذه الآيات هو نفس هدف القرآن الكريم
في بناء الانسان وتزكيته.

* * *

٢ - شهود يوم القيامة :

كما قرأنا في الآيات السالفة الذكر ان شهداء تلك المحكمة كثيرون وعلى
رأسهم الذات الالهية المقدسة.

ثم الانبياء والمرسلون .

وبعدهم الملائكة المقربون .

وبعدهم اعضاء وجوارح الانسان .

ثم الارض التي نعيش على ظهرها .

اضافة الى ذلك فقد اشارت الروايات الاسلامية الى شهداء آخرين ومن

جملتهم:

الاولياء والائمة المعصومين :

نقرأ حديثاً ورد عن الامام الصادق (عليه السلام) حول ذيل الآية ٤١ سورة النساء :

«فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً» . قال : نزلت في امة
محمد (ﷺ) خاصة ! في كل قرن منهم امام منا شاهد عليهم، ومحمد شاهد
علينا !^(١) .

من الممكن ان يكون ذكر امة محمد (ﷺ) خاصة للتأكيد اي ان هذه الامة

خاصة يوجد في كل قرن امام معصوم يشهد عليها .

وبناءً على ذلك هذا لا يتنافى مع شهادة الرسول الاعظم (ﷺ) على الانبياء السابقين .

والشاهد السابع من شهود المحشر كما تنقل بعض الروايات هو «الزمان» فقد ورد في رواية عن امير المؤمنين علي (عليه السلام) قال : ما من يوم يمر على ابن آدم الا قال له ذلك اليوم يا بن آدم انا يوم جديد وانا عليك شهيد فقل فيّ خيراً، أو اعمل فيّ خيراً اشهد لك به في يوم القيامة ، فانك لن تراني بعده ابداً^(١) .

ومن هنا يطرح هذا السؤال : لماذا كل هذه الشهود ؟

الأرض والزمان والملائكة والرسل وجوارح الانسان والأهم من هذا كله شهادة الله تبارك وتعالى الا تكفي شهادة الله وحدها ؟
نعم : انها كافية لأنه (احسن الناظرين) و (أحكم الحاكمين) (وعالم السر والخفيات) .

ولكن الهدف من كل هذه الشهادات هو تربية الانسان وتزكيته ، فكلما كان عدد الشهود والمراقبين للانسان اكثر زاد من تأثيرها التربوي على الانسان، من هنا نرى ان الله سبحانه وتعالى زاد عدد الشهود وجعلهم يحيطون بالانسان ويقفون على أعماله بشكل تام .

بلا شك انه يكفي للمؤمن الالتفات الى أحد هؤلاء الشهود ليكون مراقباً لأعماله فكيف وكل هذه الشهود ؟

ان عمل الشهود ليس له بعد تكليفي (اداري) حتى نقول لماذا نصب هذا العدد من الشهود لعمل واحد ؟ وانما هي سلسلة حقائق غيبية خارجية . حيث ان أعمالنا تترك أثراً على اعضاء جسمنا وجلودنا .. وجوارحنا .. والمحيط الذي يحيط بنا والارض التي نمشي عليها والزمان الذي نعيش فيه كمثال الشريط يحفظ ويسجل آثار عمرنا بأكمله .. ان حضور الملائكة أو شهادة الارواح الطاهرة للانبياء والاولياء

هي احدى الحقائق التي تنبع من قدرة ارواحهم وعظمتها، وان حضور الله تبارك وتعالى ايضاً في كل مكان وكل زمان حقيقة غير قابلة للانكار.

لقد تمكن العلماء اليوم من خلال التجارب والبحوث التي أجروها على الطبقات الارضية والحيوانات المطمورة بين طياتها.. والآثار الباقية من الانسان القديم من اكتشاف حقائق عن هذه الحيوانات فقد وقفوا على كيفية معيشتها وطراز حياتها في تلك العصور السحيقة وكتبوا عنها الكثير من الكتب والمقالات فاذا تمكن الانسان بعلمه المحدود ان يتكلم عن مثل تلك الحوادث ويكتشف الكثير من حقائق الحيوانات، والانسان القديم من خلال آثارها الباقية، في حين ان الدنيا دار الخفيات والآخرة دار الظهور ويوم البروز. اذن فكيف ستكون القيامة ؟

من هنا عندما يتأمل الانسان بدقة في هذه المسائل ويفكر في عمقها وعظمتها حقاً حقاً انها تهزه ولعله يصرخ واغفلناه أهكذا عملت مع كل هذه الشهود ؟!



٣- ماهو ميزان العمل ؟

يقول المرحوم الشيخ المفيد (رحمه الله): (ليس الامر في معنى ذلك على ماذهب اليه اهل الحشو من ان في القيامة موازين كموازين الدنيا لكل ميزان كفتان توضع الاعمال فيهما والخبر الوارد ان امير المؤمنين والائمة من ذريته هم الموازين فالمراد انهم المعدلون بين الاعمال فيما يستحق عليها والحاكمون فيها بالواجب والعدل)^(١).

ولكن بعض المفسرين ردوا هذا الكلام.. وقالوا ان الميزان في الآخرة كموازين

الدنيا فنوضع الاعمال فيها ، حيث تصبح الاعمال ذات وزن أو توزن صحف الاعمال التي لها وزن .

ويقول البعض كالعلامة المجلسي (عليه السلام) : (نحن نؤمن اجمالاً بالميزان اما فيما يتعلق بجزئياته وكيفيته فلا نقول شيئاً من عندنا) .

روي ان داود (عليه السلام) سأل ربه ان يريه الميزان فأراه، كل كفة كما بين المشرق والمغرب، فغشي عليه، ثم افاق فقال الهي ! من الذي يقدر ان يملأ كفته حسنات ؟ فقال يا داود اني اذا رضيت عن عبدي ملأتها بثمرة ^(١) .

وجاء في حديث آخر عن الامام الصادق (عليه السلام) : انه سئل عن الميزان ، فقال : الميزان العدل ^(٢) .

من هنا يطرح هذا السؤال كيف يكون الجمع بين كل هذه الاحاديث ؟ فقد ورد في بعضها : ان الميزان بمعنى الوجود المقدس للأئمة المعصومين (عليهم السلام) وفي حديث آخر بمعنى العدل وفي حديث داود : (كل كفة كما بين المشرق والمغرب)، وفي الظاهر ان هذه الاحاديث الثلاثة متضادة ، ولكن اذا أخذنا هذه النكته بنظر الاعتبار فسوف يزول هذا الاختلاف الصوري ، ان حقيقة الميزان هي العدل الالهي وان الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) والائمة الاطهار (عليهم السلام) هم مظهر عدله تعالى ، ومن جهة اخرى اننا نعلم انه (بالعدل قامت السموات والارض) ^(٣) .

ومن هنا يتضح سبب دهشة داود عند مشاهدته لعظمة الميزان وذلك لأنه رأى عظمة مقام العدل ومقامات محمد وآله (عليهم السلام)، بحيث وجد أعماله لاشيء قبالتها .

١ - تفسير روح البيان : المجلد ٥ ص ٤٨٦ ذيل الآية ٤٧ الانبياء، ولقد ورد نفس المضمون مع شيء من الاختلاف في تفسير الفخر الرازي ذيل الآية وكذلك في تفسير روح المعاني ذيل نفس الآية .

٢ - نور الثقلين : المجلد ٢ ص ٥ .

٣ - الفيض الكاشاني : ورد هذا الحديث في تفسير الصافي ذيل الآية ٧ سورة الرحمن .

ومن الطريف ان هذا الميزان وبهذه العظمة يمتلئ بثمره واحدة اذا كان فيها روح الاخلاص فتوجب رضا الله تبارك وتعالى .

ويعتقد بعض المحققين : ان الائمة المعصومين وأولياء الله بمنزلة كفة الميزان الاولى ، واعمال الانسان وعقائده ونياته بمنزلة الكفة الاخرى فيوازن بينهما يوم القيامة .

ويمكن ان نستفيد من هذا الكلام من خلال الآيات القرآنية التي تذكر ﴿من خَفَت مَوَازِينَهُ..﴾ أو ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينَهُ..﴾ أو التعبير الذي ورد في سورة الكهف ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾ حيث ان خفة موازين هذه الطائفة ناشئة من عدم امتلاك الاعتقادات الحققة والاعمال الصالحة واما ثقل موازين الطائفة الاخرى فهي ناتجة عن امتلاك الرصيد الثقيل من الاعمال الصالحة والاعتقادات الحققة وعلى أية حال .. تقام الموازنة بين الناس من جهة واولياء الله من جهة اخرى .. فكلما كانت أعمالنا وعقائدنا شبيهة ومقاربه لاولياء الله فسيكون ميزان عملنا ثقيلاً. (تأمل).

* * *

٤- ماهي الاعمال الثقيلة في الميزان؟

تلاحظ في الروايات الاسلامية تعابير مختلفة حول الاعمال الثقيلة في ميزان العدل الالهي ، وهذه الاعمال هي موجبات النجاة ونيل الكرامة في يوم القيامة ، وتجسد هذه الاعمال نظرية الاسلام في المسائل المختلفة ومن جملة هذه الاعمال ما يأتي :

١ - ورد عن الرسول الاكرم (ﷺ) : (ما من شيء يوضع في الميزان اثقل من حسن الخلق وان صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة) ^(١) .

٢ - وجاء في حديث آخر عن الرسول (ﷺ) في باب الشهادة بوحداية الله ونبوة الرسول (ﷺ) انه قال: (خَفَ ميزان ترفعان منه وثقل ميزان توضعان فيه) ^(١).

٣ - وفي حديث آخر عن الامام الباقر أو الصادق (عليه السلام) قال: (ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد وإن الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به فيخرج الصلاة عليه فيضعها في ميزانه فيرجح به).

٤ - ورد في بعض الروايات ^(٢) (إن بعض الأذكار مثل الحمد لله وسبحان الله والله أكبر وكذلك لا إله إلا الله تملأ ميزان العمل يوم القيامة) ^(٣).

ويستفاد من الأحاديث السابقة بأن العمل قد يكون صغيراً ولكن له أهمية كبيرة يجعل ميزان العمل ثقيلاً ويملاً كفته وهذا بسبب الأهمية العظيمة التي يوليها الإسلام لمثل هذه الحقائق (حقيقة التوحيد) (حقيقة محمد ﷺ) (حقيقة التسبيح) وكذلك الارتباط المعنوي بمحمد وآل محمد (ﷺ) أو (حسن الخلق) وغيرها. ولقد قرأنا في بعض الأحاديث السابقة أن ثمرة واحدة تنفق بأخلاص لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته تملأ كفة ميزان العدل الالهي الذي يملأ ما بين المشرق والمغرب.

٥ - يستفاد من بعض الروايات أن الناس يوضعون في الميزان ويوزنون، فذكر المرحوم الطبرسي في مجمع البيان ذيل الآية ١٠٥ الكهف قال: ورد في رواية صحيحة أن الرسول (ﷺ) قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة) ^(٤).

والسبب واضح وهو أن هؤلاء وعلى الرغم من حسن ظاهريهم لكن أعمالهم وافكارهم وشخصياتهم كانت في هذا العالم فارغة جوفاء.

١ - نور الثقلين: المجلد ٥ ص ٦٥٩ حديث ٨.

٢ - أصول الكافي: المجلد ٢ ص ٤٩٤ باب الصلاة على النبي الحديث ١٥ ورد في كتاب بحار الأنوار نفس هذا المعنى في المجلد ٩ ص ٥٦ حديث ٣١.

٣ - أصول الكافي: ص ٥٤٧ الحديث ٥.

٤ - مجمع البيان: ج ٦، ص ٤٩٧.

٥ - المسائل التي يسأل عنها يوم القيامة :

هناك روايات كثيرة تتعلق بالامور التي يُسأل عنها يوم القيامة وكل واحدة من هذه الروايات تحتوي على تعابير عميقة المعنى ، وان دراسة هذه الروايات له ابلغ الاثر في تربية الانسان وابرار معالم القيم الاسلامية .
ومن هذه الروايات ما يأتي :

١ - جاء في حديث للرسول الاكرم (ﷺ) انه قال : (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن اربع : عن عمره فيما افناه، وشبابه فيما ابلاه ، وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفق ، وعن حينا أهل البيت)^(١) .

٢ - وجاء في حديث آخر عن الرسول الاعظم (ﷺ) انه تفتح للعبد يوم القيامة على كل يوم من ايام عمره اربعة وعشرون خزانة - عدد ساعات الليل والنهار - فخزانة يجدها مملوءة نوراً وسروراً فينالها عن مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وزع على اهل النار لادهشهم عن الاحساس بألم النار ، وهي الساعة التي فيها اطاع ربه - ثم يفتح له خزانة اخرى فيراها مظلمة منتنة مفزعة فينالها عن مشاهدتها من الفزع والجزع ما لو قسم على اهل الجنة لنفص عليهم نعيمها وهي الساعة التي عصي فيها ربه ثم يفتح له خزانة اخرى فيراها فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوؤه وهي الساعة التي نام فيها أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا فينالها من الغبن والاسف على فواتها حيث كان متمكناً من ان يملأها حسنات ما لا يوصف ومن هذا قوله (ذلك يوم التغابن)^(٢) .

٣ - وجاء في حديث آخر للرسول الاعظم (ﷺ) : (انا أول قادم على الله ثم يقدم عليّ كتاب الله ثم يقدم عليّ أهل بيتي ، ثم يقدم عليّ امتي فيقفون ، فيسألهم ما

١ - خصال الصدوق : (مطابق نقل بحار الانوار المجلد ٧ ص ٢٥٨ الحديث ١) .

٢ - بحار الانوار : المجلد ٧ ص ٢٦٣ حديث ١٥ .

فعلتم في كتابي وأهل بيت نبيكم^(١).

٤ - وجاء في حديث آخر: (أول ما يحاسب به العبد الصلاة فان قبلت قبل ماسواها)^(٢).

٥ - وجاء في حديث آخر: (ان أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة عن جلسائه)^(٣).

فمن الممكن ان يشعر القارئ بأن هناك تضادا فيما يتعلق بأول ما يسأل عنه الانسان يوم القيامة فاذا كان احدهما هو الاول فكيف يكون غيره الاول أيضاً، ولكن يظهر ان المراد بأن هناك مجموعة من الاعمال يسأل عنها ضمن المرحلة الاولى، وكل الذي ورد في هذه الاحاديث انما من اجزاء هذه المجموعة، ومن المعلوم أن هذه الاحاديث توضح اهمية الموضوعات المذكورة في المنظور القرآني، اي توضح اهمية (التوحيد، والنبوة، وحب أهل البيت، والصلاة، والجلساء).

ويوجد احتمال آخر بان هناك مواقف عديدة يوم القيامة وأول ما يسأل عنه في كل موقف من هذه المواقف هو أحد هذه الأمور.

٦ - وجاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين (عليه السلام) انه قال: (اتقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم)^(٤).

يخبر هذا الحديث بأن الانسان مسؤول حتى عن البيئة والحيوانات وسوف يسأل عنها يوم القيامة.

١ - بحار الانوار: المجلد ٧ ص ٢٦٣ حديث ٢٢.

٢ - بحار الانوار: المجلد ٧ ص ٢٦٧ حديث ٣٣.

٣ - الدر المنثور: المجلد ٥ ص ٢٧٣.

٤ - نهج البلاغة: خطبة ١٦٧.

٦- اليسر والعسر في حساب المحشر :

نستفيد من مجموع الروايات وحتى الاشارات الواردة في بعض الآيات القرآنية ان حساب يوم القيامة حساب دقيق للغاية .. وجاء في حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) ^(١) انه قال لرجل : (يا فلان مالك ولاخيك ؟ قال : جعلت فداك كان لي عليه حق فاستقصيت منه حقي ، قال أبو عبدالله : اخبرني عن قول الله ﴿وَتَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ اتراهم خافوا ان يجور عليهم أو يظلمهم ؟ لا والله خافوا الاستقصاء والمدافة).

وفي حديث آخر عن الامام الباقر (عليه السلام) قال : (انما يداق الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا) ^(٢) .
ونستفيد من هذا التعبير ان هناك علاقة متينة بين «مستوى الفهم والادراك» و«التكليف» فالحساب يكون على قدر العقول .

وفيما يقابل هذه الطائفة (ذات الحساب العسير) طائفة اخرى يكون حسابها يسيراً للغاية قال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بَيِّنَةً فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ الانشقاق-٧-٨.

وورد في حديث عن الرسول (ﷺ) انه قال : (ثلاث من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً ، وادخله الجنة برحمته : تعطي من حرمك وتصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك) ^(٣) .

ويستفاد من بعض الروايات ايضاً ان (حسن الخلق) يخفف من حساب يوم القيامة ، قال الرسول الاكرم (ﷺ) : (حَسَنَ خَلْقِكَ يَخَفُّ اللَّهُ حِسَابَكَ) ^(٤) .
على اية حال يستفاد من كل هذه المصادر الاسلامية بأن الناس يختلفون

١- بحار الانوار: المجلد ٧ ص ٢٦٦ حديث ٢٧.

٢- اصول الكافي: المجلد ١ ص ١١ حديث ٧.

٣- نور الثقلين: المجلد ٥ ص ٥٣٧ حديث ١٢.

٤- بحار الانوار: المجلد ٦٨ ص ٢٨٣ حديث ٢٠.

اختلافاً كبيراً فيما بينهم بالحساب يوم القيامة ، فطائفة يشدد الله في حسابها وتضم الذين يشددون في حساب الناس في الدار الدنيا وذوي الاخلاق السيئة ، والظلمة . وطائفة اخرى يكون حساب افرادها سهلاً يسيراً ، بسبب اعمالهم الصالحة وحسن اخلاقهم ، وتساهلهم وتسامحهم مع عباد الله أو عدم تلبسهم بمال ومقام الدنيا .

وطائفة ثالثة وهي التي تدخل الجنة بغير حساب كما ورد في حديث عن الرسول الاعظم (ﷺ) في تقسيم الناس يوم القيامة قال : (ومنهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، لأنهم لم يلبسوا من أمر الدنيا بشئ ، وانما الحساب هناك على من تلبس بها هيهنا) ^(١) .

وفي المقابل : منهم الذين يدخلون النار بغير حساب كما ورد هذا الحديث عن الرسول الاعظم (ﷺ) : (ان الله عز وجل يحاسب كل خلق الا من اشرك بالله عز وجل فإنه لا يحاسب ويؤمر به الى النار) ^(٢)

ونقل عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال : (واما الثلاثة الذين يدخلهم النار بغير حساب فامام جائر ، وتاجر كذوب ، وشيخ زان) ^(٣) .

ونختم هذا البحث بحديث آخر للرسول الاعظم (ﷺ) : (سته يدخلون النار بغير حساب الامراء بالجور ، والعرب بالعصبية والدهاقين بالكبر ، والتجار بالكذب ، والعلماء بالحسد ، والاغنياء بالبخل) ^(٤) .

الهي نسألك بلطفك وكرمك لما يسرت علينا حساب يوم القيامة، وارحمنا برحمتك، الهي انك تعلم اننا قادمون اليك بيد خالية وصحيفة مظلمة يا أرحم الراحمين ويا أكرم الاكرمين .

١ - ميزان المحكة : المجلد ٢ ص ٤١٤ .

٢ - بحار الانوار : ٧٠ ص ٢٦٠ حديث ٧ .

٣ - بحار الانوار : المجلد ٧٢ ص ٣٣٧ حديث ٥ .

٤ - ميزان المحكة : المجلد ٢ ص ٤١٩ .

الصراط والمرصاد

الصراط والمرصاد

تمهيد :

الصراط : هو جسر ينصب على جهنم وعلى الجميع عبوره واشير اليه في الآيات الكريمة بينما ورد ذكره بالتفصيل في الروايات الاسلامية ، وكذلك وردت اشارات حول المرصاد الذي يفسر احياناً بمعنى الصراط و احياناً اخرى بأنه ممر خاص من نفس الصراط .

وتدل كل التعابير انه لاجل الوصول الى موضع الرحمة الالهية اي الجنة يجب العبور على جهنم وهذا الامر غير مبسر الا للصالحين والاخيار .

فالمذنبون والمجرمون والفاسقون والظالمون لايمكنهم اجتياز عبور هذه القنطرة وسوف تزل اقدامهم عنها ويقعون في جهنم ولقد وردت في تفسير هذين اللفظين وكذلك في حقيقة الصراط والمرصاد احاديث كثيرة في الروايات الاسلامية وبحوث المفسرين .

ان الاهتمام بهذا الموضوع يساعد في فهم وبيان الكثير من المسائل المتعلقة بالمعاد من جهة ، ومن جهة اخرى ان هذا الموضوع له اثر تربوي كبير في تزكية نفوس المؤمنين .

نكتفي بهذه المقدمة ، ونرجع الى القرآن الكريم ولنستمع الى آياته خاشعين :

- ١ - ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ مريم - ٧١ - ٧٢.
- ٢ - ﴿إِنْ رَبُّكَ لَبَالِغٌ مِرْصَادًا﴾ الفجر - ١٤.
- ٣ - ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ يس - ٦٦.
- ٤ - ﴿إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَأْبَا﴾ النبأ - ٢١ - ٢٢.

جمع الآيات وتفسيرها

طريق الجنة يمر عبر جهنم:

الآية الاولى تخاطب الجميع ، وتقول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ من هنا يطرح هذا السؤال ، ما المقصود من ورود جهنم ؟

هناك آراء عديدة وتفسير مختلفة حول هذه الآية فيعتقد البعض من المفسرين ان الورود خلاف الصدور وهو قصد الماء ثم يستعمل في غيره يقال وردت الماء ارده ورودا فأنا وارد والماء مورود، وقد وردت الابل الماء، قال تعالى ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ القصص - ٢٢.

ومفهوم هذا أن الناس انما يحضرون النار ويشرفون عليها من غير ان يدخلوها ويكون هذا المعنى نفس تفسير (الصراط) أي الجسر الذي يمر على جهنم فعلى الجميع اجتيازه وعبره، فتزل اقدام المجرمين ويتردون في النار أما المؤمنون فيجتازونه بسرعة ويدخلون الجنة .

وخلاصة الحديث يقول صاحب الميزان: (والحق ان الورود لا يدل على ازيد من الحضور والاشراف عن قصد)^(١). أو بتعبير الفخر الرازي (وقد ذكر وجهين لمعنى الورود) احدهما ان الورود بمعنى القرب .

ويستفاد من مجموع الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه الكلمة انها قد استعملت بمعنى الحضور والقرب واستعملت ايضاً بمعنى الدخول اي انها تحمل مفهوماً عاماً يشمل كلا المعنيين لذا قال تعالى مخاطباً المشركين: ﴿أَنْتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الانبياء: ٩٨-٩٩.

وعلى هذا الاساس فلا مانع من أن نفسر (الورود) بمعنى القرب والاشراف وانه اشارة الى جسر الصراط . والشاهد على هذا التفسير حديث ورد عن الامام الصادق (عليه السلام) حيث قال في تفسير الآية اعلاه: (أما تسمع الرجل يقول: وردنا ماء بني فلان، فهو الورود ولم يدخله) ^(١).

واوضح من هذا التعبير ماورد في حديث قصير نقله القرطبي في تفسيره وهو مروي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (الورود الممر على الصراط) ^(٢).

وهناك تفسير آخر يرجحه اغلب المفسرين: وهو ان البر والفاجر يدخلان جهنم فتكون برداً وسلاماً على المؤمنين وعذاباً لازماً على الكافرين والمجرمين، كما اصبحت النار برداً وسلاماً على ابراهيم (عليه السلام). فالنار لا تحرق اجسام المؤمنين بسبب عدم سخية هذه الاجسام مع النار فيكون حكم اجسامهم كحكم المواد التي تخمد النيران في حين ان سخية الكفار تتلائم مع النار، كمثل المواد المساعدة على الاحتراق.

والدليل على هذا الكلام رواية نقلت عن جابر بن عبد الله الانصاري في سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله يقول: (الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر الا دخلا فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً حتى ان للناس ضجيجاً من بردها) ^(٣).

١ - تفسير البرهان: المجلد ٣ ص ٢٠.

٢ - تفسير القرطبي: المجلد ٦ ذيل الآية.

٣ - تفسير أبو الفتوح الرازي: المجلد ٧ ص ٤٣١ (وقد نقل هذا الحديث جمع آخر من صاحب نور الثقلين والفخر الرازي).

إذا انتخبنا هذا التفسير تكون الآية دليلاً على مسألة جسر الصراط .

الآية الثانية : عبارة عن وعيد للظالمين فبعد ان ذكر عذابهم الدنيوي الشديد

قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ .

المرصاد : مشتقة من مادة (رصد) على وزن (حَسَد) وهو المكان الذي يرصد

منه ويرقب (قال الراغب الرصد الاستعداد للترقب) والمرصد : موضع الرصد .

فما المراد بـ (المرصاد) ؟ قال البعض : ان الله سبحانه وتعالى رقيب يرقب

اعمال عباده في هذه الدنيا ويأخذهم بالعذاب اذا طغوا وجاء في الميزان (ان الله

سبحانه وتعالى رقيب يراقب اعمال عباده حتى اذا طغوا واكثروا الفساد اخذهم

بأشد العذاب) ^(١) .

ولكن ورد في حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال : (المرصاد قنطرة على

الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة) ^(٢) .

وجاء في حديث آخر في روضة الكافي عن الامام الباقر (عليه السلام) عن

الرسول (ﷺ) بعد ان ذكر خصائص جسر الصراط انه قال : وهو قول الله تبارك وتعالى

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ ^(٣) .

نستفيد من هذين الحديثين اللذين وردا في تفسير الآية اعلاه ان الآية ناظرة

الى القيامة وجسر الصراط مع عدم وجود أي مانع من أن تكون الآية ناظرة الى كليهما،

يعني ان الله تبارك وتعالى كما أنه رقيب يرقب اعمال عباده في هذه الدنيا كذلك هو

رقيب في العالم الآخر في جوار الصراط . لكن وعلى كل حال فالآية ليس لها مفهوم

مكانى وذلك لأن الله تعالى لا يحدد بمكان والمقصود هو الاحاطة الوجودية لله على

جميع الامور .

١ - تفسير الميزان: المجلد ٢٠ صفحة ٤٠٩، صفحة ٢٨١ طبعة بيروت

٢ - بحار الانوار: المجلد ٨، ص ٦٤، ولقد وردت نفس هذه الرواية في تفسير البرهان المجلد ٤، ص ٤٥٨، كتفسير

لهذه الآية الشريفة (ان ربك لبالمرصاد) ونقلت عن الامام الصادق (عليه السلام)

٣ - نور الثقلين المجلد ٥ ص ٥٧٢ وتفسير البرهان المجلد ٤ ص ٤٥٨ .

وجاء حديث عن ابن عباس : انه قال : (ان على جهنم سبع قناطر، يسأل الانسان عند أول قنطرة عن الايمان، فان جاء به تاما جاز الى القنطرة الثانية، ثم يسأل عن الصلاة فان جاء بها جاز الى الثالثة، ثم يسأل عن الزكاة فان جاء بها جاز الى الرابعة، ثم يسأل عن صيام شهر رمضان فان جاء به جاز الى الخامسة، ثم يسأل عن الحج والعمرة، فان جاء بهما جاز الى السادسة ثم يسأل عن صلة الرحم فان جاء بها جاز السابعة، ثم يسأل عن المظالم، وينادي مناد : الا من كانت له مظلمة فليأت، فيقتص للناس منه، ويقتص له من الناس، فذلك قوله تعالى : ﴿إِنْ رَبِّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾^(١).

ونحن نستبعد ان يكون هذا الحديث وبهذه التفاصيل من الاستنباطات الشخصية لابن عباس ولا بد انه قد سمعه كرواية من الرسول الاعظم (ﷺ) أو الامام علي (عليه السلام).

ولقد ورد تعبير (المرصاد) في سورة النبأ الآية ٢١ قال تعالى : ﴿إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾.

ولكن الظاهر من هذه الآية ان جهنم نفسها مرصاد للطاغين والمجرمين، ومع اخذ الآيات السابقة لها بنظر الاعتبار يقول جمع من المفسرين ان المقصود بالمرصاد هو القنطرة التي تمر من فوق جهنم (يقال للمكان الذي اختص بالرصد وبما أنهم غير قادرين على اجتيازه فيسقطون في جهنم).^(٢) اضافة الى أن التعبير بـ (المرصاد) يطلق على الطرق والمعابر وبما أن جهنم التي تعتبر بأصطلاح آخر خطأ لذا لا تتناسب مع معنى المرصاد وهذه قرينة اخرى على التفسير اعلاه.

١ - تفسير القرطبي: المجلد ١٠ ذيل الآية.

٢ - ورد هذا التفسير في الميزان وفي التفسير الكبير (الفخر الرازي) وفي المفردات والقرطبي في تفسيره.. ذيل آية سورة النبأ وذكروا هنا المعنى كتفسير للآية أو كأحد الاقوال في تفسير الآية.

الآية الثالثة والاخيرة اشارت الى وضع الكفار والمجرمين يوم القيامة وانهم سيختم في ذلك اليوم على افواههم ولا تتكلم الا ايديهم وارجلهم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾^(١) لقد ذكر الكثير من المفسرين: ان هذه الآية ناظرة الى وضع هذه الطائفة في دار الدنيا حيث فسروا الصراط بـ (طريق الحق) أي انهم يجهدوا انفسهم في سبيل العثور على طريق الحق وطريق النجاة ولكن الله سبحانه وتعالى وبسبب اعمالهم السيئة جعلهم عمياً لا يبصرون وبهذا فهم ليسوا بقادرين على تمييز ومشاهدة طريق النجاة.

ويوجد هذا الاحتمال ايضاً وهو ان هذه الآية ناظرة الى وضع هذه الطائفة اثناء عبورها من الصراط (جسر جهنم) فاذا اراد الله محا اعينهم بشكل كامل حتى لا يقدروا على المرور من الصراط مهما جهدوا انفسهم في ذلك.

والظاهر ان عبارة تفسير (في ظلال) لها نفس هذا المعنى ونقل القرطبي هذا التفسير كأحد الاقوال في تفسير الآية، اضافة الى ذلك هكذا ينقل عن (عبدالله بن سلام)^(٢) في تفسير هذه الآية انه قال: (اذا كان يوم القيامة ومد الصراط، نادى مناد ليقيم محمد (ﷺ) وامته، فيقومون برهم وفاجرهم يتبعونه بجواز الصراط، فأذا صاروا عليه طمس الله اعين فجارهم، فاستبقوا الصراط فمن اين يبصرونه حتى يجاوزوه، ثم يناد مناد...^(٣)).

ونحن نستبعد ان يكون هذا البيان من استنباط (عبدالله بن سلام) حيث ان

١ - طمسنا: من مادة (طمس) على وزن (شمس) بمعنى محو وازالة آثار الشيء ويمكن ان يكون هنا بمعنى محو العين تماماً أو اطفاء نورها والمطموس والطميس: الاعمى الذي ليس في عينه شق.

٢ - (عبدالله بن سلام) كان من علماء أهل الكتاب الذين اعتنقوا الدين الاسلامي، وكان اسمه الاصل (الحصين) وبعد الاسلام غير الرسول (ﷺ) اسمه الى (عبدالله) ويعتقد بعض علماء الرجال بأنه مجهول الحال ويعتقد آخرون بأن رواياته ضعيفة، ولكن بما أن ابن داود ذكر في القسم الاول من كتابه في الرجال انه معتبر... فقد اعتبروا هذا الشي قرينة على حسن حاله.

٣ - تفسير القرطبي: المجلد ٨ صفحة ٥٤٩٤.

ماورد في هذه الرواية يعد من اخبار الغيب ولا يطلع على الغيب .. الا المعصومون (عليه السلام).

ولا يستبعد بأنه قد نقل ذلك كرواية عن الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله).

* * *

توضيحات

ماهي حقيقة الصراط ؟

لقد اشرنا عدة مرات بان أهل الدنيا ليس لهم اطلاع مفصل عن الحقائق المتعلقة بيوم القيامة وعالم ما بعد الموت حيث هو عالم فوق هذا العالم ، ولكن هذا الامر لا يمنع من المعرفة الاجمالية بهذا الموضوع .

ويستفاد من الروايات الاسلامية ان الصراط جسر على جهنم في طريق الجنة ويرده كل بر وفاجر فالابرار يمرون عليه بسرعة ويصلون الى النعم الالهية غير المتناهية اما الفجار فتزل اقدامهم ويتردون في نار جهنم .

ولقد ورد في بعض الروايات ان سرعة عبور الناس على الصراط ترتبط بمستوى ايمانهم واخلاصهم واعمالهم الصالحة .

فقد ورد في حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال : (منهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل عدو الفرس ، ومنهم من يمر حبوا ، ومنهم من يمر مشياً ، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً ..!)^(١) .

وهنا يطرح هذا السؤال :

لماذا يجب المرور عبر جهنم للوصول الى الجنة ؟

هناك نكات لطيفة سنتعرض لها وهي ان اصحاب الجنة عندما يمرون على جهنم يدركون قيمة الجنة افضل ادراك ومن جهة اخرى ان وضع الصراط هناك عبارة

عن تجسم لأعمالنا في هذه الدنيا لذا يجب المرور عبر جهنم (المحرقة للشهوات ..) من اجل الوصول الى جنة التقوى ، ومن جهة ثالثة هذا انذار جدي لكافة المجرمين والمذنبين حيث ان مصيرهم يؤول الى العبور من هذا الممر الخطير لذا ورد في حديث (مفضل بن عمر) يقول سألت الامام الصادق (عليه السلام) عن الصراط فقال: (الصراط طريق الى معرفة الله سبحانه وتعالى) ثم قال: «هما صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة، فأما الصراط الذي في الدنيا، فهو الامام المفروض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم»^(١).

وفي تفسير عن الامام الحسن العسكري (عليه السلام)^(٢) انه فسر الصراطين (صراط الدنيا والآخرة) الصراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر من الغلو وارتفع عن التقصير واما الصراط في الآخرة فهو طريق المؤمنين الى الجنة.

وهناك نكتة مهمة اشارت اليها الروايات الاسلامية ، وهي انه من العسير العبور على هذا الطريق فقد ورد حديث عن الرسول الاكرم (صلى الله عليه وآله) وكذلك عن الامام الصادق (عليه السلام) ايضاً (ان على جهنم جسراً ادق من الشعر وأحد من السيف)^(٣).

نعم هكذا الصراط (المستقيم) وحقيقة (الولاية) و (العدالة) في هذه الدنيا فهو ادق من الشعرة وأحد من السيف وهذا يرجع الى ان الخط المستقيم خط واحد دقيق لا أكثر اما الخطوط الاخرى فهي منحرفة نحو اليمين أو الشمال ومن الطبيعي ان يكون صراط القيامة هكذا فهو تجسم عيني للصراط الدنيوي ، ومع هذا فهناك طائفة تمر على هذا الطريق الخطر سريعة في ظل ايمانها وأعمالها الصالحة.

١- معاني الاخبار: ص ٣٢ حديث ١.

٢- بحار الأنوار: ٨ ص ٦٩ حديث ١٨.

٣- ميزان الحكمة: المجلد ٥ ص ٣٤٨ ووردت كلمة «الصراط» في حديث الامام الصادق بدل جملة «إن على جهنم جسراً» (البهار ج ٨ ص ٦٤ الحديث ١).

بلا شك ان التمسك بالرسول الاكرم واهل بيته الطاهرين يسهل اجتياز هذا الطريق المخوف ، فقد جاء في حديث عن الرسول الاكرم (ﷺ) (اذا كان يوم القيامة ونصب الصراط على جهنم لم يجر عليه الا من كان معه جواز فيه ولاية علي بن أبي طالب (ﷺ))^(١).

ولقد ورد نفس هذا المعنى بتعبير آخر يتعلق بـ فاطمة الزهراء (ﷺ) ومن البديهي ان ولاية الامام علي (ﷺ) وولاية الزهراء (ﷺ) هما من ولاية الرسول الاعظم (ﷺ) ولا يمكن الفصل بين القرآن والاسلام وسائر الائمة المعصومين ، فاذا لم يكن هناك ارتباط ايماني واخلاقي مع هؤلاء العظام فلا يمكن الجواز على الصراط، وتوجد في هذا المجال روايات عديدة، وللمزيد من المعلومات راجع كتاب بحار الانوار المجلد ٨ وبالأخص هذه الروايات: (١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧).

ونختتم حديثنا بالاشارة الى البعد التربوي للايمان والاعتقاد بمثل هذا الصراط حيث هو صراط مخوف مرعب متزلزل تشوبه الاخطار، صراط ادق من الشعر وأحد من السيف ، صراط له عدة مواقف وفي كل موقف يُسأل فيه عن شيء فأما الاول فيسأل عن الصلاة وأما الثاني فعن الامانة وصلة الرحم والثالث عن العدالة وما شابه ذلك ، ممر لا يمكن لأحد العبور عليه واجتيازه الا اذا كان معه جواز فيه ولاية الرسول الاعظم وولاية الامام علي (ﷺ) والتخلق بأخلاقهم والسير على نهجهم . وفي النهاية نقول انه ممر تتوقف قدرة اجتيازه على قدر نور الايمان والعمل الصالح ، ومن لم يقدر على اجتيازه فسيقع حتماً في نار جهنم وسوف لن يصل الى موضع النعم الالهية المادية والمعنوية (الجنة) ابداً.

مما لا شك فيه ان الاهتمام بمثل هذه المفاهيم والاعتقاد بها له اثار واسعة في افعال الانسان وتربيته فتحثه على التخلق بأخلاق اولياء الله وتمنحه البصيرة في انتخاب سبل حياته والتمييز الدقيق بين الحق والباطل .

الجنة وأصحابها

الجنة واصحابها

تمهيد :

ان جميع بحوث المعاد تختتم لامحالة باحدى النقطتين : (الجنة) (النار)
فأما الجنة فهي موضع لأنواع المواهب والنعم الالهية المعنوية والمادية .
وأما النار: فهي موضع لأنواع العذاب ومختلف العقوبات والحرمان . من هنا
نتساءل عن حقيقة الجنة ، وكيف تكون ؟ وابن تقع ؟ وهل هي مخلوقة أم لا ؟ .
هناك آراء عديدة في هذا المجال ولأخذ الجواب الصحيح عن هذه الاسئلة
يمكننا الاستعانة بالتصريحات أو الارشادات الواردة في الآيات الكريمة ، اضافة الى
ذلك هناك آيات كثيرة تتحدث عن خواص الجنة واصحابها ، والنعم الموجودة فيها
من الحقائق ، والانهار ، والعيون ، والأطعمة ، والاشربة الطهورة ، والالبسة ، والخور
العين ، والولدان المخلدين ، والخدم ، والحشم ، والاحترام ، والاكرام المنقطع النظير
من الملائكة وكذلك المواهب المعنوية واللذائذ الروحية . وتشكل مجموع هذه
الآيات القسم الاعظم من آيات (المعاد) .

ونرى من الضروري الإشارة الى هذه النكته وهي ان أفكارنا وتصوراتنا
محدودة ضمن المعايير والاطر الدنيوية لذا فأن عقولنا لا تدرك حقيقة الجنة وما فيها

من نعم مخفية ، الجنة افضل واعلى واعمق مما رأينا أو كتبنا أو قرأنا .
ولكن على اية حال يمكننا وعلى ضوء دراسة الآيات القرآنية والروايات
الواردة في هذا المجال ان نرسم صورة اجمالية عن الجنة وما فيها من نعيم ، ومن
المعلوم ان لهذا التصور آثاراً تربوية قيمة ، فمهما كانت دوافع الانسان
المادية أو المعنوية فأنها تدعوه اليها وتجذبه نحوها .
بهذه المقدمة نرجع الى القرآن الكريم ونستعرض الآيات التي تتحدث عن
الجنة ، ومن الطريف ان هذه الآيات جاءت في ثمان مجموعات على عدد أبواب
الجنة .

١ - موجبات دخول الجنة في المنظور القرآني

لقد تحدثت آيات كثيرة في القرآن الكريم عن اوصاف أهل الجنة كما حددت الاوصاف والاعمال التي توصل الانسان الى الجنة والتنعم بالمنزلة الرفيعة فيها. وبهذا فقد بينت هذه الآيات المنظور الاسلامي في مسألة النجاة والسعادة الابدية وتكامل الانسان، ويمكن اجمال هذه الاوصاف بالنقاط الآتية :

١ - الايمان والعمل الصالح :

ان رأس المال للنجاة والسعادة وفتح أبواب الجنة هو الايمان والعمل الصالح قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة-٨٢.

ولقد ورد نفس هذا التعبير أو ما يشبهه في كثير من الآيات وما تكرراره إلا دليلاً على اهمية الموضوع وعناية القرآن الخاصة به^(١).

وبهذا فان القرآن الكريم قد كشف النقاب عن الاوهام التي كان يعتقد بها جمع

١ - آل عمران: ١٣٦، النساء: ١٢٤، الاعراف: ٤٢، الحج: ١٤، ٢٣، ٥٦، العنكبوت، ٥٨، الزمر: ٧٤، الاحقاف: ١٤، محمد: ١٢ وآيات اخرى.

من أهل الكتاب والسائرين على نهجهم من سائر الأمم حيث كانوا يتصورون بأن النجاة ودخول الجنة تقوم على أساس سلسلة علاقات وروابط معينة أو أو أنهم وضعوا ضوابط غير الإيمان والعمل الصالح فجاء القرآن ليعبي الناس ويبني أنفسهم على أساس بعدين رئيسيين هما (العقيدة) و (العمل).

وهذه الآية التي نحن بصددھا جاءت على اثر الآيات التي تتحدث عن اليهود الذين كانوا يعتقدون بأنهم أولياء الله وأحبائه ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾.

من البديهي ان علاقة الإيمان والعمل الصالح هي كعلاقة (الشجرة) و (الثمرة) فالشجرة الطيبة (من اشجار الفواكه) لن تخلو من الثمرات الطيبة وكذا الحال بالنسبة للإيمان فهو لا ينفك عن العمل الصالح إلا ان يكون ضعيفاً أو خالياً من الروح فيتأثر بالشهوات .. والاهواء النفسية لذا نقرأ حديثاً عن الامام الصادق (عليه السلام) عندما سئل عن حقيقة الإيمان فقال (الإيمان ان يطاع الله فلا يعصى) وبتعبير أوضح : (العمل الصالح هو تجسيم الإيمان القلبي) ولا يعني هذا الحديث أن العاصين أو مرتكبي الكبائر كفاراً^(١) كما يعتقد الخوارج وانما المقصود ان الإيمان القوي لا ينفك ابداً عن العمل الصالح ، اما الإيمان الضعيف فيمكن ان ينفك عن هذا العمل الصالح ويقع صاحبه في ارتكاب الكبائر.

ومن الجدير بالذكر ان اغلب الآيات الكريمة تقدم الإيمان على العمل الصالح بالرغم من ان الاتيان بالواجبات وترك المحرمات هو اكثر صعوبة من الإيمان ومقدم عليه عرفاً. ولعل السبب في تقديم الإيمان على العمل الصالح يعود الى ان القرآن الكريم يريد أن يبين بأن الإيمان هو أساس الاعمال الصالحة .

وأخيراً فإن تعبير الإيمان والعمل الصالح تعبيران واسعان الى حد يشملان

١ - من الاصول المتفق عليها عند الخوارج هي انهم يكفرون مرتكبي الكبائر (سفينة البحار) مادة خرج .

جميع مراحل الايمان بالله وسائر الاصول الاعتقادية ، من جهة والاتباع بكافة الاعمال الفردية والاجتماعية والعبادية والسياسية من جهة اخرى وهذا هو المفتاح الاول من مفاتيح الجنة .



٢- التقوى :

العامل الآخر من عوامل دخول الجنة هو (التقوى) ولقد ذكرت الكثير من الآيات القرآنية هذا العامل من جملتها ماورد في سورة مريم بعد الاشارة الى (جنات عدن) وبعض من نعمها ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ مريم-١٣^(١) . من المعلوم ان الاسلام اعطى اهمية كبيرة للتقوى ، واعتبرها أحد شعاراته المشهورة كما ورد ذلك في سورة الحجرات الآية ١٣ ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾ فتقول الآية (ان الشرف والكرامة هو بتقوى الله سبحانه وهي الوسيلة الوحيدة الى سعادة الدار الآخرة) فليس من العجب ان تصف الكثير من الآيات القرآنية (التقوى) بأنها مفتاح الجنة .

والتقوى : هي اجتناب الذنوب والمعاصي والامتنثال لأوامر الله ونواهيه ، واتباع الحق والعدل . وبتعبير آخر: هي حالة الخوف الباطنية والوازع الذاتي الذي يمنع الانسان من الوقوع في المعاصي والآثام. أي ان التقوى مفهوم جامع يضم كافة التكاليف الالهية والاخلاقية والانسانية .

التعبير بـ (تلك) في بداية الآية والذي يشير الى البعيد هو اشارة الى عظمة الجنة وكأنها عالية بدرجة خارجة عن نطاق الفكر والخيال .

واما كلمة (الارث) فيمكن ان يشير بها الى المعاني الآتية :

١ - هناك الكثير من الآيات التي تشير الى العلاقة بين (التقوى) و(الدخول الى الجنة) ومن جملتها آل عمران : ١٥٠، ١٣٣، ١٩٨ الرعد : ٣٥، الحج : ٤٥، النحل : ٣١، الفرقان : ١٥، الشعراء : ٩٠، الزمر : ٢٠، ٧٣ الدخان : ٥١، محمد : ١٥، ق : ٣١، الذاريات : ١٥ وغيرها .

١ - كل تمليك ثابت ، لأن الملك الوحيد الذي لا يقبل الرجوع والفسخ هو ما ينتقل عن طريق الارث وكذلك الجنة فان الله سبحانه وتعالى يورثها للمتقين .

٢ - قبل ان يكون للورثة بعداً قانونياً وتشريعياً فان لها بعد تكويني وطبيعي اذ تنقل مجموعة الصفات الوراثية للاباء والامهات الى الابناء ، وبهذا يكون المراد بالارث في الآية اعلاه : هو ان هناك علاقة معنوية تكوينية بين التقوى والجنة .

٣ - الاموال الموروثة : هي اموال تصل الى الانسان بدون تعب وعناء غالباً والنعم الالهية في الجنة من العظمة بحيث تعتبر اعمال المتقين لا شيء قبالها فكأن الجنة تعطى لهم مجاناً وبدون أي مقابل لضالة اهمية اعمال المتقين قياساً بهذه النعمة العظيمة .

ويتعبير آخر نقول : حقاً ان اعمال الانسان وتقواه هي الاساس في استحقاق الجنة ولكن عظمة الجنة وما فيها من النعم كأنها اعطيت للمتقين مجاناً .

من هنا يجب القول اضافة الى كون الجزاء الاخروي له بعد استحقاقه كذلك له بعد تفضلي ايضاً ، أي ان الجنة هي تفضل من الله سبحانه وتعالى للمتقين .

٤ - ونقرأ رواية وردت في تفسير هذا المعنى عن الرسول الاكرم (ﷺ) قال : (ما من أحد الا وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار : فأما الكافر فيرث المؤمن منزله من النار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة) ^(١) .

فيدل هذا الحديث على ان جميع الناس خلقوا احراراً في اختيارهم فكما خلق عندهم الاستعداد لدخول الجنة كذلك خلق عندهم الاستعداد ايضاً لدخول النار وهذا يرتبط بكامل اختيارهم وارادتهم ^(٢) .

١ - نور الثقلين : المجلد ٢ ص ٣١ حديث ١٢١ ، مجمع البيان ذيل الآية ٤٣ الاعراف ، ولقد ورد في تفسير علي بن ابراهيم نفس المعنى بتعبير آخر عن الامام الصادق (عليه السلام) ذيل الآية ١١ سورة المؤمنين .

٢ - ان هذا التعبير (الارث) لم ينحصر في الآية السالفة الذكر بل قد ورد في آيات اخرى نذكر منها المؤمنون : الآية : ١٠ ، ١١ والاعراف : الآية : ٤٣ ، الزخرف : ٧٢ ، الشعراء : ٨٥ ، فهو تعبير واسع .

٣- الاحسان :

الاحسان عامل آخر من عوامل الدخول في موضع النعمة الالهية ولقد اشار القرآن الكريم الى هذا المفهوم الواسع في آيات عديدة من جملتها الآية ٨٥ المائدة فبعد ان اشارت هذه الآية الى وضع مجموعة من علماء اهل الكتاب الذين انقلبوا بعد سماعهم آيات القرآن الكريم وفاضت اعينهم بالدمع مما عرفوه من الحق ، قال تعالى بصددهم: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

صحيح ان القرآن يذكر بأن كل هذه النعم التي آثابهم الله بها لما قالوا بعظمة القرآن والايمان به ولكن من البديهي أن هذا لم يكن قولاً فقط بل كان قولاً ممزوجاً بالايمان ، ذلك الايمان الذي ملأ كل وجودهم لذا تقول الايات التي قبلها: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ لكن كيف يكون كلام هؤلاء مصداقاً للاحسان ؟ يمكن القول اضافة الى انهم درسوا القرآن وتدبروا معانيه جيداً كذلك انهم اقرؤا واعترفوا بدين الحق وعملوا به بشكل جيد .

ونستفيد من بعض الروايات أن الاحسان هو العبودية المقترنة باليقين الكامل والشعور بأن الانسان تحت رقابة الله تبارك وتعالى في جميع الاحوال .. كما ورد ذلك في حديث عن الرسول الاعظم (ﷺ) فقد سئل عن الاحسان فقال: (ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك)^(٢).

من الواضح ان من يشعر بمثل هذه المراقبة فلن تكون عبادته عبادة حقة لها روح وحقيقة فحسب بل ان اثار هذا الشعور ستنعكس على جميع اعمال الانسان واقواله وسلوكه .



١- ورد نفس هذا المعنى في سورة الزمر الآية ٣٤ المراسلات الآية ٤٤.

٢- تفسير نور الثقلين: المجلد ١ ص ٥٥٣ الحديث ٥٧٩ ذيل الآية الشريفة ١٢٥ النساء.

٤ - الجهاد والشهادة :

ان كل من له ادنى اطلاع على منطق القرآن والاسلام يعلم جيداً بالمقام السامي والدرجة الرفيعة للمجاهدين والشهداء في الاسلام ، فلقد وعد القرآن صراحة هذه الطائفة المضحية بالجنة ، ومن جملة الآيات قوله تعالى: ﴿إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ * يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَوَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١) .

حقاً انها لتجارة لا نظير لها ، فالمشتري هو الله سبحانه وتعالى والبائعون هم المؤمنون المجاهدون .

البضاعة : الانفس والاموال التي وهبها الله اليهم والتمن الذي يدفع اليهم هو جنة الخلد وسند هذه المعاملة الكتب السماوية الثلاثة اضافة الى كل هذا هناك تبريك من قبل المشتري للبائع .

كم هي تعابير جميلة ورائعة! وكم هي معاملة رابحة مقابل متاع زائل وغير ثابت وكم هو ثمن مبارك وخالد .. وكم هو مقدار اللطف والمحبة في هذه المعاملة من قبل الله تبارك وتعالى ؟

وعن جابر بن عبد الله قال : نزلت هذه الآية على رسول الله (ﷺ) وهو في المسجد (ان الله ..) فكبر الناس فأقبل رجل من الانصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال : يا رسول الله انزلت هذه الآية ؟ قال : نعم . فقال الانصاري : بيع ربيع لا نقيل ولا نستقيل^(٢) .

ونستفيد من الآية السالفة أنها لا تختص بالشهداء فقط بل ان هذه المعاملة

١ - سورة البقرة الآية ١١١ ، كما ورد نفس هذا المعنى في الآيات ٢٠ ، ٢١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، من نفس السورة ، والآية ١٢ سورة الصف ، و١٤٢ آل عمران .

٢ - تفسير الدر المنثور وطبق نقل تفسير الميزان : المجلد ٩ ص ٤٢٩ (طبع بيروت) .

تشمل المجاهدين في سبيل الله ايضا.

ونلاحظ في الآية تقدم عبارة «يُقْتَلُونَ» على «يَقْتُلُونَ» وهذا دليل على ان الهدف الرئيس من الجهاد هو تدمير العدو لا الشهادة وبناء على ذلك فان الشهادة درجة رفيعة لا يبلغها الا الخاصة من اوليائه.

من هنا لا يمكن ان يكون الغرض من الجهاد هو الشهادة ابداً وبتعبير ادق الشهادة ليست هدفاً وانما هي وسيلة لتحقيق الهدف.

٥- نهى النفس عن الهوى:

من الامور الاخرى التي هي من موجبات دخول الجنة الخوف من الله تعالى ونهى النفس عن الهوى قال تعالى في الآية ٤٠، ٤١ سورة النازعات: ﴿وَمَا مِّنْ خَافٍ مَّقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.

مما لا شك فيه ان هناك علاقة متبادلة بين (الخوف من الله) و (نهى النفس عن الهوى) فالاولى بمنزلة الشجرة والثانية ثمرها، فعندما يتجذر الخوف من الله تعالى في اعماق روح الانسان عندئذ تشن حرب من الداخل لمواجهة هوى النفس، ومن المعلوم ان مصدر جميع المفسد والذنوب على سطح الأرض هو (عبادة الهوى)، من هنا يكون الخوف من الله مصدر كل الاصلاحات، لذا ورد هذا الحديث في ذيل الآية ٤٣ سورة الفرقان ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ قال (ﷺ): (ما تحت ظل السماء من اله يعبد من دون الله اعظم عند الله من هوى متبع)^(١).

والجدير بالذكر ان ما يقابل هاتين الصفتين (الخوف من الله ونهى النفس عن الهوى) صفتان آخريان وردتا في الآيات التي تسبق هذه الآية من نفس السورة وهما (الطغيان وايتار الحياة الدنيا على الآخرة) ﴿وَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ

المأوى» والحقيقة ان هاتين الصفتين مصدر كل البلايا كما أن تلك الصفتين مصدر كل خير.

وعلى حد قول بعض المفسرين فالمنايع التي تنبع منها الذنوب السبعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمَسُومَةِ وَالْإِنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ تتلخص في هوى النفس، وان منبع هوى النفس هو عدم المعرفة وعدم الخوف من الله تعالى^(١).

من هنا فما المقصود من (مقام ربه)؟ هناك آراء مختلفة حول تفسير هذا التعبير فقيل: المراد مقامه من ربه يوم القيامة حين يسأله عن اعماله.

وقيل انه اشارة الى مقام علم الله ومراقبته لعباده.

وقيل انه اشارة الى مقام عدالته تعالى.

ولكن هذه التعابير ترجع في الحقيقة الى الخوف من الاعمال والذنوب وذلك لان الله (ارحم الراحمين) ولا يوجد في ذاته تعالى ما يوجب الخوف منه، فكما ان المجرمين يخافون رؤية القاضي العادل ويفزعون من سماع أسم المحكمة فكذلك الحال بالنسبة للمذنبين فانهم يخافون من مقام العدل والحساب والعلم الالهي، وفي الحقيقة ان هناك جحيم في هذه الدنيا هي جحيم الشهوات، والجحيم الاخرية انما هي جحيم مجازاة تنبع من هذه الجحيم.

ونختم هذا البحث بحديث عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: (من علم ان الله يراه، ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمل من خيراً أو شراً، فيحجزه ذلك عن القبيح من الاعمال، فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى)^(٢).

١ - تفسير روح البيان: المجلد ١٠ ص ٣٢٧.

٢ - تفسير الثقلين: المجلد ٥ ص ١٩٧ حديث ٤٨، اصول الكافي، المجلد ٢ ص ٧٠ باب الخوف والرجاء حديث ١٠.

٦- السابقون الى الايمان :

من المعلوم ان ظهور أي دين جديد يقترن بمخالفة السنن والتقاليد الرائجة في ذلك المجتمع وخصوصاً الدين الاسلامي الذي ظهر في محيط خرافي مليء بأنواع المفاسد والسنن الكاذبة الخاطئة .

فمن البديهي ان يكون السبق الى الايمان بمثل هذا الدين أمراً عسيراً للغاية ويحتاج الى شهامة منقطعة النظير فالسابقون للايمان يتعرضون عادة لاشد هجمات الجاهلين المتعصبين وبما انهم يشكلون الاقلية من المجتمع لذا فتكون انفسهم واموالهم في خطر دائماً ، اضافة الى ذلك يعتبر هؤلاء القدوة الحسنة والانموذج الامثل للآخرين وهم الوسيلة والعامل الرئيس في نشر تعاليم السماء في الارض ، فمن هنا يكون للسابقين في الايمان امتيازاً كبيراً ودرجة رفيعة وقد وعدهم الله تعالى وعداً قاطعاً بدخول الجنة ، كما ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ الواقعة آية - ١٠^(١) .

هذا في حالة تفسير (السابقون) بمعنى السابقون الى الايمان ، لكن بعض المفسرين فسروا (السابقون) بمعنى السابقون الى طاعة الله (اطاعة اوامر الله) أو السابقون الى الصلوات الخمس أو الجهاد ، أو الهجرة ، أو التوبة واعمال البر ، لأن السابق الى الخير انما يقتدى به في الخير وهو شاهد على المراد حتى على هذه الصورة .

وكذا الرجال السابقون المؤثرون المتوكلون على الله تعالى لهم الاحقية في السبق الى جنات النعيم .

وقيل ان (السابقون) - كما جاء في الروايات الاسلامية - (الامام علي بن ابي طالب عليه السلام) حيث كان اول القوم اسلاماً من الرجال وقيل ان السابقين هم (هابيل)

١- لقد ورد نفس هذا المعنى في الآية ٢١ من سورة الحديد وكذا الآية ١٣٣ من سورة آل عمران .

و(مؤمن آل فرعون) و(حبيب النجار) و(الامام علي بن ابي طالب عليه السلام) حيث يمثل كل واحد منهم في عصره مصداقاً واضحاً للقدوة الحسنة في السبق الى الايمان والجهاد واعمال الخير^(١).

ومما تجدر الاشارة اليه ان اول موهبة جعلها الله لهم هي موهبة القرب من الله تبارك وتعالى «اولئك المقربون» والتي تفوق كل النعم العظيمة بما فيها جنات النعيم.

ومن المعلوم ان (جنات) تفي بالغرض من دون ذكر (النعيم) الذي هو جمع نعمة وانما ذكرها تعالى للتأكيد، ولاعطائها اهمية اكبر، من هنا يمكن الاشارة الى نكتة اخرى وهي ان الجنات موضع الرحمة والنعيم الالهية فقط وهي على خلاف البساتين الدنيوية التي يلزم ادارتها وصيانتها وحفظها جهوداً كبيرة اضافة الى ذلك فانها معرضة للآفات والفناء والعدم.



٧- الهجرة والجهاد:

الهجرة بمعنى الابتعاد عن بؤرة الكفر والشرك والظلم والمعاصي، وتكون في كثير من الموارد السبيل الوحيد لخلاص المؤمنين والصالحين وانقاذهم من معاناتهم، فهم يتعدون عن اجواء محيطهم الملوث ليعملوا على بناء انفسهم واعدادها من اجل تعبئة كافة امكاناتهم وطاقاتهم للهجوم على اعداء الله من كافرين ومشركين وظلمة ولقد هاجر المسلمون مرتين في عصر صدر الاسلام، الهجرة الاولى (هجرة الحبشة) وهي هجرة خاصة حيث هاجرت مجموعة من المسلمين من مكة الى الحبشة، والهجرة الثانية (هجرة عامة) من مكة الى المدينة وتعتبر هذه

١- للاطلاع على هذه الاحاديث راجع كتاب احقاق الحق: المجلد ٣ ص ١١٤ والمجلد ١٥ ص ٣٤٥ وتفسير نور الثقلين: المجلد ٥ ص ٢٠٩ الحديث ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١.

الهجرة بداية فصل جديد في تاريخ الاسلام ، ومن البديهي ان ترك المنازل والممتلكات والاهل والاقارب والاصدقاء والوطن الذي نشأ فيه المرء وترعرع فيه أمر عسير للغاية هذا من جهة ومن جهة اخرى مواجهة المشاكل لغرض الاعداد للجهاد والهجوم على مواطن الكفر والفساد لذا فان القرآن الكريم وعد المهاجرين بأعظم الدرجات وبشرهم برحمته ورضاه ﴿وَجَنَاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ .

قال تعالى في سورة التوبة الآية ٢٠، ٢٢: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾^(١) .

تتحدث الآية الكريمة عن ثلاث صفات (الايمان ، الهجرة ، الجهاد) طبعاً ان كل واحدة من هذه الصفات ترتبط مع الاخرى برابطة العلة والمعلول فكان ايمانهم هو السبب في هجرتهم وهجرتهم مقدمة لجهادهم وجعل الله سبحانه وتعالى جزاءهم ثلاثة امور هي (الرحمة الالهية) و (الرضوان) و(جنات النعيم) وبهذا فقد جعل الله سبحانه وتعالى مقابل كل صفة اجراً عظيماً فالايمن يستوجب مغفرة الذنوب والهجرة تستوجب جلب الرضوان الالهي والجهاد بالاموال والانفس هو السبب في دخولهم جنات النعيم .

روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني قال: (بينما شيبه والعباس يتفاخران اذ مر عليهما علي بن ابي طالب (عليه السلام) قال: بما تفخران؟ قال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد سقاية الحاج وقال شيبه: أوتيت عمارة المسجد الحرام، وقال علي (عليه السلام): وأنا اقول لكما لقد اوتيت علي صغري مالم تؤتيا فقالا: وما اوتيت يا علي؟ قال ضربت خراطينكما بالسيف حتى آمنتما بالله تبارك وتعالى ورسوله فنزل جبرائيل (عليه السلام) بالآية ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ...﴾^(٢) .

١ - لقد ورد هذا المعنى في سورة التوبة: الآية ١٠٠ .

٢ - شواهد التنزيل لابي القاسم الحسكاني، ذيل الآية مورد البحث ص ٢٤٤ فما بعدها . ولقد ورد نفس المضمون

وللمفسرين بحوث كثيرة في مسألة (كيف اعتبر القرآن درجة الذين هاجروا وجاهدوا اعلیٰ من درجة غير المؤمنين ؟ في حين ان (غير المؤمنين) ليس لهم اية درجة اصلاً .

يمكن القول في جواب قصير ان المراد بيان ان النسبة بينهما هي نسبة الافضل الى من لا فضل له وهذا كثير في مورد الصفات التفضيلية كقوله تعالى ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكٍ﴾ . ويلاحظ امثال هذا التعبير الكثير في القرآن والروايات وكلام العرب .

والخلاصة : ان نفس عمل سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام عمل حسن من أي شخص كان أما اذا كان الفاعل كافراً أو مشركاً فلا قيمة له ، حيث ان الكفر والشرك يحبطان الاعمال الصالحة .



٨- الصبر والتحمل عند الشدائد :

مسألة الاستقامة هي اساس لكل الاعمال الصالحة وركن اساس في امثال كل طاعة واجتناب كل معصية .

وعلى هذا الاساس فلا عجب ان تعد الاستقامة من العوامل المهمة في دخول الجنة كما ذكر ذيل الآية ١٢ سورة الدهر: ﴿وَجَزَاءُكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ جَنَّةٌ وَحَرِيرٌ﴾^(١) .

وعند دخولهم الجنة تستقبلهم الملائكة بالترحيب ، وهذا دليل على عظمة مقام الصابرين ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ الرعد-٢٤ .

من المعلوم ان الآية التي نحن بصدددها هي من آيات سورة الدهر التي نزلت

بشيء من الاختلاف في كتب كثيرة لأهل السنة راجع احقاق الحق المجلد ٣ ص ١٢٢ ص ١٢٧ .

١- لقد ورد نفس هذا المعنى في سورة: الرعد الآية ٢١ ، ٢٤ وسورة الفرقان: الآية ٧٥ .

على قول أكثر مفسري الشيعة والسنة في حق علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، حيث ضربوا أروع الامثلة في الصبر والتحمل حينما تصدقوا بما عندهم من طعام الى (المسكين) و(اليتيم) و (الاسير) ويقوا ثلاثة أيام متتابة يفطرون بالماء فقط وهذا هو الصبر على الطاعة .

من البديهي : ان الصبر والتحمل عند مشاكل ومصاعب الحياة وكذلك الصبر والتحمل على ترك ما نهى الله عنه من عوامل الاثارة والذنوب والمعاصي .. يكون مفتاحاً من مفاتيح الجنة فيبدل الله تعالى ما لقوه من المشقة والكلفة نعمة وراحة .
ومما تجدر الاشارة اليه ان هذه الآية خصت من بين جميع النعم الالهية الالبسة الفاخرة الجميلة ويعود السبب في ذلك اما لأن هذه الثلة من الصابرين اضافة الى ما جادوا به من الطعام للجوع كذلك انهم وما وهبوه من الالبسة اليهم واكتفوا بلباس بسيط أو ان جمال ظاهر الانسان بالدرجة الاولى يكمن في زيه ولباسه كما أن لباس (التقوى) هو زينة وجمال الباطن .



٩- الايمان والاستقامة :

ركزت بعض الآيات القرآنية على مسألة الاستقامة والثبات على طريق الايمان واطاعة الأوامر الالهية فقد ورد في سورة الاحقاف الآية ١٣ ، ١٤ قوله تعالى : ﴿ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾^(١) .

استقاموا مشتقة من مادة (الاستقامة) اي ملازمة الطريق المستقيم والثبات على الطريق الصحيح وبتعبير آخر الابتعاد عن كل زيغ وانحراف والثبات على ما شهد الانسان به من دين الحق والتفسير بـ «الاعتدال» من أرباب اللغة انما هو من

١- ولقد ورد نفس هذا المعنى في سورة فصلت : الآية ٣٠، ٣١.

هذا الباب أيضاً.

قال الراغب في مفرداته: (يقال الاستقامة الطريق الذي يقع على خط مستقيم ولهذا يقال للطريق الحق (الصراط المستقيم) واستقامة الانسان هي ملازمة الطريق المستقيم)^(١).

اضافة الى ان مفهوم الاستقامة يعني استواء الطريق كذلك انه يعني المقاومة والثبات وعلى هذا الاساس فتعبير الاستقامة على النهج الصحيح من عوامل الدخول الى موضع اللطف والكرامة الالهية (الأ وهي الجنة) وورد عن الائمة المعصومين (عليهم السلام) في تفسير الآية انهم قالوا: (استقاموا على ولاية امير المؤمنين) والتي تعد الخط المستقيم للاسلام الصحيح^(٢).

ولو تأملنا في الآية الكريمة لوجدنا انها ذكرت (الايمان) أولاً (قالوا ربنا الله) وبعدها عطف (الاستقامة على الطريق الصحيح) على الايمان بـ «ثم» التي تفيد العطف المباشر لتوحي الى ان عملاً كهذا هو نتيجة مثل ذلك الايمان. ومما تجدر الاشارة اليه ان الانسان يحزن على امور قد حدثت في الماضي واحياناً اخرى يخاف ويقلق من امور قد تحدث في المستقبل. يقول القرآن الكريم في الآية مورد البحث: ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ونختتم هذا الموضوع بحديث عن الرسول الاكرم (ﷺ) قال سفيان الثقيفي قلت يا رسول الله اخبرني بأمر اعتصم به قال الرسول الاعظم (ﷺ): (قل ربي الله ثم استقم) قال فقلت: ما اخوف ما تخاف علي: فأخذ رسول الله (ﷺ) بلسان نفسه فقال (هذا)^(٣).

١- مفردات الراغب: مادة قوم.

٢- تفسير علي بن ابراهيم ذيل الآية سورة فصلت والتي تشبه الآية اعلاه. (المجلد ٢ ص ٢٦٥) وكذلك في ذيل هذه الآية ص ٢٩٧.

٣- تفسير ابو الفتوح الرازي: المجلد ١٠ ص ٢٢.

١٠. إطاعة الله ورسوله (ﷺ):

من الاعمال التي توجب دخول الجنة هي اطاعة الله والرسول (ﷺ) كما ورد ذلك في سورة النساء الآية ١٣: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١).

تعبير (جَنَّاتٍ) يدل على تعددها وأن كل واحدة منها احد مقامات العارفين والصالحين والاطهار.

اما تعبير (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) فدلالة على جمال بساطتها ورونقها ودوام خضرتها لأن انهارها دائمة الجريان.

خالدين فيها: اضافة الى ان الآية نفت احتمال فناء وسلب النعمة التي هي عادة من عوامل القلق جاءت الآية بصيغة الجمع وهذه اشارة الى ان اهل الجنة يتمتعون بنعمة الاجتماع والانس مع بعضهم البعض.

في حين ان الآية التي بعدها والتي تتحدث عن عصيان الله ورسوله جاءت بصيغة المفرد (خالداً) وهذه اشارة الى انهم (أهل النار) يتعذبون بالوحدة والعزلة وكان كل واحد منهم سجين في زنزانه انفرادية في نار جهنم.

* * *

١١ - الاخلاص:

خلوص العقيدة، وخلوص العمل، وخلوص النية، من موجبات دخول الجنة، قال تعالى في سورة الصافات الآية ٣٩ - ٤٣: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهِ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

فبعد ان اشارت هذه الآيات الى عذاب اهل النار استثنت المخلصين وقالت

١ - نفس هذا المعنى ورد في سورة الفتح الآية ١٧.

بأنهم في معزل من كل هذا العذاب .

من هنا يجب ان نعرف من هم (المُخْلِصِينَ) (بفتح اللام) ، اذا تأملنا في الآيات القرآنية فسوف ندرك جيداً بأن (المُخْلِصِينَ) بكسر اللام يعني الشخص الذي اخلص نفسه واعماله ونيته ، وغالباً ما يستعمل هذا في مراحل بناء الانسان لنفسه ، في حين ان (مُخْلِصٌ) (بفتح اللام) يطلق على الذين بلغوا الدرجات العلى من الايمان والمعرفة والعمل ، فهؤلاء خارجون عن وساوس الشيطان واحابيله . فلا سلطان للشيطان عليهم قال تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ ص-٨٣ .

وفي الحقيقة ان ادران وجود الانسان على قسمين : الاول يمكن تشخيصه وعلاجه ، والثاني لا يمكن ازالته وعلاجه اما لكونه مخفي عن الانسان أو أنه ظاهر وجلي ولكن لا قدرة له على ازالته ، فعندما يضع الانسان قدمه في طريق الاخلاص ويعمل على تخليص نفسه من ادران القسم الاول والتي تقع ضمن استطاعته وقدرته فان الله سبحانه وتعالى يخلصه ويزكيه بلطفه وكرمه من ادران القسم الثاني وحينئذ يليق لمقام الـ «مُخْلِصٌ» .

والعجيب ان الله سبحانه وتعالى وهب لهذه المجموعة من المواهب والعطايا ما لم يعط غيرهم ، ومن جملتها الرزق المعلوم وهو رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم فهؤلاء يتلذذون بلذة القرب من الذات الالهية المقدسة فالله تعالى اخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد فقلوبهم لم تتعلق بشئ غيره تعالى فليس فيها إلا الله سبحانه ولقد اشار تعالى الى ذلك في قوله: ﴿اولئك لهم رزق معلوم﴾ ، ومن خواصهم الاخرى انهم في حرز من الوساوس الشيطانية وقد اشرنا الى ذلك سلفاً ، ومن خواصهم كذلك بلوغهم مقاماً سامياً من العرفان فعباد الله المخلصين يصفونه تعالى وصفاً يليق به أو بما يلقب به من الاوصاف ، لا كما يصفه الكفار أو المشركون ، قال تعالى في سورة الصافات الآية ١٥٩ - ١٦٠: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ .

وبهذا فان معرفتهم بالله اعلى المعارف والبقها ، وصيانتهم من الشيطان وهوى النفس اشد وجزاؤهم يوم القيامة اجزل وأوفر وهذا هو جزاء المخلصين .. (اللهم اجعلنا من المخلصين بحق محمد وآله الطاهرين) .

* * *

١٢- الصدق :

قلما نجد في أعمال الانسان مثل جمال وجاذبية (الصدق والواقعية) ، ويتبين من الآيات والروايات ان وزن الصدق ثقيل جداً في ميزان الاعمال ، وذلك لأنه يعد من اسمى أوصاف أولياء الله وهو احد مفاتيح الجنة كما صرح بذلك القرآن في سورة المائدة الآية ١١٩ ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صَدَقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾^(١) .

من الواضح ان المراد بالصدق في هذه الدنيا هو الصدق في العقيدة والقول والفعل وكل صفة من هذه الصفات هي علامة من علامات (التقوى) عند الانسان في هذه الدنيا والآ فلا محل للصدق في الآخرة حيث لا يكذب هناك .

اضافة الى هذا لا اوضاع يوم القيامة لا مجال فيها إلا للصدق ، وحتى المذنبون فانهم ان عمدوا الى انكار الحقائق مؤقتاً فسوف يدركون سريعا بأن لا جدوى من الانكار وبالتالي يعترفون بجميع ذنوبهم .

ويمكن ان نستفيد من هذا التعبير ضمناً بأن جميع الأعمال الصالحة تنحصر في الصدق ، ويتضح التحليل المنطقي لذلك بشيء من التأمل حيث ان جميع الذنوب انما هي ناشئة من عدم الصدق في ادعاء الايمان والاسلام فالشخص الذي يعترف ويقر بقانون كيف يسمح لنفسه بمخالفته .

وتتضح أهمية الصدق من هذه الناحية وهي ان الله سبحانه وتعالى جعله

١- في هذه الآية يكون «هذا» مبتدأ و«يوم» خبر وجمله «ينفع..» مضافة الى «يوم» .

الوسيلة لكشف حقائق الناس ، كما ورد ذلك في حديث عن الرسول الاعظم (ﷺ) قال: (لا تنظروا الى كثرة صلاتهم وصومهم ، وكثرة الحج والمعروف ، وطننتهم بالليل ، ولكن انظروا الى صدق الحديث ، واداء الامانة) ^(١) ، وقال (ﷺ) في حديث آخر: (ان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة) ^(٢) .
اذن فالصدق مفتاح من مفاتيح الجنة .

١٣ - تزكية النفس :

مما لا شك فيه ان الجنة هي محل الصالحين والاخيار ، ولقد ذكر القرآن ذلك صراحة كجزء لمثل هؤلاء الاشخاص ونقلت الآية ٧٥ ، ٧٦ طه عن لسان سحرة فرعون بعد غلبة معجزة موسى وايمان وتسليم السحرة بما جاء به والتمرد على فرعون فقالت : ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ .

تزكى : مشتقة من مادة (تزكية) وتشمل تزكية العقيدة وكذلك تزكية الاقوال والافعال ايضاً .

وفي الحقيقة ان الجنة محل مطهر من جميع القذارات والادران ومن الطبيعي ان هذا المحل لا يصلح الا للاخيار الذين لم يلبسوا ايمانهم بظلم .

وقد قال بعض المفسرين ان (الدرجات العلى) جعلها الله لمن كان له ايمان وعمل صالح وتزكية نفس .

وعلى هذا الاساس لا يتنافى ان تكون الدرجات الاقل للمؤمنين الذين خلطوا اعمالاً صالحة بأخرى سيئة ، أو حتى الذين ارتكبوا اخيانا المنكرات .

١ - بحار الانوار: المجلد ٦٨ ص ٩ الحديث ١٣ .

٢ - المحجة البيضاء: المجلد ٨ ص ١٤٠ .

ولكن هؤلاء لن يستطيعوا دخول الجنة التي هي محل القدس والطهارة ما لم يتطهروا من هذه الذنوب ، وهناك احتمال آخر وهو ان هذه الآيات لم تكن عن لسان سحرة فرعون وانما هي كلام الله المباشر ولكن ومهما كان تفسير الآية فان المعنى واحد .



١٤ - الانفاق والاستغفار :

الاستغفار من الذنوب والتوبة والانفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو والصفح عن الناس وعدم الاصرار على الذنب مجموعة من الصفات تعرضت لها الايات ١٣٣ - ١٣٦ من سورة آل عمران واوعدت في مقابل ذلك الجنة قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، وهذه الاية كالتوطئة لذكر ما يذكره تعالى بعد من أوصاف المتقين ثم شرع ببيان هذه الاوصاف وقال: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ * والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، واوعدهم في نهاية الآية المغفرة والجنة: ﴿اولئِكَ جزاؤهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ..﴾ .

المسارعة : هي الاشتداد في السرعة وهي ممدوحة في الخيرات ومذمومة في الشرور ، والمسابقة الى المغفرة هي اشارة الى السبق الى اسباب المغفرة ، لذا فسرّها البعض بالاسلام وقيل اداء الفرائض وقيل الهجرة وقيل الصلوات الخمس وقيل الجهاد وقيل التوبة والتي تعد كل واحدة منها من عوامل المغفرة الالهية ، وتشكل هذه الاوصاف موجبات السبق الى الجنة والفوز بها ، ولقد اشارت الآيات بعدها الى مسألة الانفاق والاستغفار والعفو والصفح والاحسان وكل هذه الامور من الاسباب المهمة للمغفرة ودخول الجنة .

ولقد ورد نفس هذا المعنى في سورة الحديد الآية ٢١ بشيء من الاختلاف حيث ورد تعبير (سابقوا) محل (سارعوا) قال تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾. ومن البديهي ان (سارعوا) من باب (مفاعلة) وتأتي بمعنى التسابق والنتيجة واحدة (تأمل).

ولكن بعض المفسرين فسروا (سارعوا) بمعنى المبادرة أو الاشتداد في السرعة ولم يروها من باب (مفاعلة).

على أية حال، ان هذه التعابير تدل على ان الدنيا ساحة تسابق والهدف النهائي من هذه المسابقة هو الوصول إلى المغفرة والفوز بالجنة وبهذه السعة التي وصفتها الآية الكريمة. وسوف نتكلم حول (سعة الجنة) في نهاية هذا المجلد ان شاء الله.



١٥ - الخوف من الله:

الخوف من الله تبارك وتعالى يعني الخوف من عدالته، وحسابه وكتابه وعقابه درع حصين امام الذنوب والمعاصي وعامل فعال في مواجهة الظلم والفساد والعصيان ولهذا السبب يعتبر الخوف مفتاحاً من مفاتيح الجنة كما قال تعالى في سورة الرحمن الآية ٤٦: ﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾.

ولقد ذكر المفسرون في تفسير (مقام ربه) احتمالين:

الاول: الاحاطة العلمية للرب تعالى بجميع اعمال الانسان ونواياه.

الثاني: أي مقامه بين يدي ربه للحساب (حيث يوجد مقدر في هذه الصورة

والتقدير هو: «مقامه بين يدي ربه»^(١).

ومهما كان التفسير فان الخوف من الله هو الوازع من كل معصية وخطيئة كما ورد ذلك في حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: (من علم ان الله يراه ويسمع ما يقول من خير أو من شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الاعمال فله جنتان)^(٢). ولقد قيل في تفسير (جنتان) اراء عديدة:

- ١ - المقصود الجنة (المادية) و(المعنوية) كما ورد ذلك في سورة آل عمران الآية ١٥ ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ﴾. فالاولى هي البساتين التي تجري من تحتها الأنهار والثانية رضا المعبود والمحبوب الحقيقي اي الله تعالى.
 - ٢ - وقيل الجنة الاولى للايمان والثانية للعمل.
 - ٣ - وقيل جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي.
 - ٤ - وقيل جنة جزاء للعمل وجنة تفضل من الله.
- وهذه الاقوال - كما ترى - لادليل على شيء منها، ويمكن ان يكون التعبير الاول هو الانسب، واعتبار جميع الاراء ممكن أيضاً.

١٦ - التولي والتبري؛

اي محبة أولياء الله ومعاداة أعداء الله، وبتعبير آخر التودد للصالحين والاختيار، والتبغض للكفار والاشرار، والقرآن الكريم اعتبر التولي والتبري مفتاح الجنة كما جاء ذلك في الآية ٢٢ من سورة المجادلة حيث قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

١ - ورد كلا الاحتمالين في تفسير مجمع البيان والميزان.

٢ - مجمع البيان: المجلد ٩ و ١٠ ص ٢٠٧.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المجادلة-٢٢. كما اشار تعالى في ذيل الآية الكريمة الى اجرهم للمعنوي بقوله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، وفي النهاية اعطاهم الله تاج الفخر والشرف وناعتهم بأنهم حزب الله ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ ومن الواضح ان لا تجتمع محبتان في قلب واحد فاما محبة الله أو محبة أعدائه، وعلى هذا الاساس فان اقوى الاواصر وامتنها هي تلك المبنية على اساس محبة الله ومحبة اوليائه، اما ما سواها فهي علاقات زائفة لا معنى لها.. (فيبين تعالى ان بين الايمان وموادة أهل المحادة تضاد فلا يجتمعان لذلك).

ان هذه المادة ليست هي علاقة فحسب بل هي برنامج عمل متكامل في كافة المجالات والاصعدة، أي هي حرب ضد ظلم الظالمين وفساد المفسدين وجرم المجرمين وهؤلاء هم المخلصون في ايمانهم. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ يحمل معنى عميقا فالكتابة جرت بيد القدرة الالهية وعلى صفحة القلب وهي بمعنى ثبات ورسوخ حقيقة الايمان في قلوبهم بحيث لا تتغير ولا تزول ابداً. اجل فمثل هؤلاء الافراد المؤيدين بروح القدس ايضاً هم الجديرون بحمل اسم (حزب الله) الذي هو مظهر من مظاهر التولي والتبري.



١٧ - الاهتمام بالصلاة :

ذكرت الآيات ٢٢ - ٣٤ من سورة المعارج تسع صفات من صفات أهل الجنة وعلى اثر هذه الصفات يعدهم الله تعالى بالجنة، وهذه الصفات هي : المحافظة على الصلاة، وتعيين حق ثابت في اموالهم للمحرومين، والايمان بيوم الجزاء، والخوف من عذاب الله، والمحافظة على الفروج، واداء الامانة، والوفاء بالعهد، والقيام

بالشهادة، والمحافظة على آداب وشرائط وروح الصلاة، وبعد ذكر هذه الصفات قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ وهذا التعبير تعبير واجد لجميع النعم الجسمانية والروحانية.

ومن الطريف ان هذه الصفات التسع ابتدأت بالصلاة واختتمت بالصلاة أيضاً مع هذا الاختلاف، وهو انها ابتدأت بالاستمرار على الصلاة وانتهت بالمحافظة عليها أي حفظ آدابها وشرائطها وخصوصياتها. تلك الآداب والشرائط تحفظ مظهر الصلاة من الفساد والبطلان وكذلك تقوي روح الصلاة التي تتمثل بحضور القلب وازالة موانع قبولها كأكل السحت، وشرب الخمر، والغيبة، وامثال ذلك.

اذن فالآية تدل على ان اعمال الخير كلها تبدأ بالصلاة وتنتهي بالصلاة ايضاً، ومن الناحية العملية ان أول ما يجب على الانسان البالغ الصلاة وآخر ما يلزمه حتى نهاية عمره الصلاة ايضاً. اللطيف هو أن للمحافظة على الصلاة طرفين الأول وجوب المحافظه عليها من الفساد والخلل، والثاني ان الصلاة تحفظ الانسان من الفحشاء والمنكر (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)، ونختم هذا البحث بحديث عن الرسول الاعظم (ﷺ) قال: (من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة) ^(١).



الخلاصة :

ان كل ما اشرنا اليه في الفقرات الماضية يمثل جانباً مهماً من اسباب دخول موضع الرحمة وهذه الامور تعكس النظرية الاسلامية في مجال توفير اسباب النجاة والسعادة الابدية ، ومن جهة اخرى تمثل الدافع القوي .. للتزود بالأعمال الصالحة الانسانية والاخلاقية والاجتماعية ، وبلا شك ان استلهام هذه المفاهيم له اكبر الاثر في ايصال الانسان الى اوج التكامل والتربية والافتخار.

الهي وفقنا لطاعتك ولا تحرمنا من مفاتيح ابواب جناتك

٢- النعم الجسمانية في الجنة

تمهيد :

لقد اتضح في بحث المعاد الجسماني أنَّ المعاد في المنظور القرآني له بعد جسماني وبعد روحاني ايضاً، حيث ان الانسان في تلك العرصات يحضر بجسمه وروحه، وان المواهب والعطايا الالهية تشمل الاثنين معاً، فالذين يعتقدون ان النعم في الجنة كلها نعم معنوية وروحية وأن الآيات التي تتحدث عن هذه النعم المادية انما هي تعبير بلغة الكناية فان هؤلاء قد غفلوا عن هذه الحقيقة وهي انهم ويحصرهم النعم هناك بالنعم الروحية فانهم ينفون المعاد الجسماني وهذا خلاف صريح للآيات القرآنية التي تؤكد على وجود هذه النعم، وكما ذكرنا في بحث المعاد الجسماني فان الجسم والروح توأمان مرتبطان معا ولا يمكن ان يبلغا التكامل بمعزل احدهما عن الآخر، اضافة الى هذا انه لا يمكن للروح ان تلتذ بالمواهب والعطايا الالهية بمعزل عن الجسم.

على اية حال، فالنعم الجسمانية في الجنة كالنعم الروحية متنوعة وواسعة للغاية وجاذبة للنفس، ولقد اكد على ذلك القرآن كثيراً لكي يجلب انتباه الناس الى الاعمال والصفات والفضائل التي توجب هذه المواهب (ومن المعلوم ان الانسان

يفكر بالنعم المادية قبل الروحية) وفي نفس الوقت فتح الله سبحانه فصلاً مهماً لبيان النعم المعنوية واللذات الروحية (وستتطرق الى هذا في الفصل اللاحق).

وإذا لم تكن النعم الروحية من ناحية شمولية البيان بمقدار النعم المادية لكنها اكثر بكثير من النعم المادية من الناحية الكيفية ، وسنستعرض ادناه جملة من المواهب والنعم الجسمانية الموجودة في الجنة تحت هذه العناوين :

١- الجنات (البساتين)

٢- الظل والظليل.

٣- المساكن والقصور.

٤- الفرش والارائك.

٥- الاغذية والالوان.

٦- الشراب الطهور.

٧- افضل شراب اهل الجنة.

٨- الاكواب والصحاف والالوان والكؤوس (الاقداح).

٩- الالبسة والحلي.

١٠- حور العين.

١١- الخدم والسقاة.

١٢- المضيفون.

١٣- النُّزُل.

١٤- النعم التي لا تتصور.

ولقد وردت في كل من هذه المواضيع آيات متعددة في القرآن الكريم

وسوف نستعرض هذه المواضيع على ضوء تلك الآيات.

١ - الجنان :

يتبين على ضوء الآيات الواردة في هذا المجال بأن الجنة هي مجموعة بساتين لا مثيل لها ولا نظير في هذه الدنيا وكل ما رسمه لنا القرآن لا يمثل إلا صورة تقريبية كي يتمكن ساكنو هذه الدنيا من أدراك هذه المعاني والآ فان حقيقة الجنة هي ما وراء ادراكنا ، لقد ذكر القرآن اكثر من مائة آية حول الجنة وبتعابير مختلفة مثل (جنات) أو (جنة) أو (جنتان) . فنقرأ في الآية ١٣ سورة النساء ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ، وفي الآية ٢٢١ البقرة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِأَذْنِهِ﴾ وفي الآية ٤٦ الرحمن ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ ، فهذه الكلمات (جنات ، جنتان ، جنة) مشتقة من مادة (جنّ) (على وزن فن) وهو الستر والتستر ويقول الراغب في مفرداته ستر شيء من الحس، وعلى هذا الاساس له مشتقات كثيرة .

والجنة : بمعنى البستان وذلك لان ارضها مستورة بأغصان الاشجار ولكن صاحب كتاب مقاييس اللغة يقول : الجنة ما يصير اليه المسلمون في الآخرة وهو ثواب مستور عنهم اليوم ، ولكن نحن نستبعد هذا المعنى وذلك لأن بساتين الدنيا يقال لها أيضاً جنة وهذا لا يكون إلا لسبب ستر ارضها بواسطة اغصانها .. (تأمل)

و(الجنين) الولد في بطن امه والجنان : القلب لانه مستور في الصدر والمجنّ : الترّس ، وكل ما استتر به من السلاح فهو جنة (على قول صاحب مقاييس اللغة) و(الجنّ) و (الجان) يطلق على الموجودات الحيّة المستورة عن اعين الخلق ، وكذلك على الثعابين العظيمة تشبيهاً لها بـ «الجن» (الذي هو موجود خطر خفي) . ويطلق على عظام الصدر - جناجن - ولعل السبب كونها درعا لحفظ القلب . جنون : بمعنى ذهاب العقل واصل الجنون هو الستر ، جنون الليل : سواده وستره للاشياء ، على اية حال ان المهم في هذا الموضوع هو ان بساتين الجنة كثيفة الاشجار الى درجة سترت ارضها بأغصانها المتدلّية .

ولقد ورد في عشرات الآيات بعد ذكر (جنات) جملة (تجري من تحتها الانهار) وهذا يدل على ان الماء يجري دائماً تحت الاشجار وبتعبير آخر ان اغصان اشجارها تظل على المياه التي تجري تحتها. فيكون الماء تحتها (تأمل جيداً) وهذا يعود الى:

أولاً: ان الماء والشجر يشكلان مع بعضهما البعض منظراً جميلاً في منتهى الروعة والجمال، وكان كل واحدٍ منها ناقص ويحتاج الى اكمال من الآخر.

وثانياً: ان الانهار تؤمن طراوة دائمية للاشجار فالتى تجري من تحتها المياه تكون خضراء زاهية، أما الاشجار التي لا تتوفر لها مياه دائمة أو يؤتى به من الخارج فلا تتمتع بمثل هذه الطراوة والاخضرار، فالماء هو اساس حياة النباتات ولا بد من توفر هذا العنصر الاساس للحياة بجانبها دائماً، وجاء في احدى الروايات: (ان انهار الجنة ليست في اخاديد انما تجري على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء اهلها) ^(١) والاعجب من هذا انه ليس الاشجار تجري من تحتها بل و - كما جاء في بعض الآيات - ان (الغرف) بنيت على الانهار ايضاً فالانهار تجري من تحتها: كما ورد في الآية ٥٨ العنكبوت ^(٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

* * *

٢ - ظلال الجنة :

لقد اشارت آيات عديدة الى ظلال الجنة ومن جملتها سورة الواقعة

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ * مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلِّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ الواقعة - ٢٧- ٣١.

١ - تفسير القرطبي: المجلد ١ ص ٢٤٠

٢ - ورد نفس هذا المضمون في الآية ٢٠ الزمر أيضاً.

من المعلوم ان ظلال الاغصان هي اجمل واروع من أي ظلال، فظلال الاشجار ليست كمثل ظلال الخيام والغرف المظلمة الفاقدة للتهوية حيث تعمل الرطوبة الملائمة للاوراق على تلطيف الظل ويضيف لها عطر الاشجار وتفتح الازهار جمالاً آخر الى جمالها ، وظلال الجنة ظلال دائمة لذا فلا تختل سكينه الانسان وراحة باله ابداً ﴿أَكُلْهَا دَائِمَ وَظِلُّهَا﴾ الرعد ٣٥. وعبر عنه احياناً بـ (ظل ظليل) قال تعالى: ﴿وَوُدَّخِلْهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ النساء- ٥٧^(١).

اتضح من خلال مامر: ان اجواء الجنة لا مثيل لها ولا نظير فهي في منتهى اللطافة والجمال والاعتدال كما نقرأ ذلك في سورة الانسان الآية ١٣ ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾^(٢) أي انهم لا يرون شمساً يتأذون بحرّها ولا زمهريراً يتأذون ببرده.



٣- قصور أهل الجنة :

لقد اشارت آيات عديدة من القرآن الى مساكن أهل الجنة ويستعابير مختلفة ، قال تعالى في سورة التوبة الآية ٧٢: ﴿وَمَسَاكِين طيبة في جناتِ عدن﴾ ولقد ورد نفس هذا التعبير في سورة الصف الآية ١٢.

طيبة : لها معنى واسع جداً يشمل جميع المزايا ومعناها في الاصل : الشيء الذي ترتضيه النفس الانسانية ويبعث عند الانسان (طيب النفس) ، أو ان السكن فيها مطهر وصالح في كل الاحوال ، وهذه الكلمة جمعت كل خواص السكن الجيد ، وقد عبرت الآية ٧٥ الفرقان عن المساكن بتعبير (غرفة) وتعني : البناء فوق البناء .

١- الظل الظليل : كناية عن الظل الكامل والدائم والعالي ، ولقد اشارت آيات عديدة الى مسألة الظل مثل سورة الرعد: الآية ٣٥ وسورة يس: الآية ٥٦ وسورة المرسلات: ٤١.

٢- زمهرير: مشتقة من مادة (زمهر) بمعنى شدة البرد أو شدة الغضب والمراد هنا المعنى الاول.

٣- ورد نفس المعنى في سورة الواقعة الآية ٣٠، ويس: الآية ٥٦ والمرسلات: الآية ٤١.

قال تعالى ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ .

غرفة : من مادة (غَرَفَ عَلَى وزن فعل) : وتأتي بمعنى رفع شيء وتناوله، ويقال (غرفة) للشيء الذي يرفع ويتناول، ثم اطلق ذلك على القسم العلوي للبناء (الغرفة) كما قيل : البناء فوق البناء فهو الدرجة العالية من البيت وهي كناية عن الدرجة العالية في الجنة).

ومما تجدر الإشارة اليه ان الغرف تتمتع بعدة خصائص فأجواؤها الطف واجمل الاجواء ومناظرها احسن المناظر، ومحلها يؤمن افضل سكن لساكنيها. وماتعبير «غرفة» إلا إشارة الى هذه الخيرات، ولذا نقرأ في سورة سبأ الآية ٣٧ ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾ ، وهناك تعبير آخر في هذا المجال في سورة الزمر الآية ٢٠ ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ، وقال تعالى في الآية ٥١ ، ٥٢ عندما اشار الى محل اقامة اهل الجنة : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ومن هنا يجب الإشارة الى هاتين النكتتين :

١ - لقد اشارت بعض الآيات الكريمة (مثل الآية ١٢ سورة الصف) من بين جميع النعم في الجنة الى (المساكن الطيبة) ويعود السبب في ذلك الى ان (السكن) يعتبر احد اهم عوامل راحة الانسان وسكينته ، وهذا المسكن هو مسكن طاهر ومطهر من جميع القذارات الظاهرية والباطنية فهو يؤمن كل اسباب الامن والامان والاستقرار وراحة البال للانسان ، ومما تجدر الإشارة اليه ان (السكن) أخذ من مادة (سكون) وتعني الهدوء .

٢ - لقد ذكر القرآن الكريم عدة امور واعتبرها من موجبات السكينة والاطمئنان وهي :

١ - البيوت السكنية المناسبة سواء في الدنيا أو في الآخرة ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ النحل ٨٠ .

٢ - الأزواج الصالحة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ الروم - ٢١ .

- ٣- الليل من موجبات السكينة والهدوء ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ الانعام-٩٦.
 - ٤- دعاء الرسول (ﷺ) للذين يؤتون الزكاة ﴿إِنْ صَلَاتُكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾.
 - ٥- السكينة الناتجة عن الايمان ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الفتح-٤.
- ولاشك ان لبعض هذه الامور بعدا ماديا وللآخر معنوياً.

* * *

٤- الفرش والارائك :

من النعم الالهية الاخرى في الجنة الفرش والارائك المختلفة وهي في منتهى الروعة والجمال والجاذبية .

قال تعالى في الآية ٥٤ الرحمن : ﴿مُتَكَيِّينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ ومن الطريف ان بطانة هذه الفرش من افخر الاقمشة في الدنيا اما ظاهرها فهو من اللطافة والجمال والقيمة بحيث يعجز عنها الوصف وعلى قول بعض المفسرين هي من الامور التي يقول القرآن بصدددها ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ السجدة-١٧. ولقد ورد حديث عن الرسول (ﷺ) قال : (ظواهرها نور يتلألأ)^(١).

وفي الآية ١٦ من سورة الفاشية نجد تعبيراً آخر ضمن توصيف النعم المختلفة في الجنة ﴿وَزُرَابِيٍّ مَبْثُوثَةٍ﴾.

«زُرَابِيٍّ» جمع «زُرْبِيَّة» (على وزن شرقية) وهي على قول بعض ارباب اللغة مشتقة في الاصل من الكلمة الفارسية «زربفت» وهو القماش الذي يستعمل في نسيجه الذهب بدلا من القطن والصوف وتاتي احيانا بمعنى القماش الغالي الثمن^(٢) (البسط الفاخرة) ، وقال بعض ارباب اللغة والمفسرين ان (زُرْبِيٍّ) جمع ازربي بكسر الزاء و (زربية) في الاصل بمعنى انواع النباتات التي اختلطت فيها الالوان الصفراء والحمراء الخضراء ، ولهذا السبب يطلق على الفرش التي تحمل الواناً زاهية

١- تفسير القرطبي: المجلد ٩ صفحة ٦٣٤٩.

٢- التحقيق في كلمات القرآن الكريم مادة زرب.

متنوعة، ^(١) وقد وصفت هذه الفرش بـ (مبثوثة)، وهي (المبسوطة المنشورة أو المفرقة في المجالس).

ونجد في نفس هذه السورة في الآية السابقة عبارة أخرى تصف الوسائد وتقول: «وَنَمَارِقٍ مَصْفُوفَةٍ» «نمارق» جمع (نمرقة) (على وزن غُلْفَلَة) ويقول (صحاح اللغة) هي وسائد صغيرة يتكأ عليها (وقد توضع اثناء الاستراحة والجلوس على الرجلين ويُنكئ عليها).

وفي الآية ٧٦ سورة الرحمن نجد تعبيراً آخر فيما يتعلق بالفرش في الجنة قال تعالى: «مُتَكِّثِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ»

رفرف: على قول الراغب في المفردات الاوراق والمناشف ثم اطلق الاقمشة زاهية الالوان، وقال بعض ارباب اللغة ان الرفرف: بمعنى اطراف الخيمة التي تهتز بحركة الريح، ورفرقة: بسط جناحي الطائر ^(٢) (تحريك الطائر جناحيه).

وقيل: ثياب خضر تبسط على السرير، ويوجد هذا الاحتمال ايضاً وهو البساتين التي ترف من نضارتها، لأن رفرف تعني كسر الخباء ونحوه حيث تتحرك حين هبوب الريح ويقول أبو الفتوح الرازي في تفسير (الرفرف): المروج الخضراء. اما «عَبْقَرِيٌّ» فهو مشتق من «عَبْقَر» (على وزن جعفر) ويقول (صحاح اللغة) و (المفردات) موضع كانت العرب تزعم انه كثير الجن ثم اطلق على كل ما يتعجب من كماله وقوته وحذقه، ويطلق على كل شخص عالم ماهر عبقرى وجمعه عباقرة ^(٣).

على اية حال، انه يطلق على الاشخاص الذين ليس فوقهم شيء وعلى الاشياء الفاخرة النفيسة وفي الآية هو وصف للاقمشة الفاخرة وقيل هو الديباج،

١ - تفسير المراغي المجلد ٣٠ صفحة ١٣٣ قاموس اللغة مادة زرب.

٢ - مقاييس اللغة.

٣ - اعترض بعض ارباب اللغة وبعض المفسرين على هذا الجمع وذلك لأنه منسوب الى شيء لا يجمع الا في حالة مجئ الكلمة على صيغة الجمع كأن يقال (عباقر) ثم تنسب (عباقرى) ومن المعلوم ان الجمع بين النسبة وصيغة الجمع غير وارد عند الادباء.

وقيل البسط .

وقيل : (عبر) اسم مدينة مشهورة بحياكة احسن انواع الاقمشة^(١) .

اما فيما يتعلق بالسُرر التي يجلس عليها اصحاب الجنة وقد عبّر بـ (السُرر) جمع (سرير) كما في الآية (١٥-١٦) سورة الواقعة فقال : ﴿على سُرر مَوْضُوءَةٍ - مُتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ .

ولقد تكرر هذا التعبير في خمسة مواضع من القرآن الكريم ، فقد وصف هذه السرر في الآية السالفة بـ (موضونة) وهي مشتقة من مادة «وضن» (على وزن وزن) وفي الاصل بمعنى (النسج) واطلاقه على نسج السرر استعارة يراد بها احكام نسجه . ومن هنا يمكن ان يكون هذا المعنى اشارة الى ان الاسيرة منسوجة بنسج خاص من اللؤلؤ والياقوت والجواهر أو منسوجة من خيوط الذهب والفضة (أو منسوجة بقضبان الذهب مشبكة الدرر والجواهر) أو لأنها مرتبة بترتيب خاص على اختلاف اراء المفسرين . وقد وصفت في آيات اخرى بـ «مصفوفة» مثل ﴿مُتَكِّينَ على سُررٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ الطور-٢٠ وقال في آيات اخرى «مرفوعة» ﴿فِيهَا سرر مرفوعة﴾ الفاشية-١٢. فلقد اشارت الآية الاولى الى ترتيبها وتقاربها ، والثانية الى علوها وارتفاعها .

ويشير ارتفاع سور اهل الجنة الى علو مكانتهم وطهارتهم وقربهم أو انهم يشرفون من فوقها على مناظر الجنة المحيطة بهم من كل جانب .

على اية حال ان هذه السرر تكون بهيئة مجاميع حتى يبلغ اصحابها انهم وحسن عشرتهم وصفاء باطنهم ، كما جاء ذلك في موضعين من القرآن حيث ورد تعبير ﴿على سُررٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ الحجر-٤٧، الصافات-٤٤. أي (يستمتع بعضهم بالنظر الى وجوه بعض ولا يرى بعضهم قفا بعض) .

والجدير بالذكر هو ان (سُرر) جمع «سرير» من مادة (سُرور) وكأن الجلوس

١ - تفسير ابو الفتوح الرازي : ذيل الآية .

على الاسرة عموماً وعلى اسرة الجنة خصوصاً من عوامل النشاط والارتياح والسرور، إضافة الى انها متعلقة بمجالس الانس والسرور.

وفي مواضع اخرى عبر القرآن الكريم بتعبير آخر (الارائك)، وورد هذا التعبير خمس مرات في القرآن فقال في موضع: ﴿مُتَكِّثِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الكهف ٢١. ولقد ورد نفس هذا التعبير بشي من الاختلاف في الآية ٥٦ سورة يس ﴿فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّثُونَ﴾ وورد نفس هذا التعبير ايضاً في سورة الانسان الآية ١٣، وقال تعالى في آيتين من سورة المطففين (٢٣، ٣٥): ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾.

ارائك: جمع اريكة، وعلى قول الكثير من المفسرين (مثل صاحب مجمع البيان، والقرطبي، والفخر الرازي، وصاحب روح المعاني) بمعنى الحجلة اذا كان فيها سرير، وفسرها البعض بالسرير الذي فيه مظلة، الاريكة السرير في الجملة وهي (البيت المزين للعروس).

ويقول الراغب في المفردات: مأخوذة من (اراك) وهي اسم شجرة معروفة. ويقول ابو الفتوح الرازي في ذيل الآية ١٣ سورة الانسان ان «السرير» و«الاريكة» معنيان مختلفان اخدهما فيه مظلة والآخر بدونها.

وتدل تعابير القرآن على هذا المعنى، لأن الكلام عن السرر طرح في موارد مجالس انس اهل الجنة وهم متقابلون ويتسامرون، في حين ان الارائك تختص بجلساتهم الخاصة أي عندما يختلون مع ازواجهم كما ورد ذلك في سورة يس الآية ٥٦ ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِّثُونَ﴾.

ومن هنا يمكن ان نستنتج: انه عندما يقول القرآن: ﴿مُتَكِّثِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ الانسان-١٣، فمن الممكن ان تكون الآية قد اشارت الى هذا المعنى، وهو ان الشمس تشرق عليهم عندما يجلسون على هذه الاسرة الخاصة، ولو ان هناك تفسيراً آخر قد اشير اليه في حينه.

ومن الطريف انه وردت في القرآن خمس آيات حول الاسرة وخمس آيات

حول الارائك ، ولقد وردت اشارات متساوية عن الحياة العامة والخاصة لأهل الجنة .

وهناك كلام طويل حول اوصاف هذه الاسرة والارائك ورد في الاخبار والروايات اعرضنا عن ذكرها لأجل الاختصار .

* * *

٥- اطعمة اهل الجنة :

ان الاغذية الجسمانية لأهل الجنة - كما يستفاد من القرآن الكريم - متنوعة للغاية ، ويستفاد من مجموع آيات القرآن الكريم ان الغذاء الرئيسي لأهل الجنة هو من جنس الفواكه ، وورد هذا المعنى تحت عناوين مختلفة مثل «فاكهة» «وفواكه» «وثمره» و«ثمرات» و«أكُل» في آيات كثيرة من القرآن الكريم .

فقال تعالى في بعض منها : ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ الرحمن-٥٢.

وعلى قول صاحب كتاب مقاييس اللغة «فاكهة» في الاصل مشتقة من مادة «فكه» وتدل على طيب واستطابة ، ومن ذلك الرجل الفكه الطيب النفس ومن الباب : الفاكهة لأنها تستطاب وتستطرف ومن الباب : المفاكهة ، وهي المزاحة ومما يستحلى من الكلام .

ويعتقد الكثير من المفسرين ان الفاكهة تشمل جميع اقسام الفواكه ، ويؤكد هذا المعنى الراغب في مفرداته في حين ان البعض يقول .. (الفاكهة) تشمل جميع الفواكه ماعدا العنب والرمان (أو ماعدا الرطب والرمان) ، وذلك لأن سورة الرحمن الآية ٦٨ عطفت هذين الجنسين على الفواكه ، من هنا فانهم يعتقدون انها لن تدخل في مفهوم الفاكهة . في حين ان هذه الآية لا تدل على هذا المعنى وانما نجد في كثير من المواطن يذكر الخاص بعد العام لأهمية الخاص .

وفي اعتقاد جمع من المفسرين ان تعبير «زوجان» اشارة الى أن لكل ثمرة نوعان وضربان متشاكلان : نوع في هذه الدنيا ، ونوع من شكله غريب لم يعرفوه في

الدنيا هو قيل : ان هذا التعبير هو اشارة الى تنوع فواكه الجنة كل نوع اكثر لذة من الآخر، ولقد بينت سورة الواقعة الآية ٢٠ تنوع اغذية أهل الجنة بهذا الشكل ﴿وفاكهة مما يَتَخَيرون﴾.

وجاء في سورة المرسلات الآية ٤٢: ﴿وفواكه مما يشتهون﴾، ولقد اكدت بعض الآيات على فواكه خاصة باعتبارها فاكهة الجنة: ﴿فيها فاكهة ونخل ورمان﴾ الرحمن - ٦٨. وقال الفخر الرازي في تفسيره (انه تعالى ذكر نوعين من الفواكه الشجرية وهما الرمان والرطب لأنهما متقابلان فأحدهما حلو والآخر غير حلو وكذلك أحدهما حار والآخر بارد وأحدهما فاكهة وغذاء والآخر فاكهة، وأحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة، وأحدهما أشجاره في غاية الطول والآخر أشجاره بالضد وأحدهما ما يؤكل منه بارز وما لا يؤكل كامن والآخر بالعكس فهما في الضدين والاشارة الى الطرفين تتناول الاشارة الى ما بينهما) ^(١).

وقال في موضع آخر: ﴿وحدايق وأعناباً﴾ النبأ - ٣٢.

وجاء في آية أخرى: ﴿في سدرٍ منضودٍ وطلحٍ منضودٍ﴾:

لقد فسر اغلب المفسرين «الطلح» بمعنى شجرة الموز التي لها اوراق عريضة خضراء جميلة، وثمرتها حلوة ولذيذة الطعم.

و «منضود» من مادة «نضد» وتعني «المتراكم»، أي اذا جعل بعضه على بعض، وهذه اشارة الى عذق الموز وشجرة الموز ذات الاوراق العريضة الخضراء الجميلة وثمرتها حلوة المذاق.

وقيل : المنضود (المراد الورق لأن شجر الموز من اوله الى اعلاه يكون ورقاً بعد ورق) ^(٢).

ويجمعهما (السدر، والطلح) نوعان : اوراق صغيرة، واوراق كبيرة هو السدر في

١ - تفسير الفخر الرازي: المجلد ٢٩ ص ١٣٤.

٢ - تفسير الفخر الرازي: المجلد ٢٩ ص ١٦٢.

غاية الصغر والطلح وهو شجر الموز في غاية الكبر ف قوله تعالى: ﴿فِي...﴾ إشارة جامعة لجميع الاشجار نظراً الى اوراقها^(١)

واضافة الى ذكر الفاكهة اشار القرآن الكريم اشارة عابرة مختصرة الى «الطلح» بشكل عام والى «لحم الطير» بشكل خاص، فقال في احد المواضع بعد ذكر مجموعة مهمة من النعم الموجودة في الجنة: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ الطور- ٢٢^(٢).

جملة «مِمَّا يَشْتَهُونَ» لها معنى واسع جداً حيث تشمل كل انواع الاغذية بكافة اقسامها واشكالها وكيفياتها.

وقال في موضع آخر بعد ذكر انواع النعم وانواع الفواكه في الجنة: ﴿وَلَحْمَ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾. ولعل السبب في تقديم الفواكه في كلا الآيتين: هو ان الفواكه تعد الغذاء الافضل والاحسن والالذ، ويعتقد البعض ان الغذاء الطبيعي للانسان هو الفواكه.. ويروونه موجوداً «آكلاً للفواكه» ولهذا السبب لا يستطيع الانسان الانتفاع من اللحوم ابداً على وضعها الطبيعي، بل لابد من اجراء تغييرات عليها، ومزجها مع اشياء اخرى حتى يمكن الاستفادة منها.

في حين ان الفواكه مألوفة لديه على شكلها الطبيعي ومن دون اجراء أي تغييرات عليها.

فضلاً عن ان أكل الفاكهة قبل اللحوم فيه لطف خاص.



١- تفسر الفخر الرازي: المجلد ٢٩ ص ١٦٢.

٢- امددناهم: من مادة (امداد) وهو العطاء المتتابع أو المستمر، وقال بعض ارباب اللغة مثل صاحب القاموس: ان الامداد بمعنى تأخير الاجل وادامة الحياة، وهو لا يختلف كثيراً عن المعنى الاول.

٦- الشراب الطهور :

ان الاشربة في الجنة كالفواكه وسائر الاغذية متنوعة ومنعشة للغاية ، ولقد عبّر القرآن الكريم عنها بتعابير مختلفة، والغريب ان الكثير من هذه الاشربة تكون على شكل انهار، ولقد اشارت سورة محمد (ﷺ) الآية ١٥ الى اربعة اقسام منها قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ .

هذه الاشربة الاربعة والتي تجري في انهار الجنة الاربعة (لايجري كل واحد منها في نهر خاص بل في كل الانهار) تبين مجموعة من انواع مختلف الاشربة المختلفة، فالماء لرفع العطش ، واللبن للتغذية ، والعسل للذة والقوة ، والشراب الطهور للنشاط .

ان هذه الاشربة مخلوقة بشكل لا يبعث طول الزمان على فسادها أو تغيير طعمها ابداءً، وتحتفظ دائماً بحدائتها، فالجنة محيط منزه من كل كدرة وفلا وجود فيها حتى لميكروب واحد يفسد اطعمة اهلها واشربتهم .

والجدير بالذكر ان ماء هذه الدنيا يتغير لونه وطعمه بمرور الزمان ، اما انهار الجنة فهي تبقى على حالها ووضعها الاول صافية ، زلال مطهرة ، وكذلك الحال بالنسبة للبن، ففي الدنيا يتغير سريعاً بمرور الزمان فيتبدل طعمه الى طعم حامض وهذه مقدمة لفساده وتلفه، اما لبن الاخرة فهو لبن سائغ شرابه لذيذ لا يتغير طعمه ولا يعتريه عارض كالذي يصيب الالبان في الدنيا .

الخمر والشراب شراب غير مستساغ ولا لذة فيه ويوصف بمرارة المذاق ورداءة الطعم فهو مذهب للعقل ، ومفسد للروح .

اما شراب اهل الجنة فهو شراب لذيذ منعش يبعث في النفس النشاط والحيوية الرحمانية لا الشيطانية .

وعسل الدنيا تشوبه في الغالب الكثير من الكدورات والشوائب، أما عسل

الآخرة فهو عسل مصفى خالص بمعنى الكلمة ، ومن الجدير بالذكر: ان القرآن الكريم اعتبر العسل جزءاً من المشروبات وحتى في الآية ٦٩ من سورة النحل والتي تتحدث عن (النحل) ذكره كشراب .. «يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ ألْوَانُهُ» سورة النحل-٦٩.

ولعل السبب في ذلك هو ان العسل اذا شرب كمشروب (شربت العسل) فيكون اكثر لذة ومنفعة وحيوية .

ولقد اشارت آيات سورة الدهر والتي تعرضت لأنواع النعم التي وعدّها الله سبحانه للابرار من عباده الى مجموعة اخرى من الاشربة قال تعالى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا» الدهر-٦٠،٥.

وقال في الآية ١٧ ، ١٨ من نفس السورة: «وَيَسْقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا» .

وقال تعالى في الآية ٢١ من نفس السورة: «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا» .

فهذه الآيات اشارت الى عدد من الاشربة «الطهور» في الجنة :

الاول : الكافور ، وهو شراب خاص مهدىء ، حيث ان الكافور في اللغة له عدة معان :

منها الرائحة الطيبة ، ومنها مادة بيضاء اللون يضرب المثل في برودتها وبياضها ولها رائحة قوية خاصة مهدئة ، وهي تقابل الزنجبيل الحار وهو عبارة عن جذور بنية لها طعم ونكهة طيبة تضاف احياناً الى الاطعمة والاشربة .

ومما تجدر الاشارة اليه ان العرب يستخدمون نوعين من الشراب ولحالتين مختلفتين الاول : منشط ومقوي ، والآخر مضعف ومهدئ ، الاول يمزجونه مع الزنجبيل ، والثاني مع الكافور ، ومن المعلوم ان حقائق العالم الآخر لا تستوعبها عقولنا ، لذا فلا حيلة لبيان هذه الحقائق إلا ان نستخدم هذه الالفاظ بمفاهيم اوسع

واعلى .

وقال جمع من المفسرين ايضاً: ان الكافور: اسم عين ماء في الجنة تشبه الكافور في صفارها وبياضها ورائحتها الطيبة وبرودتها ولكن ليس بطعمها، (ولا بد من الاشارة الى ان الكافور المؤلف هو نوع من الصمغ يستخرج من شجرة في جنوب الصين أو بلاد الهند وله استخدامات طبية) ان التفسير الذي اشرنا اليه هو الانسب وذلك لأن شراب الكافور يقابل شراب الزنجبيل).

والجدير بالذكر ان القرآن يقول: ان هذا الشراب الزنجبيلي ينبع من عين في الجنة اسمها (سلسبيل) ويعتقد الكثير ان هذه الكلمة مشتقة من (سَلَّاسَه) بمعنى الجريان ويرى البعض انها مشتقة من (تسلسل) بمعنى الحركة المتتابعة والمستمرة وهي اشارة الى انها سلسلة تتسلسل في الحلق.

وقيل: ان هذه الكلمة مركبة من كلمتين «سال» و«سبيل» بمعنى طلب الطريق وهذه اشارة الى غاية سلاسته وعذوبته.

على اية حال يستفاد من مجموع التعابير ان عين السلسبيل فيها شراب في غاية اللذة والسلاسة.

الشراب الثالث الذي اشارت اليه الآية الكريمة هو «الشراب الطهور» وساقبه هو الله تبارك وتعالى ومن وهو يبعث على تطهير الجسم والروح من كافة الادران والكدورات (وهذا شراب خاص للابرار والمحسنين كالنوعين السابقين) بعكس خمر الدنيا الذي هو نجس وينجس الروح والبدن.

ويعتقد بعض المفسرين: ان هذا الشراب يسقى بعد تناول الاغذية (فاذا اكل [الانسان] ما شاء سقي شراباً طهوراً فيطهر بطنه ويصير ما اكل رشحاً يخرج من جلده اطيب ريحاً من المسك) لقد ذكر هذا التفسير الفخر الرازي كرواية.

وقال صاحب تفسير الميزان: قال: (وسقاهم ..) أي بالغاً في التطهير لا تدع قذارة إلا ازلتها ومن القذارة قذارة الغفلة عن الله سبحانه وتعالى والاحتجاب عن

التوبة اليه فهم غير محجوبين عن ربهم^(١).

وورد في تفسير «منهج الصادقين» نقلاً عن الامام الصادق (عليه السلام) (إذا شرب المؤمن الشراب الطهور نسي ما سوى الله وانقطع اليه بالكامل)^(٢).

وذكرت سورة المطففين ضمن عرضها للنعم الالهية التي وعدها الله سبحانه وتعالى للابرار: «يَسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ» ثم قال: «خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ» وفي الختام قال: «وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ».

كلمة رحيق على قول اغلب المفسرين هو الشراب الخالص من الغش والقذى (أي خمر صافية خالصة من كل غش).

مختوم: ممنوع من ان تمسه يد حتى يفك ختمه للابرار، وهذا تأكيد آخر على خلوصه وصفائه.

ختامه مسك: اشارة الى الذي ختم اناؤه بالمسك، ويستخدم الختم عادة للتأكد والاطمئنان من عدم لمسه أو فتحه حيث يوضع الشيء في اناء معين ويغلق غلقاً محكماً من جميع الجوانب ثم يختم ويوضع على (الختم) مقدار من الطين أو العجين أو الشمع الاحمر أو النحاس أو اية مادة اخرى تفي بالغرض. وبهذا (لا يمكن فتح أو كسر هذا الاناء) فلا سبيل الى ما في الاناء إلا بكسر ذلك الختم، وكان العرب ينظرون الى ختم الاناء قبل كل شيء ليعرفوا انه لم تصل اليه يد. ويسمونه بالمختوم. وهناك تفاسير عديدة في هذا المجال لانراها تتناسب وظاهر الآية.

تسليم: من مادة «سَنَم» (على وزن صنم) وفي الأصل على رأي صاحب (مقاييس اللغة) بمعنى (العلو والارتفاع) ومنه (سنام البعير)، واطلق على السنة النار، والغيوم المرتفعة والدخان وسنابل النباتات ايضاً.

لذا «عين التسليم» عين في الجنة تكون سبباً في الارتفاع والعلو يقال: سنمه

١- ميزان: مجلد ٢٠ ص ١٣٠.

٢- منهج الصادقين: المجلد ١٠ ص ١١٠. (طبقاً لنقل التفسير الاثني عشري، ذيل الآية مورد البحث).

أي رفعه ومنه سنام الابل ، ولعل من هذا انه اذا شربها المقربون فيتقربون من المقام الالهي والفناء في نور الحق اكثر فاكثر .

وقيل : تسنيم : عين تقع في الطبقات العليا في الجنة ينصب شرابها عليهم من علوانصباباً .. وقيل هو نهر يجري في الهواء فيصب في أواني اهل الجنة وهو خالص للمقربين ويمزج بمقدار من الرحيق المختوم للابرار وهو نوع آخر من شراب الجنة . ويظهر من خلال الجمع بين هذه المعاني : ان هذه العين لها مكانة عالية رفيعة من ناحية المكان وكذلك من حيث التأثير المعنوي فهي توصل الروح وتجذبها الى مقام القرب الالهي .



٧- افضل شراب اهل الجنة :

لقد عرضت الآيات السالفة الذكر سبعة انواع من الاشربة ، ونستنتج من مجموع هذه الآيات ان مشروبات الجنة على انواع واقسام مختلفة ، فمنها يجري في الانهار (انهار من لبن وعسل وماء وخمر) . ومنها : مختومة ، ومنها ينبع من عيون من سماء الجنة أو طبقاتها العليا . ومن الواضح ان اشرف شراب أهل الجنة هو الشراب الذي يسمى «تسنيم» وهو خاص بالمقربين .

وورد في تفسير علي بن ابراهيم «ان اشرف شراب اهل الجنة تأتيهم في عالي تسنيم وهي عين يشرب بها المقربون ، والمقربون آل محمد (ﷺ) . والمقربون يشربون من تسنيم بحتاً صرفاً وسائر المؤمنين ممزوجاً!»^(١) .

وياتي (الشراب الطهور) في الدرجة الثانية ، ولقد اشارت اليه سورة الانسان الآية ٢١ ، بقرينة ، أنه الشراب الوحيد في القرآن الكريم الذي يكون ساقبه هو الله تعالى .

ومن المعلوم ان جميع هذه الاوصاف التي نسمعها ونقرؤها ماهي الا شبحاً باهتاً يتجسم في اذهاننا عن ذلك العالم الكبير، والا فلا يمكن توصيف هذه النعم وهذا الشراب الطهور من قبل سجناء عالم المادة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الم سجدة-١٧.

والطريف ان القرآن الكريم عبر بتعابير مختلفة لرفع أي ابهام في مجال الاختلاف الواضح بين الاشربة الدنيوية المكدرة بأنواع الكدورات، والشراب الطهور في الجنة قال تعالى: ﴿بِيضَاء لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ الصافات-٤٧، لا كمثل شراب الدنيا المر الطعم غير المستاغ الشراب حتى ان شاربيه يتجرعونه في بادئ الامر، اما شراب الجنة فهو شراب لذيذ منعش تعقبه نشوة معنوية وروحية غير قابلة للوصف.

ثم يضيف تعالى بقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ﴾، ان شراب الدنيا يفسد العقل ويسكر الابدان بحيث يصبح الجسم من الضعف والوهن فلا يقدر على الحركة وحفظ التوازن.. اما اشربة الجنة فتعمل على تأجيج شعلة العقل والذكاء، وتشد من جاذبية العشق، وتهي الجسم والروح للتمتع باللذات المعنوية والمادية بشكل افضل^(١).

وقال في مكان آخر بعد الاشارة الى بعض من اشربة الجنة: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ الواقعة-١٩.

يصدعون: من مادة «صداع» (على وزن غبار) وهو الصداع المعروف (أي لا يأخذهم من شربها صداع). واصله (صَدْعٌ)..

فعندما يتعرض الانسان الى صداع شديد فكأن راسه يريد ان يتصدع من شدة الألم، فتستعمل هذه الكلمة للتعبير عن آلام الرأس الشديدة.

١ - غول (على وزن قول) .. في الاصل بمعنى 'غال': اهلكه واخذه من حيث لا يدري، وتطلق هذه الكلمة على الفساد الخفي الذي ينفذ في الشيء..

ينزفون: من مادة «نزف» على وزن حذف بمعنى 'ذهاب الشيء بصورة تدريجية ومنه نزف الدم.. وهذا مايفعله الشراب الدنيوي في وجود الانسان، اذ يحطمه تدريجياً.

الخلاصة : ان اشربة الدنيا رديئة الطعم .. كريهة الرائحة .. تجلب الصداع وموجبة لفقدان الوعي وضعف العقل .. وتسبب الكثير من الامراض الجسمانية والروحانية .. وقد يعقبها حالة التهوع .. والتقئ والآلام المعوية، القلب في حين ان اشربة الاخرة اشربة لذيدة منعشة تزيد العقل وتعمل على تربية الجسم والروح ولها نشوة روحية ومعنوية غير قابلة للوصف .

* * *

٨- الاواني (الصحاف والاكواب):

مما لاشك فيه ان المطلوب الرئيس من الاغذية والاشربة هو نفسها لا الاواني ، ولكن بلا ريب ان لكيفية عرض الغذاء والاواني المستعملة فيها تأثير عميق في جذابية الاطعمة والاشربة وصفاءها ومضاعفة اللذة الناتجة منها لهذا السبب رسم القرآن الكريم وفي آيات عديدة صورة اجمالية عن هذه الاواني التي هي في منتهى الروعة والجمال في عبارات قصيرة عميقة المحتوى . ان جميع هذه الالفاظ والمعاني لا تمثل الا صورة باهتة عن الوضع هناك، والا فكل شيء هناك فوق حد التصور .

قال تعالى في سورة الزخرف الآية ٧١: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصُحُفٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ .

(صحاف) جمع (صَحفة) على وزن (صفحة) وتعني : الأواني الكبيرة والواسعة (لأن هذه المادة في الاصل بمعنى الاتساع).

(اكواب): جمع كَوْب وهو القدح الذي لا عروة له (وهناك معان اخرى ولكن المشهور هو هذا القول).

والجدير بالذكر ان وصف (من ذهب) ذكر بخصوص الصحاف ولكن عطفها على الاكواب يدل على انها من ذهب ايضاً^(١) .

١ - في الحقيقة : كانت الجملة في الاصل (اكواب من ذهب) وحذفت عبارة (من ذهب) تجنباً للتكرار مثل قوله

وقال تعالى في وموضع آخر: ﴿بَاكُوبٍ وَابَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ الواقعة ١٨.
 اباريق: جمع «ابريق» وحسب ما صرح به ارباب اللغة انها مشتقة من الكلمة الفارسية (آبريز) بمعنى القدح الذي له عروة وخرطوم لسكب السوائل.

يقول: «الجواليقي» في «المعرب من الكلام الاعجمي» ان هذه الكلمة تعني في الفارسية اما طريق العبور من الماء، أو سكب الماء، وقيل: ان هذه الكلمة مأخوذة من مادة «برق» والتي هي كلمة عربية^(١)، وبناء على ذلك ان ماجاء في تفسير مجمع البيان والقرطبي (في ذيل الآية) غير صحيح.

كأس: القدح الممتلي بالشراب وقال بعض المفسرين وعلى عادة العرب في شراهم تكون لديهم اوان كبيرة فيها الخمر معدة ثم يغرفون منها بالاباريق ثم يصبونه في الاقداح ويلاحظ هذا الترتيب ايضاً في (الشراب الطهور).

حيث تكون في البداية في الاكواب ثم الاباريق واخيراً الكأس^(٢)، وعُبر في الشعر القديم عن هذا الموضوع بتعبير (القدح) (الكأس).

ومما تجدر الاشارة اليه ان جنس أواني الجنة حسب ما يستفاد من الآيات الكريمة مختلف، فبعضها من الذهب كما اشرنا الى ذلك وبعضها من «الفضة» وبعضها من «البلور» قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ الدھر- ١٥.

والعجب انه يقول بعدها مباشرة: ﴿قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾

قوارير: زجاجات لها بياض الفضة وصفاء القوارير وهذه من خواص الجنة، وذلك لأن القوارير في الدنيا لا تصنع من الفضة وانما تصنع من الزجاج، في حين ان الفضة احدئ الفلزات، ولكن ليس يبعد ان يخلق الله نوعاً من الفضة الشفافة تصنع منها هذه القوارير كما ورد في حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) قال: (ينفذ البصر في فضة الجنة كما ينفذ في الزجاج)^(٣).

تعالى (الذاكرين الله كثيراً والذاكرات).

١- التحقيق في كلمات القرآن الكريم.

٢- فخر الرازي: ذيل الآية.

٣- مجمع البيان: المجلد ١٠ ص ٤١٠.

وهذا دليل على ان كل شيء في الآخرة هو اعلیٰ وافضل وأكمل من هذا العالم.

على أية حال وكما اشرنا سابقاً أن اواني أهل الجنة من اللطافة والرونق والجمال .. بما يضاعف لذة المأكول والمشروب لأهل الجنة.



٩- الالبسة والحلي :

لللباس أهمية كبيرة في الحياة الدنيا فهو أولاً يحفظ الجسم ويقيه من البرودة والحرارة ، ومختلف العوارض ، وثانياً يعتبر اللباس زينة مهمة للانسان فكم نجد ان لطراز الالبسة ابتداء من جنس القماش وحتى نوع خياطته ولونه يحكي عن طرز تفكير المرء وشخصيته، ونجد على طول التاريخ ان للملابس دوراً مهماً في زينة الانسان وبهائه .

مما لا شك فيه ان اللباس في الجنة لا يهدف الى دفع البرد والحر أو حفظ الجسم من انواع الافات والامراض والعوارض ، حيث ان كل شيء هناك في حد الاعتدال فلا امراض ولا آفات .. من هنا تكون الملابس مظهراً من مظاهر الزينة، ولعل لهذا السبب ركزت الآيات القرآنية على ابراز مظهر زينة اللباس وجاء ذلك ضمن تعابير مختلفة، ولكنها تحكي جمال وبهاء وجذابة ملابس أهل الجنة قال تعالى : ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُندُسٍ وَاسْتَبْرَقٍ﴾ الكهف-٢١.

وورد نفس هذا المعنى بشيء من الاختلاف في سورة الدخان الآية ٥٣ ، وسورة الدھر الآية ٢١ فيقول تعالى في الآية الاولى : ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَاسْتَبْرَقٍ﴾ وفي الآية الثانية : ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ سُندُسٍ خُضْرٍ وَاسْتَبْرَقٍ﴾^(١).

ونقرأ في تعبير آخر : ﴿وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ الحج-٢٣.

١ - «عاليهم» من مادة «علو» أي من فوقهم .. وقيل في اعرابها احتمالان ، الاول انها «ظرف» لأنها تحمل معنى «فوق»، والآخر «حال» للضمير «هم» الذي جاء في الآيات السابقة.

ولقد ورد نفس هذا التعبير في الآية ٢٣ فاطر، وشبيهه في سورة الدهر الآية ١٢ .

كلمة «سندس» حسب اجماع أهل اللغة والمفسرين (مارق من الثياب) وهي ثياب حريرية فاخرة. واصلها غير عربي (فلقد ورد في بعض كتب اللغة ان اصلها فارسي أو رومي^(١)، ولو أننا لم نعثر على هذا المعنى في اللغة الفارسية. وقال البعض : ان اصلها يوناني^(٢) .

وقال اخرون : السندس: قماش من الحرير يستعمل في نسجه خيوط من الذهب .

واما «استبرق» على قول ارباب اللغة والمفسرين (ما غلظ من الملابس، الحريرية ولا يراد به الغلظ في السلك انما يراد به الثخانة في النسيج) .

وقيل ان الاستبرق فارسي معرب اصله «استبر» او ستر والذي يعني السميك، وقيل هو الديباج المنسوج بالذهب، وقيل السندس الديباج الرقيق الفاخر الحسن والاستبرق الديباج الغليظ الذي له بريق . وهذا يدل على ان ثياب اهل الجنة من الحرير الخالص وبأشكال مختلفة .

ويمكن الاشارة هنا الى ان الحرير وبسبب نعومته ولطافته وقبوله لالوان مختلفة يعتبر من افضل الاقمشة وافخرها .

وبما ان الناس لم يعرفوا لباساً اعلی وافخر من الحرير لذا استعملت هذه الكلمة في توصيف لباس أهل الجنة، والآ فكل شيء في الجنة فوق حد التصور .

والجدير بالذكر ان الآيات الكريمة تحدثت عن اللون الاخضر، ولعل السبب في ذلك هو ان هذا اللون اجمل الالوان في عالم الطبيعة والخلق، فهو لون يبعث على البهجة والارتياح في النفس، فالنباتات بشكل عام خضراء، والبحار والمياه

١ - التحقيق في كلمات القرآن الكريم .

٢ - معجم اللغة لـ (دهخدا) .

تبدو احياناً زرقاء و احياناً اخرى خضراء . ولهذا فان هذا اللون يبعث في الروح الانسانية البهجة والطمأنينة والارتياح .

ويعتقد بعض العلماء ان اللون الاخضر لون مهدئ ومسكن ، ونقرأ في احد الكتب مقالة تحت عنوان : (الصحة واللباس) : (ان اللون الاخضر له اثر كبير في علاج الامراض العصبية والنفسية والهستريا والارهاق العصبي ، وكذلك له الاثر في زيادة قوة الادراك والتحمل ويبعث الامل والاعتدال ، كذلك له الاثر في ازالة حالات الارق وتخفيف ضغط الدم ، وتسكين اوجاع الاعصاب ، ويلاحظ ان اغلب الذين ينتخبون اللون الاخضر في الوهلة الاولى رحماء واقعيون ، ويتمتعون بتعادل روحي ونفسي . ولقد اجريت تجربة على ثلاث مجاميع من العمال .. المجموعة الاولى عهد اليها حمل صناديق خضراء اللون ، والثانية صناديق سوداء اللون والثالثة . رمادية اللون ، فلو حظ ان اغلب المراجعين للمستشفى هم من المجموعة الثانية والثالثة وكانوا يشكون من آلام في الظهر وآلام اخرى .

كان جسر اسود اللون في لندن وكان الكثير من الناس ينتحرون من فوقه ، ولما غير لونه الى الاخضر لوحظ انخفاض نسبة الانتحار بشكل كبير^(١) . وعرف منذ القدم هذا القول (ثلاث يذهبن الحزن : الماء والخضراء والوجه الحسن) . ونختم هذا الموضوع بما نقله احد المفسرين : (لو بسط ثوب من اثواب الجنة في الدنيا لاندھش اهلها جميعا)^(٢) .



١- الجامعة الاولى والنبي الخاتم : المرحوم الشهيد الدكتور بال نجاد المجلد : ١٨ ، ص ١٣٣-١٣٤ .

٢- روح المعاني : المجلد ١٥ ص ٢٤٩ .

١٠ - حلي الجنة :

اشرنا في البحث السابق الى البسة اهل الجنة، وسنتطرق في هذا البحث الى حليهم ايضاً.

من المعلوم ان للحلي والزينة المناسبة اثر نفسي كبير على روح الانسان، فتبعث فيها الارتياح والانبساط والبهجة، واذا لم تخرج عن حد الاعتدال فلا باس في ذلك وهو عمل مرضي، لذا نجد ان الكثير من الآيات القرآنية والروايات اكدت على الزينة والتجمل والتطيب حتى اثناء العبادة ومن جملتها: ارتداء اللبسة الطاهرة، اختيار الالوان المناسبة، تمشيط الشعر، استعمال العطور والطيب، والتختم باليمين ونحو ذلك.

ويستفاد من آيات عديدة من القرآن بان اهل الجنة يتجملون ويتزينون بافخر انواع الحلي، وبهذا فهم يتمتعون بلذة نفسية كافية، ولقد ورد في ثلاث آيات من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَحْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾^(١).

(اساور): جمع (أَسْوَرَة) (على وزن تجربة) وهي ايضاً جمع (سوار) (على وزن غبار وكتاب) ومشتقة من الكلمة الفارسية (دستوار).

ولقد صرحت آيتان من الآيات الثلاث بالاضافة الى (الذهب) بـ (اللؤلؤ) ايضاً، ويقول بعض المفسرين انها اشارة الى أساور الجواهر واللؤلؤ ولو اخذنا بنظر الاعتبار ان (اللؤلؤ) عطف على محل (من اساور) وهو منصوب فيكون بمنزل المفعول به لـ «يحلون» فيكون معنى الآية هكذا «يحلون فيها لؤلؤ وأساور من ذهب».

ومن الممكن ان تكون زينة اللؤلؤ مشتقة من الاساور، وكذلك يمكن ان تكون جزءاً منها.

ويحتمل البعض: ان اهل الجنة بالاضافة الى تزينهم باساور من ذهب كذلك

انهم يتزينون باساور من اللؤلؤ الخالص ايضاً.

ولقد اشار القرآن الكريم في موضع واحد الى (اساور الفضة) ﴿وَحَلَّوْا اساور من فضة﴾.

من هنا يطرح هذا السؤال : ان الاساور سواء كانت من ذهب او من فضة فهي من زينة النساء ، ولا يتحلى الرجال عادة بالاساور فهل يختلف الامر في الجنة ؟ يجب ان يلاحظ هذه المسئلة وهي اننا نجد وفي اماكن مختلفة من هذا العالم ان كلا الجنسين يتزينون بالاساور ولا يختص بالنساء فقط .

ويتبين من اعتراض فرعون على موسى الذي كان يقول : ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ اسورة من ذهب﴾^(١) . بان هذا الموضوع كان له شياخ في عرف اهل مصر، وتدل الزينة على شخصية الرجال وعظمتهم .

لقد اشرنا في البحوث السابقة ولمرات عديدة الى هذه المسئلة وهي ان القرآن يحدثنا بلغتنا وماهو سائد عندنا ، ومن البديهي ان زينة اهل الجنة وحتى زينتهم المادية هي اعلى من ان تحيط بها افكار اهل الدنيا .

١١- المحور العين :

يعتبر اختيار الزوجة الصالحة من أهم عوامل الراحة والسكينة والأنس والحيوية في هذه الدنيا .

فالزوجة الصالحة (وكذلك الامر بالنسبة للزوج الصالح) تسهل على الزوج تحمل جميع مشاكل الحياة وصعوباتها. وتعطي للحياة طعماً خاصاً مليئاً بالمحبة والبهجة والسعادة .

وعلى العكس - في حالة عدم امتلاك زوجة أو امتلاك الزوجة غير الصالحة - فسوف تتبدل حلاوة الحياة وعذوبتها الى جحيم لا يطاق حتى وان توفرت جميع

اسباب الراحة .

وبتعبير آخر ان الزوجة الصالحة التي تتحلى بالفضائل الاخلاقية والخصال الحميدة .. لم تكن اساس اللذة الجسمية فقط وانما تعتبر اساس اللذة الروحانية ايضاً.

فليس من قبيل المصادفة ان يركّز القرآن الكريم ضمن عرضه لأنواع النعم في الجنة على هذه المسألة ، فقد عبّر بتعابير عميقة المحتوى في هذا المجال.
قال تعالى في موضع : ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾^(١) .

وصف الأزواج بكونها (مطهرة) له مفهوم جامع وشامل، فكما يدل التعبير على نقائها وصفائها من كل النقائص والاقذار الجسمية والخلقية، كذلك يشمل ايضاً نزاهتها من العيوب والادران المعنوية والخلقية ، ومن المعلوم ان أهم شرط في اختيار الزوجة هو طهارتها .

ان تعبير «مطهرة» أكثر عمقاً من تعبير طاهرة (فمطهرة) تشير الى ان الله سبحانه وتعالى هو الذي طهرها ومن يطهره الله ويشهد على طهارته تكون حالته واضحة بيّنة .

وجاء نفس هذا المعنى في هذا الحديث (ازواج مطهرة من أنواع الاقذار والمكارة)^(٢) .

لقد عبّر القرآن في عدة مواضع عن زوجات أهل الجنة بـ (الهور العين) ، فقال تعالى في الآية ٥٤ سورة الدخان : ﴿وَزَوْجَتُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ . وورد نفس هذا التعبير في الآية ٢٢ الطور . وذهب الى أبعد من ذلك في الآية ٢٢ الواقعة : ﴿وَحُورٍ عِينٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾^(٣) . وقال تعالى في الآية ٧٢ الرحمن : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي

١ - البقرة : ٢٥ .

٢ - تفسير الميزان : المجلد ١ ذيل الآية (ولهم فيها ..) وهكذا ذكرها المرحوم العلامة المجلسي في المجلد ٨ ص ١٤٠ .

٣ - هناك احتمالات عديدة في محل اعراب «حور عين» ، ومن جملتها مبتدأ الخبر محذوف تقديره (لهم حور عين) ، أو عطف على ولدان مغلدون .. والاحتمال الاول هو الأرجح وذلك لأن الحور العين ليست للخدمة ..

النخيام» .

وفي الآية ٥٦ ، ٥٨ نقرأ: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ آتِسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ... كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ .

«حور» جمع (حوراء) و «أحور» ، وعلى قول الكثير من أرباب اللغة والمفسرين (شدة بياض العين في شدة سوادها) وهذا غاية جمال العين. ولعل السبب في ذكر القرآن لجمال العين هو ان أكثر جمال الانسان في عينه، ولقد فسره البعض ببياض جميع الجسم لذا يطلق كلمة التحوير لعملية غسل الملابس وتبييضها. ويمكن الجمع بين المعنيين بأنهم يتصفون ببياض الجسم وجمال العيون وسعتها.

ومن هذا الباب ايضاً اطلق كلمة (الحواريون) على اصحاب السيد المسيح (عليه السلام) الذين كانوا يرتدون الملابس البيضاء.

اما كلمة «عين» جمع «أعين» (على وزن أفضل) و «عَيْنَاء» في الاصل بمعنى العين الوسيعة، وتطلق هذه الكلمة على المرأة التي تمتلك عينين واسعتين جميلتين وجذابتين أو الرجل كذلك.

ومما تجدر الاشارة اليه ان كلمتي «حور» و «عين» تطلق على المذكر والمؤنث ايضاً، لهذا فهي تحمل مفهوماً واسعاً بحيث يشمل جميع الأزواج في الجنة، زوجات للرجال المؤمنين، وأزواج للنساء المؤمنات (سنتكلم عن هذا الموضوع ايضاً في مكان آخر).

يلاحظ ان القرآن الكريم قد أكد على جمال العيون - وكما أشرنا - ان جمال الانسان يكون قبل كل شيء وبعد كل شيء في عينيه، فالعيون معيار جمال الجسم والروح .

(لؤلؤ): أي الدر المصون المخزون في الصدف لم تمسه الايدي ، والذي يكون لها صفاءاً ورونقاً خاصاً حين استخراجه من الصدف . وتشبيه «حور العين» بـ

(اللؤلؤ المكنون) اشارة الى لطافتها وجمالها الخارق. ومن الممكن ان يكون اشارة الى انها مستورة بشكل كامل عن انظار الآخرين، فلايد مستها ولا عين وقعت عليها. وقال بعض المفسرين ايضاً^(١) بما ان (حور) مشتقة من مادة (حيرة)، فيكون مفهومها هو ان الحور العين من الجمال بحيث تنحبر العين عن النظر اليها. وبعدها امتدح الله (الحور العين) بقوله: (خيرات حسان)، أي نساء خيرات الاخلاق حسان الوجوه، وذكر صفة اخرى لهن وهي (مقصورات في الخيام)، قيل المقصور بمعنى المستور اي مستورات في القباب، وقيل مصونات محفوظات مخدّرات لايتذلن، وقيل مقصورات أي قصرن على أزواجهن فقط دون غيرهم. وقيل نفس الشيء في تفسير قوله تعالى: (قاصرات الطرف)، وذلك لأن «طرف» على وزن (حرف) بمعنى (جفن العين)، لأنها تطرف فينطبق عليها تارة وينفتح تارة، ويكون المعنى: قصرن طرفهن على أزواجهن لم يرون غيرهم.. وهذه أعظم صفة وأكبر امتياز حيث لا ترى أحسن من زوجها.. فليس لها أي علاقة بغيره..

ومما تجدر الاشارة اليه ان كلمة «الخيمة» في اللغة العربية لا تنحصر بالخيمة المصنوعة من القماش، بل تطلق على كل بناية مدورة، حتى قال بعض أرباب اللغة: «كل بناية بنيت من الحجر و.. وغيره هي خيمة، وان الخيمة في الأصل حسب قول صاحب كتاب مقاييس اللغة بمعنى الإقامة والثبات».

ويستفاد من الروايات الاسلامية ان خيام الجنة وحكمها كسائر النعم الالهية الاخرى لا يوجد أي شبه بينها وبين الخيام الدنيوية، فبعضها قطع من اللؤلؤ.

وجاء في وصف آخر للحور العين في الآية ٥٨ الرحمن حيث شبههن بالياقوت والمرجان: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾، أي هنّ على صفاء ولون وتلألؤ الياقوت وبياض وجمال المرجان.

ومن المعلوم انه اذا امتزج هذان اللونان مع بعضهما فيشكلان أحلى الالوان وأجملها.

١ - ابو الفتوح الرازي في تفسيره .. نقل ذلك عن بعض المفسرين القدماء (المجلد ١١ ص ١٣).

ياقوت : حجر معدني في غاية الشفافية، وعادة يكون أحمر اللون .
مرجان : يشبه أغصان النباتات .. ويوجد في البحار، وله ألوان مختلفة ويراد منه هنا اللون الأبيض، وقيل انه اللؤلؤ الصغير، حيث تتصف مثل هذه اللؤلؤ ببياض وجمال وشفافية أكثر^(١). ولكن يعتقد العلماء اليوم ان (المرجان) موجود حيّ ويشبه الاغصان الصغيرة للشجرة وينمو في أعماق البحار، وكان العلماء يعتقدون لفترة طويلة بانه نوع من أنواع النباتات ، ولكن اتضح فيما بعد بأن له صفات الحيوان رغم انه ملتصق بصخور قاع البحر .

وجاء في سورة الواقعة (٣٤ ، ٣٧) وصف آخر لهن وهو (أبكار) ثم «عرب» و«اتراب» الله قال تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرْبًا أَتْرَابًا﴾ .
«ابكار» جمع «بكر» أي خلقناهن عذارى كلما آتاهن أزواجهن وجدوهن ابكاراً، ويستفاد من بعض الروايات وكلمات المفسرين ان هذه الحالة حالة دائمية لا تتغير، «عُرب» (على وزن كُثب) جمع «عُروب» (على وزن صبور) أو (عربا ..) أي متحننات على أزواجهن متحبيات اليهم ، وقيل عاشقات لأزواجهن ، وقيل العروب اللعوب مع زوجها ، وفي الاصل مأخوذة من مادة (إعراب) التي تعنى الاظهار، وقد تعني ان لسان حالها يدل على عفنها وطهارتها .

وفسرها البعض ايضاً بمعنى الدلال وهو قريب من المعنى السابق .
ولقد ذكرت كلمة «اتراب» في ثلاث آيات من القرآن الكريم كوصف للحوار العين^(٢) وهي جمع «تَرْب» (على وزن حزب) بمعنى المتساويان في السن ، وتستخدم في الجنس المؤنث على الاغلب ، وقيل : انها في الاصل مشتقة من «ترائب» بمعنى اضلاع القفص الصدري: اي متشابهات... وقال البعض انها مشتقة من مادة (تُراب) وكأنهم ولدوا في وقت واحد ووطؤوا تراب الارض سوية .

١ - ذكر هذا المعنى الراغب في (مفرداته) ومجموعة من أهل اللغة والتفسير .

٢ - سورة النبأ : ٣٣ ، وسورة ص : ٥٢ ، والواقعة : ٣٧ .

على أية حال ان التساوي في السن يمكن ان يكون اشارة الى تقاربهم ، حيث ان الازواج المتقاربين في السن يدركون غالباً أحاسيس ومشاعر بعضهم البعض على نحو أفضل ، أو انه اشارة الى تشابههن في الخلقة والقامة والصورة والسن حتى يصبحن متشاكلات.

ولكن ذكر هذا الوصف مع بقية الأوصاف الاخرى مثل «عرب» و «كواعب» و«قاصرات الطرف» يدل على ان المعنى الاول هو الانسب.

«كواعب» لقد ورد هذا الوصف مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة النبأ. و(كواعب) جمع (كاعب) بمعنى الفتاة صغيرة السن ، وهي مشتقة من مادة (كعب) والتي تعني في الاصل بروز ظاهر القدم ، واستعملت هنا للاشارة الى الفتيات الصغيرات السن اللاتي اشرفت اثناءهن ، ولقد ورد كذلك أن الكواعب اشارة الى مرحلة البلوغ الجسمي حيث يبدأ الجسم بالنمو السريع في هذه المرحلة .

وبهذا الشكل فان الحور العين تتصف بجميع الصفات والمحاسن وحسن الظاهر والباطن والفضائل الجسمانية والروحانية والاخلاقية ، وبذلك فيتصنف بكل ما هو حسن .

ونكرر مرة اخرى ونقول ان كل ذلك اشارات لحقائق مادية ومعنوية عليا للعالم الآخر ولا يمكن ادراك تفاصيلها.

* * *

١٢- الخدم والسقاة :

ان الله سبحانه وتعالى اتم نعمته على أهل الجنة واعطاهم كل شيء ومن جملتها المضيّفون الذين يخدمونهم وبأعلى كيفية .

والسُقاة : الذين يطوفون عليهم ويسقونهم من الشراب الطهور . ان حسن

ظاهرهم ولطف باطنهم وصلاح خلقهم وخلقهم من الدرجة بحيث يجذب اليهم أهل الجنة وينسيهم كل ما تحملوه من الآلام والمعاناة في الدنيا في سبيل اطاعة أوامر الله تعالى .

ولقد تحدث القرآن الكريم في آيات عديدة عن (الغلمان) و (الولدان المخلدون) ووصفهم بأجمل الاوصاف .

ان التعابير الواردة في هذا الصدد، وكسائر المواهب والعطايا الالهية متنوعة ومختلفة ، فقد جاء تعبير «غلمان» في قوله تعالى : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ الطور: ٢٤.

تعبير (يطوف) (مع ملاحظة كونه فعل مضارع يفيد الاستمرار) دليل على ان طوافهم حول أهل الجنة طواف دائم .

«لؤلؤ مكنون» وصف للخدمة، فهم في حسنهم وصباحتهم وصفاتهم وبياضهم كاللؤلؤ المصون في الصدف، أو الذي اخرج توأ من الصدف .

صحيح ان الجنة - حسب التعابير الواردة في الآيات والروايات - لاتحتاج الى خدم ، وكل مايريد أهل الجنة مهياً وجاهز ، ولكن هذا يعبر عن مقدار الاحترام والاكرام المنقطع النظير لأهلها من قبل الخدم .

ولو ان هذه الآية لم تخبر صراحة .. عن علة طوافهم ، ولكن الآيات التي بعدها اشارت الى ان مهمتهم تتعلق بخدمة وتضييف أهل الجنة بأنواع الاشربة والشراب الطهور، ومختلف الاغذية .

التعبير بـ (لهم) يدل على ان لكل واحد من أهل الجنة خدماً خاصين به ، وقيل ليس على الغلمان مشقة في خدمة أهل الجنة بل لهم في ذلك اللذة والسرور اذ ليست تلك الدار دار محنة .

وقد نقل الكثير من المفسرين هذا الحديث عن رسول الله (ﷺ) :

قيل يا رسول الله الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدوم؟ فقال : (والذي نفسي بيده

ان فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب^(١).
ومن الجدير بالذكر ان (الغلمان) جمع غلام وتعني في اللغة (الصبي) لا
العبد^(٢).

ومن البديهي ان الافراد بهذا السن يتمتعون بالنشاط والحيوية والجدية ..
وذكر القرآن الكريم تعبيراً آخر بخصوص الخدم وهو «ولدان»، قال تعالى:
﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأُبَارِيْقَ * وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِيْنٍ﴾ الواقعة: ١٧، ١٨.
ولدان: جمع «وليد» بمعنى (مولود)، وهنا بمعنى (الغلام) وما مثله البعض
بانهم صغار المؤمنين يخدمون آباءهم بعيد^(٣)، وذلك لأنهم ان كانوا مؤمنين فهم
يُخدمون لا انهم خدم للآخرين، وان كانوا غير مؤمنين فلا سبيل لهم هناك تعبير
(مخلدون) اشارة الى بقائهم على حالهم فيبقون صغاراً دائماً لا يكبرون ولا يلتحون
فهم على هيئتهم من حداثة السن والنشاط والحيوية.

ولقد ورد نفس هذا التعبير بتوضيح أكثر والطف، قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ إِذَا رَأَوْا يَتَهُمْ حَسِبَتْهُمُ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ الانسان: ١٩.

وهذا شاهد آخر على ان المراد من (ولدان) هو نفس (الغلمان) الذين
وصفتهم الآيات السابقة بـ (لؤلؤ مكنون)، وهنا وصفتهم هذه الآية بـ (لؤلؤ منثور).
ولقد احتمل الكثير من المفسرين ان هؤلاء الغلمان هم اطفال المشركين
والمؤمنين الذين رجحت كفة سيئاتهم، فلم يؤاخذهم الله سبحانه بأعمال آبائهم
ولكن جعلهم خدماً لأهل الجنة وهم مسرورون بذلك.
ولو أخذنا بنظر الاعتبار ما أشرنا اليه سابقاً لضعف هذا الاحتمال، وما الرواية
التي نقلت في هذا المجال الا رواية مرسلة لا أكثر..

١ - مجمع البيان: ابو الفتوح الرازي، روح البيان، القرطبي، وتفسير الكشاف ذيل الآية.
٢ - لقد كتب الكثير من أرباب اللغة في تفسيرها «الغلام هو الطار الشارب» (مقاييس اللغة، المفردات، لسان
العرب).
٣ - الفخر الرازي: المجلد ٢٩ ص ١٤٩ ذكر هذا الاحتمال في تفسيره .. واستبعده.

وجاء في تعبير آخر (بصيغة المبني للمجهول) يشير الى المضيفين في الجنة، قال تعالى : ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾ الصافات : ٤٥.

ولقد ورد شبيه هذا المعنى بشيء من التفاوت كدليل على تنوع الموائد في الجنة فقد ورد في الآية ١٥ من سورة الدهر ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾.

ونقرأ تعبيراً آخر ورد في الآية ٧١ الزخرف ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾.

(صحاف) جمع «صحفه» وعلى قول الزمخشري (طبق ما جاء في مصباح اللغة) اناء مستطيل (كبير)، واذا اخذنا بنظر الاعتبار المادة الاصلية للكلمة والتي تعني الانبساط والاستواء، فيمكن ان يكون اشارة الى اناء يشبه الصينية.

واكواب جمع كوب وهو اناء للشراب لاعروة فيه وقد يعبر عنه بـ (القدح) احياناً.

والجدير بالذكر وعلى قول بعض المفسرين (صحاف) (جمع كثرة) و«اكواب» جمع «قلة»، وهذا يعود الى ان تنوع الاغذية وصحافها أكثر من تنوع المشروبات وأكوابها^(١)، وتقضي فصاحة القرآن التطرق حتى لمثل هذه الجزئيات..(تأمل).
وأخيراً، ولو ان هذه الآيات الاخيرة لم تبين أوصاف المضيفين، ولكن يمكن ان تفسرها الآيات السابقة وتدلل عليهم وعلى مواصفاتهم.

* * *

١٣ - المستقبلون :

يلاحظ في مجالس الضيافة ولأجل تقدير واحترام الضيوف على أحسن وجه

حضور شخصية أو مجموعة من الشخصيات المحترمة .. وهؤلاء يقومون بواجب الضيافة كدعوتهم الضيوف الى تناول الطعام أو المراجعات أو سائر لوازم الضيافة، وغالباً ما يكون هؤلاء من غير الخدم .

وهذا يعتبر احتراماً مضاعفاً، وكذلك يمنح الضيف أهمية وعظمة خاصة، بالإضافة الى ذلك يزيد من احترامه وتقديره .

ويستفاد من الآيات الكريمة ان هذا المعنى عهد به الى الملائكة وخزنة الجنة. فانهم يدعون أهل الجنة للانتفاع من نعمها.

قال تعالى في الآية ١٩ سورة الطور (ومن دون ان يذكر القائل) : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا لَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . ولقد ورد عين هذا التعبير في الآية ٤٣ سورة المرسلات.

فهل ان المتكلم هو الله تبارك وتعالى ؟ وهل ورد هذا الكلام كاحترام واکرام وعناية ولطف خاص من قبل الله تبارك وتعالى ؟ ام ان هذا الكلام صادر عن الخزنة والملائكة ..؟

على أية حال ، ان جميع نعم الجنة هنيئة ، وما قول ﴿هَنِيئًا لَكُمْ ..﴾ إلا وعناية اخرى تضاف الى جميع النعم .

ولقد ورد شبيه هذا التعبير بشيء من الاختلاف في الآية ٢٤ سورة الحاقة ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾^(١) . ان هذه الآية لم تشر الى المتكلم ايضاً، وما جاء في الآيات لا يختلف عما ذكرناه في الآية السابقة .

١ - في اعراب «هَنِيئًا» أقوال : يرى البعض انها وصف بمحل «المفعول المطلق» ويكون التقدير (كلوا أكلاً هَنِيئًا)، وقيل: انها وصف المفعول به ويكون المعنى (كلوا واشربوا ما كونا ومشروباً هَنِيئًا)، وفي الواقع ان هَنِيئًا هو نفس المأكول والمشروب .

وعلى أية حال ، ان المراد من «هَنِيئًا» .. ان الطعام أو الشراب لا يترك أي أثر سيء على الانسان .. بل انه يهضم بكل سهولة .



١٤- النُّزْل :

نلاحظ في بعض الآيات تعبيراً عميق المعنى يكشف عن حقيقة جديدة وهذا التعبير هو (النُّزْل)، وقد ورد في سورة آل عمران الآية ١٩٨: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزْلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

كما ورد نفس هذا المعنى في الآية ١٠٧ الكهف، والآية ١٩ السجدة، والآية ٦٢ الصافات والآية ٣٢ فصلت .

ولأجل توضيح المفهوم الحقيقي لهذه الآيات .. لابد من توضيح المعنى الدقيق للنزل. قال الراغب في مفرداته (النزل ما يعد للنازل من الزاد)، وعلى ضوء هذا التفسير تكون جميع النعم التي تعد لاستقبال الضيوف مصداقاً من مصاديق النزل، ولقد ورد نفس هذا المعنى في «صحاح اللغة» و «المقاييس» .

وقال بعض المفسرين: (النزل ما يعطى الملك النازل وقت نزوله قبل ان يجعل له راتباً أو يكتب له خبزاً)^(١).

وقيل: (النزل)^(٢) أول طعام يقدم الى الضيف (وكما هو جار في زماننا حيث يقدمون الشربت، أو الفواكه للضيف في اول حلوله) وينسجم هذا المعنى مع مفهوم النزول .

وبناءً على ذلك ومع الاخذ بنظر الاعتبار «الجنات» بكل نعمها ومواهبها يكون مفهوم «النزل» في ذلك المضيف الكبير هو: وجود استقبالات أعلى وأهم ولعلها تكون اشارة الى تلك النعم المعنوية والجذبات الروحانية والمظاهر القدسية، ولهذا السبب ورد في الآية ١٩٨ آل عمران بعد جملة ﴿نُزْلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ قوله تعالى ﴿وَمَا

١- تفسير الفخر الرازي: مجلد ٢٥ ص ١٨٢.

٢- تفسير المنار: المجلد ٤ ص ٣١٤- لقد ذكر ثلاثة معان مختلفة ومتقاربة في نفس الوقت.

عند الله خَيْرٌ للابرار» .

حتى وان كان (الازل) بمعنى ما بعد للضيف من الكرامة والبر والطعام والشراب (كما قال ذلك بعض المفسرين).. فانه لا يمكن الانكار بان ضيافة الشخص الكريم لا تنحصر باطعام الضيوف فقط ، بل تشمل اضافة الى ذلك تقديم أنواع الهدايا والعطايا التي تهدي اليهم ، وما الطعام والشراب الا شيئاً يسيراً قبال هذه الامور .

وبناءً على هذا ومهما كان معنى (الازل) ، فانه اشارة لطيفة الى تلك المواهب المعنوية والروحانية للجنة .



١٥ - النعم غير القابلة للتصور :

مما لاشك فيه ان النعم الجسمانية في الجنة لا تنحصر بما قيل سلفاً ، فطبيعة هذا العالم المحدود تحول دون ان يكون لدينا تصور متكامل عن النعم الجسمانية والروحانية في العالم الآخر .

ومن جهة اخرى ، ان حب التنوع عند الانسان يدفعه لطلب المزيد من المواهب والنعم المختلفة ، ولذا عني القرآن الكريم بهذه المسألة عناية خاصة وأعلن صراحة : ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ الزخرف ٧١ .

وهذا التعبير هو أكثر التعابير شمولية وجمعاً فيما يتعلق بالمواهب والنعم الالهية في الجنة ، يقول المرحوم (الطبرسي) في مجمع البيان : (لو اجتمع الخلائق كلهم على ان يصفوا ما في الجنة من انواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان

الصفتان) ^(١).

والملفت هو ذكر هذه الجملة بعد بيان العديد من نعم الجنة حتى يُعرف بان نعم الجنة لا تنحصر بها.

وهنا يطرح هذا السؤال : لماذا ذكر تعالى لذة العين بعد لذة النفس ؟ هناك عدة احتمالات :

الاول : ان جملة «تشتهيه الانفس» تشمل جميع اللذات ، أما لذة «الاعين» ولما لها من اهمية استثنائية فقد وردت على شكل (ذكر الخاص بعد العام).

الثاني : ان الجملة الاولى اشارة الى لذات جميع الحواس (حاسة السمع ، واللمس ، والذوق ، والشم) ، اما جملة «تلتذ الاعين» فهي اشارة الى لذة حاسة البصر وهذه اللذة تعادل جميع اللذات أو اكثر.

الثالث : ان الجملة الاولى اشارت الى جميع اللذات الجسمانية (المادية) ، أما الجملة الثانية فقد اشارت الى اللذات الروحانية والمعنوية . اي النظر بعين البصيرة الى جمال الخالق المطلق ، ومشاهدة صفات الجمال والجلال التي تعادل كل لحظة منها جميع النعم المادية في الجنة .

ومن الواضح ان محيط الجنة محيط منزه ومقدس ، لذا فان طلبات الانسان من انواع النعم (المشروبة والمأكولة والملبوسة والمشمومة وغيرها) لا تتعدى الاشياء الظاهرة التي تليق بالانسان الطاهر. وعلى هذا فلا استثناء في عمومية الآية ، ولا تحتاج الى توضيحات هذا وذاك بأنها هل تشمل الطلبات السيئة للنفس ؟

لقد ورد نفس هذا المعنى في سورة فصلت الآية ٣١ قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ^(٢).

قال بعض المفسرين ان الجملة الاولى اشارة الى جميع النعم المادية في

١ - مجمع البيان : المجلد ٥ ص ٥٦ .

٢ - يدعون : من مادة (ادعاء) (افتعال من دعاء) بمعنى طلب الشيء .

الجنة ، اما الجملة الثانية فهي اشارة الى المواهب المعنوية بقرينة الآية ١٠ سورة يونس : ﴿دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا دَعَوَاهُمْ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ان هذا التفسير يعتبر تفسيراً مناسباً ، حيث ان شهوة النفس تكون اكثر فيما يتعلق بـ (المسائل المادية) ، اما الدعاء فيستعمل عادة في المسائل المعنوية . ونقرأ تعبيراً آخر في سورة الانبياء الآية ١٠٢ ﴿وَمِمَّنْ فِيمَا أَسْتَهْتِ أَنْفُسَهُمْ خَالِدُونَ﴾ .

واضافة الى ما ذكرنا هناك آيات اخرى في هذا المجال : فنجد في سورة النحل الآية ٣١ تعبيراً جديداً ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ غل-٣١ . وكذلك ورد نفس هذا التعبير في سورة الفرقان الآية ١٦ . ويلاحظ هذا التعبير ايضاً (وبشيء من الاختلاف) في ثلاث سور اخرى من القرآن (الزمر ٣٤ ، والشورى ٢٢ ، وق ٣٥) .

يتضح من مجموع ما ذكر في هذا الفصل ، ان العطاء الالهي في الجنة لا تحده أي حدود ، لا من حيث المقدار ، ولا الكيفية والنوع ، ولا الزمان والمكان . وبناءً على ذلك فان ما ذكر في الفصول الماضية انما هو عبارة عن نماذج واضحة لما يمكن ان يدركه اهل هذا العالم اجمالاً ، اما النعم التي هي فوق تصورنا وادراكنا فقد اشارت اليها الآيات القرآنية اعلاه بعبارات اكثر شمولية وعمومية ..

وفي الحقيقة ان الجنة والعطاء الالهي فيها ما هو إلا مظهراً كاملاً من مظاهر القدرة واللفظ الالهي ، وبما أن لا نهاية لقدرته ولطفه تعالى .. فكذلك لا نهاية ولاحد لعطاياه ومواهبه في الجنة (تأمل) .

اللذات الروحية

٣- اللذات الروحية :

نظراً لوجود أبعاد روحية وجسمية في «المعاد» ونظراً لكون الروح أسمى واشرف من الجسم بمراتٍ ومرّاتٍ فينبغي اذن عدم الشك في ان النعم الروحية والمعنوية للجنة افضل واسمى واعظم بمّرات من النعم المادّية والجسمية !

ولكن لما كان الوصف لا يتسع عادة للتعبير عن هذه النعم ، وهي امور تعتمد على المشاهدة (القلبية) لا على القول والسماع ولهذا غالباً مانعثر في الآيات القرآنية على اشارات مبهمه لهذه النعم التي يتمتّع بها اصحاب الجنّة بأستثناء الموارد التي يمكن شرحها وبيانها حيث تولّى القرآن الكريم شرح وتبيان عدد منها .

وبعبارة أخرى : فان لذّة ادراك معرفة الله وما فيها من نفحاته الجلالية والجمالية وانوار الطافه الخفيّة ، والشكر من ارتشاف كأس العشق لذاته المقدسة تعادل بل وتفوق اللحظة الواحدة منها كل النعم المادية في هذا العالم .

قد نشعر نحن احياناً في هذه الدنيا ببعض الأمثلة الواهية جداً لهذا الموضع ، وهو مايلوح للانسان حين يختلي مع ربه للعبادة فيستغرق ناسياً الدنيا وما فيها فيذوب في لحظات قصيرة في جمال الله الذي لا مثيل له ، لا سيما اذا كان ذلك في بعض الأماكن «المقدسة» كجوار الكعبة أو في عرفات والمشعر وأمثالها من الاماكن الخاصة بالعبادة . فيشعر الانسان بنوع من اللذة التي لا يتأتى لأي قلم أو بيان وصفها .

تصوّر لو أن هذه المشاعر تحصل وبشكل أكثر قوّة بآلاف المرات وتستمر لساعات وأيام وليال وأشهر وسنوات متواصلة ، كيف سيكون الحال ؟ خاصّة مع

انعدام عوامل الغفلة عن ذكر الله وزوال المسببات التي تعصف باستقرار القلب وحضوره، وانكشاف الحجب وموانع المعرفة من امام الابصار، حيث يصبح ادراك الانسان وبصيرته اشد واقوى ولا وجود هناك للهواجس الشيطانية التي تترصد دوماً لسالكى هذا الطريق .

يمكن حينذاك تصوّر ما يجري هناك، وماهى الجذبة التي تثيرها النعم المعنوية، وماهى النفحات الجذابة التي تستقطب الروح الى جوار قرب الله، وتجعلها غارقة في انوار ذاته وغافلة عن ذاتها حتى يصل بها الحال الى عدم رؤية ما سواه ولا تطلب سواه، ولا ترى الا ما تحب، وتحب كل ما ترى .

ونعود الآن الى القرآن مع الالتفات الى الاشارات المذكورة اعلاه لنسمع القرآن نفسه وهو يبين هذه النعم التي يمكن تلخيصها تحت الابواب الآتية :



١- الاحترام الخاص :

يبدأ احترام اهل الجنة منذ لحظة دخولهم فيها فيقابلهم خزنتها مهتئين ، كما ورد في القرآن : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ الزمر-٧٣.

يُستفاد من هذه الآية أن خزنة الجنة ينتظرون المتقين بلهفة على ابواب الجنة وقد فتحوها لهم من قبل وما ان يصلوا اليها حتى يسارعوا الى استقبالهم بأجمل التحيات ووافر الاحترام ويدعوهم بأطيب العبارات الى لجنّة والحياة الخالدة فيها^(١).

نعم هذه هي الأصول المتبعة في استقبال الضيف العزيز، فأول الامر تفتح

١ - الملفت للنظر هنا ان القرآن استعمل «واو» الحالية في جملة «وَفُتِحَتْ ابوابها» للتعبير عن افتتاح الابواب مسبقاً (كما ورد هذا في الآية ٥٠ من سورة ص جنّات عدن مفتحة لهم ابوابها). الا انه يقول عن النار: (حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا فَتِحَتْ ابوابها) بدون استعمال «واو» الحالية.

الابواب والمضيفون ينتظرون على الباب، وما يكاد يدخل حتى يستقبلوه بالترحاب وهذه من اللذات المعنوية الثمينة .

«والخزنة» جمع خازن وهو بمعنى الحارس والمراقب، والمقصود هنا هو الملائكة الذين يتولون المحافظة على الجنة وتسيير شؤونها .

وفي المرحلة اللاحقة بعد دخول الجنة يُؤمر ملائكة الله المقربون بالدخول عليهم من كل باب والترحيب بهم وتهنئتهم . ورد في الآية (٢٣) من سورة الرعد: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(١) .

يفهم من الآية السابقة ان مجاميع من الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، مع الالتفات الى ان كل باب من ابواب الجنة مخصص لواحد من الاعمال الصالحة مثل : (باب الصلاة ، وباب الجهاد ، وباب الحج) فيتضح ان كل مجموعة من الملائكة تدخل عليهم لأجل واحد من الاعمال الصالحة التي ادوها في الدنيا ، والطريف في الامر ان كل هذه الاعمال تتلخص في معنى الصبر بكل انواعه : الصبر على الطاعة والصبر على المصيبة ، والصبر على المعصية .

والاهم من كل ذلك التحية والسلام الصادر من الله الى اهل الجنة، وهو سلام فاتح بالمحبة ومليء باللطف والرحمة ، كما جاء في الآية الكريمة ٥٨ من سورة (يس): ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾^(٢) .

هذا السلام وهذه التحية الالهية التي تنفذ في اعماق النفس وتملؤها بالطاقة فتشد اليها نفوس اهل الجنة بما فيها من لطف واحسان وتجعلها مستغرقة بالبهجة ، وهذه نعمة لا تضاهيها نعمة . نعم ان سماع نداء المحبوب المنبعث من جوده ولطفه

١ - هذه الجملة تقديرية ، وتقديرها هو: فنعم عاقبة الدنيا الجنة .

٢ - قيل في اعراب هذه الجملة : «سلام» خبر «ان» «لهم» مقدرة . و«قولا» مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: يقول قولا . وهناك آراء أخرى أيضاً في هذا الصدد. إلا ان ما ذكرناه هو الأنسب .

لَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

ان نفحة لقاء المحبوب ورؤية لطف الحبيب والسلام الذي يعني رفع الحجب، يحوي من اللذة والاشواق والبهجة بحيث ان لو بقي العشاق بعيدين عن فيضه المعنوي لما صبروا. كما روى بعض مفسري السُّنة حديثاً قيماً عن امير المؤمنين (عليه السلام) يقول فيه: «لو حُجبت عنه ساعة لَمِتَّ»^(١).

وعلى اية حال، فان اسمى امانى اهل الجنة واشرف مفخرة لهم واحب ساعة اليهم، هو ان يسلم عليهم الرب الرحمن الرحيم.

وتجدر الاشارة الى ان وجود آيات عديدة أخرى في القرآن الكريم تتضمن اهداء التحية لأهل الجنة من غير ان تحدد مصدر التحية والسلام كما في «الآية ٤٦ الحجر - والآية ٧٥ الفرقان - والآية ٣٤ ق». فربما يكون مصدر التحية الملائكة، ويحتمل في بعضها ان يكون السلام من اهل الجنة على بعضهم، أو ربما يكون من الله وهذا افضلها وأكملها.



٢- اجواء الامن والسلام:

ان اكثر ما يعكر صفو روح الانسان في الدنيا هو عدم الشعور بالأمان في شتى مناحي الحياة. وعدم الشعور بحلاوة الدنيا يعود في الغالب الى عدم ثقة الانسان بما بين يديه. فهو غير واثق من المستقبل ولا هو واثق من ابناء جنسه، لا سيما اذا كانت لديه نعمة اكثر فهو يجد نفسه عرضة لأمواج متلاطمة من الحقد والحسد والكراهية بما يجعل الدنيا مظلمة في عينه.

واحدى النعم الروحية المتوفرة في الجنة هي الشعور بالأمن والأمان في جميع المجالات، فلا خوف من اندلاع الحرب ولا وجل من المخاصمات. فلا الحقد له

١- تفسير روح البيان: المجلد ٧ ص ٤١٦.

وجود ولا الحسد، والعشق والوفاء يملأ الارحاء، وكذلك المحبة والاخوة تحيط بالجميع.

نلاحظ في القرآن الكريم آيتين فيهما وصف جميل وغني للجنة وهو «دار السلام» وهو ما جاء في الآية (١٣٧) من سورة الانعام: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيُّهَا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وكذلك جاء هذا الوصف في سورة يونس الآية (٢٥): ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾.

ينقسم المفسرون في تفسيرهم لمعنى (دار السلام) الى قسمين:

الاول: يرى ان السلام هنا يعني السلامة من كل ألم وآفة وبلاء، وهو من اوصاف الدار أي الجنة. فلا وجود هناك لصراع الناهيين في الدنيا المادية ولا أثر للسلوكية المنحرفة لأصحاب الثروة الغافلين عن ذكر الله، ذلك المكان خالٍ من الحروب واراقة الدماء ولا مكان فيه للاستعمار والاستثمار، نعم هناك دار السلام والوثام والأمن والأمان^(١).

الثاني: يرى بأن السلام من اسماء الله. وعلى هذا فدار السلام هي من قبيل المضاف والمضاف اليه، وهو اشارة الى ان الجنة دار الله، وكلا المعنيين جميل رغم ان المعنى الاول يبدو مناسباً أكثر، لأن اصل هذه المفردة - بناء على قول الراغب الاصفهاني - يعني الخلو والسلامة من العيب والنقص الظاهري والباطني، حتى ان هذه المفردة اطلقت على ذات الباري عز وجل كواحدة من صفاته واسمائه الحسنى، لأن ذاته المقدسة سالمة من العيب والفناء.

ويظهر كذلك من جملة (لهم دار السلام) بأنها تتطابق والمعنى الاول. (تأمل)

١ - بلغني وانا اكتب هذه الجمل ان المستعمرين بقيادة امريكا قد بدؤوا قبل عدة ساعات بهجوم على العراق وان المئات من طائراتهم تضرب وبشكل متواصل جميع المنشآت الحيوية في هذا البلد (٢٧/١٠/١٣٦٩ المصادف ليوم ٣٠ جمادى الثانية عام ١٤١١).

وورد في حديث عن ابن عباس انه قال : (دار السلام: الجنة وأهلها لهم السلامة من جميع الآفات والعاهات والأمراض والاسقام ، ولهم السلامة من الهرم والموت وتغير الاحوال عليهم ، وهم المكرمون الذين لا يهانون أبداً ، وهم السعداء الذين لا يشقون أبداً ، وهم الفرحون المسرورون الذين لا يفتنون ولا يهتمون أبداً ، وهم الاحياء الذين لا يموتون أبداً ، فمنهم في قصور الدر والمرجان ابوابها مشرعة الى عرش الرحمن والملائكة يدخلون عليهم من باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) ^(١).

وأخيراً تأتي تكملة هذا الموضوع في الآية (٢٧) من سورة الحجر حيث جاء فيها: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ ^(٢).

وبما ان كلمة «غل» تحتل الكثير من المعاني الواسعة التي تدل في الغالب على الصفات الباطنية القبيحة التي تعكر صفو الروح والجسد والعائلة والمجتمع ، لهذا يفهم من هذه الآية ان صدور اهل الجنة خالية من الحقد ولا تحمل قلوبهم أي ضغينة وعداوة وكبر وحسد ، فالله قد نزع من قلوبهم كل هذه الصفات الرذيلة ، فسادتهم روح الاخوة والمحبة. وما اجمل وألطف مثل هذه الاجواء الخالية من تلك الصفات التي يخيم عليها الحب والعطف والسلام والوئام.

وحتى في الحياة الدنيا كلما أزيلت امثال هذه الرذيلة من المجتمع كلما ساده الأمن والاستقرار، وعلى العكس من ذلك كلما انتشر وجود امثال هذه الظواهر في أي بيت أو مجتمع اصبحت مصدراً للنزاعات الدامية والمؤسفة وسبباً لزعزعة الأمن

١ - بحار الانوار: ج ٨ ص ١٩٤، الحديث ١٧٦.

٢ - «غل» مشتقة من كلمة «غلل» على وزن كلمة ضرر، وتعني في الأصل النفوذ التدريجي للشيء، ولهذا يقال للماء الذي يجري ويتسلل بين الاشجار غلل، وكذلك يقال للحسد والحقد والعداوة «غل» لأنها تنفذ الى القلب خفية وبالتدريج، وكذلك يطلق على الخيانة اسم «الغلول» لهذا السبب.

والاستقرار.

ومما يشير الاهتمام ان القرآن الكريم جعل الاستقرار الداخلي مكملًا للاستقرار الخارجي حيث يقول: لا يوجد في الجنة تعب أو اضطراب، وينعدم فيها الخوف من زوال النعم أو هو الهاجس الذي يقلق بال الانسان الذي ينعم بالخيرات ويكدر عليه عيشه. وكل هذه الأسباب تجعل من نعم الجنة هنيئة مستساغة^(١).



٣- الأمان بعد الخوف:

ان نعمة الأمان وبغض النظر عن جذورها التي اشرنا الى بعضها في بحثنا السابق، تعد من اكبر النعم المعنوية التي يعز على الانسان فقدانها ولو للحظة واحدة، وهذه الحقيقة يشعر بها الاشخاص في المناطق الصحراوية الخطيرة، أو في المناطق الحربية المعرضة في أي وقت للقصف بالصواريخ والقنابل، فهناك يتكدر ماء الحياة الصافي وتمضي الساعات والدقائق ثقيلة وعسيرة، والنقطة المقابلة لذلك هي مناطق الأمان والأمان^(٢).

يصف القرآن المجيد حال المتقين بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ الدخان-٥١. فلا هم يخشون هجوم الشياطين ولا يخافون سلطة الطواغيت ولا هم يتعرضون للآفات والبلايا ولا يعتريهم الحزن والغم! ولهذا السبب يضيف في مكان آخر: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ سورة الاعراف-٤٩.

لقد لاحظنا من خلال التجربة ان بعض الناس - ورغم مايتوفر له من متطلبات

١- ورد ما يشابه هذا المضمون مع بعض الاختلاف الجزئي في: الآية (٤٣) من سورة الاعراف، والآية (٣٥) من سورة فاطر.

٢- كلمة «آمين» الواردة في الآية ٥٥ من سورة الدخان والآية ٤٦ من سورة الحجر بشأن اهل الجنة، وكذلك كلمة «آمنون» في الآية (٣٧) من سورة النبا حيث تقول: «وهم في الغرفات آمنون» هاتان الكلمتان تشيران الى نفس هذا المعنى.

الحياة ومستلزمات الراحة - يعيش حالة من القلق والاضطراب بسبب الحزن والهم الذي يستحوذ عليهم، لوجود الخوف والهلع الذي يهز أحشائه فنراه لا يلتفت مطلقاً إلى كل تلك النعم ولا يعبر أدنى اهتمام لما بين يديه . ففي مثل هذه الأحوال يمكن لمس حقيقة وعمق التعابير القرآنية بشأن أهل الجنة .

لابد ان أهل الجنة يشعرون حتى في هذه الدنيا بشيء من ذلك الأمان والسكينة في ظل إيمانهم ، وينعمون بالاستقرار حتى في أشد المعضلات من خلال الاعتماد على حقيقة التوكل وروح التسليم والرضا بالارادة الالهية : ﴿إِن أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ سورة يونس ٦٢-٦٤.

* * *

٤- الأخلاء والاصدقاء الاوفياء :

ومن أهم اللذائذ الروحية الأخرى معاشرة الاصدقاء المخلصين والاخلاء الذين يتصفون بالأيمان والسجايا الرفيعة ، وتفوح ارواحهم بالمحبة والموودة . ان الجلوس مع هؤلاء لحظة واحدة يغمر النفس بهجة لا توصف . وتذكر الآيات القرآنية الشريفة ان أهل الجنة ينعمون بهذه النعم فيجالسون الأخلاء ويتحدثون اليهم . ولكن ماهي المواضيع التي تدور حولها أحاديثهم ؟ هذا ما لا يمكن التكهن به . لعلمهم يتحدثون في مواضيع يستحيل علينا ادراكها اليوم، ولكن من البديهي انها من نوع الأحاديث التي تحيي القلوب .

تطالعنا الآيتان ٧٩ و ٨٠ من سورة النساء بما يأتي :

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا^(١) * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ .

١ - يرى البعض ان كلمة «رفيقا» جاءت هنا تمييزاً ولهذا وردت مفردة، واعتبرها البعض الآخر حالاً، وان

نعم : ان الأخلاء في الجنة هم خيرة ذوي الفضائل في العالم : كالانبياء العظام والخلص من اصحابهم والصديقين والشهداء والصالحين .

ولو اننا قارنا هذا مع مايجري في هذه الدنيا حيث يضطر الناس في كثير من الأحيان الى تحمل العذاب الناتج عن معاشرة اشخاص لا يجمعهم وائاهم انسجام أو ترابط ، يمكن حينذاك فهم طبيعة الاوضاع الموجودة في الجنة .

والذي يسترعي الاهتمام هنا ان الكثير من المفسرين قد نقلوا روايات عديدة بشأن نزول هذه الآية ، ننقل فيما يلي ملخصها (مع وجود بعض الاختلاف بين المفسرين في النقل) :

يروى انها نزلت في ثوبان مولى رسول الله (ﷺ) اذ كان شديد الحب لرسول الله (ﷺ) قليل الصبر عنه فاتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله (ﷺ) عن حاله، فقال: يا رسول الله مابي وجع غير اني اذا لم ارك اشتقت اليك واستوحشت وحشة شديدة حتى القاك فذكرت الاخرة فخفت ان لأراك هناك لأنني ان ادخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين وأنا في درجات العبيد فلا أراك وان أنا لم أدخل الجنة فحينئذ لأراك ابدأ فنزلت الآية ^(١) .

وكلمة «ذلك» التي تستعمل عادة اشارة للبعيد، جاءت هنا للدلالة على عظمة هذه النعمة الالهية، وكأنها عالية الى الحد الذي يجعلها بعيدة عن متناول أيدينا . وكذلك عبارة «فضل من الله» انما هي تأكيد على هذا المعنى واشارة الى ان هذه النعمة لا يمكن الحصول عليها بمجرد العمل ، بل تنال بفضل الله .

وتجدر الاشارة الى قضية أخرى في هذه الآية، وهي ذكرها لأربع جماعات بالترتيب واعتبارهم كأصدقاء في الجنة وهم : «الانبياء، والصديقين، والشهداء،

بمعناها مفردة (مع ان الحال جمع) اما لكون كلمة رفيق تعني المفرد وتعني الجمع ايضاً أو تضمناها لمعنى الجنس .
١ - تفسير مجمع البيان، والفخر الرازي، والقرطبي، والمراغي، وروح المعاني، وفي ظلال القرآن في تفسيرهم للآية المذكورة.

والصالحين».

ويبدو ان هذا الترتيب يدل على تسلسل درجاتهم. فقال بعضهم: «ان الانبياء، وُضعوا في المقام الأول لأنهم وصلوا في مجال المعرفة الالهية الى حد رؤيته عن قرب بياصرة القلوب، والصديقون في المقام الثاني من المعرفة وهم كمن يرى الاشياء بعينه من بعيد، والشهداء في المقام الثالث وهم كمن يدرك وجود الشيء بالادلة العقلية، والصالحون في المقام الرابع وهم كمن يقبل الاشياء عن طريق تقليد الكبار واتباع اهل الفن»^(١).

يمكن في كثير من الحالات اطلاق كلمات (الشهداء والصالحين والصديقين) على الانبياء ايضاً، لكن ربما يُقال ان هذه الاوصاف الاربعة عندما تصبح في ازاء بعضها فانها تعطي مثل هذا المعنى.

ويبدو ان هناك تفسيراً اكثر روعة بشأن هذه الدرجات الأربع، وهو ان الحاجة الى هداية المجتمع الانساني تحتاج في بداية الأمر الى الانبياء أي (القادة الربانيون). ومن بعدهم يأتي دور الصديقين أي المبلّغين الصادقين في القول والعمل الذين ينشرون دعوتهم من بعدهم. وفي المرحلة التالية عند اصطدامهم بالعوائق والموانع تبرز الحاجة الى اشخاص يهبّون للدفاع ويقدمون التضحيات حتّى يتمكن الصالحون اخيراً من حكم المجتمع.

وفي هذه المناسبة ينبغي الاشارة الى ان مرافقة هذه الفئات الأربع لاتعني وحدة المقام معها، بل تعني امكانية الارتباط بها كما هو الحال في اتصال الطالب باستاذة أو الجندي بأمره.

ورد ما يشبه هذا المعنى - ولكن بثوب آخر - في الآية (٤٧) من سورة الحجر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غُلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾. ويلحظ في الآية (٣١) من سورة الكهف اشارة الى نفس المعنى ايضاً.

وعلى اية حال، فان مرافقة هؤلاء الصالحين والاتصال بهم يُعد من اكبر اللذات المعنوية لأصحاب الجنة .



٥- العلاقات الطيبة

ان ما يملأ اجواء الحياة بهجةً هي الأحاديث الطيبة التي يتبادلها الناس مع بعضهم، فلو كانوا كلهم صادقين ويفكرون بشكل اصولي ويتعاملون فيما بينهم بالانصاف والمودة ويتبادلون الحب والاحترام، لكانت حياتهم مملوءة بالاستقرار والبهجة، ولكن لو انحرفت العلاقات فيما بينهم نحو الكلام القبيح وتبادلوا التهم والاكاذيب والذم والتفريع وتنازوا بالكلمات الفجة التي تأبأها الأداب العامة. يصبح من الصعب على احدهم صيانة شخصيته والتعامل في مثل هذه الاجواء بل ان هذه الاجواء تصبح خائفة ومؤلمة له .

وأحد الخصائص الموجودة في الجنة هي خلوها من هذه الظواهر، فأهل الجنة لا يسمعون كذبة واحدة على مدى آلاف السنين ولا تطرق اسماعهم الكلمات النابية ولا الأحاديث الباطلة، وهذه من أهم الفضائل المعنوية التي يتمتعون بها .
قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ الواقعة- ٢٥-٢٦.

فَيُحَيِّي بعضهم الآخر، والملائكة ايضاً تسلم عليهم، والأهم من كل ذلك هو سلام الله عليهم وما تحمله تلك التحيات من المحبة والاخلاص والصفاء، اجل ان مجالس اهل الجنة فواحة بالحب والمودة، واذا توقرت مثل هذه الاجواء في اي مكان فهو نموذج من الجنة .

وجاء في موضع آخر من الكتاب المجيد: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كَذَابًا﴾ النبأ- ٣٥.

«اللفو» في اللغة يعني الكلام الفارغ، وبعبارة أخرى: الكلام الذي لا يتضمن أية أفكار أو معاني، ويبدو ان الكلمة مأخوذة اصلاً من «لغا» وهو صوت زقزقة العصافير. اما الضمير «فيها» فقد أرجعه اغلب من فسر هذه الآية الى احد هذين الاحتمالين:

الاول: انه يرجع الى كلمة الجنة، الثاني: انه يرجع الى كلمة الكأس التي وردت في الآية السابقة لها. فاذا كان الاحتمال الأول فالمعنى واضح. واذا صح الاحتمال الثاني فيكون المعنى ان شراب اهل الجنة لا يسكر ولا يسبب فيه أي لغو. لكن التفسير الأول اكثر انسجاماً مع معنى «في» والآيات الأخرى المشابهة، وورد نفس هذا المعنى في آية أخرى بعبارة اقصر واكثر وضوحاً حيث يقول ﴿في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية﴾ الفاشية- ١٠- ١١^(١).

اضافة الى ما ذكر، يتنعم اهل الجنة بكثير من المتع المؤنسة ومجالس الفرح والبهجة والاحاديث المسلية والمزاح اللطيف كما يصفهم القرآن: ﴿ان أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾.

تعني كلمة «شغل» أية حادثة او حالة تشغل الانسان، ولكنها هنا تفيد معنى الحالة المسلية التي تبعث السرور، وذلك بقرينة «فاكهون» وهي جمع «فاكه» وتعني الانسان المسرور، وهي مشتقة من كلمة «فكاهة» ومعناها المزاح، وتعني كلمة «فاكه» الانسان الممازح المرح الذي يجيد الاحاديث الطريفة^(٢). وبما اننا نجهل طبيعة الاشياء التي يتسلل بها اهل الجنة لأننا نقيس كل شيء في هذا العالم بمعيارنا المحدد الصغير، فمن البديهي ان النعم التي يشغلون بها هناك لا يمكننا حتى تصورها في هذا العالم.

وعلى اية حال فان الامور التي تستهويهم وتشغلهم هناك تكون سبباً لنسيان آلام هذا العالم وهول المحشر أو فقدان بعض الأحبة. ولا شك ان مواضيع التسلية

١ - هناك آيات قرآنية أخرى تؤكد على هذا المعنى منها (مريم - ٦٢) و(يونس - ١٠).

٢ - لسان العرب.

السبعة او العشرة التي ذكرها بعض المفسرين، انما هي موضوعة وفقاً للمعايير والتصورات الدنيوية للتسلية، والآ فالأوضاع في ذلك العالم تختلف عما في هذا العالم.^(١)

* * *

٦- الانشراح النفسي:

قد يُدعى الانسان احياناً الى اجمل الحقائق، وتوفّر له كافة مستلزمات الراحة، إلا ان روحه منقبضة فلا يتلذذ بأي منها، فالانسان يشعر بلذة النعم الالهية فيما اذا كان منشراح النفس.

يُستفاد من مجمل الآيات الواردة في هذا الصدد ان الفرح والانشراح يظهر على وجوه اهل الجنة بكل وضوح. وقد استخدم القرآن الكريم عبارات جذابة في هذا الصدد، فاليك مثلاً قوله: ﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبّون﴾ الزخرف-٧٠.

فكلمة «تُحبّون» مأخوذة من المصدر «حبر» على وزن كلمة فكر، وتعني في الأصل الآثار الجميلة حسب ماوردت في كتاب (مقاييس اللغة)، ولذلك يطلق على الأشياء المزينة اسم «مُحَبَّر» على وزن مُشَجَر وسمّي الحبر حبراً لأنه يترك وراءه أثراً جميلاً. ويُقال للعلماء «أحبار» لأنهم يمتلكون آثاراً قيّمة، وهذه الكلمة تعني هنا البهجة والانشراح الذي يظهر أثره على الوجوه^(٢).

وقد وردت الإشارة الى هذا الموضوع بتعبير آخر في الآية (٢٤) من سورة المطففين: ﴿تَعرَف في وجوههم نظرة النعيم﴾.

فكلمة «النظرة» تعني في الأصل الجمال، والمقصود من نظرة النعيم الطراوة والنعمومة التي تظهر من اثر وفرة النعمة والحياة المرفهة وتعكس حالة (الارتياح

١- ورد نفس هذا المضمون في سورة الطور: الآية ١٨.

٢- ورد نفس المعنى في سورة الروم الآية ١٥.

والانبساط الداخلي) كما أنّ «تعبير الوجه تفشي سر الداخل»^(١).

وقد فسر بعضهم هذه الكلمة بمعنى السعيد والفرح والمستبشر كما جاء في الآية (٣٩) من سورة عبس: «وَجُؤَةٌ يَوْمُنْذٍ مُّسْفَرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ»^(٢). ولكن الآيات السابقة لها تظهر ان هذه الآية تشرح حال المؤمنين في مشهد المحشر وليس في الجنة.

وفسرها البعض الآخر بمعنى النور والجمال والاشراق الذي لا يتيسر للبيان وصفه،^(٣) وذهب البعض الآخر الى انها تعني البشر والبشاشة التي تظهر على وجوههم شعوراً منهم برضا المحبوب أي الله سبحانه وتعالى^(٤).

ونقرأ في الآية (٨) من سورة الغاشية هذا الوصف: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعِيهَا رَاضِيَةٌ».

كلمة «ناعمة» مأخوذة من مصدر «النعمة» وتعني هنا الاستغراق في النعمة الى حد ظهور آثارها من السرور والارتياح على الوجه.

وقال آخرون انها تعني النعومة واللطافة، وهذه ايضاً حاصلة من النعم المختلفة^(٥).

ومن الطبيعي ان هذه النعومة والطراوة، أو تلك الوجوه المنيرة على قول بعض المفسرين وكأنها القمر في الليلة الرابعة عشرة، ليست معلولة للنعم المادية فقط لأن النعم المادية لا يمكنها لوحدها ايجاد مثل هذه الآثار، ومن المؤكد ان هذا الأثر ناتج عما يختلج في نفوس اصحابها من احساس ومشاعر معنوية وروحية سامية تنعكس آثارها على اجسامهم، وختام الآية شاهد على هذا المعنى ايضاً.

١ - جاءت تعابير مشابهة في سورة القيامة الآية (٢٢)، وسورة الدهر الآية (١١).

٢ - تفسير الفخر الرازي: ج ٣١ ص ٩٨ (نقله باعتباره قولاً).

٣ - نفس المصدر السابق: ص ٩٩.

٤ - روح البيان: ج ١٠، ص ٣٧١.

٥ - تفسير الميزان: ج ٢٠ ص ٢٧٤.

٧- الشعور برضا الله :

ليس هناك شعور يخامر الانسان اكثر من شعوره برضا محبوبه وعزيز قلبه ، فهذا الشعور يثير لديه بهجة وارتياحاً لا يوصفان .

نعم ان نيل رضا المحبوب من اكبر اللذات المعنوية ، وهي لذة ممزوجة بالشعور بالشخصية وقيمة الوجود ، لأنه ان لم يكن يتحلّى بالقيمة والشخصية ، لما كان موضع قبول محبوبه الأكبر .

لقد اشار القرآن الكريم مراراً الى هذه القضية المهمة وجعل منها ركيزة يستند عليها ، فبعد الاشارة الى الجنان البانعة والازواج المطهرة ورد في الآية ١٥ من سورة آل عمران : ﴿ورضوان من الله﴾ . فهذه النعمة التي تُعتبر افضل من جميع النعم قد لُخصت في جملة قصيرة وبليغة .

وفي الآية ٧٢ من سورة التوبة أزيح الستار اكثر عن هذا الموضوع ، فبعد الاشارة الى مجموعة من النعم المادية المتوقّرة في الجنة ومنها الحقائق التي تجري من تحتها الأنهار والمسكن الطيبة ، يقول تعالى : ﴿ورضوان من الله اكبر﴾ ثم تُختتم الآية بالجملة : ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ .

فاستخدام تعابير من امثال «اكبر» و«ذلك الفوز العظيم» يُظهر بوضوح عدم وجود نعمة تضاهي هذه النعمة وبالشكل الذي يتضمن مفهوم الحصر وكأن الجملة تريد ان تقول : (ذلك هو الفوز العظيم لاغير) .

لقد ذكرنا عدّة مرّات عدم امكانية تصوّر أي من النعم المادّية للعالم الآخر في نطاق هذا السجن الدنيوي المحدود ، فكيف يجوز ذلك بشأن نعمة روحية ومعنوية كبرى الا وهي «رضوان الله» .

ونحن يمكننا ان نفهم بشكل اجمالي الفارق بين النعم المادّية والمعنوية واللذات المنبثقة عن أيّ منهما . فنحن نعرف مثلاً ان اللذة الناتجة عن لقاء الحبيب الغالي بعد سنوات من الفراق ، أو الشعور باللذة من جرّاء اكتشاف قضية علمية

معقدة كُنَّا نبحث عنها لسنوات طويلة ، والاكثر من كل ذلك النفحات الروحية والانشراح النفسي الذي يغمرنا حين العبادة الخالصة والمناجاة المقرونة بحضور القلب والمحبة الدافئة ، نعرف انه لا يمكن مقارنة كل هذا بلذّة الطعام والشراب وسائر اللذات المادّية الأخرى .

فقد روى ابو سعيد الخدري حديثاً عن رسول الله (ﷺ) قال فيه :

« ان الله يقول لاهل الجنة : يا اهل الجنة ؛ فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم فيقولون وما لنا لا نرضى يا رب وقد اعطينا ما لم تُعْطِ احداً من خلقك : فيقول : الا أعطيتكم افضل من ذلك ، فيقولون يا رب واي شيء افضل من ذلك فيقول : أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده ابداً »^(١) .
 وورد نفس هذا المعنى عن الامام علي بن الحسين (عليه السلام) ولكن بتعبير آخر ، جاء في آخره : « فيقول تبارك وتعالى : رضاي عنكم ومحبتني لكم خير واعظم مما انتم فيه »^(٢) .

« رضوان » يعني الرضا والارتياح بالمعنى المصدري ، ومجيئها هنا على هيئة النكرة يدل على العظمة ، اي ان رضوان الله الأكبر أهم من كل شيء سواه .
 وقيل ايضاً ان تنكيرها هنا فيه دلالة على القلّة ، اي ان أقلّ رضاً من الله يُعتبر اكبر من جميع النعم المادية المتاحة في الجنة .

وعلى آية حال ، فليس في ميسور أحد وصف تلك النفحات الروحية واللذات المعنوية التي ينالها الإنسان بسبب الشعور برضا الله . نعم ان اي جانب من هذه اللذة الروحية يفوق جميع النعم والمسرات الموجودة في الجنة .

ومما يسترعي الانتباه أنّ الآية (١١٩) من سورة المائدة وبعد سردها للنعم المادية في الجنة ، اشارت الى الرضوان وصورته وكأنه امر متبادل بين الخلق والخالق

١ - تفسير ابي الفتوح الرازي : ج ٦ ص ٧٠ ، تفسير روح المعاني : ج ١٠ ص ١٢٢ .

٢ - تفسير العياشي : آخر الآية المذكورة وفقاً لما جاء في ج ٩ من تفسير الميزان .

قائلة: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وما أجمل ان يكون الرضا من الجانبين، فهو يغرقهم بالنعم حتى يرضون، ويغمرهم بالمحبة بحيث يعلن لهم عن رضاه. وخلاصة القول أنه لا فوز اكبر من ان يشعر الانسان بان مولاه ومحجوبه ومعبوده راض عنه. ودلالة ذلك الرضا انه يفيض عليه بكل ما يتصور وما لا يتصور من النعم.

وعبارة راضية مرضية من الآية (٢٨) من سورة الفجر هي ايضاً اشارة الى نفس هذا المعنى، اذ تصوّر النفس المطمئنة لعباد الله المخلصين الذين يصلون الى جوار قرب المحبوب قائلة: ان صاحب النفس المطمئنة يرجع الى ربه وهو راض عنه ورّبه راض عنه ايضاً، وهنا يصدر الامر الإلهي: ﴿فادخلي في عبادي﴾ كتاج للكرامة يزّين به الرأس. فياله من فخر كبير عندما يخاطب تعالى الانسان في قوله: «عبادي»!

نعم هذه هي عقبي من اجتاز مرحلة النفس الأمّارة والنفس اللوامة ووضع قدمه على عتاب النفس المطمئنة. فكبح جماح الاهواء، والجم الشيطان وامتنطى مركب التقوى.

ولا تقتصر الآيات المتعلقة برضا الله في يوم القيامة باعتباره نعمة الهية، على ما ورد اعلاه. فهذا المعنى يلوح للبيان في آيات أخرى ايضاً ويعكس الأهمية الاستثنائية لهذا الموضوع^(١).



٨- نظر الله اليهم ونظرهم اليه:

ان من ائمن اللذات المعنوية هي ان يجود المحبوب الجامع لكل الكمالات بنظرة لطف على الانسان ويتحدّث إليه، والاكثر اهمية من كل ذلك ان يتمكن الانسان من بلوغ مقام شهود ذاته المقدسة اي انه يراه بقلبه ويغرق في بحر جماله.

١- راجع سورة القارعة: الآية ٧، وسورة التوبة: الآية ٢١، وسورة الحديد: الآية ٢٠، وسورة البينة: الآية ٨.

وقد اكّد القرآن الكريم مراراً على هذه النعمة المعنوية ، فتذكر احدي الآيات العذاب الالهي الأليم على من يكتّم آيات الله بالقول : ﴿ وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة- ١٧٤ .

ويتحدث القرآن في موضع آخر عن نفس هذا الموضوع والعذاب الالهي على من يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً : ﴿ وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ آل عمران- ٧٧ .

نعم ، إنَّهم محرومون من لذة التكلم مع الله ونظرة رحمته ولطفه . ولذلك فهم لا يطهرون ، ولما كانت الجنة مأوى الأطهار فهم يبقون في جهنم يذوقون أليم عذابها .

يتّضح من هاتين الآيتين ان هذه النعم لا ينالها غير المؤمنين ، فالله يكلمهم بلطفه ، ولهم نفس المنزلة التي كانت للأنبياء في هذه الدنيا وكانت من دواعي اللذة لهم ، وهل هناك لذة افضل من هذه ؟ ! اضافة الى تكليمه إياهم فهو ينظر اليهم بلطفه الخاص ايضاً ، وهل هناك نعمة اعظم من هذه ؟ فهو ينظر الى المحب الصادق نظرة مليئة باللطف والحنان .

ومن البديهي ان الكلام لا يكون باللسان ولا النظر يكون بالعين فالله سبحانه اجل من الجسم والجسمانية .

ربّما يحصل احياناً ان يغضب الأب على ابنه فلا يكلمه ولا ينظر اليه ، واذا كان الابن واعياً فهو يعتبر هذا التجاهل من ابيه تجاهه اكبر تعذيب نفسي له . اما في حالة الرضا عنه فهو يجلس اليه وينظر الى قوامه ويحادثه بانسراح ومحبة وهذا من دواعي فخر الابن وسعادته .

هذا في عالم المادّة والجسم والصورة ، ونفس هذه القضية تحدث بمقياس أسمى في عالم المعنى بين المولى الحقيقي وعباده .

وذكرت سورة القيامة لذة النظر الى الجمال الذي لا مثيل له للمحسوب

الحقيقي: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ القيامة-٢٢-٢٣.

وما يلفت الانتباه هنا هو ان تقديم (إلى ربها) - وهو ما يفيد الحصر -، يدل على انهم ينظرون اليه فقط في ذلك اليوم ولا ينظرون الى سواه. وهم ان نظروا الى غيره فهي ليست إلا نظرة عابرة، ومع ذلك فهم يرونه هو ايضاً لأن كل ما في العالم مظاهر لذاته المقدسة وآثار لطفه ورحمته، ورؤية الأثر هي رؤية المؤثر.

وهناك احتمال آخر ايضاً في تفسير هذه الجملة ﴿إلى ربها ناطرة﴾ يشير الى انتظار الناس لرحمة الله ولطفه، كما نقول احياناً ان الشخص الفلاني لا ينظر إلا إليك اي أنه ينتظر كرمك وفضلك، او عندما نقول اننا نعقد الأمل عليك. ولا مانع من اتساع معنى الآية لتشمل كلا المفهومين.

وقد استدل اغلب مفسري اهل السنة عند وصولهم الى هذه الآية ببعض الروايات الضعيفة التي تشير الى المشاهدة الحسية لله تعالى، وقالوا ان احد نعم اهل يوم القيامة رؤية الله بهذه العين، حتى ان بعضهم قال ان الله يظهر في السماء على هيئة النور! وهم ينظرون فوق رؤوسهم ويلتذون بمشاهدة نور الله بهذه العين المجردة.

وقد بحثنا في الجزء الرابع من هذا التفسير وبشكل موسّع في بطلان مثل هذه التصورات المليئة بالشرك والتي تهبط في تصوير الإله على انه جسم محدود بالمكان والاتجاه، وشرحنا كذلك ضعف هذه الاحاديث. ولا نرى لزوم تكرار ما سبق القول فيه، واننا نعتبر مثل هذا الخطأ الفاحش ناتجاً عن الابتعاد عن تعاليم اهل البيت (عليه السلام) ونسيان حديث الثقلين المتواتر^(١).

من البديهي ان آثار عظمة الله في ذلك اليوم أوضح بكثير مما عليه الحال في الدنيا، وكذلك الحجب المظلمة التي تغطي قلوب المؤمنين في هذا العالم فإنها ستُزاح جانباً حتى يتمكنهم مشاهدة ذاته المقدسة من خلال نظرة قلبية وروحية واحدة، بل ويكون الفيض الشهودي احياناً اعمق، فيغمرهم بجماله فينسبون الجنة

١ - للاطلاع على مزيد من المعلومات، يرجى مراجعة ج ٤ من تفسير «رسالة القرآن»

والنعم التي فيها .

نختم بحثنا هذا بآية أخرى نتحدث عن هذا الموضوع بأسلوب آخر، اذ ورد فيها: ﴿كَلاَّ اُنْهَم يَوْمَئِذٍ عَنْ رَّبِّهِمْ لِمَحْجُوبُونَ﴾ المطففين / ١٥.

وهل هناك جزاء اشد ايلاماً من حرمان الانسان من لقاء الله ومنعه من الحضور في المحضر الالهي المقدس .

ومفهوم هذا الكلام هو ان المؤمنين غير محجوبين في ذلك اليوم ، بل يتمتعون برؤية جمال الحق ويتلذذون بفيض لقاء المحبوب الذي لا نظير له ، وان كان ذلك الحجاب عذاباً اليماً للكفار فهذا اللقاء هو من امتع اللذات بالنسبة للمؤمنين .

* * *

٩- لهم ما يشتهون :

قد يقوم المضيف احياناً بتهيئة جميع المستلزمات الضرورية لضيوفه الاعزاء لكنها عادة ما تكون محدودة بشكل او آخر . إلا انه عندما يعدّه بتوفير كل ما يشتهي وما يطلب بلا استثناء فالضيف يشعر في مثل هذه الحالة بالارتياح والسكينة لانه يتأكد من انعدام اية قيود او حدود في هذا الصدد .

وكما ان هذا الكلام يصدق ايضاً على النعم المادية في الجنة ، فهو كذلك يصدق تماماً على النعم المعنوية فيها ، وبعض تعابير الآيات القرآنية تتسق معانيها اكثر مع النعم المعنوية ، فمثلاً تقول الآية (٢٢) من سورة الشورى بعد التحدث عن حدائق الجنة :

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ .

فتعبير «عند ربهم» وتعبير «ذلك هو الفضل الكبير» يتناسبان مع العطايا المعنوية والروحية في الجنة، وقد أشير اليهما بعد تبيان النعم المادية .

وقد ورد نفس هذا المعنى في الآية (٣٤) من سورة الزمر دون الاشارة الى

النعم المادية: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جِزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

وعلى هذا فلا توجد هناك أية قيود على النعم في الجنة وخاصة في الأبعاد الروحية والمعنوية، بالإضافة الى ما تتضمنه هذه التعابير من دلالات على عدم محدودية نعم الجنة في الأطر المادية، فهي تظهر ايضاً عدم وجود اية محدودية في أي من الجانبين .

وبتعبير آخر إن الله يهب الإنسان القدرة التي تجعل من ارادته سبباً لحصول اية نعمة، خلافاً لما عليه الحال في الدنيا اذ ان ارادة الإنسان فيها تابعة لوجود الاسباب وتوفر العوامل . فعندما يرغب الانسان في التجوال في روضة او بستان ولا يكون الجو معتدلاً ولا الاشجار يانعة، فإرادة الانسان لا تستطيع مطلقاً خلق اجواء ريفية او اشجار مورقة نديّة، ولكنه في الجنة ما أن يطلب الإنسان شيئاً حتّى يتحقق له بأذن الله، وهذا الامتياز مثير للعجب^(١) .

وقد طرح بعض المفسرين الذين يصرون على قضية رؤية الله تعالى، هذه المسألة هنا وقالوا إنها تتضمن المشاهدة ايضاً، فمن ذا الذي لا يطلب ولا يبغى رؤية الله جل وعلا؟!^(٢) .

لكن خطأهم الفاحش يكمن في عدم رغبتهم للاذعان لهذه الحقيقة وهي ان مشاهدة الله حسياً امر غير ممكن وذلك لأن الاتصاف بالجسمية والمكان والجهة لا تعدو ان تكون من الصفات الخاصة بالمخلوقات وهو امر مستحيل بشأن ذاته المقدسة وأهل الجنة لا يطلبون المحال . اما المشاهدة القلبية والباطنية فهي متيسرة في هذا العالم وكذلك في العالم الآخر .

وفي نفس هذا السياق ورد في الآية (٣٥) من سورة ق ما ياتي :

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ .

١ - مقتبس من تفسير الميزان: ج ١٧، ص ٢٦٠ .

٢ - تفسير الفخر الرازي: ج ٢٦، ص ٢٨٠ .

ويدل هذا التعبير على توفير كل ما تتسع له جملة «لهم ما يشاؤون»، وكل ما تشتمل عليه ارادتهم اضافة الى توفير جميع النعم والعطايا التي لم تخطر على بال اي إنسان، ويشملهم بلطفه الذي يستعصي على البيان وصفه.

ويُستدل من بعض الروايات ان جملة «ولدينا مزيد» هي اشارة الى أيام الجمعة التي يحظى فيها اهل الجنة بكرامات وعنايات خاصة من قبل الباري جل وعلا، وهو اكثر مما لديهم باثنين وسبعين مرة^(١). وتوجد هناك آيات أخرى في القرآن الكريم تتسق بشكل او آخر مع الآيات السالفة^(٢).



١٠ - النعم التي لا يدركها التصور:

تُلحظ في القرآن الكريم تعابير تذهب الى اكثر بكثير مما ذكرناه لحد الآن. فهي تتحدث عن قضية تخرج عن اطار التفكير لدى جميع ابناء البشر ولا تسعها دائرة التصور والخيال والوهم، وهي أبعد مما قرأنا وكتبنا.

ان استدلال الآيات القرآنية بمثل هذا الامر يعكس مدى عظمة النعم الالهية والتي يعجز البيان عن وصفها، وهي من الآيات العجيبة في القرآن مثل: «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» ألم السجدة-١٧.

وجاء في حديث مشهور عن النبي (ﷺ) انه قال: «ان الله يقول اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(٣).

تجدر الاشارة الى ان هذه البشارة العظمى قد وردت في القرآن الكريم في اعقاب سرده لصفات المؤمنين الذين يقومون الليل لمناجاة ربهم (صلاة الليل)

١ - بحار الانوار: ج ٨ ص ١٢٦. الحديث ٢٧.

٢ - من جملة ذلك: سورة يس: الآية ٥٧، سورة فصلت: الآية ٣١ والتي تشتمل على النعم المختلفة ويتبين ذلك من خلال تعابيرها: «ولهم ما يدعون» «ولكم فيها ما تدعون».

٣ - نقل هذا الحديث عدد كبير من المفسرين منهم الطبرسي في مجمع البيان، والآوسي في روح المعاني، والقرطبي في تفسيره، والعلامة الطباطبائي في الميزان، وذكره كل من البخاري ومسلم في كتبهما.

والذين ينفقون من اموالهم ؛ وهذه دلالة على ان افضل الطاعات والعبادات والاعمال الصالحة هي «صلاة الليل» ، و «الانفاق» . والغريب في الامر ان صلاة الليل تعني عبادة يؤديها المؤمن في الخفاء، وكذلك الانفاق الخالص فانه غالباً ما يجري في الخفاء كذلك ، ويكون الجزاء على ذلك من قبل الله تعالى في الخفاء ايضاً، فجعله مستوراً ولم يُطلع عليه أحداً .

وهناك نقطة اخرى ايضاً تسترعي الانتباه وهي ان تعبير «قرّة اعين» تعني برودة الأعين^(١) . لأنه من المعروف بين العرب أن «دموع الشوق» التي تنهمر عادة من الاعين عند الفرح الشديد تكون باردة ، على العكس من دموع الحزن التي تتصف عادة بالحرارة والحرقة . لذا فن العربي عندما يريد القول ان الموضوع او الحادثة الفلانية مدعاة للسرور والارتياح ، نراه يقول «قرة العين او قرّة اعين» .

وعلى اية حال فهناك كلمات وآيات لا يبلغها عقل الانسان مهما بلغ من التسامي ومهما ارتقى من الذرى ، وكلما تعمّق لسبراغوارها كلما توصل الى مفاهيم وأبعاد جديدة . حتّى يصل الفكر الى مكان يقف عنده ويعترف بعدم القدرة على بلوغ اعماقه . والآية التي نبحت فيها تمثل في الواقع اشارة قيّمة وذات مغزى للنعم الروحية والمعنوية العظيمة لأصحاب الجنة ، فهي تحمل بين طيّاتها هذا المفهوم وهو عدم استطاعة اي انسان حتّى الانبياء المرسلين والملائكة المقربين من بلوغ هذه الحقيقة ومعرفة ما أخفى الله من جزاء لخاصة عباده . من المؤكد أنهم يبلغون درجات عالية من القرب الى ذاته المقدّسة ومراحل رفيعة من وصال لقائه ومنازل سامية من عنايته والطافه لا يدركها إلا من بلغها .



١ - قرّ في اللغة على وزن حُرٍّ وتعني البرودة .

١١ - خلود نَعَم الجنة

ومما يضيفي على الجنة اهمية بالغة وقيمة معنوية كبيرة ويميّزها تماماً عن جميع النعم الدنيوية هو (عدم امكانية فنائها او زوالها) . فلا قلق هناك من ذلك ولا خوف ولا وجل من انقطاعها . فالإنسان مطمئن البال في هذا الجانب تماماً . وهذا الشعور بالأمان يضيفي على تلك النعم طعماً خاصاً .

هذه الحقيقة يعرف معناها كل من ينال نصيباً وافراً من النعمة ثم تنتابه الهواجس الداهمة في امكانية ذهابها ، فتعسي حلاوتها مرارة في فمه . ويتضمن القرآن الكريم آيات عديدة في هذا المجال وهي تذكر دوماً بهذه الحقيقة وتزفّ البشري للانسان معلنة عن خلود النعم الالهية ، ليهنأ بها الانسان ويعيش في فرح وحبور .

جاء في الآية (٣٥) من سورة الرعد : ﴿ اكلها دائم وظلها ﴾ .

ولما كان هذا البحث يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمسألة الخلود فأنا سنتناوله بالبحث في فصل آخر وبشكل مستقل .

ابواب الجنّة

٤- ابواب الجنة

تمهيد:

من المتعارف ان طريق الدخول الى اية دار او بناية او حديقة مسيجة انما يكون من ابوابها، وعلى هذا فأبواب الجنة تحدد مداخلها. وقد تكون للابواب اقفال لا تفتح إلا بآدواتها الخاصة وهو ما يطلق عليه العرب اسم «مفتاح» وجمعه: «مفاتيح، او مقلید ومقالید». لكن ابواب ومفاتيح الجنة لها مفهوم آخر، وتشير الى الاعمال والامور المفيدة الخالصة التي تكون سبباً لدخول الجنة. وقد وردت في القرآن اشارات غامضة الى ابواب الجنة، لكن التفسيرات التي وردت بشأنها في الروايات الاسلامية، تجسّد بوضوح القيم الاسلامية بشأن المعايير التي تؤدي الى دخول مستقر الرحمة الكبرى اي الجنة، نعود الى القرآن لنصفي للأيات المختلفة التي وردت في هذا الصدد:

- ١ - «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» الزمر- ٧٣.
- ٢ - «جَنَّاتٍ هَٰذِهِ مُمْتَعَةٌ لَهُمُ الْآبْوَابُ» ص- ٥٠.
- ٣ - «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ» سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ» الرعد- ٢٢- ٢٤.

جمع الآيات وتفسيرها

الجنة في الانتظار!

تشير الآية الاولى الى حركة اصحاب الجنة (زمرأ زمراً) نحو الجنة : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ . ويفهم منها ان اصحاب الجنة عند وصولهم اليها تفتح لهم الابواب وكان الجنة في انتظارهم فتستقبلهم في احضانها وتدعوهم الى داخلها ، حتى انهم لا يتحملون مشقة فتح الابواب .

ويتجلى نفس المعنى في الآية اللاحقة ولكن بتعبير آخر : ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْآبَوَابُ ﴾ .

ولما كانت كلمة «مفتحة» من باب التفعيل وتعطي في مثل هذه الموارد مفهوم الكثرة والتأكيد، فهي ربما تشير الى انفتاح جميع الابواب امامهم لا باب واحدة، وانها مفتوحة على مصاريعها تماماً.

هل تفتح هذه الابواب من ذاتها وكأن لها روح وحياء، أم أنها تفتح مع اقتراب اهل الجنة منها احتراماً لهم ؟ ام انها تفتح بمجرد القصد والأمر والارادة ولا حاجة لأية واسطة أخرى ؟ ام ان ملائكة الجنة وخزّانها قد فتحوها من قبل احتراماً لأهلها ووقفوا جانباً ينتظرون قدومهم ، كما نفعل نحن تجاه الضيوف الاعزاء ؟ يبدو أن الاحتمال الأول يناسب المقام اكثر من غيره ؛ ويحتمل ان تكون صيغة المجهول دلالة على ذلك . وفي نفس الوقت يبدو ان انتظار ملائكة الجنة وخزّانها الى جانب الابواب متناسباً مع الآية الأولى .

واخيراً ورد في الآية الثالثة دخول الملائكة من الابواب المختلفة للجنة، وذلك بعد استقرار اصحابها فيها، فتقول الآية: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ .

الا يعني هذا ان جميع الاعمال الصالحة ، التي تمثل في الحقيقة ابواب الجنة ، تتلخص في الصبر والاستقامة ؟! (فتأمل) .

توضيحات

١ - ابواب الجنة في الاحاديث الاسلامية :

لم تُشير اي من الآيات القرآنية الى وجود ثمانية ابواب للجنة ، بل أُشير الى ان جهنم : ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ الحجر - ٤٤ .

لكن الاحاديث الشريفة قد اشارت مراراً الى ان للجنة ثمانية ابواب ، وذلك اشارة الى ان طرق الوصول الى السعادة والتي تمثل الجنة مظهرها هي اكثر من طرق السقوط في هاوية البلاء والتي تمثل جهنم مركزها ، وان رحمة الله تسبق غضبه : « سبقت رحمته غضبه » .

وقد جاء في حديث عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه قال : « ان للجنة ثمانية ابواب » . ثم تطرق الى شرح هذه الابواب فقال : يدخل من بعضها الصديقون ومن بعضها يدخل الشهداء والصالحون ، ومن بعضها يدخل محبو اهل بيت العصمة (عليهم السلام) و...^(١) وورد في حديث عن الامام الباقر (عليه السلام) انه قال : « احسنوا الظن بالله واعلموا ان للجنة ثمانية ابواب ، عرض كل منها مسيرة اربعين سنة »^(٢) .

هذا في حين تشير بعض الاحاديث الأخرى الى وجود واحد وسبعين باباً للجنة . وورد هذا المضمون في حديث لأمير المؤمنين (عليه السلام)^(٣) .

ويحتمل ان تكون هذه الاعداد اشارة الى كثرة الأبواب . إلا انها ذكرت في احد المواضع على انها ثمانية مقارنة بأبواب جهنم وذلك للدلالة على ان اسباب بلوغ السعادة تفوق اسباب الشقاء . بل ويشير موضع آخر الى كثرة الاقوام الذين يدخلون مستقر الرحمة الالهية ، كل من طريقه الخاص .

يتضح من التعابير المختلفة لهذه الروايات ان ابوابها تناسب الاعمال الصادرة

١ - بحار الانوار: ج ٨ ، ص ١٢١ ، الحديث ١٢ .

٢ - بحار الانوار: ج ٨ ، ص ١٣١ ، الحديث ٣٢ .

٣ - نفس المصدر ، ص ١٣٩ ، الحديث ٥٥ .

عن الصلحاء والمخلصين . جاء في حديث منقول عن الامام الصادق (عليه السلام) عن النبي (ﷺ) «للجنة باب يقال له باب المجاهدين ، يمضون اليه فاذا هو مفتوح وهم متقلدون بسيوفهم والملائكة ترحب بهم»^(١).

وورد نفس هذا المعنى في نهج البلاغة ولكن بصياغة أخرى : «ان الجهاد باب من ابواب الجنة فتحه الله لخاصة اوليائه»^(٢).

وجاء ايضاً في حديث آخر عن النبي انه قال : «ان للجنة باباً يُدعى الريان لا يدخله إلا الصائمون»^(٣).

ونقل عنه ايضاً (صلوات الله عليه) : «ان للجنة باباً يُقال له باب المعروف لا يدخله إلا اهل المعروف»^(٤).

كما اشارت احاديث أخرى الى «باب الصبر» و«باب الشكر» و«باب البلاء»، حتى ذكر ان «ابواب الجنة تحت ظلال السيوف»^(٥) (وذلك اشارة الى الجهاد).

وتنبغي الاشارة الى ان بعض الاحاديث تفيد ان ابواب الجنة هم رجال الله العظماء ، كما جاء في الكافي عن الامام الكاظم (عليه السلام) انه قال : «ان علياً باب من ابواب الجنة»^(٦) وهذه اشارة الى ان كل من يتبع هذا الرجل العظيم في سلوكه وايمانه وعمله ، يدخل الجنة .

يتضح لدينا مما سبق معنى ومفهوم ابواب الجنة وكيفيةها ايضاً.



١- الكافي: ج ٥ - ص ٢، الحديث ٢.

٢- نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

٣- بحار الانوار: ج ٩٣، ص ٢٥٢، الحديث ١٧.

٤- بحار الانوار: ج ٧١، ص ٤٠٨، الحديث ٣.

٥- ميزان الحكمة: ج ٢، ص ١٠٤. (نقلاً عن الدر المنثور: ج ١، ص ٢٤٨).

٦- الكافي: ج ٢، ص ٣٨٩، الحديث ٢١.

٢- المكتوب على أبواب الجنة :

ان المكتوب على باب كل بناية يعكس عادة المحتوى والهدف الحقيقي لتلك البناية. ويتبين من الروايات الاسلامية وجود كتابات على ابواب الجنة تستوجب التأمل ، وان التمعن في مدلولات تلك الروايات يضيف عمقاً ابعد على ما ذكرناه آنفاً بشأن معاني ابواب الجنة ويستخلص منها حقائق اكثر سعة وأهمية .

من جملة ذلك الحديث الوارد عن جابر بن عبد الله نقلاً عن النبي (ﷺ) :
« مكتوب على باب الجنة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، علي اخو رسول الله » ^(١).

ونظراً لكون الحديث اعلاه مذكوراً في الكثير من كتب الشيعة والسنة وبعبارات متباينة فهو يبين مدى اهمية هذه الأسس الثلاثة في دين الاسلام .

قال الامام الصادق (عليه السلام) في حديث له : « على باب الجنة مكتوب الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر » ^(٢) . فيشير هذا الحديث الى ان احد المباديء الاساسية لدخول الجنة هو الاهتمام بالمشاكل المالية للفقراء والمساكين في المجتمع وتقديم العون لهم .

واخيراً جاء في حديث آخر شرح لما جرى في المعراج ومشاهدة الجنة والنار في ذلك السفر ، فورد فيه ان النبي (ﷺ) قال : للجنة ثمانية ابواب ... على كل باب منها أربع كلمات كل كلمة خير من الدنيا وما فيها لمن يعلم ويعمل بها وللنار

١- بحار الانوار: ج ٨، ص ١٣١، الحديث ٣٤. ورد هذا الحديث ايضاً او ما يشابهه في الكثير من كتب السنة منهم المحافظ ابونعيم الاصفهاني، في حلية الأولياء (ج ٧ ص ٢٥٦)، والمحافظ ابو بكر البغدادي في تاريخ بغداد (ج ٧ ص ٣٨٧)، وابن المغازلي في كتاب مناقب امير المؤمنين (مخطوط)، والمحافظ السمعاني النيسابوري في مناقب الصحابة والطبري في ذخائر العقبى (ص ٦٦). وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان (ج ٤، ص ٨١) ونقله جماعة آخرون (للاطلاع على مزيد من المعلومات يمكن مراجعة ج ٤ من كتاب احقاق الحق، ص ١٩٩ وما تلاها، وص ٢٨٠ وما تلاها وص ٣٨٧).

٢- نفس المصدر السابق، ص ١٨١، الحديث ١٤٠ (ربما يكون المراد من العدد ١٨ مرة هو ان القرض يتضمن عمليتين من اعمال الخير وهما اولاً « قضاء حاجة المؤمن » وثانياً: الحفاظ على حيثيته. ولكل واحد منها عشرة حسنات، وبما انه يسترد المبلغ لذلك تنقص منه حستان وتبقى له ثمانية عشر.

سبعة أبواب على كل باب منها ثلاث كلمات كل كلمة خير من الدنيا وما فيها لمن يعلم ويعمل بها فقال لي جبرئيل (عليه السلام): اقرء يا محمد على ما على الأبواب فقرأت ذلك ؛ أما أبواب الجنة فعلى اول باب منها مكتوب : لا اله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله لكل شيء حيلة وحيلة العيش أربع خصال : القناعة ، وبذل الحق ، وترك الحقد ، ومجالسة أهل الخير ، وعلى الباب الثاني مكتوب : لا اله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله لكل شيء حيلة وحيلة السرور في الآخرة أربع خصال مسح رؤوس اليتامى والتعطف على الأرمامل والسعي في حوائج المؤمنين والتفقد للفقراء والمساكين . وعلى الباب الثالث مكتوب : لا اله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله لكل شيء حيلة وحيلة الصعبة في الدنيا أربع خصال قلة الكلام وقلة المنام وقلة المشي وقلة الطعام . وعلى الباب الرابع مكتوب : لا اله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم أو يسكت وعلى الباب الخامس مكتوب : لا اله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله من أراد أن لا يُظلم فلا يظلم ومن أراد أن لا يُستتم فلا يشتتم ومن أراد أن لا يُذَلَّ فلا يذل ومن أراد أن يتمسك بالعروة الوثقى في الدنيا والآخرة فليقل لا اله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله وعلى الباب السادس مكتوب : لا اله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله من أراد أن يكون قبره وسيعاً فسيحاً فليبن المساجد ومن أراد أن لا تأكله الديدان تحت الأرض فليسكن المساجد ومن أحب أن يكون طرياً مطراً لا يبلي فليكنس المساجد ومن أحب أن يرى موضعه في الجنة فليفرش المساجد بالبسط . وعلى الباب السابع مكتوب : لا اله إلا الله ، محمد رسول الله ، علي ولي الله ، بياض القلب في أربع خصال : عيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وشراء الأكفان ، وردّ القرض . وعلى الباب الثامن مكتوب : لا اله إلا الله ، محمد رسول الله ، علي ولي الله ، من أراد الدخول من هذه الأبواب فليتمسك بأربع خصال : السخاء ،

وحسن الخلق، والصدقة، والكف عن اذى عباد الله تعالى^(١).
ان الابعاد التربوية والانسانية لهذا الحديث شاملة وواضحة، وتبيّن ان دخول
جنات الخلد رهين بأيّ اعمال وصفات.



١- بحار الانوار: ج ٨- ص ١٤٥- الحديث ٦٧ (مع شي من التلخيص).

سعة الجنة

٥- سعة الجنة

تمهيد :

لقد قلنا مراراً ان العالم الذي نعيش فيه محدود وحقيق جداً ازاء العالم الآخر، وان البعث لا يمكن مقارنته في السعة والشمول بالأطر الضيقة الموجودة في عالمنا. ولا أدل على ذلك من الروايات الاسلامية التي تتحدث عن مساكن اهل الجنة وسعتها. ولا بد لمثل هذه النعم العظمى ان توجد في عالم عظيم وهائل.

نعود الى القرآن لنستمع له وهو يصف هذه السعة والعظمة :

١- ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الحديد-٢١.

٢- ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران-١٣٣.

٣- ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ الدھر-٢٠.

جمع الآيات وتفسيرها

(كعرض السموات والارض)

إِغْتَبِرَتِ الْآيَةُ الْأُولَى سَعَةَ الْجَنَّةِ بِعَرْضِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَوْلِهَا: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

ومن الواضح ان المقصود من «العرض هنا ليس ما يقابل الطول بل المقصود هو المفهوم اللغوي الذي يعني السعة والامتداد»^(١) وقد تحملت جماعة من المفسرين مشقة كبيرة للعثور على طول الجنة بسبب الخطأ الذي وقعوا فيه في فهم معنى «العرض».

وقال البعض أيضاً: ان لهذا التعبير بُعد كنهاني لأن اوسع ما يمكن ان يتصوره ذهن الانسان هو عرض السموات والارض، وإلا فسعتها الحقيقية اكبر من هذا بكثير. ومما يلفت الانتباه ان الحديث ابتداءً أولاً بالمغفرة الالهية، ثم تطرق ثانياً الى الجنة وما فيها من امتداد وذلك لأن المغفرة تعني التطهر من الذنوب ونيل الاستحقاق في القرب الالهي وهو ما يفوق الجنة أهمية، إضافة الى ان الطهارة والمغفرة اذا لم تتحققا، فلن تكون هناك طريق للجنة.

الفعل «سابقوا» مأخوذ من مصدر «المسابقة» وهو اشارة الى هذه المسألة التي تعني ان للجنة والمغفرة أهمية بالغة تحتم على المؤمنين بذل الجهد لبلوغهما كما يفعل الابطال عادة حين التسابق لبلوغ هدف معين.

ويفهم من هذا التعبير ايضاً ان هذه الدنيا لا تعدو ان تكون سوى حلبة سباق

١ - قال الكثير من اصحاب اللغة ان «العرض» يقابل «الطول». لكنهم لم ينكروا ان العرض جاء ايضاً بمعنى السعة. ووفقاً لما ورد في كتاب «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» المعنى الأصل للعرض هو وضع الشيء في مقابل الانظار، ولما كان نظر الانسان غالباً ما يقع على عرض الاشياء لا طولها، لذلك استخدمت هذه الكلمة في المعنى المذكور اعلاه على هذا فعرض السموات والارض في الآية التي نبهنا يعني كل وجودها الذي يمكن مشاهدته.

والهدف النهائي لها هو ذلك العالم .

ولكن على اي شيء يجري التسابق ؟ لقد وضع الكثير من المفسرين اصابعهم على مصاديق خاصة دون سواها ، كأمثال التسابق نحو «الاسلام» او «الهجرة» او «الصلوات الخمس» أو «الجهاد» او «التوبة» .

إلا انه من الواضح ان الآية تحمل مفهوماً اوسع يشمل جميع الطاعات والأعمال الصالحة ، وان ماورد في كلام هذه المجموعة من المفسرين يمثل في الواقع مصداقاً واحداً من هذا المفهوم الواسع .

أمّا الآية الثانية فهي انعكاس - ولكن بتعابير أخرى - لنفس هذه القضية . فهناك كان الكلام عن السباق وهنا عن المسارعة . وهناك اوضحت الآية ان سعة الجنة بعرض السماء والارض . وهنا حُذِفَت «كاف» التشبيه ، وحلّت كلمة السموات محل كلمة السماء ، واشارت الآية هناك الى انها - اي الجنة - أعدّت للذين آمنوا بالله ورسله . وهنا تقول الآية انها : «أعدّت للمتقين» حيث نصّت على : «سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدّت للمتقين» .

ولا يخفى ان «التسابق» يرتبط «بالمسارعة في العمل» وان «المتقين» هم «الذين يؤمنون بالله ورسله» وذلك لأن التقوى هي انعكاس للايمان الراسخ ، وكلمة «السماء» تنطوي ايضاً على معنى الجنس الذي يشمل جميع السموات ، إذن فالآيتان في واقعهما تنشدان حقيقة واحدة .

وهنا واجه الكثير من المفسرين سؤالاً حول ما اذا كانت سعة الجنة كعرض السموات والارض ، فلن يبقى هناك مكان للنار !

ويمكن تبين جواب هذا السؤال بالصورة الاتية، وهي ان العالم يومذاك سيكون اوسع بمرّات عديدة من عالمنا هذا، لأنه عالم افضل واكمل ، وستكون سعة الجنة فيه بسعة السماء والارض في عالم اليوم ، والنار في معزل عنه ، لأن ذلك العالم اوسع من عالمنا هذا في جميع الجوانب .

وهناك جواب آخر ايضاً عن هذا السؤال يتلخص في ان النور والظلام متزاحمان وكذلك النعمة والنقمة في هذا العالم ولا تجتمعان طبعاً في مكان واحد، ولكن ذلك العالم لا يحفل بمثل هذا التزاحم، فربما يوجد الاثنان معاً وهما يغطيان العالم في وقت واحد، وبما انهما مرحلتان من مراحل الوجود والكينونة فهما لا يتزاحمان مع بعضهما.

ويمكن الاتيان بمثال بسيط لتوضيح هذا المعنى في الالذهان وهو: ربما تقوم احدى محطات الارسال الاذاعي ببث صوت رقيق وناغم على احدى موجاتها وفي نفس الوقت ينبعث من محطة ارسال أخرى صوت مزعج وكريه يصم الآذان مصحوباً بانغام مرعبة، وربما تغطي هاتان الموجتان جميع اجواء الكرة الارضية إلا انهما غير مسموعتين من قبل الناس العاديين، والشخص الوحيد الذي يمكنه الاستماع هو الذي يستطيع تنظيم امواج محطته مع الموجه الاولى اذ يمكنه عند ذاك الاستغراق في سماع النغمات الممتعة. اما الذين ينظمون امواج محطتهم مع الموجه الثانية فيلقون العذاب والشقاء وكأن الفريق الاول في الجنة الثاني في جهنم. وسنشرح هذا الكلام عما قريب بأذن الله.

وجاء في الآية الثالثة والاخيرة تعبير غني بخصوص عظمة الجنة. فظاهر الحديث يُخاطب به الرسول (ﷺ) قائلاً: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمَلَكاً كَبِيراً﴾^(١).

وطرحت في تفسير الملك الكبير آراء متعددة تبلورت بصورة رئيسية حول محورين؛ فقال جماعة ان الملك الكبير اشارة الى سعة وعظمة الجنة وما فيها من قصور وغرف وحدائق، ومن جملة ذلك ماورد في احد التفاسير: ان ادناهم منزلة

١ - «ثم» هنا ظرف مكان. و«رأيت» فعل لازم، وعلى هذا يكون معنى الآية: عندما تنظر هناك ترى نعمة كبيرة وملكاً عظيماً وبناءً على التفسير الآخر يكون «رأيت» فعل متعدٍ و«ثم» اسم اشارة للبعيد ومفعول به، فيكون مفهوم الآية: (اذا رأيت ذلك المكان رأيت نعيماً وملكاً كبيراً).

ينظر في ملكه من مسيرة الف عام، وفي بعض الروايات لمسافة ألفي سنة^(١).
 واعتبره آخرون اشارة الى العظمة المعنوية للجنة والمقامات الرفيعة لأهلها،
 ومن جملة ذلك أنّ: الملائكة لا يدخلون عليهم إلا بأذن منهم، ويؤدّون لهم التحية
 والسلام، او ان الفناء والزوال لا وجود له هناك، او ان لكل واحد منهم هناك سبعين
 بواباً^(٢).

وفسر جماعة آخرون «الملك» بمعنى الملكية، والبعض الآخر قالوا انه يعني
 الحاكمية.

وقال آخرون في تفسير «الملك الكبير» انه يعني «القرب الى الله والشهود
 المعنوي لجلاله وجماله» ويمكن الجمع بين كل هذه المعاني، لعدم وجود اي تضاد
 بينها.

والذي يتّضح من مجموع هذه الآيات انه وكما ان النعم في الجنة تستعصي على
 الوصف بسبب اهمّيتها واتساعها وتنوّع اشكالها، فكذلك الحال بالنسبة لعظمة
 الجنة وسعتها. فكلّما يُقال في هذا الباب يبقى قاصراً عن إداء الوصف المطلوب.

١- تفسير ابي الفتوح الرازي: ج ١١، ص ٢٥٢ والقرطبي: ج ١٠، ص ٣٦٦٩، والمعاني: ج ٢٩، ص ١٦١
 ومجمع البيان: ج ٩ و ١٠، ص ٤١١.

٢- تفسير البرهان: ج ٤ ص ٤١٥، وتفسير مجمع البيان: ج ٩ و ١٠ ص ٤١١.

هل الجنة مخلوقة

٦- هل الجنة مخلوقة ؟

تمهيد :

مع ان الوعد الالهي حق ، ولا تخلف فيه ، وان جزاء المؤمنين ومعاقبة وتعذيب الكافرين الذي وعد بهما الله سيتحقق قطعاً، لأن التخلف عن الوعد لا يكون إلا بسبب العجز والضعف او بسبب الجهل والندم ، وهذا ما لا يمكن ان توصف به ذاته المقدسة. وعلى هذا يمكن للجميع ان يرجو وعده ويخشى وعيده وما أنذر به من العقاب ، إلا ان الآيات القرآنية - رغم ذلك - تؤكد ان الجنة والنار مخلوقتان الآن وهما موجودتان وجاهزتان لاستقبال المستحقين !

ويُستفاد ايضاً من الروايات المختلفة ان الاعمال الصالحة التي تصدر عن الناس هي التي توجد الجنة، وهذا يُعتبر دليلاً على وجود الجنة في هذا الوقت ، وسبب هذا التأكيد من اجل ان تدخل مسألة العقاب والثواب مرحلة اكثر جدية، ولأجل ان يشعر المحسنون بوجود جزاء اعمالهم على مقربة منهم ، وليتحسن المسيؤون عواقب افعالهم .

ونعود بعد هذا التمهيد الوجيز الى القرآن ونتدبر في الآيات الواردة في هذا

الصدد:

- ١ - ﴿ وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران-١٣٣.
- ٢ - ﴿ وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الحديد-٢١.
- ٣ - ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة-٢٤.
- ٤ - ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ آل عمران-١٣١.
- ٥ - ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ النجم-١٢-١٥.
- ٦ - ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ العنكبوت-٥٤.
- ٧ - ﴿ إِنْ الْإِبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ الانفطار-١٢-١٦.
- ٨ - ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ التكاثر-٥-٧.

جمع الآيات وتفسيرها

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ!

جاء في الآية الأولى والثانية بعد الإشارة إلى سعة الجنة وعظمتها وانها كعرض السموات والارض ، الى انها «أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» .
قال كبار المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآية انه يُستفاد منها بأن الجنة مخلوقة وموجودة الآن^(١) .

ومما يلفت الانتباه ان القرطبي اشار في تفسيره لهذه الآية قائلاً: يرى غالبية

١ - مجمع البيان: ج ٢ ص ٥٠٤ والفخر الرازي: ج ٩ ص ٤ وروح البيان: ج ٢ ص ٩٤ وأبو الفتوح الرازي: ج ٣ ص ١٨٨، والقرطبي: ج ٢ ص ١٤٦، وروح المعاني: ج ٤ ص ٥١، والمنار: ج ٤ ص ١٣٢.

علماء الاسلام بأن الجنة مخلوقة الآن وموجودة، وان صريح روايات المعراج والروايات الاخرى الواردة في «الصحيحين» وغيرهما يفيد هذا المعنى، لكن المعتزلة رفضوا هذا المعنى ولم يعتقدوا به وقالوا انها تخلق بعد نهاية هذا العالم، وذلك لأنها دار الثواب وهنا دار التكليف، وهما لا تجتمعان^(١). ولا يشكل استدلال المعتزلة هذا إلا مغالطة لا أكثر ولا أقل، لأن الحديث هنا يدور حول خلقها حالياً لا دخول الناس فيها.

وتناولت الآيتان الثالثة والرابعة موضوع الوجود الحالي لـ «جهنم» إذ ورد:

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

فتدل هذه الآيات على الوجود الحالي لجهنم ايضاً وقد صرح بهذا المعنى جماعة من المفسرين، رغم ما ورد بشأنها من تفسيره وما قيل في معنى «أُعِدَّتْ» فمع انه فعل ماض إلا انه يدل على المستقبل لأن المستقبل المؤكد يأتي احياناً على صيغة الفعل الماضي، وهذا بخلاف ظاهر الآية، ومثل هذا التفسير غير ممكن بلا وجود شاهد وقرينة.

وتتحدث الآية الخامسة عن قصة معراج النبي (ﷺ) قائلة: «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَ مَا جَنَّתُ الْمَأْوَىٰ».

لكن هل ان جنة المأوى هي جنة البرزخ أم أنها جنة الخلد؟

فالمفسرون يختلفون في الحكم على هذا الموضوع، فكلمة «المأوى» ربما تستدعي الى الذهن معنى الخلود رغم ما يفترضه كون هذه الجنة في بعض السموات من تداعي معنى الجنة البرزخية، لأن جنة الخلد تمتد على سعة الارض والسموات.

وعلى هذا فالاستدلال بالآية الأنفة الذكر بشأن مخلوقية الجنة لا يتطابق إلا مع التفسير الأول، ورجح جماعة من المفسرين هذا المعنى منهم الطبرسي في مجمع

البيان والعلامة الطباطبائي في الميزان .

وتتحدث الآية التالية عن احاطة جهنم بالكافرين بسبب اصرارهم وعنادهم اذ يقول القرآن الكريم: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ .

أنهم لم يوجهوا لأنفسهم جهنم الدنيا بشركهم وذنوبهم وعصيانهم وظلمهم فقط بل وحتى جهنم الآخرة قد اصبحت محيطة بهم لاسيما مع التنبيه الى بداية الآية التي تتحدث عن استعجال الكفار بالعذاب ، ومن المناسب هنا القول لماذا تستعجلون انكم الآن في جهنم الا ان حجب هذا العالم تحول دون تأثيرها المباشر عليكم ، لكن هذه الحجب ستزول يوم القيامة وتشاهدون حينها باعينكم احاطة جهنم بكم^(١) .

وطرح احتمال آخر في تفسير هذه الآية وهو انها اشارة الى يوم القيامة ، والآية التالية لها والتي جاء فيها: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ هي بمثابة القيد لاحاطة جهنم .

وبعبارة اخرى ، جعلت هذه الجملة اشارة الى المستقبل المؤكد ، فكما ذكرنا ان اللغة العربية تعبر عن المستقبل المؤكد «المضارع المتحقق الوقوع» بالحال حيناً وبالفعل الماضي حيناً آخر .

ويمكن الاستعانة بآيات سورة الانفطار لتأكيد التفسير الاول حيث جاء فيها: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَأْتُمُ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ .

يتضح من هذا التعبير بأن «الصلي» يكون يوم القيامة الا ان جهنم محيطة بالكافرين الآن ، رغم ان الحجب تحول دون احتراقهم في الدنيا ، لاسيما ما ورد في جملة: ﴿وَمَا تُمُ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ فهو تأكيد مجدد على هذا المعنى (فتأمل) .

وتخاطب الآية الأخيرة منكري يوم القيامة قائلة: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ

١- رجع المرحوم العلامة الشيرازي هذا المعنى في هامش تفسير أبي الفتوح ج ٩ ص ٣٠ .

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» ثم تضيف مؤكدة: «ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ».

ولو اننا اخذنا معنى الآية كما هو في الظاهر (واعتبرنا «لو» شرطاً وجزاؤها «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ») لكانت تعني: ان الذين لديهم «علم اليقين» يشاهدون جهنم وهم في هذا العالم، وهذا الكلام يستلزم وجودها حالياً.

أثار المفسرون ضجة في تفسير هذه الآية واختار كل منهم طريقاً خاصاً وكانهم في الغالب لم يتمكنوا من هضم هذا المعنى وهو امكانية اشارة هذه الآيات الى مشاهدة جهنم في الدنيا، ومن ثم مشاهدتها في الآخرة.

فنحن نرى من جهة عدم امكانية اعتبار الآية مكرسة تماماً للآخرة وذلك لأن جميع الكفار والمجرمين يرون جهنم في القيامة وهذا مما لا يحتاج الى الشرط، ولهذا اعتقد جماعة بحذف جزاء الشرط هنا بل وادعى الفخر الرازي اتفاق المفسرين على هذا المعنى^(١). ولكن من البديهي ان هذا الكلام مبالغ فيه فليس هناك اتفاق في الآراء بشأن هذه المسألة، وعلى اية حال اعتبر جماعة من المفسرين ان المعنى يكون هكذا: «لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر»^(٢).

اما المجموعة الأخرى التي رأت عدم صحة الرأي القائل بحذف الجزاء، فإنها اعتبرت الرؤية علمية وقلبية، واستناداً الى هذا سيكون معنى الآية: «لو انكم علمتم علم اليقين لأيقنتم بجهنم».

من الواضح ان كلا التفسيرين الأول والثاني يخالف ظاهر هذه الآيات، لأن اعتبار الجزاء محذوفاً يخالف القاعدة وكذلك تفسير الرؤية بمعنى العلم^(٣).

وعلى هذا لو اننا أخذنا الآية كما هي من غير حذف أو تقدير، وفسرنا الفاظها طبقاً لمعناها الحقيقي: فستكون النتيجة نفس التفسير المذكور آنفاً، وقد ارتضى

١- الفخر الرازي: ج ٣٢ ص ٧٨.

٢- مجمع البيان: ج ١٠، ص ٥٣٠.

٣- كلمة «الرؤية» تفيد معنى العلم ايضاً وذلك فيما لو تعدت الى مفعولين، بينما هذه الآية ليست كذلك، وينبغي الالتفات الى ان الآية التالية «ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ» يمكن ان تشير الى القيامة.

بعض المفسرين هذا المعنى ولو باعتباره واحداً من الاحتمالات على اقل تقدير. ويلحظ في الروايات الاسلامية تعابير واضحة تتسق وهذا المعنى، من جملتها القصة المشهورة لذلك الشاب المؤمن والتي وردت في كتاب الكافي وبصورة حديث منقول عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال «ان رسول الله (ﷺ) صلى بالناس الصبح، فنظر الى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفراً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله (ﷺ) كيف اصبحت يا فلان؟ قال: اصبحت يا رسول الله موقناً، فعجب رسول الله (ﷺ) من قوله وقال: ان لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: ان يقيني يا رسول الله هو الذي احزنني واسهر ليلي واظماً هو اجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها حتى كأني انظر الى عرش ربي وقد نصب للحساب وحُشر الخلائق لذلك وانا فيهم وكأني انظر الى اهل الجنة، يتنعمون في الجنة ويتعارفون وعلى الارائك متكئون وكأني انظر الى اهل النار وهم فيها معذبون مصطرحون وكأني الآن اسمع زفير النار يدور في مسامعي، فقال رسول الله (ﷺ) لأصحابه: هذا عبدٌ نور الله قلبه بالايمان، ثم قال له، الزم ما انت عليه، فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله ان أرزق الشهادة معك فدعا له رسول الله (ﷺ) فلم يلبث ان خرج في بعض غزوات النبي (ﷺ) فاستشهد بعد تسعة نفرات وكان هو العاشر^(١).

وجملة «كأني الآن اسمع زفير النار يدور في مسامعي» دليل على وجود جهنم حالياً وانه يراها بعينه عن طريق الايمان الممتزج بالشهود. ويُستفاد من مجموع الآيات السالفة ان الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان حالياً ولو عُرض هناك شك في دلالة بعض هذه الآيات لا يمكن -على اقل تقدير- التشكيك في دلالة المجموع، وخاصة الآيات التي تدور فيها كلمة «أعدت».



توضيحات

١- آراء العلماء المسلمين في خلق الجنة والنار:

يعتقد اغلب العلماء المسلمين - كما اشرنا سابقاً - بأن الجنة والنار موجودتان في الوقت الحاضر واستدلوا ببعض الآيات المذكورة مسبقاً لتدعيم معتقدتهم هذا، لكن بعض علماء الكلام من امثال ابي هاشم وعبد الجبار وهما من قدماء المتكلمين يعتقدون بأن الجنة والنار ليس لهما وجود حالياً وأنهما ستخلقان فيما بعد، وتأكيداً لرايهم هذا استدلوا بالآية الشريفة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ القصص-٨٨. فلو كانتا موجودتين حالياً فأنهما ستتعرضان للفناء في نهاية هذا العالم وعندئذ تتنافى هذه الآية مع الآية القرآنية القائلة: ﴿أَكُلْهَا دَائِمًا﴾ الرعد-٣٥. (فتأمل).

يقول العلامة الحلبي رداً على هذا الاستدلال: ان الهلاك والفناء اللذين وردا في الآية يُراد منهما الخروج عن قابلية الاستفادة من البديهي ان الناس وجميع المكلفين لو كُتِب عليهم الفناء لما عادت للجنة اية فائدة.

والجواب الآخر عن هذا السؤال هو ان الجنة والنار غير موجودتين في ظاهر هذا العالم بل في باطنه، والهلاك والفناء يصدقان على ظاهر هذا العالم. (سيأتي عمّا قريب مزيد من التفاصيل بهذا الصدد).

وقال البعض ايضاً ان الآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ تشير الى ان الله عز وجل وكل ما خلق بغير اسباب مادية ويلطفه ورحمته، خالد، وان كلمة «وجه الله» تشمل جميع هذه المعاني ومنها الجنة والنار وان الفاني والهالك هو عالم المادة الذي جاء الى الوجود بعلة مادية. (تأمل).

٢- الوجود الحالي للجنة والنار في الروايات الاسلامية:

هناك الكثير من الأحاديث الاسلامية تدعم هذا المعنى وتؤكد ان الجنة والنار مخلوقتان حالياً، ومن جملة ذلك ماورد عن الامام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) حين

سأله احد اصحابه عن الجنة والنار هل هما مخلوقتان؟ قال (عليه السلام): «وان رسول الله (ﷺ) قد دخل الجنة ورأى النار لما عُرِج به الى السماء». فقال له السائل: ان قوماً يقولون إنهما اليوم مقدرتان غير مخلوقتين. فقال (عليه السلام): «ما أولئك منا ولا نحن منهم، من انكر خلق الجنة والنار فقد كذب النبي وكذبنا»^(١).

ووردت في الكثير من الروايات الاسلامية المتعلقة بمعراج النبي (ﷺ) اشارات الى موضوع الجنة والنار ووجودهما حالياً وهي تشكل في الحقيقة تأكيداً لما ورد في الآيات التي تناولناها بالبحث و اشار اليها القرآن الكريم في سورة النجم اثناء الحديث عن معراج النبي (ﷺ).

قال علي بن ابراهيم في تفسير هذه الآية «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ»: «... وأما الرد على من انكر خلق الجنة والنار فقوله عندها جنة المأوى، اي عند سدرة المنتهى فسدرة المنتهى في السماء السابعة وجنة المأوى عندها»^(٢). وهناك روايات تؤيد هذا المعنى جاءت في مصادر اهل السنة ومصادر الشيعة بخصوص ولادة السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) جاء فيها ان نبي الاسلام (ﷺ) قال: (لما عرج بي الى السماء اخذ بيدي جبرائيل (عليه السلام) فادخلني الجنة فناولني من رطبها فأكلته فتحول ذلك نطفة في صلبي فلما هبطت الى الارض واقعت خديجة فحملت بفاطمة (عليها السلام) ففاطمة حوراء انسية فكلمنا اشتقت الى رائحة الجنة شممت رائحة ابنتي فاطمة»^(٣).

جاء في تفسير الآية ٣٧ من سورة آل عمران «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا» فسي الكثير من المصادر الاسلامية الشيعية منها والسنية ان

١ - بحار الانوار: ج ٨ ص ١١٩، الحديث ٦.

٢ - تفسير علي بن ابراهيم: ج ٢ ص ٣٣٥.

٣ - ورد مضمون الحديث في الكتب الشيعية وفي الكثير من الكتب السنية مثل: ذخائر العقبى: ص ٣٦ وص ٤٤، والمستدرک علی الصحیحین: ج ٦ ص ١٥٦، والدر المنثور للسيوطي في تفسير آية سبحان الذي اسرى بعده... وكتب اخرى.

ذلك الطعام كان من فاكهة الجنة كان الله يعطيها لمريم في غير اوانها^(١).

وهناك روايات اسلامية وردت بشأن فاطمة الزهراء (عليها السلام) منها ان الله تعالى قد انزل عليها مائدة من الجنة وقد اكل منها النبي (صلى الله عليه وسلم) وعلي (عليه السلام) وعدد من نساء النبي (صلى الله عليه وسلم) والجيران وان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد شبه ذلك بقصة مريم وقال: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيّدة نساء بني اسرائيل»^(٢).

قد يُقال ان هذا الكلام يتعلّق بالجنة البرزخية وهي الجنة التي تستقر فيها ارواح الشهداء بعد الشهادة وقبل القيامة. والجواب على مثل هذا الاعتراض هو ان الجنة البرزخية ليست جنة مادية بل هي ذات بعد مثالي والارواح تنعم فيها على هيئة القوالب المثالية. ومن البديهي ان مثل هذه الجنة الخالية من الجانب المادي لن تحوي فاكهة نظير الفاكهة الموجودة في عالمنا هذا والتي يمكن ان يستفيد منها الجسم المادي، بل هي تشبه في بعض جوانبها المشاهد التي يراها الانسان في المنام ويتلذذ بها.

اضافة الى هذا نقرأ في روايات عديدة ان الجنة حالياً في حالة بناء واتساع بواسطة اعمال الانسان، فبعض اعمال الانسان ينتج عنها غرس اشجار جديدة في الجنة، ولا تصح مثل هذه الأخبار الا اذا كانت الجنة موجودة حالياً، ومن جملة ذلك ماورد في الروايات التالية التي تحمل ابعاداً تربوية رفيعة:

١ - نقل ابو ايوب الانصاري حديثاً عن الرسول الاكرم (صلى الله عليه وسلم) انه قال: «في ليلة المعراج مرّ بي ابراهيم الخليل (عليه السلام) وقال: «مُرّمتك ان يكثروا من غرس الجنة فان ارضها واسعة وتربتها طيبة قلت وما غرس الجنة؟ قال. لا حول ولا قوة الا بالله»^(٣).

١ - تفسير العياشي، وتفسير البرهان، ونور الثقلين، وكذلك تفسير الدر المنثور ذيل الآية (٣٧) من سورة آل عمران.

٢ - نقله كل من الزمخشري في الكشاف، والسيوطي في الدر المنثور في ذيل الآية (٣٧) من سورة آل عمران، والتعلي في قصص الانبياء في ص ٥١٣.

٣ - بحار الانوار: ج ٨ ص ١٤٩، الحديث ٨٣.

٢ - جاء في حديث عن رسول الله (ﷺ) انه قال : «من قال لا إله إلا الله ، غرس له شجرة في الجنة»^(١) .

٣ - نقل الامام الصادق (عليه السلام) حديثاً عن آبائه عن رسول الله (ﷺ) انه قال : «من قال سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال الله اكبر غرس له بها شجرة في الجنة» أفقام له رجل من قريش كان بين الحاضرين وقال له : اذن فشجرنا في الجنة اكثر ، فقال له النبي (ﷺ) : «نعم ولكن اياكم ان ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها»^(٢) .

٤ - وجاء في حديث آخر عن النبي (ﷺ) انه قال «لَمَّا أُسْرِي بِي إِلَى السَّمَاءِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا مَلَائِكَةً يَبْنُونَ لَبْنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَلَبْنَةً مِنْ فِضَّةٍ ، وَرَبَّمَا أَمْسَكُوا ، فَقُلْتُ لَهُمْ : مَا لَكُمْ رَبَّمَا بَنَيْتُمْ وَرَبَّمَا أَمْسَكْتُمْ ؟» فقالوا حتّى تجيئنا النفقة ! فقلت لهم : وما نفقتكم ؟ فقالوا : قول المؤمن في الدنيا «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر ، فاذا قال بنينا ، واذا أمسك أمسكنا»^(٣) .

نختم هذه النقطة بحديث للمرحوم العلامة المجلسي ، فقد قال في نهاية هذه الرواية المتعلقة بالجنة والنار والتي اوردها في بحار الانوار ، قال : «اعلم ان الايمان بالجنة والنار على ماوردتا في الآيات والأخبار من غير تأويل من ضروريات الدين ، ومنكرهما أو مؤولهما بما أوّلت به الفلاسفة خارج من الدين ، واما كونهما مخلوقتان الآن فقد ذهب اليه جمهور المسلمين الا شرذمة من المعتزلة والآيات والاخبار الواردة دافعة لقولهم مزيفة لمذهبهم ، والظاهر انه لم يذهب الى هذا القول احد من

١ - ورد هذا الحديث في كتب كثيرة منها : الحسن ، ثواب الاعمال ، بحار الانوار وج ٢ من اصول الكافي ص ٥١٧ الحديث ٢ .

٢ - بحار الانوار : ج ٨ ص ١٨٦ ، الحديث ١٥٤ .

٣ - بحار الانوار : ج ١٨ ص ٣٧٥ ، الحديث ٨٠ (بشيء من التلخيص) .

الامامية إلا ما ينسب إلى السيد الرضي،^(١).

٣- جواب على اعتراضين:

لعل منكري الوجود الحالي للجنة والنار يتمسكون باعتراضين أحدهما عقلي والآخر نقلي، أما الاعتراض العقلي فهو أن إيجادهما قبل القيامة لغو وعبث، لأنه ما من أحد يدخل الجنة أو النار قبل حساب يوم القيامة ويبدو هذا شبيهاً لمن يبني قبل الف عام داراً لمن يأتي بعد الف عام، اليس هذا عبث؟!

والجواب على هذا الاعتراض واضح وهو أن هذه القضية - كما سبق من القول فيها - تترك تأثيراً تربوياً على الناس، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يفهم الناس أن الثواب العظيم غير مؤجل ولا العقاب الأليم، بل كليهما حاضر، ويبدو هذا الفعل شبيهاً بتهيئة مجموعة من الجوائز في بداية العام الدراسي للطلبة الذين يحوزون في نهاية العام أعلا الدرجات بل وقد نضعها معروضة أمام أنظارهم ونقول لهم هذه المكافأة لمن يبذل أقصى الجهد في الدراسة، أو يبدو شبيهاً بأعداد السجن والمشفقة مقدماً للقتلة والجناة.

ومن البديهي أن مثل هذا العمل لا يُعدُّ عبثاً، بل له آثار عميقة أيضاً في الجانب التربوي، ولكن بما أن الجنة والنار محجوبتان عن أهل الدنيا بسبب الحجب الموجودة حافظت الآيات القرآنية والأخبار النبوية في هذا الصدد على ذلك التأثير. والاعتراض الآخر هو علمنا بأن «كل شيء هالك إلا وجهه» في نهاية هذا العالم. ويمكن تقديم عدة إجابات على هذا الاعتراض.

الاول: أن المقصود من «كل شيء» هو الدنيا بأجمعها وما يتعلق بها، أما معنى «الهلاك» فلا يصدق على الجنة والنار فهما من الأشياء الباقية والمستثناة من الهلاك فوق العالم المادي أو في باطنه، وهما خارج نطاق الدنيا الفانية.

الثاني: ان «الوجه» المستثنى يشمل جميع الامور التي تنتسب اليه بقوة بحيث تُعتبر داخله ضمن مفهوم «الوجه» وبما ان الجنة والنار هما مظهر رحمته وغضبه وموضع الثواب والعقاب فهما داخلتان ضمن الاستثناء طبعاً.

الثالث: ان «الهلاك» يعني انعدام المستفيدين من الشيء كالدار العامرة التي يموت اهلها وتبقى بلا وارث، فهذه الحالة تسمى احياناً بالهلاك.

٤- اين الجنة ؟

يُطرح هذا السؤال جدياً مع الأخذ بنظر الاعتبار قضيتين: الاولى وهي ان الجنة موجودة الآن. (طبقاً للشواهد المتأثية من الآيات والروايات المذكورة سابقاً). والثانية ان عرض الجنة كعرض السماء والارض (استناداً الى صريح الآيات الواردة في البحث السابق).

ولعل البعض يقول: اين يقع بالدقة مثل هذا الوجود الذي هو كعرض السماء والارض؟ وكيف يمكن وجود مثل هذا الشيء دون ان تطاله حواسنا؟ وقد اجاب جماعة عن مثل هذا السؤال بقولهم: تفيد الآيات القرآنية ان الجنة موجودة في السماء، فكما اشرنا سابقاً، اخبرت الآية (١٥) من سورة النجم ان عروج النبي (ﷺ) كان الى السماء حيث: «عندها جنة المأوى» (وهذه النقطة هي اسمى وارفع نقطة في السماء)^(١) رغم ان البعض اعتبرها الجنة البرزخية التي تصعد اليها ارواح الشهداء أو انها جنة آدم، ولكن كلا هذين الاحتمالين يخالف معنى التعبير الظاهري لجنة المأوى.

وجاء في الآية (٢٢) من سورة الذاريات «وفي السماء رزقكم وما توعدون» اذ يعتقد كثير من المفسرين ان المقصود من «ما توعدون» هي جنة الخلد التي وعد الله

١ - صرح بذلك المرحوم الطبرسي في مجمع البيان والفخر الرازي في التفسير الكبير والعلامة الطباطبائي في الميزان والبروسوي في روح البيان؛ في ذيل الآية (٢٢) من سورة الذاريات أو ذيل الآية (١٥) من سورة النجم أو في كليهما.

بها عباده^(١)، وقال جماعة ان هذا يشمل الجنة والنار رغم قول البعض ان الغرض هو الاشارة الى العذاب الدنيوي الذي ينزل على الكفار والجبابرة (كعذاب قوم نوح وقوم لوط وامثالهما).

محضلة هذا الكلام هو ان الجنة الخلد تقع في مارواء السماء الدنيا وسعتها كعرض السماء والارض او انها اوسع من ذلك بعدة مرات لعدم وجود ما هو اوسع من هذا البيان ليصف به القرآن سعة الجنة، وعلى هذا الاساس فهي موجودة ومكانها في السماء وسعتها كعرض السماء والارض في هذه الدنيا.

وقد طرح بعضهم عدة مؤاخذات على هذا الرأي وهو اذا كانت الجنة فوق الفلك التاسع فهذا يستلزم انها كائنة في اللامكان واللاجهة! وهي ان كانت واقعة في طبقات السماء او بين فلكين من هذه الافلاك فهذا اما يستلزم التداخل او انفصال الافلاك عن بعضها، وكل هذا محال ولا يتسق مع التعبير القرآني القائل بأن سعتها كعرض السموات والارض.

ولا يخفى ان هذا الاعتراض قائم في الحقيقة على اساس هيئة بطليموس والافلاك التسعة التي يعتقد انها قائمة فوق بعضها كطبقات قشرة البصل ولا يوجد بينها أي فاصل ولكن حيث ثبت الآن بالدلائل القطعية بطلان هذه العقيدة، وحتى ان بطلانها في بعض الجوانب ثبت حسياً، لم يعد هناك أي دليل تستند عليه مثل هذه الاعتراضات ولا يوجد هناك أي مانع من وجود عوالم كبيرة أخرى أوسع بكثير من سمائنا وأرضنا هذه فوق هذه النجوم الثابتة والسيارة وفوق المجرات، وعليه فلا تتعارض مع مفهوم الآية السالفة الذكر ايضاً.

النظرية الأخرى تقوم على رأي جماعة من الفلاسفة الذين ينكرون مادية الجنة والنار، وعلى هذا ذهبوا الى عدم حاجة الجنة الى المكان المادي بل هي في ما وراء عالم الحس والمادة، وقد تحدث صدر المتألهين عن هذا الموضوع في

كتاب الاسفار قائلاً:

واعلم ان لكل نفس من نفوس السعداء في عالم الآخرة مملكة عظيمة الفسحة، وعالماً اعظم واوسع مما في السماوات والارضين، وهي ليست خارجة عن ذاته بل جميع مملكته ومماليكه وخدمه وحشمه ويساتينه واشجاره وحوره وغلمانه كلها، قائمة به، وهو حافظها ومنشئها بأذن الله تعالى وقوته، ووجود الاشياء الاخرية وان كانت تشبه الصور التي يراها الانسان في المنام أو في بعض المرايا لكن يفارقها بالذات والحقيقة، اما وجه المشابهة فهو ان كلا منها بحيث لا يكون في موضوعات الهولاء ولا في الامكنة والجهات لهذه المواد، وأن لاتزاحم بين أعداد الصور لكل منهما وان شيئاً منهما لا يزاحم شيئاً في هذا العالم في مكانه أو زمانه، فإنّ النائم ربما يراه في يقظة هذا العالم، وهي مع كونها مغايرة لما في الخارج بالعدد لكن لا تزاحم ولا تضايق بينها.. واما وجه المباينة فهو ان نشأة الآخرة والصور الواقعة فيها قوية الجوهر شديدة الوجود عظيمة التأثير الذاذاً وايلاماً، وهي اقوى واشد وأكد، واقوى من موجودات هذا العالم فكيف من الصور المنامية والمرآتية، ونسبة النشأة الآخرة الى الدنيا كنسبة الانتباه الى نشأة النوم^(١).

وبالرغم من استخدامه لتعابير مختلفة بشأن المعاد وليس من السهل الحكم على رأيه من خلال هذه التعابير، لكن من الواضح ان هذا التفسير للمعاد لا يتطابق مع ظاهر بل مع صريح القرآن، بل يتناسب مع آراء الذين يعتبرون المعاد روحياً فقط، فقد ورد في النص السابق ان الجنة في داخل ذات الانسان وفي نفسه وروحه وكل شيء هناك له صورة مثالية، وكل شيء روحاني، بل وانّ الموجد له هي روح الانسان!

لقد ذكرنا فيما سلف مئات الآيات التي تثبت جسمانية المعاد، وذلك ضمن عدّة مجاميع وبامكان كل مجموعة ان تكون جواباً على مثل هذا الرأي.

اما الرأي الثالث الذي يمكن طرحه في هذا الصدد فهو ان كلاً من الجنة والنار تقعان في باطن هذا العالم وحجب عالم الدنيا تحول دون رؤيتهما لكن اولياء الله بامكانهم مشاهدتهما، وقد استطاع النبي الكريم (ﷺ) اثناء معراجِه حيث صار بعيداً عن ضجيج سكان هذا العالم، ان يرى بعينه الملكوتية قطعة من الجنة في العالم الاعلى، وحتى ان اولياء الله قد يتاح لهم بين الفينة والاخرى اثناء بعض النفحات مشاهدة ذلك وهم على الارض!

وقد تكون الآيات التالية اشارة الى هذا المعنى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(١). و: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾^(٢)، وكذلك: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾^(٣).

يمكن تشبيه وجود الجنة في باطن هذا العالم بماء الورد في الزهرة، فمع أن ماء الورد مادة وكذلك الزهرة لكن ذلك لا يمنع من وجود احدهما مخفياً داخل الآخر فلا يشاهد بالعين.

والتشبيه الآخر الذي يمكن الاتيان به لتقريب الموضوع الى الأذهان، وهو تشبيه سبق ذكره حيث توجد اشياء كثيرة في عالم المادة هذا لا يتيسر لنا ادراكها في الظروف الاعتيادية، وكثير منها موجود في داخل هذا العالم المادي فعلى سبيل المثال توجد في فضاء هذا العالم امواج اذاعية عديدة تبثها في الفضاء محطات الاذاعة العالمية، وتصل احياناً بواسطة الاقمار الصناعية الى جميع ارجاء العالم، وتوجد انواع متعددة من هذه الموجات في كل بيت، لكن احداً لا يشعر بها. ولعل بعضها يحمل انغاماً واصواتاً جذابة ورائعة، وقد يحمل بعضها الآخر اصواتاً مزعجة وصفارات انذار وانغاماً تسمئز منها النفوس، وكذلك محطات التلفزة، فقد تبث

١- سورة العنكبوت: ٥٤.

٢- سورة الانفطار: ١٣-١٤.

٣- سورة التكاثر: ٥-٦.

صوراً ومشاهد جميلة وجذابة وتربوية فيما تبث محطات أخرى مشاهد الحرب والدمار والخراب والمذابح والحرائق والجرائم، وكل هذه الصور والمشاهد والاصوات المختلفة موجودة في عالمنا المادي هذا وفي هذا الفضاء المحيط بنا، وقد اصطنعت لنفسها جنةً وناراً في داخل هذا العالم. فيقوم بعض الناس بتنظيم اجهزة الاستلام لديهم مع الاصوات الجذابة والانغام المريحة والمشاهد الممتعة والمفيدة، بينما ينظم البعض الآخر اجهزة الاستلام -اختياراً أو اضطراراً- مع الانغام والاصوات والمشاهد المعاكسة للاولى، فيعيش الفريق الاول اجواء عالم ممتع، والفريق الثاني يعيش في عالم من العذاب والأذى، وهذه كلها كامنة في قلب هذا العالم المادي.

نأمل عدم حصول الالتباس في الفهم، نأفحن لانقول ابداً ان الجنة والنار هكذا تماماً بل نقول ماالمانع في ان يكون في عمق هذا العالم عالم آخر أو عوالم أخرى ونحن لانتمكن في الظروف الحالية من الاطلاع عليها مطلقاً لوجود الحجب المتعددة الحائلة بيننا وبينها؟ ان من أوتي القدرة على ازاحة هذه الحجب فبإمكانه رؤية تلك العوالم حتى وان كان هو في هذا العالم (فتأمل).

وقد أتيح للنبي الكريم (ﷺ) اثناء معراجه الى السماء -حيث تخف ضجة عالم المادة، وتتقلص الهموم والمشاكل وتتعاظم مظاهر جلال الله وجماله -ازاحة الحجب ومشاهدة جوانب من العالمين (الجنة والجحيم) الواقعين داخل هذا العالم.

وليس معنى هذا ان الرسول الكريم (ﷺ) أو سائر اولياء الله لا يتمكنون من مشاهدة الجنة والنار وهم على الارض، بل ان هذا قد حصل ايضاً في بعض الاوقات على الارض كما يتبين من بعض الروايات.

جاء في الحديث الذي نقله الراوندي في «الخرائج» ان اصحاب الامام الحسين (عليه السلام) حين اكدوا له وفاءهم الكامل له وامتنعوا عن مغادرة الميدان ونقض

البيعة: «دعا لهم بالخير وكشف عن ابصارهم فأروا ما حباهم الله من نعيم الجنان وعرفهم منازلهم فيها»^(١).

ويروي مؤلف كتاب «مقتل الحسين» بعد ذكره لهذه الرواية: «وليس ذلك في القدرة الالهية ولا في تصرفات الامام بغريب، فان سحرة فرعون لما آمنوا بموسى (عليه السلام) وأراد فرعون قتلهم اراهم النبي موسى منازلهم في الجنة»^(٢).
ورد في بعض الروايات ايضاً ان الامام الصادق (عليه السلام) أرى بعض اصحابه حوض الكوثر^(٣).

وهذه النظرية حول مكان الجنة تحل ضمناً مسألة سعتها التي هي كعرض السموات والارض وترد على بعض اعتراضات المتكلمين بشأن ضرورة التداخل. وعلى اية حال فان ما طرحناه بخصوص وجود الجنة والنار في باطن هذا العالم لا يتجاوز النظرية، والاعتقاد به يحتاج الى مزيد من الدراسة والادلة والشواهد.

١- الخرائج للراوندي طبقاً لما ورد في «مقتل الحسين» للمقرم ص ٢٦١، وبحار الانوار ج ٤٤ ص ٢٩٨.
٢- اخبار الزمان للمسعودي: ص ٢٤٧ (استناداً الى مقتل الحسين ص ٢٦١).
٣- بحار الانوار: ج ٦ ص ٢٨٧ الحديث ٩.

درجات الجنّة

٧ - درجات الجنة

تمهيد :

تدل العبارات القرآنية المختلفة على ان حدائق الجنة متعددة ومتنوعة ، ولو امعنا النظر في الروايات الواردة في تفسير الآيات النازلة في هذا الصدد لا ستخلصنا منها انها تحدد درجات ومنازل اهل الجنة وتضع كل فئة منهم في المكانة اللائقة بهم ضمن هذه الحدائق ، كل شخص حسب افضلية وسمو مقامه .

فهناك - مثلاً - حديث وارد عن النبي (ﷺ) في تفسير الآيات من سورة (الرحمن) الواردة بخصوص حدائق الجنة انه قال (ﷺ) : «جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»^(١) .

ومن الواضح ان استعمال كلمتي الذهب والفضة يشير الى تفاوت درجة هاتين الجنتين .

مع هذه اللمحة التمهيدية نعود الى آيات القرآن الكريم الاتية :

١ - «قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا» الفرقان-١٥ .

٢ - «أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» الكهف-٣١ .

٣ - ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزْلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الم السجدة- ١٩ .

٤ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلًا﴾ الكهف- ١٠٧ .

٥ - ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ - أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ - فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ الواقعة- ١٠- ١٢ .

٦ - ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ * ذَاتَا أَفْنَانٍ * وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * مُدْهَامَّتَانِ﴾ الرحمن- ٤٦- ٤٨- ٦٢- ٦٤ .

جمع الآيات وتفسيرها

جنة ام جنان ؟

تحدث الآية الاولى عن العذاب الاليم لأصحاب النار وتقرن حالهم بالمنزلة الرفيعة لأصحاب الجنة .

﴿قل اذلك خير ام جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً﴾ . «جنة

الخلد» وردت مرة واحدة في القرآن الكريم وهي تشير الى خلود الجنة .

يقول الراغب في «المفردات» : «الخلود» بمعنى : بُعد الشيء عن الفساد

وبقاؤه على حاله . وقال صاحب «مقاييس اللغة» : ان الكلمة تعني اساساً الثبات

والملازمة . وفسرها «مصباح اللغة» بمعنى الإقامة ، رغم ان هاتين الكلمتين - أي جنة

الخلد - جاءت احدهما مضافة الى الاخرى فانهما تفيدان معنى الوصف ، ويبدو انه

وصف للجنة بشكل عام ، لأن كل نعمة فيها خالدة ، وكذلك اهلها فهم خالدون

ايضاً ، وعلى هذا فهي لا تختص بجانب من الجنة دون الجانب الآخر ، لأن هذا

الوصف شامل لكل حدائق الجنة .

واعتبر بعض اصحاب اللغة مثل ابن منظور في «لسان العرب» «الخلد» واحداً

من اسماء الجنة ، ولا يستبعد ان تكون آراؤهم ايضاً بياناً لصفة الدوام والبقاء التي

تحوّلت بالتدرّج الى اسم من اسماء الجنة .

* * *

نواجه في الآية الثانية تعبيراً آخر، فبعد ان تؤكد الآية على عدم ضياع اجر المؤمنين الصالحين ، تبشّرهم انّ : «أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» . وردت كلمة «جَنّاتِ عَدْنٍ» احدى عشرة مرّة في القرآن الكريم ^(١) وهذا التكرار يفيد الأهمية في المواصفات المتعلقة بالجنة .

و«الجنّات» جمع «جنة» وهي الحدائق الكثيرة في الجنة ، و«عدن» تعني في الاصل الإقامة حسب ما ذكر صاحب «مقاييس اللغة» أو بمعنى الثبات والاستقرار حسب ما افاد به كتاب المفردات ، وهذا يتضمن اشارة الى خلود الجنة ، لا الى حدائق هذه الدنيا التي تتعرض اشجارها لتساقط الاوراق في فصل الخريف وقد تيبس وتموت بعد عدّة سنوات ، وقد تنقطع عنها مصادر المياه ، او قد تتعرض ثمارها للآفات او تجف جذوعها من الداخل أو قد تقضي عليها الرياح الحارّة اللاهبة أو القارصة ، بل وقد تتعرض للصواعق فتتحول الى رماد ، وخلاصة القول انها عرضة لألف آفة وبلاء بينما اشجار الجنة باقية دوماً وحدائقها خضراء غناء لا يعثرها اليبس ولا المرض ولا تساقط الاوراق أو الذبول .

قال بعض المفسرين ان المقصود من «جَنّاتِ عَدْنٍ» وسط الجنة ، وهي في الحقيقة جنة من جناتها الا ان لها من السعة ما يجعل كل جزء من اجزائها وكأنه جنة قائمة بذاتها وقد ذُكرت على هيئة الجمع ^(٢) . لكن التأمل فيما سبق من القول يجعل مثل هذا المعنى يبدو بعيداً .

١ - في سور: التوبة - ٧٢، الرعد - ٢٣، النحل - ٣١، الكهف - ٣١، مريم - ٦١، طه - ٦٧، فاطر - ٣٣، ص - ٥٠، غافر - ٨، الصف - ١٢، البينة - ٨.

٢ - مجمع البيان: ج ٦ ص ٤٦٧، وتفسير القرطبي: ج ٦ ص ٤٠١٣.

وابرزت الآية الثالثة نفس هذا المعنى ولكن بعبارات اخرى؛ فهي تقول: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

«المأوى» مشتقة من كلمة «أَوَى» على وزن (قَوَى)، قال الراغب في المفردات انها تعني انضمام الشيء الى شيء آخر (ثم اصبحت تعني الإقامة عند الشيء).

وقال صاحب مقاييس اللغة ان احد معانيها هو «التَّجْمَع» وهذا يستلزم السكن عند الشيء. والمأوى يعني باختصار المكان والمسكن والمقر الذي يسكنه الانسان ليلاً أو نهاراً ويستريح فيه، وعلى هذا فـ «جَنَّاتُ الْمَأْوَى» تشير الى الخلود والديموم والاستقرار في الجنة ويُستشف منها ايضاً معنى الهدوء والسكينة.

قال البعض ان هذا التعبير اشارة لطيفة الى هذه الحقيقة وهي ان دار الدنيا ليست مأوى الانسان (اي ليست دار مقره النهائي)، بل هي ممر يجتازه أو كما وصفها الرواية المشهورة بأن «الدنيا قنطرة» فهي ليست محل استقرار وثبات. لا يخفى ان مثل هذا الوصف ينطبق على جميع الجنة، ومع ذلك فقد نُقل عن ابن عباس أنه قال: حدائق الجنة ثمان: احداها جنة المأوى، وسواها هي «دار الجلال» و «دار القرار» و «دار السلام» و «جنة عدن» و «جنة الخلد» و «جنة الفردوس» و «جنة النعيم».

سبق ان قلنا ان «الازل» تعني اول ما يُستقبل به الضيف (كما يُستقبل اليوم مثلاً بالعصير أو الماء البارد أو الشاي). واذا كان الأمر كذلك فهو يدل على ان جنات المأوى - رغم سعتها وعظمتها - فهي ادنى درجات الاستقبال لعباد الله المخلصين! وعلى هذا فان الاستقبال والتكريم الاساس لهم هي تلك النعم التي تتضاءل امامها جنات المأوى، وهي ليست سوى قرب الاله ولقائه وجنة معرفة جلاله وجماله.

التعبير الآخر الذي استخدمه القرآن الكريم لوصف مستقر هذه الرحمة الالهية الكبرى هو «جنات الفردوس» اذ يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ .

هناك اختلاف بين المفسرين واصحاب اللغة في اصل كلمة «فردوس» هل هي رومية ام سريانية ام نبطية ام حبشية ام عربية؟ كما اعتبرها البعض فارسية الأصل تحوّرت الى «براديزس» و «براديز» ثم الى «فردايس» و «فردوس» .

وقد ذكروا معاني عديدة لهذه الكلمة؛ منها: الحديقة والبستان، وحدائق العنب والحدائق الشاملة لكل الازهار والثمار، والحدائق المغطاة بالاشجار والتي تحوي الكثير من المياه، واحياناً الحاوية للكثير من العنب .

فأما الذين عدّوها عربية الأصل فقد قالوا انها مأخوذة من مصدر «الفَرْدَسَة» وهو بمعنى السعة واستعملت هذه الكلمة التي وردت في القرآن مرتين فقط (في سورة الكهف - ١٠٧ وسورة المؤمنون - ١١) بمعنى الجنة، ويُستشف من الروايات المنقولة عن النبي (ﷺ) وأئمة اهل البيت (عليهم السلام) بأن هذا الاسم يختص ببقعة ممتازة جداً من الجنة .

جاء في حديث عن النبي (ﷺ) انه قال: «اذا سألتكم الله تعالى فاسألوه الفردوس، فانه وسط الجنة واعلا الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنها تفجر انهار الجنة»^(١) .

ونقل عن الامام علي (عليه السلام) انه قال: «لكل شيء ذروة وذروة الجنة الفردوس وهي لمحمد وآل محمد»^(٢) .

واخيراً ورد عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال في تفسير الآية؛ انها نزلت بحق ابي ذر وسلمان والمقداد وعمار بن ياسر وهي «جعل الله لهم جنات الفردوس نُزُلًا»

١ - صحيح البخاري، وصحيح مسلم (نقلًا عن كتاب روح المعاني ج ١٦ ص ٤٧).

٢ - تفسير البرهان: ج ٢ ص ٤٩٥، الحديث ٢.

أي مأوى ومنزلاً^(١).

ومن الواضح عدم وجود أي تضاد بين الحديث الثاني والثالث ، لأن المؤمنين من اصحاب الدرجات الرفيعة من امثال ابي ذر وسلمان .. الخ وهم التابعون المخلصون لمحمد وآل محمد (عليهم السلام) يعدّون في الحقيقة من زمريهم .

ولكن ما معنى «نزلاً» هنا ؟ اعتبرها البعض بمعنى دار النزول ومحل السكن كما اشار الى هذا حديث الامام الصادق (عليه السلام). وقال بعض المفسرين ان النزول يعني وسائل الاستقبال أو أوّل ما يستقبل به الضيف . ولا مانع ايضاً من جمع هذين المعنيين .

التعبير الآخر الذي ورد في وصف حدائق الجنة هو ما جاء في سورة الواقعة «جنات النعيم» اذ يقول تعالى في كتابه الكريم : «السابقون السابقون أولئك المقربون في جنّات النعيم» .

«الجنّات» جمع «جنة» ولعل استعمال الجمع هنا لبيان أن لكل واحد من اصحاب الجنة جنة خاصة به فيكون جمعها جنّات ، والنعيم هو جمع «نعمة» لأن الجنة تحوي دوماً انواع النعم المادّية والمعنوية ، لا كمثل حدائق الدنيا التي تكون احياناً مدعاة للتعب والمعاناة والألم و احياناً سبباً للراحة والنعمة ، اضافة الى ان حدائق الدنيا تضم كل واحدة منها نعمة واحدة لا جميع النعم .

وما يسترعي الانتباه هنا هو ان الحديث جرى عنهم أولاً فقال : «أولئك المقربون» ومن ثم انتقل الى وصف «جنّات النعيم» ومن الواضح ان جنّات النعيم وبكل ما تزخر به من نعمة وعظمة لاتمثل في قبالة القرب الالهي الاقطرة في بحر . تكررت هذه الكلمة (جنة النعيم ، و جنّات النعيم) ، عشر مرات في الآيات الشريفة والتكرار دليل على التأكيد والأهمية^(٢) .

١ - (استناداً الى ما نقله تفسير الميزان في تفسير القمي ذيل الآية المعنية).

٢ - المائدة - ٦٥ ، يونس - ٩ ، الحج - ٥٦ ، الشعراء - ٨٥ ، لقمان - ٨ ، الصافات - ٤٣ ، الواقعة - ١٢ - ٨٩ ، القلم - ٢٤ ، المعارج - ٢٨ .

وتجدر الإشارة الى ان الانسان كلما اقترب في هذه الدنيا من مراكز القوى ازداد قلقه ، لأنه يعيش دوماً في حالة من الوجل والهواجس والرعب خوفاً من تغيير آراء اصحاب القوة بشأنه فيسقط ويتعرض لاشد انواع العقوبة والتنكيل ، ولهذا يحذر اهل المعرفة وكبار الشخصيات من «التقرب الى السلطان» ، واما القرب من الاله فعلى العكس من هذا تماماً ، فلا يشعر بغير الاطمئنان واللذة الروحية والمعنوية ، وجنات النعيم .

وهناك قضية تستدعي الدقة ايضاً وهو ماورد في الروايات العديدة التي جاءت في ذيل الآية الشريفة «ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» التكاثر-٨، حيث قُسر «النعيم» بـ «نعمة الولاية»^(١) ، ومن هذا المنطلق يبدو من المحتمل ان جنات النعيم هي جنة الولاية ، ولاية الله وأوليائه ، ومحبتهم والاستضاءة من نورهم المعنوي . اما هل ان «جنات النعيم» تشمل كل الجنة ام تُشير الى بقع مهمة منها ؟ فهناك احتمالان ، فمن جهة ، قد يكون الوعد الالهي للمقربين دليلاً على الاحتمال الثاني لاسيما وان تعبيراً مشابهاً لهذا قد ورد في الآيتين ٨٨ ، ٨٩ من نفس هذه السورة : «فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ» الواقعة ٨٨-٨٩ .

المجموعة السادسة والاخيرة من هذه الآيات تشير باختصار الى اربع روضات من رياض الجنة مع عدة خصائص كل اثنين منهما على حدة ، اذ قال الكتاب الكريم : «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ» «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانٌ .. مَدَامَتَانِ» .

كانوا يتصورون ان هذه الحقائق الاربعة كلها لجميع المؤمنين ، وهذا التعدد من اجل ايجاد التنوع لأن طبيعة الانسان تميل الى التنوع ، لكن لهجة الآيات وكذلك الروايات الواردة في تفسيرها تظهر لنا بوضوح بأنها - أي تلك الحقائق - من نصيب

١ - للحصول على مزيد من المعلومات عن هذه الاحاديث راجع كتاب بحار الانوار: ج ٢٤ ص ٤٨ وماتلاها ، الباب ٢٩ .

فثنتين مختلفتين وعبارة «من دونهما» تعطي معنى الأدنى، وعلى هذا الترتيب فروضتان من رياض الجنة من نصيب «المقربين» واثنتان أدنى منهما من نصيب «اصحاب اليمين» وهذا في الحقيقة إشارة إلى درجات ومراتب أهل الجنة، وهذا ما ينبغي أن يكون وذلك لأن أهل الجنة ليسوا على سواء في المرتبة والدرجة.

لقد وصف النبي (ﷺ) هذا الاختلاف بعبارات جميلة في حديث ورد عنه إذ قال: «جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما، جنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما»^(١).

وورد نفس هذا المعنى في حديث أكثر صراحة عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: «لا تقولنَّ واحدة أن الله يقول: ومن دونهما جنتان، ولا تقولن درجة واحدة أن الله يقول: درجات بعضها فوق بعض، وإنما تفاضل القوم بالأعمال»^(٢).

وذكر المفسرون احتمالات متعددة لسبب حصول كل واحدة من هاتين الفئتين على جنتين، وهذه الاحتمالات لا تتعارض فيما بينها ولعلها ملخصة في مفهوم الآية. ومن جملة ذلك أن أحدهما تشير إلى الجنة الروحية والأخرى تشير إلى الجنة الجسمانية أو أن لكل واحد من أهل الجنة جنتين: أحدهما عامة لمقابلة الأصدقاء، والأخرى خاصة لمعاشرة الزوجات.

أو أن تكون أحدهما كثواب على العقيدة والإيمان والأخرى جزاء للعمل الصالح.

أو أن تكون أحدهما جزاء للعمل والأخرى فضل من الله.

أو ربما أحدهما جزاء على طاعة الأوامر والثانية ثواباً على اجتناب الذنوب!



١ - تفسير مجمع البيان: ج ٩، ١٠، ص ٢١٠.

٢ - نفس المصدر السابق.

يمكننا ان نستخلص من مجموع ما ذكر ان للجنة مقامات ودرجات ومراتب ويمكن اعتبار كل واحدة منها جنة ، ولاشك ان اختلاف درجات اولياء الله في الدنيا يستوجب اختلاف مراتبهم في الجنة ، فجنة المقربين تختلف عن جنة اصحاب اليمين ، وجنة الذين يحتلون الذرى في الورع والايمان والمعرفة والعمل الصالح تختلف مع جنة من هم في مراتب ادنى .

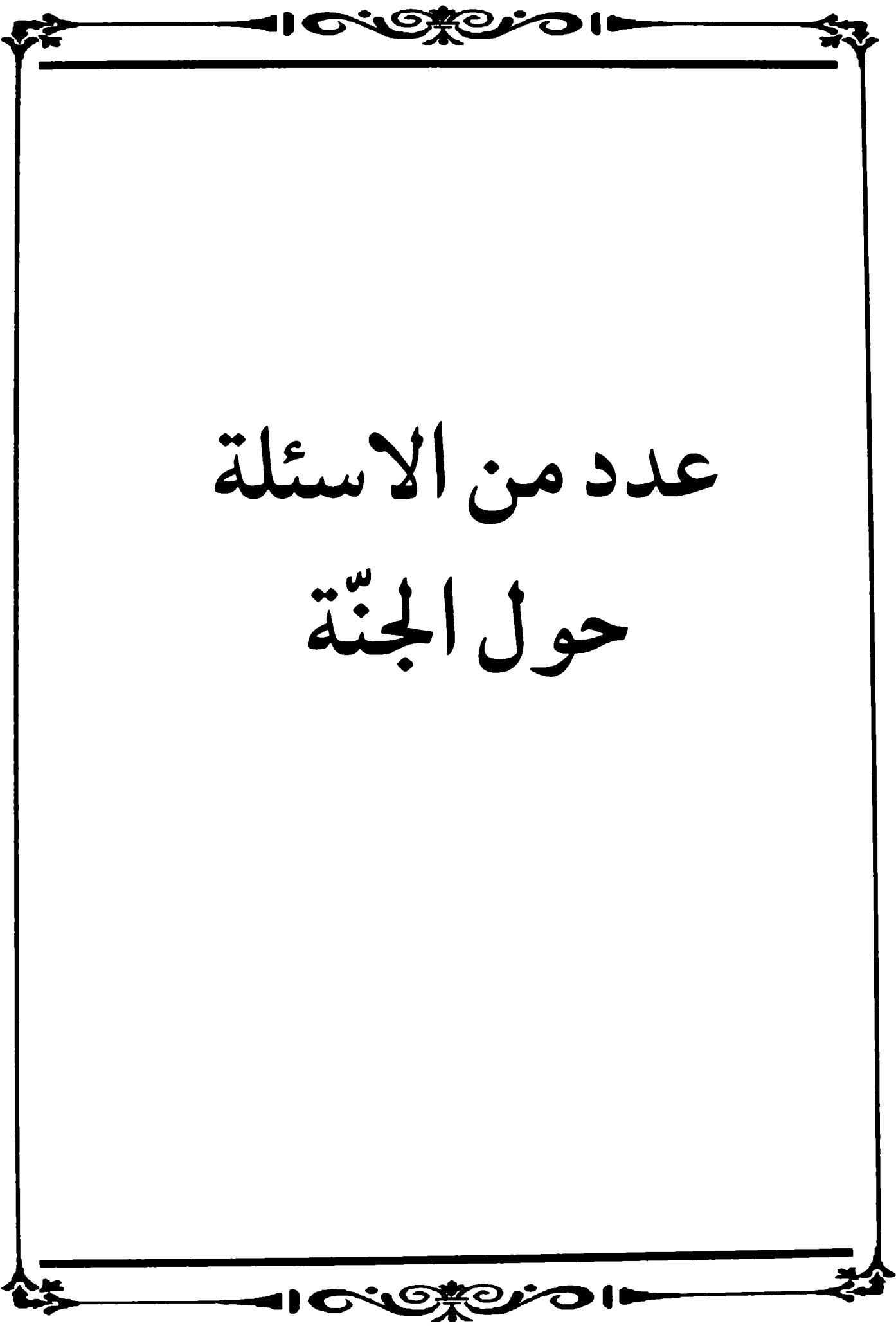
ورغم عدم قدرة اذهاننا على استيعاب مواصفات أي منهما ، إلا اننا نعلم قطعاً انهما عالمان مختلفان ، ولعل اهل المراتب الادنى في الجنة لا يتمكنون من معرفة احوال العوالم الأرفع مكانة !

ينبغي الاشارة الى ان كلمة الجنة قد وردت في القرآن الكريم احياناً بصيغة المفرد الذي يحمل مفهوم اسم الجنس ويشمل جميع الحقائق والرياض في الجنة ، وحياناً أخرى بصيغة الجمع وهو مايشمل رياض الجنة ودرجاتها ومراتبها المختلفة ، وحياناً بصيغة التثنية (جنتان) وهو ما دلّ على درجتين مختلفتين ، وقد سبق لنا شرحه .

ويتحدث القرآن في بعض الاحيان عن خلود الجنة ويستخدم عبارات من امثال «جَنّات عدن» او «جنة المأوى» و «جنة الخلد» ويتناول في احيان اخرى تبيان نعمها المادية والمعنوية المختلفة ويعبر عنها بـ «جنة النعيم» ، ويشير احياناً اخرى الى الرياض الفاخرة جداً فيها ويطلق عليها اسم «جنة الفردوس» .

يعبر كل واحد من هذه الأوصاف الغنية عن واحد من ابعاد هذا المكان وهو مقر الرحمة الالهية الكبرى ، ودرجات القرب والوصال بالمحسوب الحقيقي .

«اللهم ارزقنا بمتك ورحمتك يا ارحم الراحمين»



عدد من الاسئلة حول الجنة

٨- عدد من الاسئلة حول الجنة

١- اليس الرتبة مملّة؟

يعترض البعض قائلاً: ان ما يُستشف من الآيات والروايات يشير الى ان النعم في الجنة ونمط الحياة فيها يسير برتبة وعلى وتيرة واحدة، ونحن نعلم ان هذا الوضع -ولاسيما اذا استمر لمدة طويلة - يثير الملل ويطفئ شعله الشوق والحماسة والنشاط، لأن تكرار اجمل المشاهد واحلى المناظر واطيب الاطعمة يضيف عليها مسحة طبيعية ويجعل منها وضعاً عادياً، حتى ان الانسان قد يلجأ احياناً الى اساليب حياتية ابسط او اكثر مشقة من اجل كسر طوق الرتبة والملل وممارسة التجديد والتنوع. وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي الالتفات الى ثلاث نقاط:

الاولى: يجب عدم تطبيق المقاييس والمعايير المادية والنفسية السائدة في هذا العالم على ذلك العالم، فلعل هذه الحالة النفسية الموجودة فينا وهي سرعة التعب والضجر واللامبالاة في هذا العالم قد تكون على العكس تماماً هناك، فكلما تكررت المشاهدة ازداد الشوق وتضاعفت الرغبة، ومع تزايد التكرار تزداد اللذة، فيكون التكرار مدعاة لمضاعفة اللذة المعنوية والمادية.

فما هو الدافع الذي يجعلنا نتصور الوضع النفسي للانسان في هذا المجال

واحداً هنا وهناك ؟

الثانية: توجد في هذا العالم ايضاً نعمٌ لا يملأها الانسان ولا يشبع منها، فنحن كلما تنفسنا هواءً طلقاً جديداً ومليناً بالاكسجين، لانملّه ولا نضجر منه، بل نلتذ به ويشير فينا البهجة والارتياح، وكذلك الماء هذا المشروب البسيط فلو اننا عمّرنا مئات السنين يبقى شرب الماء العذب عند العطش من اعظم اللذات بالنسبة لنا، وهذا هو معنى قولنا ان طعم الماء هو طعم الحياة، فلا يبعث فينا الملل ولا الضجر بل يبقى الماء العذب جذاباً ولذيذاً في افواه العطاشى.

فما المانع في ان يجعل الله لدى الانسان حالة شبيهة بحالة العطش (العطش اللذيذ الخالي من الازعاج والأذى، مثل العطش للقاء المحبوب) لكي يلتذ الانسان بواسطتها من النعم الروحية والجسمية الموجودة في الجنة ؟

الثالثة: لما كانت ذات الله وصفاته غير متناهية، فلا شك ان مظاهره الروحية والمعنوية لا نهاية لأمدّها، فهو يفيض عليهم في كل يوم باللطاف الجديدة ويمدّهم في كل لحظة بهداية متجدّدة لا تكرر فيها ولا رتابة وهل يمكن ان يتكرر ما لانهاية له ؟

والنعم المادية هي من مظاهر رحمانيته ورحيميته، ولا حد لها ولا حصر. فما المانع في ان تكتسب أنهار الجنة واشجارها وازهارها وتلك الالوان والطور وتلك الأشربة الطاهرة، لوناً وطعماً وشكلاً وعطراً جديداً في كل يوم وفي كل ساعة ؟ فالوانها في حالة تبدل دائم وهي في تغير مستمر، تكتسي على الدوام بحلل جديدة بحيث لا يتكرر الطعام الواحد ولا المشهد الواحد على اهل الجنة الا مرة واحدة طوال حياتهم فيها ! (فياله من مشهد عجيب !).

هناك بعض الآيات القرآنية والروايات التي تؤكد ما ورد في هذا الباب منها الآية (٢٩) من سورة الرحمن: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

وقد طرح المفسرون آراءً كثيرة متنوعة في تفسير هذه الآية ويشير كل واحد

منها الى فعل من افعال الله في مسألة خلق الناس وموتهم او رزقهم وحياتهم أو عزّة ومذلة الامم والاقوام أو غفران الذنوب وكشف الهموم أو جلب النفع ودفع الضرر، ولا شك ان لهذه الآية مفهوماً اوسع يشمل أي تغيير يطرأ على اوضاع العالم، ونظراً لانعدام الدليل على تخصيص هذه الآية في مجال الدنيا، بل وأن مجيئها بعد الآية الشريفة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، يمكن اعتباره قرينة على استمرارية التغير والتبدل في الدار الآخرة ايضاً، وان اصحاب الجنة كل يوم في شأن بارادة الله.

وقد اطلق بعض المفسرين عبارة «كل يوم» واعطاها عمومية اوسع لتشمل ايام الدنيا والآخرة كليهما سوياً^(١).

جاء في حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال: «ان الله خلق جنّة لم ترها عين ولم يطلع عليها مخلوق، يفتحها الرب تبارك وتعالى كل صباح فيقول: ازدادي طيباً! ازدادي ريحاً»^(٢).

وورد حديث آخر ايضاً عن الامام الباقر (عليه السلام): «انّ اهل الجنة توضع لهم موائد عليها من سائر ما يشتهون من الاطعمة التي لا الذّ منها ولا اطيب، ثم يرفعون عن ذلك الى غيره»^(٣).

تُظهر هذه التعبيرات وبكل وضوح ان لا رتابة في الحياة هناك، بل في كل لحظة نعم وعطايا جديدة.

نختم حديثنا هذا باشارة مقتضبة لأحد المفسرين حيث قال: «ان الآية تشير الى تجلّي الحق في كل زمن فرد ونفس فرد على حسب المتجلّي له واستعداده ولا نهاية للتجلّيات»^(٤).

١- تفسير روح المعاني: ج ٢٧ ص ٩٦.

٢- بحار الانوار: ج ٨ ص ١٩٩، الحديث ١٩٨.

٣- بحار الانوار: ج ٨ ص ١٩٩، الحديث ١٩٩.

٤- تفسير روح البيان: ج ٩ ص ٣٠٠.

ولا شك ان هذا الكلام لا يشمل كل مفهوم الآية، بل يعبر عن جزء من مفهومها (فتأمل)؟!؟

٢- أتعرف قيمة اللذة بفقدانها؟

من المعروف ان «الفقدان» يبرز اهمية «الوجدان» وبعبارة أخرى: ان النعم الالهية والعطاء الرباني يُعرف عند زواله، فلو لم يكن للمرض وجود في العالم لما عرف أحد قيمة الجوهرة الثمينة لنعمة السلامة، ولولا الخوف لما عرفت قيمة وأهمية نعمة الأمان.

وعلى هذا فالجنة التي تخلو من الفقدان والخوف والمرض والتعب، ولا تعرف العوز والقحط... الخ لن تعرف قيمة كل هذه النعم وستنسى اهميتها بالتدريج، ولن يكون هناك أي شعور باللذة.

والجواب عن هذا السؤال لا صعوبة فيه، لأن اهل الجنة مشرفون على اهل النار وبامكانهم الاطلاع على اوضاعهم ومقارنتها بما هم عليه، وحين يرون هذا الفارق الشاسع يلتذون بالنعم اللامتناهية التي يعيشون فيها.

تطرق القرآن الكريم مرّات عديدة الى اطلالة اهل الجنة على اهل النار، فجاء في الآية (٥٠) من سورة الاعراف: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنُفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وفي سورة الصافات تحدثت عدّة آيات منها عن هذا المشهد قائلة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۚ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ۚ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينِ ۚ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ الصافات-٥٠-٥١-٥٥.

كما نقرأ ايضاً في سورة الاعراف: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ۚ فَآذَنَ مُؤَدِّنُ بَيْنَهُمْ أَن

لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الاعراف-٤٤.

يُفْهَم من مجموع هذه الآيات انه لا أهل الجنة يجهلون اوضاع أهل النار، ولا أهل النار محجوبون عن احوال أهل الجنة، فاطلاع أهل الجنة يضاعف ما هم فيه من السرور والنعمة لنجاتهم من ذلك العذاب الأليم، ويسعدون لما يرفلون فيه من النعمة والرفاه على العكس منهم أهل النار اذ يتضاعف عذابهم عند اجراء مثل هذه المقارنة .

وورد عن الامام الصادق (عليه السلام) حديث يقول : «ما خلق الله خلقاً الا جعل له في الجنة منزلاً وفي النار منزلاً، فاذا سكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد، يا أهل الجنة اشرفوا، فيشرفون على النار وترفع لهم منازلهم في النار ثم يقال لهم: هذه منازلكم التي لو عصيتم ربكم دخلتموها؛ قال: فلو ان احداً مات فرحاً لمات أهل الجنة في ذلك اليوم فرحاً لما صرف عنهم من العذاب؛ ثم ينادون: يا معشر أهل النار ارفعوا رؤوسكم فانظروا الى منازلكم في الجنة فيرفعون رؤوسهم فينظرون الى منازلهم في الجنة وما فيها من النعيم، فيقال لهم: هذه منازلكم التي لو اطعتم ربكم دخلتموها...».

وجاء في ذيل الرواية نفس هذا المعنى بشأن اصحاب النار حينما يرون منازلهم في الجنة فيكادون يموتون من الحسرة والغيظ»^(١).

ونقل في تفسير الدر المنثور حديث مشابه عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن بشكل مختصر^(٢).

ان وجود منزلين لكل انسان يدل على الطبائع والاستعدادات الموجودة في كل انسان بالقوة، حيث يُحدّد منزله في الجنة أو في النار وفقاً لتلك الطبائع والاستعدادات، ولا يتنافى هذا مع ما ذكرناه سابقاً من انه يبني تلك المنازل بعمله

١- بحار الانوار: ج ٨ ص ١٢٥، الحديث ٢٦.

٢- تفسير الدر المنثور، استاداً لما ورد في ص ١٣٩ من تفسير الميزان (ذيل آيات سورة الاعراف).

ويكملها من جميع الجوانب ، ويخرج كل تلك الاستعدادات من حالة القوة الى حالة الفعل ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان اهل الجنة لا ينسون ابداً ذكريات الدنيا ، ويمكنهم معرفة قيمة واهمية كل هذه النعم والفضائل من خلال مقارنة اوضاعهم الحالية مع ما كانوا عليه في الدنيا .

ذكرت الآيات من (٢٥) الى (٢٧) من سورة الطور ما يأتي : ﴿وَاقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنْ أَتَىٰ اللَّهَ عَٰلِيْنَا وَوَقَيْنَا عَذَابَ السُّمُومِ﴾ .

ويظهر من هذا التعبير ان اصحاب الجنة يتذكرون معاناتهم في الدنيا وشقاءهم ويقارنون بينها وبين ما هم فيه ، ومن الطبيعي ان هذه المقارنة تظهر لهم بوضوح عظمة الفضائل التي يتنعمون بها .

* * *

٣- هل يوجد في الجنة تكامل ؟

رغم ان جواب هذا السؤال قد اتضح اجمالاً من خلال الاجابة عن السؤال السابق ، لكن من الضروري هنا البحث عن جواب اوسع ، فنقول : نعم ان التكامل موجود هناك قطعاً ولا يبقى اهل الجنة في اماكنهم في حالة من السكون والمراوحة ، بل هم يقتربون - بفضل الله ولطفه ورحمته - نحو ساحة قدسه يوماً بعد يوم ، ويواصلون سيرهم صوب القرب الى الله .

وليس مفهوم هذا الكلام وجود العبادات والطاعات والاعمال هناك ، لأن الجنة ليست دار التكليف ، فالمقومات الأولية للتكليف معدومة هناك ، بل هم يواصلون مسيرتهم التكاملية في ظل اعمالهم المنجزة في الدنيا . تماماً كالأشجار المثمرة التي يفرسها الانسان مرة واحدة ، فتمتد جذورها وتخرج منها فروع واغصان

هنا وهناك حتى تعم السهول والصحارى، أو كسفينة الفضاء التي تحتاج في بداية انطلاقها وخروجها عن مجال جاذبية الارض الى طاقة عظيمة، ولكنها بعد الخروج من هذا المجال تواصل حركتها - اذا لم تصطدم بمانع - من غير حاجة الى اي وقود جديد.

وهناك آيات قرآنية تشير الى هذه القضية، كما هو الحال في الآية (٦٢) من سورة مريم التي تتحدث عن اصحاب الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. ويتضح جلياً من خلال الآيات السابقة لهذه الآية بأن هذا الوصف ينطبق على جنة الآخرة التي عبرت عنها بكلمة «جَنّاتِ عدن» لا على جنة البرزخ. وهنا يتبادر السؤال الى الاذهان وهو اذا كانت الآيات الشريفة تشير الى ان اهل الجنة لهم فيها ما يشتهون في اي وقت وزمان، فما هي هذه العطايا والفضائل التي تُمنح لهم في كل بكرة وعشي؟

من المؤكد انها فضائل وارزاق مادية ومعنوية تقدّم لهم في هذه الاوقات، اضافة الى رفعهم نحو درجات اسمى واعلى.

وورد حديث عن النبي (ﷺ) يُلقِي الضوء على هذا الموضوع يقول فيه: «وتأتيهم طُرف الهدايا من الله تعالى لمواقبت الصلاة التي كانوا يصلّون فيها في الدنيا، تسلّم عليهم الملائكة»^(١) وهنا يثار سؤال آخر تُفرزه تعابير الآية فحينما لا وجود لليل ونهار في الجنة فكيف تكون هناك بكرة وعشيّاً؟

ويمكن الاجابة عن هذا السؤال كما يأتي:

ان الجنة وان كانت مضيئة بالنور دائماً إلا ان ذلك ليس على وتيرة واحدة على الدوام بل هو في حالة توهّج وخفوت يتيح لأهل الجنة تحديد الليل من النهار تماماً مثل المناطق القطبية التي تمر عليها ستة اشهر كاملة والوقت فيها نهار، إلا انه يمكن تحديد الليل والنهار من خلال زيادة ونقصان درجة النور.

وبالنظر لاستعصاء هاتين القضيتين (قضية الرزق الجديد وقضية البكرة

١ - تفسير روح المعاني: ج ١٦، ص ١٠٣، وتفسير القرطبي: ج ٦ ص ٤١٦٦ (في ذيل نفس الآية).

والعشي) على الكثير من المفسرين ، فقد طرحوا بشأنها آراءً وتبريرات متعددة تتعارض في الغالب مع ظاهر الآية ككونها كناية عن دوام النعمة ، حيث كان من المتعارف بين العرب ان من يملك طعام الصباح والمساء (البكرة والعشي) يُعتبر غنياً ، او ان النعم الالهية تأتيهم متوالية وبفواصل زمنية تعادل الليل والنهار في هذه الدنيا .

ومن الواضح ان جميع هذه الآراء تخالف ظاهر الآية . اليس من الافضل القول بوجود نوع من الليل والنهار الحاصلين من خلال اشتداد وانخفاض درجة الضياء ووجود نوع من الرزق مُستمد من فضل الله والطافه ومبشّر بطي مسيرة التكامل ، بحيث ينطبق مع ظاهر الآية اولا يتعارض معه كثيراً؟!!

وهناك حديث نُقل عن النبي (ﷺ) انه قال : «والذي انزل الكتاب على محمد ان اهل الجنة ليزدادون جمالاً وحُسناً كما يزدادون في الدنيا قباحةً وهرماً»^(١) . وهذا الحديث يُظهر بوضوح التكامل التدريجي لأصحاب الجنة وان كانت فيه اشارة الى الجوانب الجسمانية فقط ، لكن من البديهي انه يتضمن ايضاً الابعاد الروحية من باب اولي .



١ - علم اليقين : ص ١٠٣ ، (استناداً على ما نقله معاد گفتار فلسفي).

النار وأصحاب النار

النار واصحاب النار

١- لمن النار؟

تمهيد :

رغم ان القاعدة تستوجب التحدّث اولاً عن ماهية النار واوصافها ومن ثم الانتقال الى الحديث عن اصحاب النار، ولكن بما ان اسلوب القرآن وسنته قد دأبا على التركيز اكثر مايمكن على الابعاد التربوية والنتائج الاخلاقية والانسانية والاجتماعية في مثل هذه البحوث، فاننا - واتباعاً لهذا النمط الايجابي - سنبدأ أولاً بمن يستحق هذه العقوبة العظمى حتّى نقف على منطق الاسلام في هذا الصدد من خلال استقراء الآيات التي تتحدث عن اصحاب النار.

كثيرة هي الآيات الواردة بشأن اهل النار وسوف نأتي بمثال عن كل باب ونأتي على كل موضوع بشاهد ومصدق.

ويُتّضح بجلاء من خلال تعابير هذه الآيات ايضاً تفاوت الذنوب ودرجات قبح المعاصي.

بعد هذه النبذة الوجيزة نعود الى القرآن وندرس النماذج المختلفة لأصحاب النار في ضوء البيانات التي تقدّمها لنا الآيات القرآنية .

١- الكفار والمنافقون :

ان أول فئة تساق الى النار هم الكفار والمنافقون ، يقول القرآن الكريم في الآية (١٤) من سورة النساء : ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ . وفي الآية (٤٩) من سورة التوبة : ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ . وجاء في سورة النساء الآية (٤٥) منها : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ . وفي الحقيقة ان اهم واوسع مرتع للمعاصي والذنوب هو الكفر والنفاق وعدم الايمان ، لأن الانسان اذا لم تُشرق أعماق نفسه بنبراس الايمان ولم يتطهر من الشرك والكفر والنفاق فلن تكون لديه اية دوافع نحو عمل الخير وستتغلب عليه دوافع المادّة والشهوات فقط، ولا يخفى على احد طبيعة الظواهر الناتجة عن سيادة مثل هذه الدوافع ، فنحن نرى نماذج منها في الجرائم التي يرتكبها المجرمون في عالم اليوم.

«الكفر» يعني تغطية الحق، و«النفاق» يعني التظاهر بعكس ما يبطن (التظاهر بالايمان واستبطان الكفر)، وهما اهم الحواجز في طريق الاصلاح في المجتمعات الانسانية ، لذلك ركّزت الآيات المتعلقة بالجنة والنار على هاتين الفئتين .

٢- الصد عن سبيل الله :

يُقَسَّم القرآن الكريم الناس من زاوية موقفهم ازاء الرسول (ﷺ) والآيات القرآنية الى فريقين ، فيقول : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ سورة النساء-٥٥.

وقد اكثر الآيات الشريفة من الوعيد لهذا الفريق ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ ، وهو الفريق الذي لا يضل نفسه فقط بل ويعمد الى اضرار جميع الناس ، وكأنه يجد لذته في هذا العمل ، بل ويرى مصالحه اللامشروعة في كفر الناس وعدم ايمانهم ، وذلك لأن المجتمع المؤمن المعتقد بالقيم الالهية السامية لا يخضع ابداً للفراغة وشياطينهم واحزابهم ، فالطريق الوحيدة اذن للتسلط على أي مجتمع يكمن في سلب جوهر الايمان من قلوب ابنائه ، وتاريخ الشعوب حافل بأمثال هذه المساعي المحمومة لهذا الفريق من اجل اضرار الناس ، واليوم ايضاً تنصب جهود جميع الدول والمؤسسات الاستكبارية في العالم على سلب الشعوب ايمانها بالله وبالقيم الربانية حتى لا يكون ذلك عائفاً امام مصالحهم .

٣- ترك طاعة الله وشق عصا المسلمين :

جاء في الآية (٢٣) من سورة الجن : ﴿ومن يعصي الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها ابداً﴾ .

وتنص الآية (١١٥) من سورة النساء على : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ . كلمة «يشاقق» مأخوذة من «الشقاق» وتعني المخالفة العمدية المصحوبة بالعداوة ، وتدل جملة ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ ان مخالفته نابعة من العناد وتهدف الى ايجاد الفرقة بين صفوف المسلمين .

* * *

٤- الاستهزاء بآيات الله :

رغم ان الاستهزاء بآيات الله يحمل دلالة على الكفر وهو من موجبات دخول النار، إلا ان الآيات القرآنية اكدت عليه كثيراً واعتبرته احد الاسباب الاساسية التي تنتهي بالانسان الى النار، وهذا ما عبّر عنه الآية (١٠٦) من سورة الكهف ﴿ذلك

جزاءهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً^(١).

ان الاستهزاء بالحق نابع - كما هو متعارف - من الجهل والعناد والتعصب والكفر المقرون بالبغض والعداوة، وكل واحد من هذه المفاهيم باب من ابواب جهنم، لهذا فلا عجب ان ينتهي مصير المستهزئين - الذين كان الانبياء واولياء الله في صراع معهم - الى جهنم أو ادنى دركاتها.

* * *

٥ - عدم استخدام العقل والعين والأذن :

والفريق الآخر الذي يستحق دخول جهنم هم الذين اغلقوا على انفسهم ابواب المعرفة، فيعطّلون العقل الذي منحه الله لهم، ويغمضون اعينهم، ويغلقون آذانهم حتّى لا يسمعوا صوت الحق ولا يروا وجه الحقيقة الناصع، ولكي لا يفكّروا فيما يوجب الوعي واليقظة، تقول الآية (١٧٩) من سورة الاعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

من الواضح ان هذا الخلق ليس جبرياً، وما يقوله بعض انصار مذهب الجبرية مثل «الفخر الرازي» وما يستدلّون به لإثبات مذهبهم عارٍ عن الصحة تماماً، وذلك لأن جوابه قد ورد ضمن الآية التي تقول اننا وقرنا لهم جميع مستلزمات المعرفة (كالعقل لادراك المعقولات، والعين لمشاهدة القضايا المحسوسة، والاذن لنيل العلوم النقلية) إلا انهم لم يستعملوا تلك المستلزمات ولم يستفيدوا منها (تأمل)؟! ولهذا يقول في وصفهم انهم كالحيوانات بل ادنى منها درجة، وذلك لأن الحيوان إنّ قَصُرَ عن فهم شيء فذلك ليس تقصيراً منه، بل لعدم امتلاكه لمستلزمات ذلك، والأضل من الحيوانات هو من يمتلك كل هذه الاسباب والعوامل مع توقّر الظروف

١ - ورد ما يشابه هذا المعنى في الآيتين (٩، ٣٥) من سورة المجاثية.

اللازمة ولكنه لا يستفيد منها، والعامل الاساس لكل هذه الامور هو الغفلة التي أُشير اليها في ذيل الآية ﴿اولئك هم الغافلون﴾ وجاء نظير هذا المعنى في سورة الملك، الآية (١٠)، خلال اجابة اهل النار عن تساؤلات خزنة النار وملائكة العذاب ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾.

إنَّ الجذور لكل هذا الشقاء الذي يرزح فيه الانسان وسبب كل هذه المفسد يكمن في عدم استخدام ابن آدم لعقله وأذنه وعينه ولا يستغل هذه النعم الالهية الكبرى في سبيل المعرفة، فالله تبارك وتعالى قد حباه تلك النعم ومستلزمات المعرفة واسبابها فهو - اي الانسان - يمتلكها ولكنه لا يستفيد منها.



٦- أتباع الشيطان:

ومن العوامل المهمة في دخول النار (مركز الغضب الالهي) هو الاستسلام للشياطين والانقياد لها وتسليمها زمام الامور، كما تصف ذلك الآية (١٨) من سورة الاعراف ﴿قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن اتبعك منهم لأملئن جهنم منكم أجمعين﴾.

ومع ان الآية تتحدث عن رأس الشياطين ابليس، إلا اننا نعلم ان خط الشياطين كلهم واحد، فهم في كل مكان يسبرون على خطى ابليس، وأتباع خطى شياطين الجن والانس يُعد اتباعاً لإبليس، ومصير كل هؤلاء الأتباع دخول النار. فهم يخدعون من يتبعهم بالآمال الكاذبة وتزيين الشهوات والدعوة الى المعاصي، والصد عن الخير والتشجيع على الانحراف، ويصدونهم عن سبيل الله، فيوقعونهم في نار قهره وغضبه^(١).



١- ورد مضمون هذا المعنى في الآية (٢١) من سورة لقمان، وايضاً الآية (٢٢) من سورة ابراهيم.

٧- الطغيان والاستكبار:

ان «التكبر» من اسباب دخول النار، سواء كان التكبر ازاء الخالق أم ازاء الخلق، أم ازاء الحقائق (يمتنع عن التسليم امام الحق)، والاستكبار ايضاً مصدر رئيس للكثير من الجرائم والمظالم وسلب الحقوق، لذلك فهو يؤدي بالانسان - كما هو الحال في التكبر - الى دخول النار.

يقول القرآن الكريم في الآية (٦٠) من سورة الزمر: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وتنص الآية (٣٦) من سورة الاعراف: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

وكذلك جاء هذا المعنى في آيات أخرى من القرآن الكريم، فتقول الآيتان (١٥، ١٦) من سورة ابراهيم في وصف الجبار العنيد: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾.

لكلمة «الجبار» معان متعددة: منها: القهر والتسلط والغلبة والنفوذ، إلا أن لهذا الامر جانباً رحمانياً احياناً، مثل سلطة الله على عالم الوجود وعلى كل شيء فيه، وله احياناً جانب شيطاني، كسلطة وغلبة الطغاة والمتجبرين.

و«العنيد» على حد قول صاحب كتاب لسان العرب: «الجائر عن القصد الباغي الذي يَرُدُّ الحق مع العلم به»، وكل هذا من نتائج الكبر والفروور والتعالي، ولو أمعنا النظر قليلاً لوجدنا ان هذه الرذيلة الاخلاقية هي واحدة من اهم الحُجب المانعة للمعرفة ومن عوامل إضلال الانسان، وسلب حقوق الآخرين والاعتداء عليهم، وانواع الذنوب الأخرى^(٢).



١ - ورد شبيه هذا المعنى في الآيات (٦٠، ٧٢، ٧٦) من سورة غافر، والآيتين (٤٠، ٤١) من سورة الاعراف، والآيتين (٢١، ٢٢) من سورة النازعات، والآيتين (٥٥، ٥٦) من سورة ص.

٢ - ورد ما يشابه هذا التعبير في الآية (٢٤) من سورة ق، والآية (١٦) من سورة المدثر.

٨- الظلم والاعتداء :

ورد في الكثير من آيات كتاب الله تهديد للظلمة بنار جهنم ، والتعابير التي وردت بشأنهم قلما وردت بشأن اية فئة اخرى ، وهذا يعكس مدى الأهمية التي اولاهها الاسلام لمواجهة الظلم وضرورة التخلي عنه . وقد وردت اشد التهديدات في الآية (٢٩) من سورة الكهف وهي : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ * بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ .
وهناك تعبير آخر شديد اللهجة ايضاً ورد في الآية (١٥) من سورة الجن : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ .

يُظهر هذا التعبير ان نار جهنم تستعر في داخل نفوسهم ، وكما كانوا في هذه الدنيا ناراً محرقة للمظلومين ، يتحول كياناتهم هناك في عالم تجسيد الاعمال الى قطعة من نار، ولا تعبير أبلغ وأفصح من هذا التعبير بشأن القوم الظالمين^(١) .



٩- الركون الى الظالمين :

ليس الظلم وحده يؤدي الى ورود جهنم المتوقدة بنار الغضب الالهي ، بل يؤدي الى ذلك - كما بصرح القرآن الكريم - الركون الى الظالمين (ويكون من اعوانهم وانصارهم) كما جاء في الآية الشريفة : ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ سورة هود-١١٢ .

كلمة «تركنوا» مشتقة من مصدر «الركون» والذي يعني في رأي اصحاب اللغة الاتكال على الشيء والميل اليه ، وهو ما يستلزم اتصافه بالقوة والمقدرة ، لأن الانسان يتكّل ويعتمد على ما فيه القدرة ، ولذلك تطلق كلمة «الركن» على العمود أو

١ - ورد نفس هذا المعنى في سورة سبأ-٤٢ ، الزخرف-٦٥ ، آل عمران-١٥١ ، المائدة-١٢٩ ، ابراهيم -٢٢ ، مريم-٧٢ ، الاعراف-٤١ ، الانبياء-٢٩ ، والشورى-٤٥ .

الجدار الذي يُقام عليه البناء او الاشياء الأخرى^(١).

تحمل الآية اعلاه عنواناً عاماً يطلق على كل الظلمة ، وتشتمل ايضاً من خلال تعبير «الركون» على أي نوع من انواع الارتباط والاعتماد على الظالمين ، وتقول ان الجميع سيقعون في نهاية المطاف في قبضة العذاب الالهي ، بل وانهم حتى في هذه الحياة الدنيا لا يجنون غالباً سوى الفشل والخسران والشقاء لأن الظالم حين يقوى لا تأخذه بمن سواه رافة ولا رحمة .

وعلى اية حال، فاذا كان الركن الذي يُعتمد عليه سبباً لمثل هذا الشقاء فمن البديهي - ومن طريق اولي - ان تكون تقوية الظلمة واعانتهم سبباً لدخول الانسان النار، ولهذا السبب فقد شدّد القرآن في النهي وبكل صراحة عن أي تعاون ومساعدة على الظلم ، وقال : ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة-٢، وقد انذرت الروايات الاسلامية بأشد العذاب والجزاء لمن يكون سبباً في تقوية وتعزيز الظالم بأي شكل من الاشكال ، حتى فيما لو وضع بين يديه القلم او الدواة لكتابة حكم فيه اي ظلم ، وسنأتي على تبيان ذلك باذن الله في الموضع المناسب .

* * *

١٠ - نسيان الآخرة :

تحدث الآية (٣٤) من سورة الجاثية عن هذا الجانب وتقول : ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَالُكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ .
لا شك ان نسيان محكمة العدل الالهي عند القيامة ينتج عنه انواع من الذنوب والمعاصي ، والانغماس في مستنقع الظلم والرديلة والفساد ، وهذه الاعمال تؤدي الى ان يعاملهم الله معاملة الناسين ، ولا شك ان احاطة الله بكل شيء وعلمه بكل شيء وفي كل زمان تجعل من مفهوم نسيانه أمراً لا معنى له ، لكنه يعامل الناسين

١ - مصباح اللغة ، صحاح اللغة ، والتحقيق في كلمات القرآن .

معاملة النسيان ، اي انه يقطع عنهم بالكامل لطفه ورحمته ، فتغلق عليهم كل سبل النجاة ، ولا يبقى امامهم سوى هاوية جهنم^(١) .



١١ - حب الدنيا:

حب الدنيا رأس كل خطيئة ، ومن العوامل المهمة في لقاء الكثير من الناس في نار جهنم ، كما صرحت بذلك الآية (١٨) من سورة الاسراء : «مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا» .
اي ان الامر ليس بهذه الدرجة من البساطة بحيث ينال اهل الدنيا كل مقاصدهم منها ، بل قد يلجؤون الى آلاف الحيل والمسااعي ، بل ويضطرون الى ارتكاب الجرائم والمعاصي من اجل بلوغ بعض اغراضهم ، لكن جهنم لهم بالمرصاد ، فتحرق اجسادهم وأرواحهم ايضاً بحكم كونهم «مذمومين» و «مدحورين» ومطرودين من رحمة الله^(٢) .



١٢ - اكتناز الذهب:

ان اكتناز الذهب وان كان يُعَدُّ واحداً من مظاهر حب الدنيا ، لكن القرآن الكريم قد اكّد عليه وخصّه بالذكر باعتباره واحداً من الأسباب التي تؤدي ببني آدم الى دخول نار جهنم ، حيث قال : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ - يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوِي بِهَا جِبَاهُهُمْ

١ - ورد نفس هذا المعنى في سورة ص - ٢٦ ، والم السجدة - ١٤ .

٢ - ورد ظير هذا المعنى في سورة النازعات : الآية ٣٨ .

وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم، فذوقوا ما كنتم تكنزون» التوبة-٢٤-٢٥^(١).

تحتوي هذه الآية على نقاط وبحوث متعددة سنشير إليها في موضعها

المناسب، أما ما ينبغي الإشارة إليه هنا فيتلخص في نقطتين:

الاولى: إلى أي حد يُعتبر جمع الثروة اكتنازاً؟ وهذا الموضوع مُختلف عليه

كثيراً بين المفسرين، وما ورد في الكثير من الروايات عن الشيعة وأهل السنة،

واتفقت عليه آراء الكثير من المفسرين هو أن: المال الذي تؤدي زكاته لا يُعتبر كنزاً

(أي مال أُدّيت زكاته فليس بكنز)^(٢).

ولكن في الظروف الاستثنائية وحين توجب مصالح المجتمع الاسلامي على

الحكومة الاسلامية تعيين حدود جمع الثروة - كما ورد في بعض الروايات عن

علي (عليه السلام) - او يكون الاجراء ابعد من ذلك فيعلن في ظرف خاص عن وجوب

صرف جميع المدخرات والذخائر حفاظاً على وجود المجتمع الاسلامي (كما ورد

في بعض الروايات بشأن قيام الامام المهدي «عج»). لكن لا تُعتبر النقاط المذكورة

اعلاه قاعدة عامة، والقاعدة العامة الاساسية هي ما ذكرنا في بداية الموضوع.

الثانية: لماذا تقول الآية تكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم؟ لعل ذلك

يعود إلى ردود الفعل التي يصدرونها بحق المحرومين والفقراء فهم اولاً يعبسون

ويقطّبون الجبهة، ومن ثم يظهرون اللامبالاة فيصدون عنهم ومن بعد ذلك يديرون

لهم الظهر، ولذلك تكوي بالترتيب جباههم ثم جنوبهم ثم ظهورهم بنفس تلك

المسكوكات كما كانوا يكونون قلوب المساكين والفقراء.



١ - ورد نفس المعنى في سورة الهمة الآية ٢- الى ٦، وسورة مسد: الآية ٢-٣، وسورة الحاقة الآية ٢٨ الى ٣١.

٢ - لمزيد من الايضاح راجع تفسير نمونة المجلد ٧ ص ٣٩٤.

١٣ - الفرار من الزحف :

نحن نعلم ان الاسلام يعتبر هذا الذنب من اكبر الذنوب فهو يؤدي الى اندحار وذلة وشقاء المسلمين ويستوجب اشد العقوبات وهنا يصرح القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْاَدْبَارَ* وَمَنْ يُولَهُمْ يَوْمَئِذٍ دَبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الانفال-١٥-١٦.

«الزحف» وفقاً لرأي اصحاب اللغة ^(١) يعني في الاساس الحركة المصحوبة بجرا الارجل على الارض كحركة الطفل في بداية تعلمه للمشي ، أو كسير الجمل عند شدة التعب ثم استعملت هذه الكلمة لتعني حركة المجاميع الكبيرة من الناس لأنهم يبدوون لكثرتهم وكأنهم ينزلقون على الارض في مشيهم ويتقدمون نحو الامام . وعلى اية حال ، تحمل هذه الجملة اشارة الى ان قوة العدو مهما كانت كبيرة فلا ينبغي التراجع امامها او الفرار من ساحة المعركة عند المواجهة ، دون أمر القائد . ومن الواضح ان هذا قانون اسلامي عام ، واما قول بعض المفسرين الذين اعتبروه خاصاً بمعركة بدر دون سواها فهو قول لا دليل له كما أشير اليه في تفسير الميزان ^(٢) ، ولا سيما ان هذه الآية قد نزلت بعد معركة بدر ^(٣) . اذن فالفرار من الجهاد من دواعي دخول النار .

١٤ - قتل الابرياء :

ان الاسلام يكن احتراماً كبيراً لدماء الناس الى درجة اعتبر معها قتل الواحد وكأنه قتل لجميع الناس : ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ

١ - مقاييس اللغة - مفردات الراغب - والتحقيق في كلمات القرآن .

٢ - الميزان : ج ٩ ص ٣٧ .

٣ - ورد ما يشابه هذا المعنى في بعض جوانبه في الآية ٨١ من سورة التوبة .

الناس جميعاً المائدة-٣٢.

واعتبر اراقه دم المؤمن تستحق الغضب الالهي والعذاب العظيم : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ النساء-٩٢.

وبهذا فقد أُنذر قاتل المؤمن بأربع عقوبات كبرى وهي : ١ - الخلود في جهنم ، ٢ - غضب من الله ، ٣ - لعنة من الله ، ٤ - العذاب العظيم ، وهذا اقصى ما أظهره الاسلام ازاء احترام دم المؤمن ، لأنه لا يوجد في القرآن اي موضع يشتمل على مثل هذه العقوبة ^(١).

* * *

١٥ - ترك الصلاة :

تحظى الصلاة بقدر عظيم من الاهمية ، وقد وردت بشأنها الكثير من الآيات والروايات التي تشيد بمكانتها وخاصة في الكتب الاسلامية الشهيرة ، وعدّ القرآن الكريم ترك هذه الفريضة من موجبات الهلاك ودخول النار ، حيث يقول في وصف جماعة من اصحاب الجنة يحادثون جماعة من اصحاب النار فيقولون لهم : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ؟﴾ فيجيبهم الجواب : ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيِّمَ الدِّينِ﴾ سورة الدثر-٣٩ الى ٤٦ .
ورغم وجود ثلاثة ذنوب اخرى في الآية اعلاه اضافة الى ذنب ترك الصلاة ، لكن التركيز عليها وجعلها في البداية يعكس مدى خطورة ترك هذه الفريضة الالهية ، اضافة الى ان اياً من هذه الامور الاربعة كاف لوحده لالقاء الانسان في النار (ويبدو ان المقصود من عدم اطعام المسكين هو منع الحقوق الواجبة).

١ - ورد نفس المعنى بصيغة أخرى في الآية (٢١) من سورة آل عمران .

وللصلاة من وجهة نظر الاسلام مكانة رفيعة ، ونقلت بعض الروايات المعروفة عن رسول الله (ﷺ) منها : (اذا كان يوم القيامة يدعى بالعبد فأول شيء يسأل عنه الصلاة فاذا جاء بها تامة والأزح في النار) ^(١).

ولعل السبب الكامن وراء ذلك هو ان الصلاة هي ينبوع النابض بالايمان ، منها ينبع الايمان وبها يتواصل ويستمر ، ويتركها تتزعزع اركانه ، ولا يخفى ان احد شروط قبول الاعمال ، وجود الايمان ، فلا يقبل عمل الا بوجوده .

* * *

١٦ - عدم ايتاء الزكاة :

الزكاة من اركان الاسلام الأساسية وتركها من اكبر الذنوب ونلاحظ ان القرآن قد جعل منعها في مصاف الشرك وتكذيب المعاد ، وهذا يعني انها من دواعي دخول النار ، حيث يقول القرآن الكريم : ﴿قَوْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَاذِبُونَ﴾ فصلت-٧.

اثارت هذه الآية جدلاً واسعاً بين المفسرين ، وطرحوا احتمالات متعددة في تفسيرها وكان الدافع لذلك كونها من فروع الدين فكيف يصبح تركها دلالة على الكفر والشرك ؟

يبدو ان البعض قد جعل منها معياراً فقال ان عدم ايتاء الزكاة حتى وان لم يقترن بإنكار حكمها يعتبر مؤشراً ذاتياً على الكفر ، وقال البعض الآخر ان عدم ايتائها لا يعتبر كفراً لوحده ، وإنما يكون كذلك اذا اقترن بإنكارها لأن وجوب الزكاة من ضروريات الاسلام ومنكرها كافر .

والنقطة التي نعيننا على توضيح تفسير الآية هي المكانة الخاصة التي تميز

١ - انظر كتاب وسائل الشيعة ، ج ٣ كتاب الصلاة ، الابواب السادس والسابع والثامن وخاصة ص ٢٢ الحديث ١٠ ، وص ١٩ الحديث ٦ .

الزكاة من بين التعاليم الاسلامية ، فأداؤها يعني الاعتراف بالحكومة الاسلامية ومنعها يدل على التمرد ومناهضة الحكومة ، وكما نعلم فان القيام ضد الحكومة الاسلامية موجب للكفر (ورد شرح هذه القضية بالتفصيل في كتاب التفسير الامثل «تفسير نمونة» ج ٢٠ من صفحة ٢١٤ - ٢٢٠).

وقد سبقت الاشارة الى الآية (٣٥) من سورة التوبة والتي تتحدث عن اكتناز الذهب والفضة وهي من الآيات الدالة على ان الزكاة من اسباب دخول النار.



١٧- أكل مال اليتيم :

اكل مال اي شخص كان وبلا مجوز شرعي حرام ، لكن هذا الحكم يتأكد اكثر بالنسبة لليتامى ، وذلك لحاجتهم الشديدة من جهة ، وفقدانهم الولي من جهة ثانية ، وعدم امكانية الدفاع عن انفسهم من جهة ثالثة ، وهذا ما يخرج القضية عن وضعها الطبيعي ويعطيها بُعداً استثنائياً .

ولهذا السبب هناك آيات قرآنية كثيرة مليئة بالوعيد والعذاب الشديد لمن يأكل اموال اليتامى ظلماً ، فها هي الآية الشريفة تصرّح : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ النساء- ١.

ورد في الروايات عن الرسول (ﷺ) انه قال : «شر المأكّل أكل مال اليتيم ظلماً»^(١).

ولكن هل ان التعبير القرآني في عقوبة أكل مال اليتيم جوراً بأنه يأكل ناراً ، هو تعبير مجازي ؟ قال جماعة من المفسرين بامكانية حمله على المعنى الحقيقي لأن هذا التعبير يظهر ان لأعمالنا صورة باطنية اضافة الى الصورة الظاهرية ، وان تلك الصورة خافية عنا في هذا العالم وتظهر في يوم القيامة . ومسألة تجسد الاعمال نابعة

من هذا الموضوع، وعلى هذا فلا يُستبعد حمل الآية على معناها الحقيقي. (فتأمل).

١٨- أكل الربا:

وهذا العمل ايضاً من الاعمال التي وعد القرآن مرتكبيها بعذاب جهنم حيث يقول: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ * وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ * وَ مَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة-٢٧٥.

وجاء ما يُشبه هذا المعنى في الآيتين (١٣٠ ، ١٣١) من سورة آل عمران اللتين تهددان كذلك آكلي الربا بعذاب النار وتصفانه بأنَّ له نفس العذاب الذي ينتظر الكافرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

فعندما يعلن المرابون العصيان على الله، أو يعلن هو جل شأنه الحرب عليهم فمعنى هذا أنهم قد تنزلوا الى مستوى الكافرين، وهذا تعبير رهيب في وصف هذه المعصية الكبيرة.

نستشف من بعض الروايات بأن الربا محرم في جميع الكتب السماوية وفي جميع شرائع الأنبياء، كما تنص هذه الرواية التي وردت في فقه الرضا (عليه السلام): «وهو محرم على لسان كل نبي وفي كل كتاب»^(١).

١ - فقه الرضا (عليه السلام): طبقاً لنقل مستدرک الوسائل، ج ١٣، ص ٣٣١، الحديث ٧ (الطبعة الجديدة).

١٩ - كفران النعم الالهية :

وهذا ايضاً من الذنوب الكبيرة التي يُجازى عليها بعذاب النار حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ ابراهيم - ٢٨-٢٩.

اما ماهو المقصود هنا بالنعم الالهية؟ قال جماعة من المفسرين - وانطلاقاً من بعض الروايات الواردة في المصادر الاسلامية - ان النعمة هي وجود النبي الكريم (ﷺ)، ونقرأ في رواية عن الامام الصادق (عليه السلام): «نحن والله نعمة الله التي أنعم بها على عباده وبنا يفوز من فاز»^(١).

كلمة «نحن» تشير الى كل بيت النبي (ﷺ)، وان كانت اشارة الى المعصومين (عليهم السلام) فهي تشمل النبي من طريق اولي، وتتضح مدى اهمية هذه النعمة فيما لو التفتنا الى حديث الثقلين وماله من مكانة، وعلى أية حال فان وجود النبي (ﷺ) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) وان كان يُعد من اكبر النعم الالهية، فلا يمكن حصر مفهوم هذه الآية في هذا النطاق والظاهر انها تضم جميع النعم الالهية الكبرى. وقد اشار المفسرون الى الكافرين بالنعمة الالهية الكبرى وقالوا انهم بنو امية، أو بنو امية وبنو المغيرة، او عموم الكفار في عصر النبي (ﷺ) ولكن هذا من قبيل ذكر المصداق ايضاً لا من باب الحصر.

وفي جميع الاحوال ينبغي شكر النعم الالهية الكبرى والاستفادة منها ما أمكن وعلى افضل وجه، واذا استبدل الشكر بالكفران استوجب عذاب جهنم^(٢).



١ - تفسير علي بن ابراهيم: ج ١ ص ٣٧١.

٢ - جاء في تفسير الميزان: هذه الآية فيها تقدير وهو كمايلي: بدّلوا شكر نعمة الله كُفْرًا.

٢٠- المطففين :

وقد اكّد القرآن على عذاب هؤلاء تأكيداً خاصاً، وأولى هذه القضية اهمية استثنائية، حتى ان اسم احدى السور هي «المطففين» جاء في مستهلها: ﴿ويل للمطففين.. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم.. كلا إن كتاب الفجار لفي سيجين﴾ المطففين ١-٤-٧.

قال بعض المفسرين ان «الويل» يعني شدة عذاب القيامة، وقال آخرون انها اسم وادٍ خاص في جهنم^(١).

وجاء ايضاً في حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال: «لم يجعل الله الويل لأحد حتى يسميه كافراً، قال عز وجل: «فويل للذين كفروا...»^(٢).

ورود ايضاً في حديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال: «ويل وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر»^(٣).

يفهم من هذه التعابير ان التطفيف - اي عدم ايفاء الميزان في البيع - يصل حد الكفر أو هو نوع من الكفر.

وكلمة «ويل» لها معنى لغوي واسع، يرادف الشر والغم، والهلاك او العذاب الأليم، وما ذكر آنفاً يمكن ان يكون مصداقاً لذلك.

ومما يسترعي الانتباه ان الفاظ الآية وان كانت تخص المطففين للمواد القابلة للوزن والكيل لغرض البيع والشراء، إلا انه لا يستبعد ان تتسع الآية لما هو أبعد من ذلك لتشمل كل من يقصر في تأدية واجباته الدينية والاخلاقية والاجتماعية وذلك لأن كل من يقصر في اداء واجبه وينتقص من عمله يُعتبر في الحقيقة مُطَفِّفاً.

ولهذا نُقل عن الصحابي المعروف «عبدالله بن مسعود» انه قال: كل من طفف

١- تفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٧٠٤١.

٢- اصول الكافي: ج ٢ ص ٣٢، الحديث ١.

٣- تفسير روح المعاني: ج ٣٠ ص ٦٨.

في صلاته ينطبق عليه ما قاله الله تعالى بشأن المطففين^(١).



٢.١ - الهمز واللمز والغيبة :

وهذه ايضاً من الذنوب الكبيرة لأن فيها استهانة بكرامة وشخصية الناس المؤمنين ، والكرامة والشخصية من الاعتبارات التي توازي في الأهمية دم الانسان بل وتفوقه احياناً ، ولذلك توعّد القرآن الكريم بالويل والعذاب لكل من يجترىء على هذا الفعل فقال : «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ» الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿ سورة الهمزة - ١-٤. »

هنالك اختلاف في آراء المفسرين بشأن معاني الهمزة واللمزة ، فهاتان الكلمتان وردتا على صيغة المبالغة من المصدرين «الهمز» و«اللمز» وقال البعض ان كلاهما بمعنى واحد وهو البحث عن عيوب الآخرين واغتيالهم . بينما قال آخرون ان الاولى تعني اقتفاء معايب الآخرين والتشهير بهم علناً والثانية تعني اقتفاءها والتشهير بها خفية وعن طريق الاشارة بالعين والحاجب وامثال ذلك . وقال آخرون ان الاولى تعني الغيبة ، والثانية تعني اظهار العيوب وجهاً لوجه .

ويبدو في جميع الأحوال ان كل من يحاول الاستهزاء بالآخرين أو يتعمّد الاساءة اليهم باللسان وحركات العين والحاجب في حال غيابه أو وجهاً لوجه ، ويحاول تقصّي عيوبهم أو يكشف العيوب المستورة وافشائها لغرض الاساءة الى كرامتهم فهو مشمول بالآية المذكورة ، فكما انه يحطم شخصية وكرامة الآخرين فسيكون كذلك عرضة - في يوم القيامة - لنار جهنم «الحطمة» لكي تحطم كل وجوده .

ان الاشخاص من امثال هؤلاء هم اكثر خلق الله شراً كما جاء ذلك في حديث

منقول عن سيد الرسل (ﷺ) انه قال: «الَا اخبركم بشر الناس؟» قالوا بلى يا رسول الله قال: «المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرئاء المعاييب»^(١).



٢٢- الاسراف والتبذير:

الاسراف والتبذير بالمعنى الواسع للكلمة يعتبران من الكبائر أيضاً، وقد ذكرهما وأكد عليهما القرآن الكريم بشدة، فقال عن الاسراف: «وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ» سورة المؤمن-٤٣.

ورغم ان هذا الكلام قد ورد في سورة المؤمن على لسان مؤمن آل فرعون، لكن القرآن أطلقه على هذا المجال.

وقال ايضاً عن التبذير: «إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ» الاسراء-٢٧ من الواضح ان مصير الشياطين واخوانهم ليس سوى الوقوع في بؤرة الغضب الالهي - اي جهنم.

و«الاسراف» و«السرف» وهي على وزن «الهدف» تعني كما يقول اهل اللغة تجاوز الحد في اي عمل، وان كانت تُطلق على الاغلب على تجاوز الحد في صرف الاموال^(٢).

ولهذا يُطلق القرآن الكريم كلمة المسرفين على المشركين والمجرمين الذين يتجاوزون الحدود الالهية، وحتى قتل الناس الابرياء يُعدُّ نوعاً من الاسراف. وكلمة «التبذير» مشتقة من مصدر «البذر» وتعني في الاصل النثر وتُطلق عادة على الحالات التي تُنثر فيها الاموال بلا هدف، أو حين ترمى هنا وهناك وتكون نتيجتها الاتلاف والتضييع^(٣).

١- اصول الكافي: ج ٢ باب النيمة، الحديث ١، تفسير القرطبي ج ١ ص ٧١-٧٢.

٢- المفردات للراغب: كلمة سرف.

٣- التحقيق من كلمات القرآن الكريم: مادة بذر.

ولو فكّرنا في وضع العالم الحالي والتبذير والاسراف السائد فيه والذي لا يقتصر على المواد الغذائية والامكانيات المادية فحسب، بل ويتعداه الى تجاوز الحدود في كل شيء، لوجدنا انه وقبل ان يستحق الآخرة، جعل من هذه الدنيا جهنم لاهبة يحترق في نارها الصغير والكبير ولا مغيث لنداءاتهم، حينذاك سنوقن ان عقوبة الاسراف والتبذير يجب ان تكون نار جهنم.

* * *

٢٣- الجرائم والذنوب :

توجد في القرآن الكريم اوصاف عامّة وشاملة لأصحاب النار ومن جملة ذلك الاجرام والذنوب، اذ قال بشأنه: ﴿ونسوق المجرمين الى جهنم ورداً﴾ مريم-٨٦. كلمة «مجرم» مأخوذة من المصدر «جرم» والذي يعني اساساً القطع، لذلك تُطلق الكلمة على عملية قطع الثمار من الاشجار أو قطع الاشجار ذاتها، ولما كان المجرمون يحرمون انفسهم من السعادة والنجاة بسوء عملهم، لهذا صدقت عليهم هذه الكلمة.

هل يفهم من هذه الآية ان كل ذنب يستلزم دخول النار، ام انها تخص مجرمين معيّنين؟ ان ظاهر الآية يدل على الاطلاق، الا انه يمكن ان يُستشف من خلال الآيات الأخرى انها تخص الجريمة التي يخالفها الكفر، جاء في الآية (٧٤) من سورة الزخرف: ﴿ان المجرمين في عذاب جهنم خالدون﴾.

من البديهي ان الخلود في النار مقصور على الكفار لاكل المجرمين ودلت على هذا الآية (٤١) من سورة المدثر: ﴿يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر﴾ فيعدّون لهم في الجواب مجموعة من الذنوب منها التكذيب بيوم الدين وهو ما يساوي الكفر، وقد ورد نظير هذا المعنى -وهو ان المقصود الجرم المقرون بالكفر-

في آيات عديدة أخرى^(١). يحتمل ايضاً ان المراد من المجرمين الوارد في الآية موضع البحث هم المجرمون الذين انغمسوا تماماً في الذنوب وبالشكل الذي يجعلهم لا يستحقون الشفاعة ولا عفو الله ، فهؤلاء عامة يدخلون النار.

* * *

٢٤ - تعدي حدود الله :

وهذا ايضاً واحد من العناوين العامة التي وعد القرآن بأن جزاءها النار ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾ النساء- ١٤.

ان المقصود من الحدود الالهية قوانينه واحكامه وتعاليمه ، وان كان اهل اللغة قد نقلوا ثلاثة معانٍ مختلفة لكلمة «الحد» وهي : المنع ، ونهاية كل شيء ، والشدة^(٢). ولكن يبدو انها تعود بأجمعها الى معنى «المنع» لأن انتهاء الشيء يمنع اختلاطه بغيره كما ان حدود البيت والحقل والبلد تمنع اختلاطها مع غيرها من البيوت والحقول والبلدان ، وبما ان مفهوم المنع يخفي بين طبيّاته نوعاً من الشدة ، فقد استخدم احياناً بمعناها ايضاً.

ولهذا اطلق على الاحكام الالهية اسم «الحدود» التي تعين للانسان «المناطق الممنوعة» التي لا يجوز له دخولها ، وهذا هو السبب في تسمية العقوبات الشرعية بالحد لأنها تحول دون تكرارها.

وعلى اية حال فقد وردت عبارة «تلك حدود الله» في عدة مواضع من القرآن الكريم وكلها جاءت بعد تبيان سلسلة من الاحكام الالهية.

وقد جاءت في الآية التي نحن بصدد بحثها بعد بيانها لأحكام الارث ، وفي الآيتين ٢٢٩ ، ٢٣٠ من سورة البقرة والآية الاولى من سورة الطلاق بعد تبيان قسم من

١ - وردت في الآيات والسور التالية : الاعراف - ٤٠ ، ٨٤ ، ١٣٣ ، سورة الحجر - ١٢ ، ٥٨ ، سورة الفرقان - ٣١ ، النمل - ٦٩ ، وغيرها ، وتتحدث جميعها عن اقوام من امثال قوم لوط وقوم فرعون واعداء الانبياء ، واستخدمت بشأنهم كلمة «المجرم».

٢ - مقاييس اللغة ومفردات الراغب ، والتحقيق في كلمات القرآن (مادة حد).

احكام الطلاق، وجاءت في الآية (١٨٧) من سورة البقرة بعد تحريم الجماع خلال الاعتكاف وبعض احكام الصوم، ووردت في الآية (٤) من سورة المجادلة بعد بيان كفارة الظهار، ويفهم من مجموعها ان حدود الله كلمة ذات مدلول واسع يشمل كل حكم من هذا القبيل.

فنحن نعلم من جهة ان ارتكاب أي جرم كان لا يستدعي الخلود في النار وعلى هذا قد يكون القصد من الآية اعلاه الاشخاص الذين يتعدون حدود الله بالطغيان والعناد والتمرّد وانكار آيات الله، أو كل من يتجاهل هذه الحدود وينغمس في المعاصي حتّى يذهب من هذه الدنيا من غير ان يلامس الايمان قلبه، وإلا فنحن نعلم ان فريقاً من العاصين يشملهم العفو الالهي، وفريقاً آخر تشملهم الشفاعة، وفريقاً آخر تغفر لهم صفائر الذنوب، وكذلك يغفر للتوابين^(١).

وقد استدلت فئة من الوعيدية الذين يعتقدون بخلود مرتكب الكبيرة في النار بهذه الآية وامثالها، إلا ان جواب ذلك واضح من خلال ما ذكرناه، وسنتطرق الى مزيد من التوضيح في المكان المناسب بأذن الله.

المختصة:

المجاميع الاربع والعشرون التي اشير اليها تعتبر اهم الفئات التي ترد النار وفقاً لما صرح به القرآن الكريم، فبعضهم يخلد فيها والبعض الآخر يبقى الى امد معين، ويُستخلص من مجموع هذه الآيات رؤية الاسلام للمسائل الاجتماعية والحقوقية وانواع الانحرافات الاخلاقية، والجوانب التي أعارها اهتماماً اكبر. وتستبطن نظائر هذه الآيات نداءات تربوية فاعلة وتنبيه الناس وتحذّرهم من عواقب ومخاطر هذه الكبائر وهذا هو الغرض النهائي منها.

١ - اورد العلامة المجلسي في البحار بحثاً مفصلاً في هذا الصدد وهو ان اهل الايمان لا يخلدون في النار، فمن أراد الاطلاع، عليه بمراجعة المجلد الثامن من البحار: ص ٣٥١ وما بعدها (باب ٢٧ وهو باب يخلد في النار ومن يخرج منها).

ماهية جهنم

٢- ماهية جهنم

تمهيد:

من البديهي ان جهنم هي بؤرة الغضب الالهي وتشتمل على العذاب الجسدي والروحي لمن يردّها كما ورد في ظاهر أو صريح الآيات القرآنية ، اما الذين تمسكوا بقولهم انها تشتمل فقط على العذاب الروحي والمعنوي عليهم تجاهل وانكار قسم كبير من الآيات القرآنية أو حملها على معاني مجازية بلا دليل معقول .

ولكن ماهي جهنم ؟ وما عذابها ؟ ان افضل الطرق لمعرفة ماهيتها هي الاستعانة بالاسماء والالوصاف الواردة بشأنها في الآيات القرآنية المختلفة من اجل ازاحة الستار عن خفايا بؤرة الغضب الالهي هذه ، وكما قلنا مراراً مهما كانت معرفتنا بالقضايا المتعلقة بالعالم الآخر واسعة فهي تبقى ضيقة وكأنها شبح يترأى لنا عن بعد ، اما التفاصيل والخصوصيات فهي مبهمة لأن عالم الاخرة بشكل عام ارقى من هذا العالم وهو تماماً كعالم الجنين بالنسبة الى العالم خارج بطن امه .

وعلى هذا فمن غير المتيسر على الناس في هذا العالم الاحاطة الكاملة باسرار ذلك العالم لكن هذا لا يحول بتاتاً دون الحصول على المعرفة الاجمالية بشأنه ابدأ .

وعلى اية حال ينبغي متابعة الاسماء والصفات والاشارات الواردة في القرآن الكريم في هذا المجال لغرض التعرف على ماهية جهنم ، لنقرأ فيما يلي الآيات

التالية وهي تعكس بعضاً من اسماء واوصاف جهنم:

- ١ - ﴿وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ الحجر-٤٣-٤٤.
- ٢ - ﴿سَاضِلِيهِ سَقَرٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَاحٍ لِلْبَشَرِ﴾ المدثر-٢٦-٢٩.
- ٣ - ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة-٢٤.
- ٤ - ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ الشورى-٧.
- ٥ - ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ النازعات-٣٧-٣٩.
- ٦ - ﴿كَلَّا لَيَنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْافْتِدَةِ﴾ الهزلة-٤-٧.
- ٧ - ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارُ حَامِيَةٍ﴾ القارعة-٨-١١.
- ٨ - ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأُفْلَى * نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ المعارج-١٥-١٧.

جمع الآيات وتفسيرها

تعبير القرآن بشأن جهنم:

نواجه في الآية الأولى أشهر اسماء النار الذي تكرر ذكره في القرآن الكريم سبعاً وسبعين مرة الا وهو جهنم، تشير الآية الى اتباع ابليس وتقول: ﴿وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾.

اختلف اللغويون والمفسرون في معنى كلمة «جهنم»، فقال البعض منهم انها تعني «النار»، وقال آخرون انها تعني «العميق والبعيد القعر»، جاء في «لسان العرب» ان «جِهَنَام» بمعنى العمق الشديد ولهذا يقال «بئر جهنم وجهنّام» ويراد به البئر عميقة القعر.

ونقل عن بعضهم في نفس الكتاب ان اصل هذه الكلمة عبراني وهو «گهنام» وورد اسمها في العربية «جهنم» (ولهذا فهي تعتبر اسماً ممنوعاً من الصرف لأنها اسم علم اولاً واعجمي ثانياً).

واعتبرها بعض اللغويين مشتقة من الكلمة العبرية «جهينون»^(١)، بينما اكّد آخرون انها عربية (وسبب عدم صرفها هو العلمية والتأنيث)، واعتبرها جماعة آخرون مشتقة من اصل فارسي

ويقال للحفرة تحت الارض التي تنفخ فيها الحرارة لتدفئة ارضية الحمام «جهنم» ايضاً^(٢).

وعلى اية حال فمهما كان اصلها، سواء كان عربياً او فارسياً او عبرانياً فهي في القرآن الكريم اسم لمكان مليء بالعذاب وهو بؤرة غضب الله وله دركات ومراتب متفاوتة.

وقد ورد ايضاً في الآية ان لجهنم سبعة ابواب وهذا ما سنتحدث عنه - ان شاء الله - لاحقاً.

ونواجه في الآية الثانية اسماً آخر من اسماء جهنم وهو «سقر» لمبعد الاشارة الى احد المشركين المعاندين (وهو الوليد بن المغيرة) تقول: «سَأْضِلِيهِ سَقْرٌ» وما أدراك ما سَقْرٌ لا تُبْقِي ولا تَذَرُ * لَوَاحٍ لِلْبَشَرِ.

ومهما يكن من أمر فكلمة «سقر» هي من اسماء جهنم ومأخوذة في الأصل من كلمة «سَقَر» على وزن فَقَر وتعني التغير والذوبان والانصهار أثر حرارة الشمس^(٣).

واعتبرها البعض اسماً لأحد طبقات جهنم المفزعة كما وردت في حديث

١ - قاموس دهخدا: مادة جهنم.

٢ - قاموس دهخدا: مادة جهنم، التحقيق، لسان العرب، المنجد، واقرب الموارد.

٣ - مقاييس اللغة ومفردات الراغب.

منقول عن الامام الصادق (عليه السلام): «ان في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له سقر شكا الى الله شدة حره وسأله ان يأذن له ان يتنفس فأحرق جهنم»^(١).

ونقرأ في كتاب صحاح اللغة ان «سقرات الشمس» تعني شدة حرارتها، و«يوم مسقر» بمعنى شديد الحرارة ولاهب.

وجاء في كتاب التحقيق في كلمات القرآن بأن هذه الكلمة تعني في الأساس الحرارة الشديدة التي تغير لون الاشياء وصفاتها، لكنها تحولت بالتدرج الى اسم من اسماء النار وتعني النار الشديدة المحرقة التي تغير كل شيء.

وتدعم هذا الادعاء الصفات الواردة في هذه الآيات، لأنها تؤكد انها تغير الجلود تماماً من جهة، وتقول من جهة اخرى انها لا تبقى شيئاً على حاله.



ومن الاسماء الاخرى التي استخدمها القرآن لجهنم بشكل واسع هي كلمة «النار»، فقد تكرر ذكرها (١٤٥) مرة والتي تعني في اغلب الموارد نار جهنم، وان جاءت ايضاً في بعض المواضع بمعنى نار الدنيا، ومن جملة ذلك الخطاب الموجّه الى المشككين بالقرآن اذ جاء فيه: «فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا» (اي لم تأتوا بسورة من مثله) «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» البقرة - ٢٤.

يقول الراغب ان كلمة النار تعني الشعلة التي تظهر امام حسن الانسان، ويقال للحرارة وحدها نار ايضاً، ورأى البعض ان كلمتي «النار» و«النور» مشتقتان من مصدر واحد ومتقاربان في الوجود.

وعلى اية حال فقد كثر استخدام هذه الكلمة في القرآن الكريم بشأن جهنم الى حد جعلها تصبح واحدة من اسمائها.

اشار القرآن في الآية (١٠) من سورة آل عمران الى فئة من المجرمين قائلاً:

١ - تفسير الصافي: في ذيل الآية ٤٨ من سورة القمر.

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

وجاءت كلمة «اصحاب النار» في العديد من الآيات لتدل على الاشخاص الذين يردون جهنم ولهذا اصبح هذا التعبير مقابلاً لتعبير اصحاب الجنة^(١). ومن نافلة القول ان من ضمن المواصفات التي ذكرت للنار هي ان وقودها من الناس والحجارة (اي الاصنام) وعلى هذا فهي لا تشبه نار الدنيا في هذا الجانب. نرى في الآية الرابعة اسماً وصفة اخرى لهذا المكان الذي يتجسد فيه الغضب الرباني، وهذا الاسم هو «السعير».

فبعد ان يشير القرآن الى الغاية من نزوله وينذر الناس من يوم القيامة، يقسم الناس يومذاك الى فريقين ويقول: «فريق في الجنة وفريق في السعير». وردت كلمة «سعير» في القرآن (١٦) مرة وورد جمعها اي كلمة «سُعْر» مرتين، وهذه الكلمة مشتقة من المصدر «سَعَرَ» (وهو على وزن قعر) ويعني اذكاء النار وتأجيجها، وجاء ايضاً بمعنى شدة الاضطرام، ولهذا «فالسعير» يعني النار شديدة الاشتعال واللهب والاحراق، وجاءت احياناً بمعنى «الجنون» ايضاً لأن الشخص في هذه الحالة يلتهب ويغلب عليه الهيجان، ويقال كذلك للناقة المجنونة: ناقة مسعورة^(٢).

ونظراً لاستخدام كلمة «السعير» في الآية المذكورة في قبالة كلمة «الجنة» يفهم بأنها ايضاً احد اسماء النار، واستخدام تعبير «اصحاب السعير» في عدد من الآيات يعتبر ايضاً قرينة أخرى على هذه التسمية^(٣).
إلا انه لا يمكن انكار مجيئها في بعض الآيات القرآنية بنفس ذلك المعنى الوصفي لتشير الى اضطرام نار جهنم.

١- الاعراف-٤٤، والحشر-٢٠.

٢- مقاييس اللغة، وصحاح اللغة، والتحقيق، ومفردات الراغب.

٣- سورة الملك: ١٠-١١، فاطر-٦.

التعبير الخامس الذي تكرر في القرآن في (٢٥) موضعاً هو الجحيم، فتقول الآية المطروحة لبحثنا: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

وكلمة «الجحيم» كما يفهم من عبارات القرآن هي واحدة من اسماء جهنم، ومشتقة من مادة «جَحَم» التي تعني «شدة تورية النار» كما يقول الراغب في مفرداته. وتأكد نفس هذا المعنى في «مقاييس اللغة» أيضاً، لكن صاحب صحاح اللغة فسرها بالنار العظيمة المصحوبة بالحرارة واللهب.

الآن هذه الكلمة استخدمت في موضع واحد في القرآن الكريم بمعنى النيران المحرقة في الدنيا عندما قال المشركون في زمن النبي ابراهيم (عليه السلام): ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بَنِيَانًا فَاُلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ الصافات-٩.

الآن هذا الاستعمال لا يمنع من كون الكلمة المذكورة من اسماء جهنم.



وتواجهنا في العبارة السادسة كلمة «الحطمة» التي تكررت في موضعين في سورة «الهمزة» فالآية قد تحدثت عن الذين يبحثون عن عيوب الآخرين ويغتابونهم ويحرصون على جمع المال ثم قالت: ﴿كَذَلِكَ يُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْافْتَدَةِ﴾.

وكلمة «الحطمة» على حد قول صاحب «صحاح اللغة» وصاحب «مجمع اللغة» اسم من اسماء جهنم، وهي صيغة مبالغة من كلمة «حطم» بمعنى الكسر والتهشيم واعتبرها البعض بمعنى تكسير الاشياء اليابسة، ولهذا يطلق على سنوات القحط اسم «الحطمة» لأنها تحطم كل شيء وتكسره وتقضي على الناس، ويطلق اسم «المحطم» على موضع في الكعبة يقع بين بابها والحجر الاسود لأن الناس يزدحمون هناك حتى ان عظامهم على وشك ان تتكسر من شدة الضغط.

وعلى هذا الأساس تعود تسمية جهنم بالحطمة الى ان نارها المحرقة تدمر كل شيء وتقضي عليه ، وقد اوضح القرآن نفسه معناها من خلال الآيات الواردة في هذا الباب ، فقال انها : ﴿نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة﴾ وهذه الآية بذاتها دليل على المعنى الذي ذكرناه .

ولكن يستفاد من بعض الروايات : بان كل اسم من اسماء جهنم ومن ضمنها الحطمة يشير الى قسم معين من اقسام النار ^(١) .

ذكرت الآية السابعة كلمة «الهاوية» التي وردت في القرآن الكريم مرة واحدة حيث تقول الآية : ﴿فَأَمَّا مَنْ خُفِتْ مَوَازِينُهُ فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارُ حَامِيَةٍ﴾ القارعة ٨-١١ .

قال ابن منظور في «لسان العرب» أن «الهاوية» احد اسماء جهنم ، وعلى هذا يكون معنى «امه هاوية» اي ان مقره ومسكنه جهنم ^(٢) .

واشار صاحب «مقاييس اللغة» والراغب في «المفردات» الى هذه التسمية وان الكلمة مأخوذة في الاصل من مادة «هوي» بمعنى السقوط لأن الكفار والمجرمين يسقطون فيها ، ويتضمن ايضاً اشارة الى عمق جهنم .

وفسرت كلمة «أم» هنا بمعنى المستقر والمكان ، واحياناً بمعنى الأم اي كما تحتضن الأم ابنها تحتضن جهنم من يرد فيها .

وفسرهما بعضهم بمعنى الدماغ ، قال : ان الهاوية وصف لأصحاب النار لأنهم يسقطون فيها على أم رؤوسهم الا ان التفسير الاول اصح على ما يبدو .

ونرى في الآية الثامنة والاخيرة كلمة «لظى» وهي الاخرى قد ذكرت في القرآن مرة واحدة ، فقد جاء في سورة المعارج بعد الاشارة الى وضع المجرمين الذين يرغبون في يوم القيامة التضحية بأزواجهم واخوانهم وابنائهم لانقاذ أنفسهم :

١- راجع تفسير نور الثقلين : ج ٣ ، ص ١٧-١٩ ، الحديث ٦٠ ، ٦٤ .

٢- لسان العرب : مادة هوى .

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَلظَىٰ * نَزَّاعَةٌ لِلشَّوَىٰ * تَدْعُو مَنَ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ العارج-١٥-١٧.

وكلمة «الظَى» تعني في الأصل النار أو شعلة النار الخالصة ، ولكن هذه الكلمة اسم من أسماء جهنم حسب ما جاء في «لسان العرب» و«مفردات الراغب» (ولهذا فهو ممنوع من الصرف بسبب علميته وتأنيته).

وتعني كلمة «النزاعة» الشيء الذي ينزع ويفصل بشكل متواصل ، وتعني كلمة «شوى» : اليد والرجل واطراف اليد ، (وان كانت تأتي بمعنى الاحراق في النار لكن الانسب هنا هو المعنى الاول ، لأن الشيء عندما يسقط في النار ، اول ما يحترق فيه اطرافه واغصانه).

وقال آخرون ان «الشوى» هو جلد البدن أو فروة الرأس. ومن عجائب هذه النار المحرقة انها تدعو اصحاب جهنم اليها ، فهل انها حقاً ذات شعور وادراك فتفعل هكذا ؟ ام ان في جهنم جاذبية خفية تستقطب نحوها كل من حق عليه العذاب ؟

كلا الاحتمالين ممكن ، ولكن الظاهر هو المعنى الأول .

وهنا تجدر الإشارة الى ان الروايات لم تذكر النار كأسم من أسماء جهنم ، بل ذكرت سبعة أسماء اخرى واعتبرت كل واحد منها طبقة من طبقاتها ، وليس كل واحد من هذه الاسماء السبعة يشمل جهنم بأكملها .

ومن جملة ذلك حديث منقول عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) قال فيه : (ان جهنم لها سبعة ابواب اطباق بعضها فوق بعض ، ووضع احدها يديه على الاخرى فقال : هكذا ، وان الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض فاسفلها جهنم ، وفوقها لظى ، وفوقها الحطمة وفوقها سقر ، وفوقها الجحيم وفوقها السعير ، وفوقها الهاوية) ^(١).

١ - مجمع البيان : المجلد ، ٦ ، ص ٣٣٨ ، ونور الثقلين : المجلد ٣ ، ص ١٩ ، الحديث ٦٤ ، وجاء ايضاً في هذا الموضوع حديث مطول منقول عن الامام الباقر (عليه السلام).

ولامانع من اطلاق الاسماء السبعة المذكورة على كل جهنم احياناً او على قسم منها احياناً اخرى ، كما يلاحظ ذلك في اسماء الدنيا حيث يطلق احياناً اسم معين على محافظة من المحافظات بأكملها ، ويطلق احياناً على مدينة معينة من مدن تلك المحافظة .



اوصاف جهنم :

يفهم من مجموع الآيات المتعلقة بجهنم وأوصافها بأنها مركز جزائي رهيب مليء بالنيران اللاهبة وله ابواب ودرجات مختلفة ، ولكن نارها ليست كنيران الدنيا بل تتميز بالخصائص الآتية :

- ١ - وقودها الناس والحجارة .
- ٢ - تطلع على الأفئدة ، وتنفذ اولى شراراتها الى القلوب .
- ٣ - حطمة سحق كل شيء وتقضي عليه .
- ٤ - فيها درك يدعو المجرمين اليه !
- ٥ - توصف بأنها اذا رأت من يُحشرون فيها : ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ الفرقان-١٢ .
- ٦ - متحركة كما يقول : ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ الفجر-٢٣ .
- ٧ - محيطة الآن بالكافرين رغم انها محجوبة عن الأبصار ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ التوبة-٤٩ .

قد تكون هذه الابعاد جميعها سبباً دفع بالكثيرين الى تفسير جهنم تفسيراً روحياً فاعتبروا نارها ناراً معنوية ، لكن هذا التفسير - بلا شك - يتعارض مع ظاهر

آيات القرآن الكريم ، ولا ينسجم مع الروايات التي وردت في تفسيرها .
وعلى هذا ينبغي القول ان جهنم بؤرة نار مستعرة وتختلف اختلافاً جذرياً عن
نيران عالمنا هذا كما تختلف نعم الجنة مع نعم هذه الدنيا.

* * *

ايضاح:

فلسفة وجود النار:

يسأل الكثير عن مدى ضرورة وجود النار، فالله تعالى لا يحب الانتقام وان
العقوبات توضع لكي لا يرتكب الناس الاخطاء ثانية أو حتى تكون عبرة للآخرين ،
بينما نعلم ان لاعودة لهذا العالم بعد هذه الحياة ، ولا وجود هناك للتكليف والطاعة
والذنب وعلى هذا ، ما المفهوم الذي ستحملة عقوبة باهضة كدخول النار؟ هذا من
جانب .

ومن جانب آخر يتمثل الهدف من جميع التعاليم الدينية في تربية وتهذيب
وتكامل الانسان ، وان لم يقبل بذلك بعض الناس فستكون عقوبتهم الحرمان من
بلوغ الدرجات الرفيعة .

فما هي الضرورة لوجود جهنم ، ومركز الغضب والعقاب الصارم؟

ينبغي الالتفات الى نقطتين في ازاء هذا التساؤل :

١ - قلنا مراراً ان العقوبات الالهية سواء في هذا العالم اوفي عالم الآخرة هي
نتيجة اعمال الناس انفسهم ، وانما تنسب الى الله جل شأنه باعتباره مسبب الأسباب ،
فالكثير من نعم الجنة هي تجسيد لأعمال الانسان الصالحة ، والكثير من عذاب
جهنم تجسيد لأعماله السيئة ، ونحن نعلم ان نتائج العمل وآثاره ليست بالأمر الهين
الذي يمكن الساهل فيه .

مثلاً، الشخص الذي يتناول المشروبات الروحية والمخدرات ، ليقضي فترات من الارتياح وهدوء البال - حسب تصوره - في ظل هاتين المادتين المخدرتين ، ولينتشي باللذة المتأتية من نسيان الدنيا، يُحذّر بان هاتين المادتين المخدرتين هما من عوامل الفساد والتحلل وستؤديان في النهاية الى القضاء عليه ، فالمشروبات الكحولية تسبب لك امراض القلب والشرابين والاعصاب والكبد ، والمخدرات تدمر الاعصاب بل وتُنهي كل كيان الانسان .

فاذا لم يُصغ الى هذا الانذار وتمادى في ممارسته الخاطئة فانه سيواجه عقوبته وجزاءه وهذا لا يحتاج الى فلسفة ودليل سوى قانون العلية ، وهي النتيجة الطبيعية لعمل كل انسان وغالباً ماتكون الذنوب على هذه الشاكلة ، وتعقبها نتائج في هذه الدنيا ، وفي الآخرة وهي تتجسد على صورة العذاب في جهنم .

ولهذا يلحظ هذا التعبير الذي يتكرر كثيراً في الآيات الشريفة والذي يقول : انكم تجزون ما كنتم تعملون فنقرأ في الآية (٩٠) من سورة النمل : ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهَا فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

ونقرأ في الآية (٧) من سورة التحريم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

فالمعذرة نافعة حين لانكون القضية متعلقة بالعلة والمعلول والنتيجة الطبيعية

للالعمال .

فالأيات التي نتحدث مثلاً عن تجسيد الاعمال وتشبهه اكل مال اليتيم بأكل النار تدل بأجمعها على هذا المعنى ، وكذلك الروايات التي تقول ان الطباع الحيوانية في الانسان ، تظهر من داخله يوم القيامة وترسم على خارجه ، فتغدو صور الاشخاص شبيهة بالحيوانات المتميزة بتلك الطباع .

وخلاصة القول : ان هذه الدنيا مزرعة ، والآخرة اوان الحصاد ، فان كان الانسان

قد زرع بذور الورد ، فمحصوله أغصان طيبة وطرية ومعطرة من الورد ، وان كان قد

بذر الشوك فلا يجني سواه، جاء في حديث عن النبي (ﷺ): «جاء رجل الى النبي (ﷺ) فقال: يا رسول الله اوصني فقال: احفظ لسانك، قال: يا رسول الله اوصني فقال: احفظ لسانك، قال: يا رسول الله اوصني، قال: احفظ لسانك ويحك وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد السنتهم»^(١).

٢ - لاشك ان التبشير والتحذير يعتبران دعامتين أساسيتين في اسراء البرامج التربوية، فكما ان التبشير بالجزاء الأوفر الذي يحظى به الانسان في الجنة يُعدّ عاملاً فاعلاً في الدعوة الى طاعة الله وترك معصيته، فكذلك التحذير والوعيد بالعذاب الصارم في جهنم يُعتبر هو الآخر مؤثراً قوياً في هذا الجانب، لا، بل ثبت بالتجربة ان للعقوبات تأثيراً اقوى.

ولهذا فان جميع القوانين التي تسنّها مراكز التشريع القانوني في العالم تضمن عقوبات للمخالفين وهو ما يصطلح عليه علماء الحقوق باسم الضمانة التنفيذية، وتحظى هذه الضمانة بقدر كبير من الأهمية بحيث تُعتبر واحدة من العناصر الاساسية التي يبنى عليها القانون، ولو ان قانوناً أُسْتُنَّ ولم يتضمن اي عقاب للمخالفين (كالسجن والجلد و الغرامة المالية والحرمان من بعض الحقوق الاجتماعية) فلا يمكن ان يطلق عليه قانوناً.

فكيف تكون القوانين الالهية - والحالة هذه - خالية من الضمانة التنفيذية؟! فهي عندئذ تفقد قيمتها القانونية، ولا يرى المخالفون لها والمتخلفون عنها اي دافع او وازع لاطاعتها والالتزام بها، ويبقى هدف القانون عقيماً.

صحيح ان الآثار الوضعية والطبيعية لعدم الالتزام قد تكون رادعاً امام التماهل والتجاهل، إلا انها غير كافية لوحدها. ولهذا فقد ادرج سبحانه وتعالى سلسلة من العقوبات لمن يتخلف عن الالتزام بها، فكما يهدد اقواماً بالعقوبة الدنيوية (وامثلة ذلك كثيرة وقد تحققت في الوجود الخارجي و اشار اليها القرآن في تبيان حياته

الاقوام السالفه) فهو - جل شأنه - قد وضع ايضاً العقوبات في الآخرة لمن يتوانى عن التقيد بها .

ومن الواضح كذلك انه كلما اشتدت لهجة الترغيب والترهيب ، كلما كان التأثير اقوى واكثر .

وهذا الامر يوضح احد الابعاد الاساسية لفلسفة وجود الجنة والنار .

ربما يقال هنا ان جميع الآثار التي عُرِضت انما تترتب على الوعيد بالعقاب والجزاء ، وعلى هذا ، فما المانع ان يكون سبحانه وتعالى قد عرض كل هذه التهديدات والتحذيرات ، إلا انها لا تتحقق في القيامة ، لعدم وجود ضرورة لها ، وذلك لخلو ذلك العالم من درس العبرة للآخرين وانعدام تكرار الذنب من قبل المجرمين ؟ .

ان هذا الكلام يستلزم ان يرتكب الله عز وجل القبيح وانه - والعياذ بالله - يكذب ويتخلف عن وعده فهو يوعد بالعقاب للمتخلفين وحتى انه يُقسم بتنفيذ وعيده ، وكيف لا يطبق ذلك فعلياً ؟ ! من البديهي ان هذا الفعل قبيح لا يليق بذاته المقدسة بل ولا يفعله الانسان المهذب الحكيم .

والنتيجة ان : وجوب التهديد والوعيد بالعقاب والجزاء ضمانة تنفيذية ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى لابد من تطبيق تلك الوعود والتهديدات لدفع القبح عن ذاته المقدسة .

وهذه هي فلسفة تحقق جهنم وعقوباتها .

ومن اجل هذا نصّت الآية (٤٧) من سورة ابراهيم : ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (ثم يشرح في اعقاب هذه الآية بعضاً من عذاب يوم القيامة) .

ابواب جهنم و درکاتھا

٣- ابواب جهنم ودركاتها

تمهيد :

يُستفاد من عدّة آيات في القرآن الكريم ان لجهنم ابواباً متعددة ، وصرّحت احدى الآيات بأنها سبعة ، فهل تشير هذه الأبواب الى الاعمال التي تُسقط الانسان في النار وهي في الحقيقة طرق دخول الناس الى جهنم ؟ كما هو الحال لأبواب الجنة التي سبق بيانها ؟ ام انها اشارة الى طبقات جهنم ودركاتها التي ذكرتها الكثير من الروايات ؟ ام ان كلا المعنيين قد اجتمعا في مفهوم هذه الآيات ؟ من الأفضل ان نبحث اولاً في تفسير الآيات المتعلقة بهذا الحقل ، لكي نحصل على جواب السؤال المذكور اعلاه .

ومع هذا التمهيد الوجيز نعود الى القرآن ونقرأ الآيات الآتية :

١ - ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ

مَقْسُومٌ﴾ الحجر - ٤٤ .

٢ - ﴿فَإَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ النحل - ٢٩^(١) .

٣ - ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ الزمر - ٧١ .

٤ - ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ النساء - ١٤٥ .

١ - ورد ظير هذا المعنى في الآية (٧٢) من سورة الزمر ، والآية (٧٦) من سورة غافر .

جمع الآيات وتفسيرها

ما هو المقصود من ابواب جهنم؟

تحدث الآية الاولى عن اتباع الشيطان، الذين وصفتهم الآيات السابقة لها، فقالت: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾. ولكن ما المقصود من ابواب جهنم؟ ذكر المفسرون احتمالات مختلفة لذلك؛ الاول: انها اشارة الى مداخل جهنم التي تنتهي جميعها في مركز واحد، كالبواب المتعددة لبناية واحدة في دنيانا هذه، وهي في الحقيقة تعبير عن كثرة الداخلين الى هذا المكان الذي يتجسد فيه الغضب الالهي ويبدو هذا الاحتمال مستبعداً في ظل الروايات المتعددة التي تفسر هذه الآية.

الثاني: المقصود هو الطبقات المختلفة في جهنم والتي تتفاوت في شدة العذاب، وعلى هذا فكل واحد من هذه الأبواب السبعة يفتح على واحدة من تلك الطبقات.

وهناك روايات عديدة وردت عن اهل البيت (عليهم السلام) وعن طريق اهل السنة تشهد على هذا التفسير.

فقد ورد في الدر المنثور حديث منقول عن الامام علي (عليه السلام) انه قال: «اتدرون كيف ابواب جهنم؟ قلنا كنحو هذه الابواب! قال: لا ولكنها هكذا ووضع يده فوق يده وبسط يده على يده»^(١).

وجاء عنه (عليه السلام) ايضاً انه قال: «سبعة ابواب النار متطابقات»^(٢).

ونقل عنه ايضاً حديث آخر فسّر فيه الابواب السبعة لجهنم بالطبقات التي تقع فوق بعضها وسماها بأسمائها وهي:

١- الدر المنثور: المجلد ٤ الصفحة ٩٩.

٢- نور الثقلين: المجلد ٣ الصفحة ١٨، الحديث ٦٢.

«فأسفلها جهنم، وفوقها لظى، وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية.»^(١)

الثالث: ان تعدد تلك الابواب يرجع الى تعدد الاقوام الذين يردون منها. جاء في تفسير روح المعاني نقلاً عن بعض المصادر الخيرية بأن: «في الدرك الاول المحمديون، وفي الثاني النصاري وفي الثالث اليهود، وفي الرابع الصابئون، وفي الخامس المجوس، وفي السادس مشركو العرب، وفي السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من اهل المائدة»^(٢).

الرابع: ان المقصود من تلك الابواب هي الاعمال والذنوب التي تسبب دخول جهنم. والدليل على هذا الكلام ما يأتي:

اولاً: المقابلة الموجودة مع ابواب الجنة، فتصف بعض الروايات صراحةً بان احد ابواب الجنة هو باب «المجاهد» أو ان احد ابواب الجنة يسمى «باب المجاهدين»^(٣)، وأشارت روايات اخرى الى الابواب الأخرى وقالت بوجود صلة بينها وبين اعمال الانسان كـ «الصبر» و «الشكر» وماشابه ذلك.

ثانياً: الروايات التي تنص على ان بعض ابواب جهنم يدخل منها فرعون وهامان وقارون، ويرد من بعضها المشركون، وبعضها الآخر يرد منها اعداء آل بيت الرسول (ﷺ)^(٤)، وهذا دليل ايضاً على الصلة بين ابواب جهنم والذنوب المختلفة. إلا ان التفاسير الثلاثة الاخيرة يمكن جمعها مع بعضها لأن كل واحدة من طبقات النار اكثر ايلاماً من الاخرى وكل واحدة من الفئات التي تردّها اكثر ذنباً واجراماً من الاخرى، وكل عمل ارتكبه اسوأ من الآخر وعلى هذا الاساس يمكن جمع التفاسير الثلاثة في مفهوم واحد. وبالنسبة تطالعنا ابواب جهنم بحقيقة وهي

١- نفس المصدر: الصفحة ١٩ الحديث ٦٤.

٢- روح المعاني: مجلد ١٤ الصفحة ٤٨، تفسير القرطبي، المجلد ٥ الصفحة ٣٦٤٦.

٣- الكافي: المجلد ٥ الصفحة ٢ الحديث ٢.

٤- بحار الأنوار: المجلد ٨، الصفحة ٢٨٥، الحديث ١١.

كما ان اعمال الانسان مختلفة مع بعضها واصناف المجرمين والكفار متباينة فيما بينها ، فعقوباتهم في العالم الآخر غير متساوية وتختلف فيما بينها اختلافاً شاسعاً .



تخاطب الآية الثانية الكفار الذين ظلموا انفسهم بسلوكهم هذا السبيل الخاطيء وتقول لهم : ﴿فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ . وما يلفت النظر هنا ان «ابواب جهنم» جاءت هنا بصيغة الجمع في حين يدخل كل فريق من باب واحدة لا من ابواب متعددة . (فتأمل) .

ولعل مرد هذا التعبير هو كون المخاطبين جمعاً ، ومن الطبيعي عندما تريد جماعة الدخول الى مكان ما له ابواب عديدة ، فكل فريق يدخل من باب ، اذن فهم جميعاً يدخلون من ابواب متعددة ، او ان كل فريق منهم يدخل تحت عنوان خاص من الباب المخصصة له ، كما ويحتمل ايضاً ان يكون مخاطبوا هذه الآية في الطبقات الدنيا من جهنم وهذا ما يحتم عليهم اجتياز ابواب وطبقات متعددة للوصول الى هناك .

وعلى اية حال فالآية اشارت فقط الى أبواب الجنة من غير ان توضح عددها . ويتعبّر آخر يبدو ان جهنم شبيهة بالسجون الرهيبة المتداخلة في بعضها والمكوّنة من طبقات متعددة ، وهنالك فريق من الضالين والمعاندين يجب ان يمروا من خلال كل هذه الطبقات لكي يستقروا في «فعر جهنم» أو «الدرك الاسفل» أو في الطبقات القريبة منه .



ورود نفس هذا الموضوع في الآية الثالثة وبتعبيرات اخرى حيث قال تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ .

وكان هذا التعبير يشير الى ان جهنم تدرك وصولهم حينما يقتربون ، فتفتح لهم الابواب فجأة وهذه الرؤية المفاجئة تزيد من روعهم ، في حين جاء نفس هذا المعنى بشأن اصحاب الجنة فكان مدعاة لمزيد من الفرح والسرور لهم ، نواجه هنا ثانية ذكر تعدد ابواب جهنم من غير ذكر لعدددها ، ومن ثم يتكرر الحديث هنا ايضاً عن انفتاح جميع الابواب ، في حين يدخل كل فريق من باب ، وقد يكون اختيار هذا التعبير لأسباب ذكرت في الآية السابقة .



وفي الآية الرابعة ليس هناك ذكر للابواب ، بل تركّز الحديث عن الطبقة السفلى من جهنم ، وهو ما يظهر تعدد طبقات جهنم ، اذ تقول الآية : «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً» .

يطلق في اللغة العربية على الخطوات الصاعدة نحو الاعلى اسم «الدرجة» وعلى النازلة الى الاسفل اسم «الدركة» .

وهذه الكلمة مأخوذة من المصدر «الدرك» وهو بمعنى بلوغ الشيء ونيله ، ولهذا يطلق على الحبال التي توصل مع بعضها لتصل الى قعر البئر اسم «الدرك» وتسمى أعمق نقاط البحر أو الاماكن الأخرى باسم «الدرك» (على وزن فلك) ، وعلى هذا الاساس وصف «الدرك» في الآية الشريفة بـ «الاسفل» من باب التأكيد والقيد التوضيحي .

وعلى اية حال فهذه هي الآية الوحيدة الحاوية على اشارة لطبقات جهنم ، ويمكن ان نطابق معها الآيات السابقة التي تحدثت عن ابواب جهنم ، والنتيجة هي نفس ما أفادت به الآيات السابقة وهي ان ابواب جهنم ليست في ازاء بعضها الآخر بل هي فوق بعضها طوليّاً ، واحداها فوق الأخرى .

يقول الفخر الرازي في تفسيره بعد ان يُعطي معنى «الدرك» بأنه اعمق نقطة

في قعر الشيء «فالدرك ما يلحق به من الطبقة ، وظاهره ان جهنم طبقات ، والظاهر ان اشدها اسفلها»^(١).

ومما يسترعي الانتباه في هذه الآية انها حددت اسفل قعر جهنم كمكان للمنافقين ، ما يدل على ان «التفاق» هو اسوء الذنوب ويستوجب الدرك الاسفل من جهنم ، وسبب ذلك جلي فالخطر الذي يهدد المجتمع الاسلامي من جَراء وجود النفاق يفوق بمرّات عديدة الخطر القادم من الأعداء والكفار الذين يبدوون كفرهم وعداءهم علناً.

وجاء في حديث شريف حول العلماء الفاسدين : «ان من العلماء من يحب ان يخزن علمه ولا يؤخذ عنه فذاك في الدرك الاسفل من النار»^(٢).

وكما ذكرنا فان بعض الروايات تفيد بأن لكل واحدة من ابواب جهنم السبع اصحاباً خاصين ، ففرعون وهامان وقارون مثلاً يدخلون من باب واحد ومن باب أخرى يدخل بنو امية ، ويدخل المشركون من باب أخرى وهكذا^(٣).

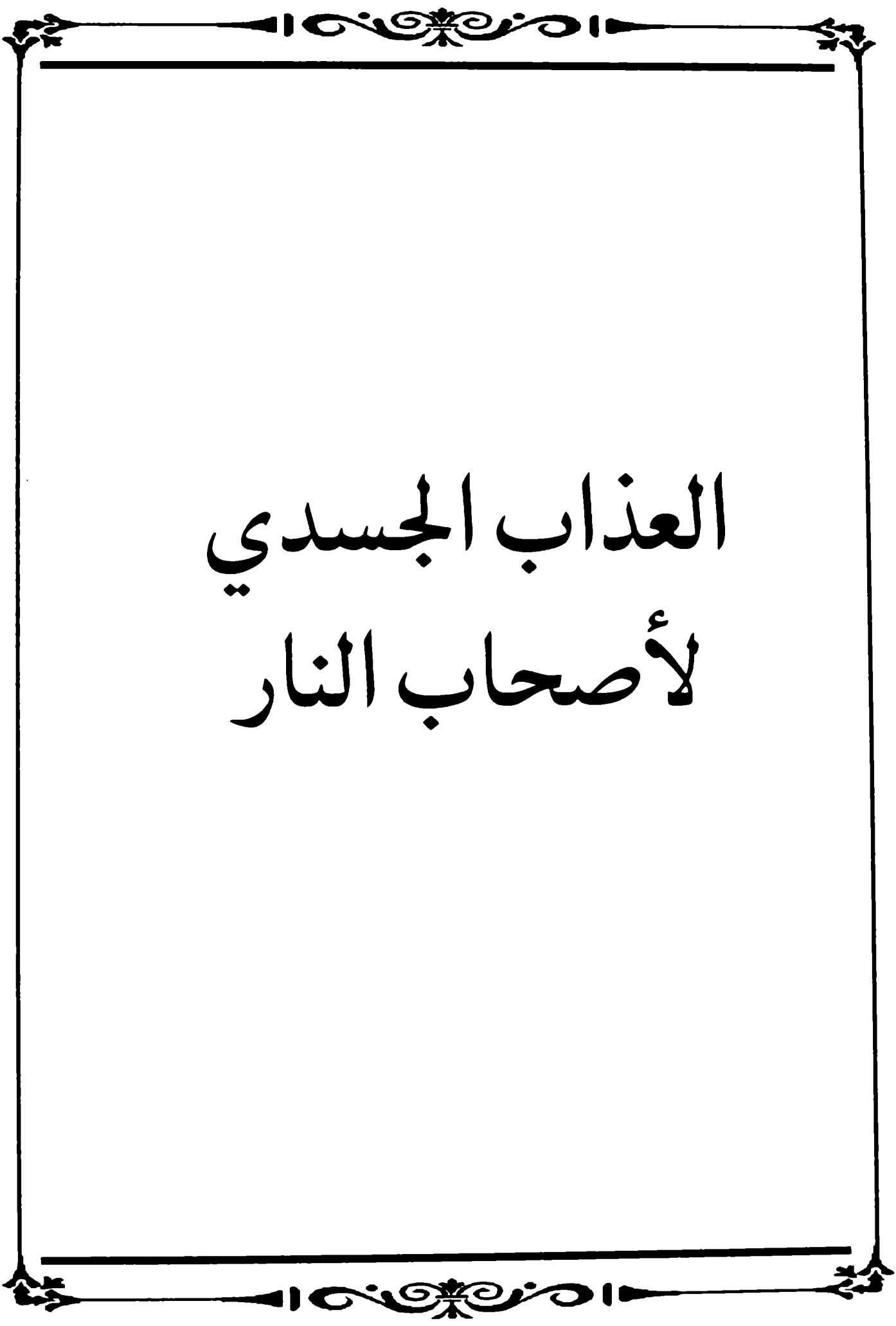
ومن البديهي ان دخول فرعون وهامان وقارون أو بني امية من هذه الابواب انما يعود لطبيعة اعمالهم ومعتقداتهم ، ولهذا فكل من يشايعهم ويسير على خطهم الفكري والعقائدي يدخل تلقائياً من نفس تلك الباب ، ومن هذا المنطلق تتضح طبيعة العلاقة بين الانسان «واعماله ومعتقداته».



١ - تفسير الفخر الرازي: المجلد ١١ الصفحة ٨٧.

٢ - بحار الانوار: المجلد ٨ الصفحة ٣١، الحديث ٧٦.

٣ - بحار الانوار: المجلد ٨ الصفحة ٢٨٥ الحديث ١١.



العذاب الجسدي لأصحاب النار

٤- العذاب الجسدي لأصحاب النار

تمهيد :

كما ان الثواب الالهي والنعم الموجودة في الجنة تقسّم يوم القيامة الى قسمين «روحية» و «مادية» كما سبق شرحه بالتفصيل فكذلك عذاب جهنم ايضاً ، اذ يُقسم هو الآخر الى نوعين : روحي ، ومادي ، لأننا نعلم ان للمعادِ بُعدين يستدعي كل منهما ما يستحقه من الثواب والعقاب .

اضافة الى ان اعمال الانسان في هذه الدنيا على صنفين ايضاً اولهما : «الاعمال القلبية والروحية» ، وثانيهما «الاعمال الجسمية والمادية» ، وعلى هذا فمن غير الممكن ان يقتصر الثواب والعقاب هناك على نوع واحد .
وتمثل آيات القرآن والروايات الواردة في هذا الصدد شاهداً على هذا الادعاء .

بعد الانتهاء من هذا التمهيد الوجيز نواصل تتبع العقوبات الجسدية لأصحاب النار ، ونتمعّن في الآيات القرآنية الواردة في هذا الحقل ، ونبحثها تحت العناوين التالية :

١ - شدة عذاب اصحاب النار

٢ - طعامهم .

٣ - شرابهم .

٤ - ثيابهم .

٥ - سائر عذابهم الجسدي .

١ - شدة عذاب اصحاب النار

١ - ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمُنْذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتَهُ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتَهُ

الَّتِي تَوَوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ العارج- ١١- ١٤.

٢ - ﴿قَيُومُنْذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ الفجر- ٢٥- ٢٦.

٣ - ﴿يُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ الفاشية- ٢٤.

٤ - ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي

بِشَرِّهِ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ الرسائل- ٣٠- ٣١.

٥ - ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا

يَحْيَى﴾ الاعلى- ١١- ١٣.

جمع الآيات وتفسيرها

تبلغ شدة العذاب في يوم القيامة الى الحد الذي يتمنى فيه المجرم كما وصفه

القرآن في الآيات من بحثنا قائلًا: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمُنْذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتَهُ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتَهُ الَّتِي تَوَوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾^(١).

١ - كلمة «الفصيلة» مأخوذة عن المصدر «الفصل» ويعني الافتراق والانقسام وتعني هنا العشيرة والقبيلة التي جاء منها الانسان .

فيتبين من هذا التعبير وبكل وضوح ان العذاب الالهي في ذلك اليوم شديد جداً ورهيب حتى ان المجرم يغدو مستعداً للتضحية ، بجميع ثروته وكل اعزائه بل وبجميع سكان الارض لافتداء نفسه (لا تعبير افصح ولا أبلغ من هذا) ، ولكن ما الفائدة لأن أياً من هذه التضحيات لا تُقبل منه ، فيقع ضحية اعماله وعواقبها المؤلمة .

* * *

وبعد ان تشير الآية الثانية الى انتباه المجرمين يوم القيامة وندمهم وشدة اسفهم على تفريطهم في اداء الفرائض الربانية ، تقول : ﴿قَيُومٌ لَّا يَعْذِبُ عَذَابُهُ أَحَدًا * وَلَا يُوثِقُ وِثْقَةً أَحَدًا﴾^(١) .

وعلى هذا المنوال فعذابه لا نظير له ، وتوثيقه في الحبال لم يجر على احد من قبله .

وهذه التعابير بشكل عام تحمل ابعاداً تربوية وحث للناس على خشية الله وتجنب اليم عقابه ، لأن اذهان الناس قد اعتادت على ان «الله ارحم الراحمين» فهو لا يعذب عباده واذا عاقبهم فعقوبته خفيفة جداً ، وهذا الوهم يدفع الى الجرأة على ارتكاب المعاصي والذنوب ، ولذلك يفصح القرآن وبشكل صريح عن وجوب ذلك العذاب ليخرج الناس هذه التخيلات الباطلة من اذهانهم وينتبهوا الى اعمالهم .

* * *

وانعكس نفس المعنى في الآية الثالثة إلا انه ورد بتعبير آخر فهي تتحدث عن الكفار الذين يدبرون ظهورهم للحق فتقول : ﴿فِي عَذَابِهِ اللَّهُ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ﴾ .

١ - يعود الضمير في «عذابه» و«وثاقه» الى الله تعالى ، واحتمل بعض المفسرين كالألوسي في روح المعاني والبروسوي في روح البيان رجوع الضمير على الانسان لكن هذا الاحتمال يبدو بعيداً جداً .

والعذاب الاكبر اشارة الى عذاب يوم القيامة في قبالة العقوبات الدنيوية التي وُصِفَتْ «بالعذاب الأدنى» كما نصت الآية (٢١) من سورة الم السجدة: ﴿وَلَنَذِقْنَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾.

وتجدر الاشارة الى ان العذاب الالهي في الدنيا قد يكون احياناً شديداً جداً بحق القوم المجرمين كما حصل لقوم لوط اذ ذُكِّمَ مدَنهم وقُراهم دَكًّا وجعلهم هم واياها قاعاً صَفْصَفاً، ومع ذلك فهذا العذاب يبقى عذاباً أدنى في مقابل عذاب القيامة وهذا ما يُنبئ عن شدة العقوبة يوم القيامة.



وفي الآية الرابعة ورد تبيان لقسم من العذاب الصارم الذي يلقيه اصحاب النار، فيقال يومذاك لمنكري القيامة ومحكمة العدل الالهي، اذهبوا الى ما كنتم به تكذبون: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾.

تستعرض هذه الآيات أوصافاً مثيرة حول شدة عذاب جهنم اذ يُقال لمنكري هذه المحكمة الالهية الكبرى والمحملين بشتى المعاصي والذنوب:

اولاً: انطلقوا الى ظل؛ ولكن اي ظل؟ الظل الناتج عن الدخان الخائق المنقسم الى ثلاث شعب، شعبة منها فوق الرأس والأخرى عن اليمين والثالثة عن الشمال، وهو باختصار ظل قاتل يحيط بهم من كل صوب ظل لا كظلال الاشجار الهادئة في الجنة، أو ظلال السقوف والقصور، بل انه ظل حارق لشدة حرارته.

ثانياً: ان لهذا الظل ثلاث شُعب مليئة بالشرر المتطاير وكل شرارة فيه عظيمة بحجم القصر، أو كالجمال الصفراء المسرعة نحو كل صوب، ياله من مكان، ان كان ظلّه هكذا فكيف بناره؟!

وبالها من عبارات مرعبة ودقيقة، فالناس يهربون عادة من الحرارة الى الظل،

بينما لا ظل هناك سوى ظل الدخان الذي تنبعث منه النيران، وإذا كان تصور مثل هذا الدخان صعباً في أيام نزول هذه الآيات، فساحات الحروب الاجرامية اليوم وما يُلقى فيها من قنابل تُغطّي كل شيء بالدخان والنار فيها قد تكون صورة مصغرة لذلك العذاب الأكبر، اضافة الى وجود شرر كبير الحجم وشواظ من نار تتطاير في مساحات واسعة، وهذا كله في ظلال تلك النار^(١).

وقد تكون كلمة «القصر» اشارة الى قصور الظالمين، ولعل تشبيه شرر جهنم بها، اي بتلك القصور التي تلهب النيران دوماً في قلوب المحرومين، يعكس معنى عميقاً ودقيقاً، وكذلك التشبيه بالجمال الصفر ذات النمط الواحد فهو رمز لثروة المستكبرين، وهو ايضاً تعبير آخر ذو مغزى عميق في هذا السياق.

وقد يتوهم البعض ان تشبيه الشرر بالقصر حيناً وبالجمال الصفر حيناً آخر يبدو غير منسجم وذلك لأن احدهما كبير جداً والآخر صغير نسبياً.

ولكن ينبغي الالتفات الى ان كل واحد من هذين التشبيهين يركز على جوانب خاصة، فالتشبيه الاول للدلالة على عظمة ذلك الشرر، والتشبيه الثاني يرمز الى الكثرة والسرعة والتطاير في كل صوب كافتراق الجمال المسرعة في الصحراء أو هو اشارة الى اختلاف ذلك الشرر، فشررها الكبير بحجم قصور الظالمين، وشررها الصغير بحجم جمالهم الصفر.

«الجمالة» جمع «جمل» أي البعير مثل حَجَرٍ وحِجَارَةٍ، و«صُفْر» جمع أصفر وهو اللون المعروف، وتُطلق أحياناً على الألوان الغامقة المائلة الى السواد أيضاً، لكن الأنسب هنا هو المعنى الاول.

وتلاحظ في الآية الخامسة والاخيرة عبارة اخرى تصف شدة عذاب النار

١ - يعتقد البعض ان الضمير «إنها» يعود الى «النار» وهو مؤنث مجازي ورغم عدم ذكر النار في الآية إلا انه يمكن الاستدلال عليها بقرينة ظل الدخان، ولكن الافضل هو ارجاع الضمير الى الظل ذي الثلاث شعب وهو الظل الخائق لأن الهدف هو الاطلاع على الآثار القاتلة لهذا الظل حتى يتضح موضوع النار بطريق أولى.

حيث نقول: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾.

فهذه صورة تعكس العذاب الأليم في جهنم، حيث يعيش المعذبون فيها حالة بين الموت والحياة، فلا هم يموتون وفي ذلك راحة لهم، ولا الحال التي يحيونها يمكن ان يُطلق عليها اسم الحياة، كما هو حال من يعيش في عذاب شديد في الدنيا فيجعله يتخبط بين الموت والحياة.

وكلمة «النار الكبرى» في مقابل النار الصغرى والتي هي عذاب هذه الدنيا. جاء في حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال: «ان ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وقد اطفئت سبعين مرة بالماء ثم التهبت، ولولا ذلك ما استطاع آدمي ان يطيقها»^(١)، وتُقل نفس هذا المعنى عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله).

واحتمل بعض المفسرين ان تكون «النار الكبرى» هنا اشارة الى قسم من جهنم عذابه اشد (اي ادنى الطبقات فيها)^(٢)، ولكن يبدو ان التفسير الاول يناسب الحال اكثر من التفسير الثاني.

كان هذا جانباً من الأبعاد الواسعة لنار جهنم وشدة عذابها الأليم.

٢ - ٣ - الطعام والشراب القاتل لأصحاب النار:

تمهيد:

ذكرنا مراراً بأن المعاد يتحقق ببعديه الجسمي والروحي، وعلى هذا الاساس فالجزاء له بُعدان ايضاً، ومن جملة القضايا التي تكون مدعاة للذة الجسم او سبباً لعذابه هي الأطعمة والأشربة. فالطعام الكريه والفاسد النتن والمحرق يعتبر عذاباً

١ - تفسير الامام العسكري (عليه السلام) وفقاً لما جاء في بحار الانوار: المجلد ٨ الصفحة ٢٨٨، الحديث ٣١.

٢ - الميزان: المجلد ٢٠، ذيل الآية مورد البحث.

اليماً بينما الطعام او الشراب اللذيذ والطيب يكون سبباً لارتياح الجسم ولذته حتى انه يؤثر على روحية الانسان أيضاً ويبعث فيها البهجة والانشراح على العكس من الأشربة الفاسدة التي تسبب الالم للجسد وللنفس .

ومن اجل التركيز على الجوانب التربوية لوجود جهنم ، حذر القرآن المجرمين والمسيئين بشدة من نتائج اعمالهم القبيحة وازاح لهم الستار عن النوعية الرديئة للأطعمة والأشربة في جهنم وعرض لهم جانباً منها . والتعابير المستخدمة في هذا الصدد تشير الفزع والرعبة لدى كل إنسان . وبعد هذا التمهيد المختصر نعود الى القرآن الكريم لنستمع الى آياته الآتية :

١ - ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ * طَعَامُ الْإِثْمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴾ الدخان - ٤٦ .

٢ - ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ مُّزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا يَكُلُونُ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ الصافات - ٦٢-٦٦ .

٣ - ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ الحاقة - ٣٥-٣٧ .

٤ - ﴿ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ الفاشية - ٤-٧ .

٥ - ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ * يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ الكهف - ٢٩ .

٦ - ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلطَّاغِينَ مَاباً * لَا بُشِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَاباً * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ﴾ النبا - ٢١-٢٥ .

٧ - ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِينُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ

عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧-١٥﴾ ابراهيم - (١).

جمع الآيات وتفسيرها

الزقوم - الحميم - غسلين - الضريع - الفساق - الصديد .

نواجه في الآية الاولى اَوَّلَ تعبير عن طعام اصحاب جهنم ، وهو شجرة الزقوم حيث يقول تعالى في قرآنه الكريم : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقوم * طَعَامُ الاثيم * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴾ .

للمفسرين واصحاب اللغة آراء كثيرة في معنى كلمة « الزقوم » التي تكررت ثلاث مَرَّات في القرآن الكريم ^(٢) . فقال البعض انها كلمة عربية ومشتقة من المصدر « زقم » وتعني البلع وقال آخرون ان هذه الكلمة لم يكن لها وجود في اللغة العربية ودخلت البيئة العربية من افريقيا (الحبشة) .

واعتبرها بعض المفسرين واصحاب اللغة إسمًا لعشب مُرٌّ كربه الرائحة له اوراق صغيرة وينمو في اقليم تهامة من شبه جزيرة العرب وكان المشركون يعرفونه جيداً، وهو عشب عصارته شديدة المرارة وحادة الطعم اذا لامس الجسم تورَّم ^(٣) . ويعتقد الراغب في « مفرداته » ان « الزقوم » تعني كل طعام تشمئز منه النفس وهو طعام اصحاب النار .

وقال بعض المفسرين : عندما نزلت هذه الكلمة في القرآن قال كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة ، فقدم عليهم رجل من افريقيا فسأله فقال : هو عندنا الزُّبد والتمر . فقال ابن الزُّبَيْري : اكثر الله في بيوتنا الزقوم . فقال ابو جهل لجارته : زقمينا ؛

١ - ورد في آيات عديدة أخرى تعابير شبيهة بالآيات المذكورة ، من جملة ذلك : الآية (١٣) من سورة المزمل ، والآية (٧٠) من سورة الأنعام والآية ٤ من سورة يونس ، والآية (٥٧) من سورة ص ، والآية (٤٦) من سورة محمد (ص) ، والآيات (٥٢ - ٥٧) من سورة الواقعة .

٢ - الآيات : ٦٢ سورة الصافات ، و ٤٣ سورة الدخان ، و ٥٢ سورة الواقعة .

٣ - تفسير مجمع البيان ، وتفسير مروج البيان ، وتفسير روح المعاني .

فأنته بزبد وتمر. ثم قال لاصحابه: تزقّموا؛ هذا الذي يخوفنا به محمد، يزعم ان النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر^(١).

وقد ادى هذا التفسير ببعض اصحاب اللغة والمفسرين الى اعتبار هذا المعنى هو أحد معاني الزقوم ظناً منهم بجديّة وواقعية التفسير المذكور، كما نقل عن الجوهرى قول في لسان العرب: (الزقوم اسم طعام لهم فيه تمر وزيد).

أما المجموعة الثانية من الآيات فانها تعطي توضيحاً أكثر لوصاف «الزقوم» هذا الطعام الكريه المعد لأصحاب النار، فتقول: ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا يَكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَيْسُوا مِنْهَا بِطُغُونَ﴾.

واول ما نواجه هنا الاعتراض الذي طرحه ابو جهل وقال مستهزئاً وهل ينمو الشجر في النار؟ فالنار عدو الشجر فهي تحرقه.

لكن هؤلاء المغرورين الظلمة فاتهم ان القوانين المهيمنة على الحياة الأخرى مغايرة تماماً لما هو سائد في هذه الحياة. فقد ينمو في الجنة عشب او شجر ينبثق من قعرها وهو على لونها ويكبر في ظل ظروفها ولا يشبه الاعشاب التي تنمو في حدائقنا وحتى في الحياة الدنيا توجد عجائب من هذا القبيل اذ تنمو مخلوقات حيّة بين طبقات الثلج وهذا دليل على ان الحياة للكائنات الحيّة هناك لا يشترط فيها ان تكون (كحياة الكائنات الحيّة المعروفة في بيئتنا العادية). أوليس من العجيب بقاء الانسان حيّاً في جهنّم؟! فما الفرق بين الانسان والعشب؟

اما تشبيه فروع هذه النبتة «برؤوس الشياطين» مع ان مخاطبي هذه الآيات لم يكن احد منهم قد رأى الشيطان ولا رؤوس الشياطين، فقد يكون من باب تشبيه كل قبيح بالشيطان، كما يُشبه كل كائن جميل بالملاك رغم ان احداً لم ير الملاك، فنسوة مصر قلن عن يوسف: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ يوسف - ٣١.

١ - تفسير القرطبي: المجلد ٨ الصفحة ٥٥٢٩ (ذيل الآية ٦٢ من سورة الصافات).

وفى محادثتنا اليومية نقول أحياناً ان الشخص الفلاني كـ «العفريت» مع ان أحداً لم يكن قد رأى «العفريت»، بل العفريت كائن وهمي لا وجود له .
 وكل هذه التشبيهات جاءت على أساس التصور الموجود لدينا عن كلمة «الملاك» و«الشيطان»، وهي على العموم تشبيهات بليغة ومؤثرة وجميلة .
 وعلى هذا فالزقوم ليس كريبه الطعم والرائحة فقط بل وحتى شكله الظاهري قبيح جداً، على العكس من الكثير من النباتات السامة في هذه الدنيا ذات المظهر الجميل .

وقال جماعة من المفسرين أيضاً بان احد معاني الشيطان هو حيّة قبيحة المظهر شبّهت بها تفرعات الزقوم، لكن هذا التفسير يبدو مستبعداً، لأن استعمال الشيطان في مثل هذا المفهوم نادر جداً .

وفي المجموعة الثالثة من الآيات ورد اسم طعام آخر من اطعمة اصحاب النار وهو «غسلين»، فقالت الآية الشريفة: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ .

تعني كلمة «الفسل» التي وردت مرّة واحدة في القرآن الكريم: التنظيف بالماء وهي مأخوذة من المصدر «غسل». قال الراغب في «المفردات» ان «الفسلين» هو غسالة ابدان الكفار. لكن المعروف بين المفسرين واصحاب اللغة انه دم يشبه الماء يخرج من ابدان اصحاب النار، وبما انه يشبه الماء الذي يغسل فيه الانسان لذلك سمّي بـ «الفسلين». ولعل الراغب قصد نفس هذا المعنى في مفرداته. لكن بعضهم اعتبر «الزقوم» و«الفسلين» بمعنى واحد، وهو - كما قلنا - نبات كريبه الطعم والرائحة ومخصص لاهل جهنم، لكن المشهور هو المعنى الاول .
 ويواجهنا في الآية الرابعة تعبير آخر بشأن طعام اصحاب النار وهو اسم «الضريع» وبه اشارت الآية الى فئة من المجرمين قائلة: ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يَسْمَنُ وَلَا يَغْنَى مِنْ جُوعٍ﴾ .

وقد ذُكرت لكلمة «الضريع» معانٍ وتفسيرات مختلفة لكنها متقاربة المعنى .
 فقال جماعة انه نبات اخضر كريحه الرائحة يلفظه البحر^(١) . وقال جماعة آخرون انه
 نبت ذو شوك لاصق بالارض ، تسميه قريش الشُّبرق اذا كان رطباً ، فاذا يبس فهو
 الضريع ، لا تقربه دابة ولا ترعاه ، وهو سمٌ قاتل^(٢) .
 وقال بعضهم ايضاً ان الكلمة مأخوذة من المصدر «ضرع» بمعنى الضعف
 والذلة ، وقالوا : هو طعام يضرعون عنده ويدلون ، ويتضرعون منه الى الله تعالى ، طلباً
 للخلاص منه ، فسمي بذلك ، لان آكله يضرع في أن يُعفى منه ، لكراهته
 وخشونته^(٣) .

ورد في حديث عن الرسول محمد (ﷺ) انه قال : «الضريع شيء يكون من
 النار يشبه الشوك ، اشد مرارة من الصبر ، وانتن من الجيفة ، واحر من النار ، سمّاه الله
 ضريعاً»^(٤) .

و يفهم من جملة «لَا يَغْنِي وَلَا يُسْمِنُ مِنْ جُوعٍ» ان مثل هذا الطعام لا يقوي
 الجسم ولا يشبع من الجوع ، بل هو طعام غصص وهو بذاته نوع من العذاب ، كما
 نقرأ في الآية (١٣) من سورة «المزمل» : «وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً» .
 ولكن ينبغي عدم التعجب من مثل هذا العذاب الصارم الذي هو في انتظار
 المجرمين الذين كانوا يملؤون بطونهم في هذه الدنيا بأنواع الاطعمة اللذيذة الدسمة
 والحلوة والتي يحصلون عليها بالتجاوز على حقوق الآخرين بأنواع المظالم
 والتعدي ، بينما توجد حولهم الكثير من البطون الجائعة التي لم تشبع طيلة عمرها
 ولا حتى مرّة واحدة ، ويموت سنوياً ملايين الاشخاص جوعاً في البلدان الأخرى
 وفي الوقت الذي يرمي المجرمون بفاضل طعامهم في المزابل ، يجب ان يأكلوا

١ - الخليل بن احمد في كتاب العين .

٢ - تفسير القرطبي : المجلد ١٠ ، الصفحة ٧١١٩ .

٣ - نفس المصدر السابق ، الصفحة ٧١٢ .

٤ - مجمع البيان : المجلد ٩ - ١٠ الصفحة ٤٧٩ ، ذيل الآية مورد بحثنا .

مثل هذا الطعام في العالم الآخر.

ونرى هنا ضرورة اعادة الكلام الذي كررناه مرّات متعددة وهو ان هذه التعابير كلها اشارات الى أليم العذاب في العالم الآخر، وإلا فلا نعم الجنة ولا عذاب جهنم يمكن ادراكها من قبلنا نحن المحبوسين في سجن الدنيا، وكل ما نشاهده هو شبح يترأى لنا من بعيد.

وهنا يرد اعتراض بديهي وهو ان الآية (٦) من سورة الغاشية تفيد ان طعام اهل النار هو من «الضريع» فقط: «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ» بينما تذكر الآيات الآتية نوعين آخرين من طعام اهل النار وهما «الزقوم» و«غسلين». وكذلك الآية (٣٦) من سورة (الحاقة) تحدّثت عن الغسلين وقالت انه الطعام الوحيد لاصحاب جهنم.

وقد وردت اجوبة مختلفة عن هذا السؤال ، واهمها الثلاثة الآتية :

١ - ان كلمات «الضريع» و«الزقوم» و«الغسلين» تعطي جميعاً معنى واحداً وهو النبات الخشن كربه الطعم والرائحة والذي ينمو في جهنم (لكن هذا التفسير لا يتسق مع ما جاء بشأن الغسلين في الكثير من كتب التفسير واللغة).

٢ - اعتبر البعض كلمتي «الزقوم» و«الضريع» بمعنى واحد وهو ما سبقت الإشارة اليه ويمثل طعام اصحاب النار، اما «غسلين» فهو شرابهم، والتعبير عن الاشربة بالطعام ليس بالأمر الجديد.

٣ - ان الاطعمة الثلاثة المذكورة اعلاه يختص كل لون منها بطائفة خاصة من اصحاب النار مستقرة في طبقة واحدة منها، وهذا الجواب هو الأنسب من بينها.

وفي الآية الخامسة تكرر الحديث عن الشراب الرديء لاصحاب النار، فقالت الآية الشريفة في وصف حالهم: «إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ * يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً».

يلاحظ ان هذه العقوبات القاسية قد أعدت للظالمين الذين كانوا يعيشون

مُتعمين مُترفين في هذه الدنيا خلف ستائر رقيقة ملوّنة يحتسون انواع وألوان الشراب السائغ اللذيذ وتزهو حفلات شرابهم بسُقاة صبوحى الوجوه. اما في جهنم فهم يتعذبون خلف ستائر من نار وحينما يطلبون الماء يُسقون بماء كأنه المعادن المذابة وحرارته دموع اليتامى وآهاتهم لأن ما يظهر هناك هو تجسيد لما كان هنا.

فهل يمكن شرب الماء الذي تشوي حرارته الوجوه؟ يدل هذا على ان بُنية الإنسان تختلف هناك كثيراً عما هي عليه هنا، وان بناءها قد وضع بالشكل الذي يحتمل كل هذه الامور. فهو يذوق الألم والعذاب من غير ان يموت، او ان ذلك اشارة الى انه حينما يرى مثل هذا الماء ينصرف عن تناوله ويبقى يتلوى في نار العطش.

وكلمة «المهل» (على وزن فَعْل) تعني -كما قال جماعة من المفسرين واصحاب اللغة - ما يتبقى في اسفل آنية الزيت فيكون وسخاً كريه الرائحة عادة.

وقال المرحوم الطبرسي في مجمع البيان: (انه المعدن المذاب في حين خصصه بعضهم بالنحاس المذاب) وقيل انه ماء اسود فجهنم سوداء وماؤها اسود وشجرها اسود واهلها سود^(١). وقال آخرون انه ضرب من القَطِران، وقيل: هو السم^(٢).

ان هذه المعاني وان كانت متفاوتة، إلا ان نتيجتها واحدة وهي الألم والعذاب الأليم لاصحاب النار.

وفي القسم السادس من الآيات يلاحظ تعبيران آخران بخصوص أشربة اصحاب النار، وهما «الحميم» و«الغساق»، وقد جاء احدها الى جانب الآخر، فتقول الآية: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا﴾.

فسر اكثر المفسرين كلمة «الحميم» بمعنى الماء الحار الحارق، والكلمة

١- مجمع البيان: المجلد ٥ الصفحة ٤٦٦، وتفسير القرطبي: المجلد ٦ الصفحة ٤٠١١.

٢- القرطبي: ج ٦ المجلد ٦ الصفحة ٤٠١١.

مشتقة من « حَمٌ » وتعني الحرارة. و « الفساق » مأخوذ من المصدر « غَسَقَ » وتأتي هذه الكلمة أحياناً بمعنى الظلام وأحياناً بمعنى الجريان والانسحاب. وهو هنا الصديد الذي تنضح به اجسام اصحاب جهنم.

ومما لا يخفى ان الشخص الذي يكون الى جانب النار او في داخلها يصيبه العطش الشديد، وحتى في اجواء الصيف الحارة يغلب مثل هذا العطش ولا يروى إلا بتناول مقدار من الشراب البارد. اما اصحاب النار فلا شراب بارد لديهم، بل ان شرابهم حار كحرارة النار فيزيد من عطشهم.

ولكن هل يعني هذا الكلام انهم عند مشاهدتهم لهذا الشراب ينصرفون عن تناوله ويبقون يتحرقون في نار العطش؟ ام انهم يشربونه بالاجبار، فيتزايد عطشهم شيئاً فشيئاً؟ ان التعبير عن تلك الحالة بكلمة « الذوق » يجعل الموقف مناسب للتفسير الثاني.

رغم ان البعض يميل الى تفسير كل هذه العبارات والتهديدات بخصوص اصحاب النار تفسيراً معنوياً وروحياً، كنتيجة للابتعاد عن الله والاقتراب من أفق الشياطين، ولكن كما قلنا مراراً لا يحق لنا حمل الالفاظ على خلاف ظاهرها بلا قرينة واضحة.

وفي المجموعة السابعة والاخيرة من هذه الآيات ورد ذكر شراب اصحاب النار بتعابير أخرى. كما في الآية الشريفة: ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾.

كلمة « الصديد » اصلها « الصد » وتعني الاعراض والعدول والانحراف عن الشيء، ثم أطلقت على الخراج والصديد الذي يتجمع بين الجلد واللحم اثناء حصول اي جرح وربما سبب ذلك هو انحراف المزاج وتغيره من السلامة الى المرض.

يقول الراغب في المفردات : وضرب مثلاً لطعام اهل النار (بأنه طعام رديء وكرهه الرائحة والطعم).

والدليل على كونه فاسداً ورديئاً هو انهم لا يشربونه عن رغبة ابدأ بل كرهاً واجباراً ويتحملونه جرعة فجرة . وهم في موقف مرير ومؤلم وكأن الموت يتهددهم من كل صوب إلا انهم خلقوا بالشكل الذي لا يموتون فيه إلا بعد نيل جزائهم .

ومما يسترعي النظر هنا هو ان هذا العذاب الأليم المذكور في هذه الآية والآيات الاخرى يختص بالظالمين والجبابرة والطفاة (حيث وردت احياناً كلمة « طاغين » و احياناً كلمة « جبار » وكلمة « الظالمين » في احيان أخرى وهذه هي عاقبة الظلم والجور وما هي إلا تجسيد لما صدر عنهم من عذاب بحق الأبرياء الذين كانوا كثيراً ما يقضون السنوات الطويلة في سجونهم لا يذوقون إلا أرواح الطعام والشراب ، ويتعرضون لشد العذاب حتى ان مظاهرهم تتغير ولا يعود أحد يميزهم حتى أمهاتهم (كما هو الحال في وقائع سجناء الحجاج الرهيبة . وفي عصرنا الحالي رأينا او سمعنا بنماذج من المسجونين في سجون الطفاة) .

فهل ان امثال هؤلاء لا يستحقون مثل ذلك العذاب ؟

يتضح من مجموع ما ورد في هذه الآيات بان احدى اسوأ العقوبات التي يواجهها اهل النار هي الطعام والشراب اي الأشياء التي ينبغي ان يلتذ بها الإنسان فتصبح وبالأعلى عليه وسبباً للعذاب والألم . وقد وُصف طعامهم بـ « الزقوم » حيناً وبـ « الضريع » حيناً وبـ « الغسلين » حيناً آخر . ووصف شرابهم بكلمات من قبيل : « المهل » و « الصديد » أحياناً او « الفساق » احياناً أخرى ، وهي على العموم اوصاف للأطعمة والاشربة الحارة المحرقة كرهية الطعم والرائحة . وكلما تمعنا في اعمال هؤلاء المجرمين في الدنيا وما ارتكبوه بحق المظلومين ، فلن نعجب من شدة تلك العقوبات .

ندعو الله تعالى ان يجنبنا بلطفه وكرمه كل ذنب تتبعه مثل هذه العقوبات .

* * *

٤ - ثياب أهل النار

تمهيد :

كل شيء في النار عليه صبغة العذاب والعقاب ، حتى الثياب التي تلبس عادة للوقاية من الحر والبرد ووسيلة لمواجهة بعض الاضرار التي قد تصيب البدن ، وتتخذ كذلك كأداة للزينة والتجمل . نعم حتى هذه الثياب تتحول هناك الى واحدة من اسباب الالم والعذاب .

نعود الى القرآن بعد هذا التمهيد السريع ونقرأ خاشعين الآيات الآتية :

- ١ - ﴿ فَأَلْذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ سورة الحج - ١٩-٢٢ .
- ٢ - ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ ابراهيم - ٤٩-٥٠ .

تفسير وفذلكة :

أشارت الآية الأولى الى طائفة من الكفار الذين يجادلون باستمرار حول الخالق جل شأنه ، فتقول : ﴿ فَأَلْذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ . فهل يفهم من هذا الكلام ان النار محيطة بهم من كل جانب وكأنها غدت لباساً لهم ؟ او ان قطعاً حقيقية من النار قد فصلت لهم وخبطت على هيئة الثياب ؟ ظاهر الآية يشير الى صحة التفسير الثاني . والاكثر ايلاماً لهم من ذلك ان « يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ » . ثم تصف الآية فعل هذا الماء الحميم على داخلهم قائلة : ﴿ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ .

كلمة « يصهر » مأخوذة من المصدر « صَهَرَ » ويعني إذابة الشحم او ما اشبهه وتُطلق ايضاً على كل ما يحمى ويتغير بفعل حرارة الشمس .

ثم تتحدث الآية عن العقوبات الأخرى قائلة : ﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ .

« المقامع » جمع « مِقْمَع » على وزن « منبر » وفُسِّرَت احياناً بمعنى السوط و احياناً أخرى بالعمود الذي يُضرب به على رأس الشخص .

ثم اخيراً تصوّر الآية وضعهم الاليم بالهيئة الآتية : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ .

لا شك ان هذه العقوبات المؤلمة حتى وان حصل اقل منها في الدنيا تؤدي الى موت الإنسان . لكن البناء الجسدي للمجرمين هناك يكون بالشكل الذي لا يؤدي الى القضاء عليهم لتنفيذ هذه العقوبات ، فيذوقوا جزاء اعمالهم . وهذا يدل على ان القوانين السائدة في ذلك العالم تختلف عما هو موجود في عالمنا هذا . (فتأمل) .

نشاهد في الآية الثانية تعبيراً جديداً عن ثياب اهل النار، ورد فيها : ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ .

« سراويل » جمع « سربال » . قال الراغب في المفردات هو القميص من اي مادة كان وورد نفس هذا المعنى ايضاً في « لسان العرب » و « صحاح اللغة » . وفُسرَها البعض الآخر بأي نوع من الثياب .

وجاء في كتاب « التحقيق » بان السربال يعني الثوب الذي يغطي القسم الاعلى من البدن ، وكلمة « سروال » بمعنى الشيء الذي يغطي الجزء الاسفل منه . وأطلقت لفظة السربال ايضاً على القماش الذي لم يُخَطَّ وَيُلْقَى على البدن وعلى الدرع التي تلبس في الحرب .

اما « القطران » (ويُلَفَظ احياناً قَطْرَان و احياناً قِطْرَان) فيعني مادة سوداء قابلة للاحتراق وتبعث عند احتراقها رائحة كريهة ، وتستخرج هذه المادة من شجرة تسمى

(أَبْهَل) وتُغْلَى حتَّى تصبح صلبة القوام وتطلَّى بها ابدان الجمال لعلاجها من الجرب، فكانوا يعتقدون ان هذه المادة تزيل الجرب^(١).

وهناك نوع آخر من القطران ايضاً ويستخرج اثناء تقطير الفحم الحجري لاعداد الغاز منه.

ويُفهم من بعض الكتابات ان القطران سائل زيتي لاصق يُستخرج من الأخشاب التي تفرز الصمغ ومن اشجار أخرى، ويُستفاد منها في البيطرة لعلاج الالتهابات^(٢).

وعلى اية حال يُستفاد من الآية المذكورة بأن أبدان اهل النار تُغَطَّى بمادة سوداء قابلة للاحتراق بدل الثياب، وكل شيء فيها على العكس مما يتوقعه الانسان من الثياب. فهو يتوقع ان الثياب زينة، وتقي الانسان من مخاطر الحر والبرد. إلا ان هذه الثياب المخصصة لأهل النار قبيحة وكريهة المنظر، وكريهة الرائحة ايضاً. وتحترق في نار جهنم.

هذا جزاء من كان يتبختر امام اليتامى والمستضعفين الحُفَاة لِفُخْر انواع الثياب الموشاة بالذهب يتفاخرون عليهم فيحرقون قلوبهم، فهذا نصيب الظلمة والمجرمين من الثياب في يوم القيامة.

* * *

سائر العذاب الجسدي لاهل النار

تمهيد:

تمثل جهنم مبدئياً مركز الغضب الالهي وكل شيء فيها مطبوع بطابع العذاب والعقاب بألوانه واشكاله المختلفة التي يتصورها الذهن او لا يتصورها ومُعَدُّ

١ - تفسير الفخر الرازي: المجلد ١٩، الصفحة ١٤٨.

٢ - قاموس (فرهنگ معین): كلمة قطران.

للظالمين والمجرمين .

وقد اشار القرآن الكريم في مواضع متفرقة الى جوانب من ذلك العذاب (سوى ماتم ذكره) ، نقرأ نماذج منها في الآيات الآتية :

١ - ﴿ وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ

يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ الواقعة - ٤١-٤٤ .

٢ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ

جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ النساء - ٥٦ .

٣ - ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ

وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ التوبة - ٣٤-٣٥ .

٤ - ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ

ثُبُورًا وَاحِدًا وَذُعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ الفرقان - ١٣-١٤ .

٥ - ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ المؤمنون - ١٠٤ .

٦ - ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ

يُسَجَّرُونَ ﴾ غافر - ٧١-٧٢ .

٧ - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ

الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا

فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ غافر - ٤٩-٥٠ .

جمع الآيات وتفسيرها

رياح مهلكة ، وظلال محرقة :

قَسَّمت الآية الأولى الناس الى ثلاث فئات وهي : فئة « المقربين » و « أصحاب

اليمين » و « أصحاب الشمال » . ثم قالت عن اصحاب الشمال (وهم الذين يتسلمون

كتبهم بيد الشمال دلالة على سوء عملهم) إنهم : ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْتُمُونَ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ .

وفي الحقيقة ان النار كالجنة فيها ماء وهواء ونسيم وظل ، ولكن ياله من نسيم ، فقد سمّاه القرآن بـ « السموم » .

« السموم » مأخوذة من كلمة « السم » وتعني الهواء اللاسع من شدة حرارته الذي يدخل المسام (الفتحات الدقيقة على جلد الانسان) ويسبب هلاكه .

(وقد سمّيت كلمة « السّم » بهذا الاسم لأنها تنفذ الى جميع دقائق وثغرات الجسم . لأن السّم على قول الراغب يعني اي فتحة دقيقة كفتحة الابرة وفتحة الأنف والأذن)^(١) .

ويوجد لديهم ماء ايضاً إلا انه حار وقاتل ، ولديهم ظل إلا انه من دخان اسود كثيف وحار !

حين يتعرض الانسان للحرارة الشديدة في هذه الدنيا ، فإنما ان يجعل نفسه عرضة لمهب النسيم أو يدخل في الماء أو يلتجئ الى الظل ، وهذه الثلاثة كلها حارة وقاتلة هناك على العكس من الجنة التي تكون اماكنها الواحدة أبرد من الأخرى واكثر اثاره للبهجة والارتياح .

واشارت الآية الثانية الى واحدة أخرى من العقوبات الصارمة للكفرة ، فقالت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُضِلُّهُمْ نَارًا ﴾^(٢) ثم تضيف : ﴿ كُلَّمَا نُضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

والجملة الأخيرة هي في الحقيقة اجابة عن هذا السؤال : هل ان عذاباً كهذا

١ - جاء في « قاموس اللغة » ان كلمة « السموم » تُطلق على الرياح الحارة التي تهب في النهار وهي في مقابل « الحرور » وهي الرياح الليلية الحارة .

جاء في تفسير الفخر الرازي : بان السموم هي الرياح المتعفنة التي عندما يستنشقها الانسان يتعفن قلبه فيهلك . (التفسير الكبير : المجلد ٢٩ الصفحة ١٩٨) .

٢ - يدوان تنكير النار هنا لتبيان عظمتها .

ممكّن ؟ وان كان ممكناً فهل هو عادل ؟ ! القرآن يقول : ان هذا على الله يسير ولا يتناقض مع حكمته ايضاً .

وعُرض بين المفسرين سؤال معروف وهو : اذا تبدّلت هذه الجلود بجلود أخرى، فما ذنب هذه الجلود الجديدة حتّى تتعذب ؟

طرح المفسرون الكبار اجابات متعددة عن هذا السؤال وأفضلها هو جواب الامام الصادق (عليه السلام) على السؤال الذي طرحه «ابن ابي العوجاء» بعد قراءة هذه الآية : «ما ذنب الغير» ؟

فاجاب الامام (عليه السلام) جواباً غنياً ومقتضياً : «هي هي وهي غيرها» .

قال ، فمثل لي في ذلك شيئاً من امر الدنيا قال : «نعم ارأيت لو ان رجلاً اخذ لبنة فكسرها ثم ردها في ملبنتها فهي هي وهي غيرها»^(١) .

ووفقاً لهذه الرواية ، فان جلوداً جديدة ستنشأ من الجلود الأولى فتتغير الصورة مع الحفاظ على وحدة المادة .

وقال جماعة ايضاً : ان كانت الصورة والمادة غير الصورة والمادة للجلود السابقة عندئذ لا تحصل أية مشكلة لأن عذاب القيامة تذوقه الروح لا الجلد وأما ان التعبير بـ «ليذوقوا العذاب» دليل على صحة هذا القول . ولهذا السبب كثيراً ما يحصل ويرتكب الانسان ذنباً بعضو فينزل العقاب على عضو آخر، كأن يشرب الخمر مثلاً فيضرب ثمانين سوطاً على ظهره، فيكون هذا في مقابل ذاك وايداء الجسم وسيلة لايداء الروح .

وفي الآية الثالثة اشارة الى جزاء طائفة أخرى من المسيئين من الذين كانوا يكتزون الذهب والفضة والدراهم والدنانير ولا يؤدّون ما عليها من حقوق شرعية فتقول الآية الشريفة : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ نَبِشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

ثم تشير الآية الى جانب من هذا «العذاب الاليم» وتضيف: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظهورهم﴾ ويقال لهم حينها: ﴿هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكذبون﴾.

يُعطي هذا التعبير اجابة عن سؤال مهم بخصوص الآيات المتعلقة بالعذاب الالهي الشديد يوم القيامة. وهو أن هذا الجزاء يُعتبر ثمرة لاعمال العباد ونتيجة فعلهم تتجسد لهم يوم القيامة على هذه الشاكلة، فهم في الحقيقة يذوقون افعالهم تماماً كالشخص الذي يسرف عدّة أيام في تناول الخمر فيقع فريسة لأمراض مؤلمة وشديدة ويبقى يعاني منها طوال حياته.

زنزانات جهنم الانفرادية:

يواجهنا في الآية الرابعة نموذج آخر من العقاب المتنوع الذي يلقاه اهل النار اذ تقول: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

فيقال لهم لافائدة من صياحكم وصراخكم هذا فهو لا ينفع شيئاً، فمصائبكم جمّة تستحق الثبور والويل: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

ويتضح جيداً من هذا التعبير بأنهم ليسوا احراراً حتّى فى جهنم فهم فى ما يشبه الزنزانات مقيدون بالاغلال والسلاسل حتّى تتعالى اصواتهم ولكنها لا تحل لهم اية مشكلة.

كلمة «مقرنين» مأخوذة من المصدر «قرن»، وتعني فى الأصل -كما قال الراغب فى -المفردات اجتماع شيئين أو اكثر لسبب من الأسباب، ولهذا يطلق على الحبل الذى تُربط به الاشياء «قَرَن» (على وزن كلمة نظر) ويُقال «قَرَن» للقوم والجماعة الذين يعيشون فى زمان واحد، ويُطلق احياناً على الزمن لوحده. وحينما تدخل هذه الكلمة فى باب التفعيل فذلك دلالة على الكثرة والشدة.

ولهذا فقد تم احياناً تفسير كلمة «مقرنين» فى هذه الآية بمعنى شد وتوثيق

ايدي وارجل اهل النار، وقال آخرون ايضاً: يربط اهل النار في ذلك اليوم جماعات جماعات بسلسلة طويلة وهذا تجسيد للارتباط الفكري والعملي للمجرمين الذين كانوا يتعاونون في هذه الدنيا على الفساد والظلم والعدوان على حقوق المظلومين ويتآمرون عليهم.

ولكن لو التفتنا الى عبارة «مكاناً ضيقاً» لوجدنا التفسير الأول هو الأنسب. وهذا ايضاً تجسيد لأعمالهم في هذه الدنيا حين كانوا يزجون بالابرياء في الزنانات ويقيّدونهم بالسلاسل، أو يفرضون عليهم مثل هذه القيود في الحياة الاجتماعية فيصبحون كالسجناء مسلوبي القدرة على اية حركة.

«الثبور» في الأصل بمعنى الهلاك رغم ان صاحب «مقاييس اللغة» قد ذكر له ثلاثة معانٍ وهي: الهلاك، والمراقبة، واللين. ولذا يقال للارض المتراكم ترابها فوق بعضه كالنورة «ثيرة».

ولكن قد تكون كل تلك المعاني راجعة في الأصل الى معنى الهلاك، لأن اجتياز مثل هذه الاراضي لا يخلو من الخطورة، ولما كان الانسان يشدد في حماية نفسه وممتلكاته في المواقف الحرجة لذا فقد استخدمت هذه الكلمة بمعنى المراقبة ايضاً، وعلى اية حال فإنّ العربي عندما كان يواجه امراً خطيراً كان ينادي «واثبورا» ومعناه واويلتاه لقد هلكت وهذا ما يعكس شدة الأذى والشعور بالألم.

ولعل التعبير: «لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً» فيه اشارة الى العوامل المتعددة للهلاك او شدة أو طول مدة هذه العوامل في جهنم، وعلى اية حال فهذا ايضاً تجسيد لأعمالهم التي كانوا يمارسونها في هذا العالم وما كانوا يرتكبونه من ذنوب وما يسبّبونه لعباد الله من المصائب والمآسي وما يفتحونه عليهم من ابواب الهلاك من كل صوب.

ويُلاحظ في الآية الخامسة وجه آخر من وجوه هذا العذاب الأليم، فتقول:

﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ﴾ ولهذا: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾.

كلمة «تلفح» مأخوذة من المصدر «لَفَحَ» (على وزن فتح) وتعني على قول معظم اصحاب اللغة تأثير حرارة الشمس والنار والرياح السوم على الوجه وتغييره، وتُطلق هذه الكلمة ايضاً على ضربة السيف لشباعتها بضربة حرارة الشمس ولهيب النار ورياح السوم.

وتُستخدم احياناً كلمة «نفح» بدلاً من كلمة «لفح» على المراحل الاخف. و«كالخون» مشتقة من «الكلوح» ومعناها حسب ما يراه الكثير من اهل اللغة والمفسرين هو التعبيس والتقطيب، بينما تبقى الشفاء مفتوحة وهذه الحالة تحصل على وجوه اصحاب جهنم بسبب شدة لهيب النار وهي تمثل في مجموعها وصفاً لتأثير ضربات لهيب النار على وجوههم وهو امر مؤلم جداً على تلك الوجوه التي كانت كثيراً ما تقطب وجوه المستضعفين، والشفاء التي تبقى مفتوحة عن بعضها للاستهزاء منهم والانتقاص منهم بضحكات السخرية. ان هذه الاعمال القبيحة المؤلمة تتحول في نهاية المطاف الى عذاب اليم لهم.

وفي القسم السادس من هذه الآيات يطالعنا نمط جديد من الجزاء الذي يتعرض له هؤلاء اذ تقول الآية انهم يطلعون سريعاً على نتائج اعمالهم وحينها: ﴿اَفِ الْاَغْلَالِ فِي اَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلِ﴾ ثم تضيف الآية: ﴿يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾.

«الاغلال» جمع «غل»، «والسلاسل» جمع «سلسلة» واختلافهما هو ان الغل حلقة توضع في رقبة أو ايدي وأرجل السجناء والسلسلة هي ما يوثق أو يشد به السجناء أو توضع مباشرة على اليد والرجل والرقبة.

وكلمة «يُسْحَبُونَ» مأخوذة من المصدر «سَحَبَ» (على وزن كلمة سَهْل) ولهذا السبب يُقال للغيوم «سحاب» لأنها تنسحب على صفحة السماء على نطاق واسع^(١).

ويرى بعضهم ان هذه الكلمة تعني السحب على الارض^(١) وهذا مالا يتسق والآية موضع بحثنا، ولا مع بعض مشتقاتها ككلمة السحاب.

وأشتقت كلمة «يُسجرون» من المصدر «سَجَرَ» (وهو على وزن زَجَرَ) وجاء لها ثلاثة معان في كتاب مقاييس اللغة وهي: المل، والمزاح، والاذكاء. لكن بعضهم يرجع هذه الفروع الثلاثة الى أصل واحد ويقول: المعنى الاصل لها هو الهيجان والتساقط من شدة الامتلاء، ولهذا أطلقت كلمة «مسجور» و«سجير» على النار المذكاة أو المتقدة وعلى البحر الطافح الموج، وعلى الصديق الحميم الذي يفيض بالمحبة والاثارة.

واستناداً الى ما سبق ذكره، فهم يُغْلَوْنَ وَيَشُدُّونَ بالسلاسل أولاً ومن ثم يدخلون في الماء الحار المحرق ثم في النار، ومن الواضح ان ادخالهم في النار بعد الماء الحار سيكون اشدّ ألماً.

وهذا تجسيد لأعمالهم التي كانوا يمارسونها بحق الأبرياء في الدنيا اذ كانوا يذيقونهم ابشع صنوف العذاب، حيث يصادرون حرّياتهم ويسحبونهم بالسلاسل والاغلال.

نستخلص من مجموع هذه الآيات ان عقوبات اهل النار هي مما لايسع لها الوصف، ولا يتحملها اشد الناس قوّة وجلداً، انها عقوبات اشد ما تكون من القسوة والايلام.



١ - التحقيق في كلمات القرآن الكريم، وتفسير الميزان في ختام الآية موضع البحث.

ايضاحات

لماذا يكون العذاب الالهي شديداً الى هذا الحد؟

ان شدة وتنوع وطول مدة هذه العقوبات تثير هذا التساؤل لدى الكثير من الناس، وهو كيف ينسجم هذا العذاب الأليم مع اللطف الرباني هذا من جهة، ومن جهة أخرى كيف تتناسب العقوبات المذكورة مع اعمال اصحاب الجحيم؟ ولعل عدم القدرة على تقديم اجابة شافية على هذا الاعتراض دفع جماعة الى حملها على معانٍ مجازية أو القول بأنها عقوبات روحية.

لكن الالتفات الى النقطة التي تُعتبر المفتاح لحل مثل هذه المشاكل، والتي لفتنا اليها الانظار مرّات متعددة سيساعد على فكّ هذا اللغز، وهي ان هذه العقوبات تمثل على الاغلب تجسيداً لأعمال الانسان وهي حصيلة لها. وهو ما نشاهد نماذج مختلفة منه في عالمنا هذا.

فهناك مثلاً اشخاص يقعون ضحية لبعض انواع الادمان الخطيرة لمجرد تحقيق لذة وهمية عابرة، وهذا الادمان يؤدي عادة الى استهلاك كل طاقاتهم وسريعاً ما يتحولون الى كائنات منهكة محمّلة بأنواع الامراض القاتلة التي يظنون يعانون منها ويتخبّطون فيها بقية أعمارهم أو انهم يتعرضون للاصابة ببعض الامراض المستعصية على العلاج - نتيجة للانحرافات الجنسية - امثال مرض الايدز، ان الانسان عندما يرى الاشخاص المصابين بهذا المرض يأسى على حالهم ويتأسف على ما هم فيه من العناء.

فهل يمكن القول لماذا تصبح حصيلة هذا الادمان أو هذا الانحراف على هذه الدرجة من الشدة وطول المدة؟ اذ لا يوجد بينهما اي تناسب منطقي.

ولو تفوّه احد بمثل هذا الكلام، ل قيل له على الفور: هذه هي نتيجة عملهم وقد اخطروا واندورا بها من قبل. ويصدق نفس هذا المعنى على العذاب الذي يلقاه

اصحاب جهنم ايضاً.

وقد لوحظ في كثير من الأحيان ان بعض الاشخاص قد تعرّضوا الى حوادث السيارات - لعدم اهتمامهم بمراعاة اصول السوق - فأصبحت منهم الأيدي والأرجل أو العمود الفقري وظلوا يعانون الألم طوال حياتهم ، في حين كان باستطاعتهم تجنّب كل ذلك من خلال الالتزام الصحيح بتعليمات المهنة ، فحينما يدور الحديث عن نتائج العمل وآثاره الطبيعية ، لا يبقى هناك اي مجال لطرح التساؤلات الواردة اعلاه . اضافة الى ذلك يوجد بين اصحاب النار اشخاص جلبوا للآخرين مثل هذا العناء وهذا العذاب ، ولو تمعّن الانسان في انواع التعذيب التي تُمارس في عالم اليوم - ناهيك عمّا جرى منه في العصور الغابرة - لأيقن ان مرتكبيها يستحقون بالتأكيد هذه العقوبات الشديدة ، بل ان ظلم الظالمين يصل احياناً الى حد يبلغ مرحلة من التفنن والتماذي بحيث يحسب الانسان عدم وجود اية عقوبة تناسبه .



العذاب الروحي

هـ-العذاب الروحي

تمهيد :

كما توجد في الجنة نعم وفيرة ولذيذة للجسم والروح ، اذ يكمل أحدهما الآخر ولا يمكنهما الانفصال عن بعضهما بسبب اقتران المعاد الجسمي بالمعاد الروحي، فكذلك توجد في جهنم عقوبات لكلا النوعين ، والآيات الشريفة الواردة في هذا الحقل تثبت صحة هذا القول : فلنقرأ خاشعين هذه الآيات :

١ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ الحج-٥٧.

٢ - ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ آل عمران-١٩٢.

٣ - ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ

الْحَرِيقِ﴾ الحج-٢٢.

٤ - ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ * قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا

تُكَلِّمُونَ﴾ المؤمنون-١٠٧-١٠٨.

٥ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ *

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَأَدْعُوا وَمَا دُعَاءُ

الكافرين إلا في ضلالٍ ﴿ المؤمن - ٤٩-٥٠ .

٦ - ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ الفرقان - ١٢ .

٧ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ التحريم - ٦^(١) .

٨ - ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الاعراف - ٤٤ .

جمع الآيات وتفسيرها

الحزن والهم القاتل والحسرة اللامتناهية :

المقصود من العقوبات والآلام الروحية مجموعة من الضغوط التي تضغط على روح الانسان ونفسه وان كانت لا تؤثر على جسمه في الظاهر أو ان لها تأثيراً ثانياً اذ تؤذي الجسم مباشرة وتؤلم الروح ايضاً .

فنرى في الآية الاولى نموذجاً للقسم الثاني فتقول : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ .

لم يتسع حديث القرآن هنا لاعطاء مزيد من الايضاحات حول كيفية هذا العذاب ، والاسلوب الذي يؤدي لإهانة واذلال اصحاب النار ، بل اشار الى الموضوع إشارة عامة تشمل - بلا شك - جميع الجوانب المهينة في عذاب جهنم التي تؤدي الى اذلال المستكبرين الطغاة ودفعهم الى ادنى درجات الذلة .

وقد احتمل بعض المفسرين «كالقرطبي» بأن العذاب المهين إشارة الى

١ - هناك ايضاً آيات اخرى تحتوي على نفس هذه المضامين وردت في سورة : المجادلة - ٥ ، السجدة - ٢٠ ، الاعراف - ٥٠ ، الحاقة - ٣٥ .

المصير الذي آل اليه المشركون في معركة بدر، ولكن لو التفتنا إلى الآية السابقة التي تحدثت عن «جنات النعيم» للمؤمنين لرأينا ان الآية دالة على العذاب المهين الموجود في النار.

وعلى كل حال يدل هذا التعبير الذي ورد عدة مرّات في القرآن الكريم على أن عذاب الجحيم مقرون بأنواع الاهانات التي تؤلم كلاً من الروح والجسد، وهذا تجسيد للتحقير والاستهانة التي كانوا يبدونها للانبيااء والمؤمنين والمستضعفين من اهل الايمان، وهذا ما يستلزم ان يتلقوا في ذلك اليوم نتيجة عملهم بهذه الصورة.



وفي الآية الثانية كان الحديث عن افتضاح اهل النار وهذا هو عذاب معنوي مؤلم، فقد نقلت لنا الآية ذلك على السنة العلماء من اهل الايمان الذين اطلقت عليهم «أولو الألباب» فقالت: «رَبُّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ».

«اخزيته» مأخوذة من «الخزي» ولها معاني عديدة في كتب اللغة مثل: سوء الحال، والابتعاد، والذلة، والافتضاح، والاستهانة، ونفس هذه المعاني وردت في كلام المفسرين ايضاً^(١).

يتضح من سياق الآية ان العقوبات النفسية يوم القيامة اكثر ايلاماً، لأن أولي الألباب يطلبون من الله عز وجل ان لا يدخلهم النار ويقولون: انك من ادخلته النار فقد اخزيته اشارة إلى ان الشيء الأسوء من النار هو ذلك الخزي. تماماً مثل بعض الاشخاص الذين لا يابهون كثيراً لدخولهم السجن ولكنهم يحرصون كثيراً على عدم انتشار هذا الخبر، لأن انتشاره يؤدي إلى افتضاحهم في المجتمع وهو ما يعتبرونه

١ - مقاييس اللغة، مصباح اللغة، صحاح اللغة، لسان العرب، والتحقيق في كلمات القرآن الحكيم، وجاء في تفسير مجمع البيان معنيان آخران لكلمة الخزي وهما: الهلاك، والوقوف في موقف الفضيحة والذل.

أشدَّ إيذاءً وإيلاماً من السجن ذاته .

اما جملة «وما للظالمين من انصار» فهي اشارة الى هذه الحقيقة وهي ان كل ما يجري عليهم اليوم انما جاء نتيجة لظلمهم ، فمن الطبيعي ان يفتضحوا هناك ويذلولوا ولا يجدون ناصراً ولا معيناً . (هذا التعبير لا يتنافى طبعاً مع قضية الشفاعة لمن يستحقها ، لأن المقصود هنا نفي الناصر الذي يعين الظالمين بقدرته ونفوذه ، لا عن طريق الاستعانة بالقدرة الربانية) .

تطرقت الآية الثالثة الى موضوع الغم والحزن الذي يعاني منه اصحاب جهنم وهو ما يعكس آلامهم النفسية ، وقالت : «كُلُّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» .

قال الكثير من المفسرين انهم كلما ارادوا الخروج من هذا الغم والتحرر منه واللجوء الى اطراف جهنم ، يقوم خزنتها بارجاعهم بالهراوات أو الاسواط النارية ، لأن الآية السابقة قد اشارت الى هذا المعنى وخاصة الجملة التي تنص على : «ولهم مقامع من حديد» .

وجملة «وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» التي تُقال لهم من باب التقرير والاستهانة تُعتبر هي الأخرى نموذجاً لهذا العذاب النفسي ^(١) .
كثرة اللوم والتقرير :

نواجه في الآية الرابعة صورة جديدة للاهانة والاحتقار التي يلقاها اصحاب النار وهذا - كما قلنا - نوع من العذاب النفسي الأليم ، وتقول الآية المباركة : «رَبُّنَا أَخْرَجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ» ، فيقال لهم من قبل الله تعالى : «قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ» .

١ - كلمة «الحريق» وان كانت هنا اسم مصدر إلا ان لها معنى الفاعل ، اما على قول البعض الآخر فهي صيغة مبالغة (أو صفة مشبهة) ، وعلى قول الراغب «الحريق» هنا بمعنى النار وهذا التفسير يبدو أكثر ملائمة لأنه اضاف العذاب الى الحريق .

وقد صرّح جميع اصحاب اللغة والمفسرون بأن كلمة «اخساً» تعبير يُستخدم لطرد الكلب وان استخدامه هنا فيه دلالة على احتقار هؤلاء الظلمة والمستكبرين .
ولعل كلمة «لا تكلمون» اكثر منها مرارة واستهانة ، فالمولى الكريم الرحيم يطرد عبده ويقول له لا تكلمني ابداً ، وهذا هو نفس المعنى الذي اشارت اليه العبارة الواردة في دعاء كميل : «فهني بالهي وسَيدي ومولاي صبرت على عذابك فكيف اصبر على فراقك» .

ولكن لماذا يواجه هؤلاء مثل هذا العذاب النفسي القاتل ؟ تزيح الآيات التالية الستار عن هذه القضية فتقول : «إِنَّه كَانَ فَرِيقَ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءً حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحَّكُونَ» المؤمنون- ١١٠ .

فكانت نتيجة ذلك الاستهزاء والضحك على المؤمنين ان اصبحتم اليوم عرضة للاستهزاء والاحتقار ، وهذا في الحقيقة تجسيد لأعمالكم !
ونرى في الآية الخامسة مشهداً آخر يصور اللوم والتعنيف والاحتقار لأصحاب النار من قبل خزنتها وملائكة العذاب فتقول : «وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ» .

فهذه التعابير تبدو وكأنها سباط تلهب ارواحهم وتعذبهم ، فطلبوا يوماً واحداً للراحة من ذلك العذاب إلا ان طلبهم رُفض ، فطلبوا من خزنة النار ان يدعوا لهم ، لكن هؤلاء قالوا لهم : انتم ادعوا بأنفسكم ، إلا ان هذا الكلام يعتبر اهانة لهم بسبب عدم اهليتهم للدعاء أو ان دعاءهم يجب ان يكون مسبوقاً باذن من الله - وهو جلّت قدرته - لا يسمح لهم ولا يأذن بمثل هذا الدعاء ، او انه دعاء غير مستجاب فهو اذن عبث لا أكثر ، ولذا فهم ينزعجون حتّى من الدعاء لهم ويقولون انتم ادعوا ربكم (واعلموا انه غير مستجاب لكم) وهذا ايضاً تعبير مؤلم آخر .

وتعكس الآية السادسة جانباً آخر من العذاب الروحي لأصحاب النار فتقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ .

تُصور هذه الآية هنا لجهنم وكأنها تمتلك جميع صفات الحيوان المفترس فحين رؤيته لفريسته تنطلق منه اصوات مرعبة تُنم عن الغضب مصحوبة بالتنفس الشديد ، وهذا المشهد كفيل بارهابه والقضاء عليه .

و«التغيظ» مأخوذ من المصدر «غيظ» ، وهو ما قال الراغب بانه يعني شدة الغضب ، والتغيظ بمعنى اظهاره ، ومع ان حالة الغضب لا تسمع ولكن ترافقها اصوات دالة عليها قابلة للاستماع كالاصوات المرعبة .

وتعني كلمة «الزفير» صعود ونزول النفس في الرئة بحيث يرتفع الصدر الى الاعلى وغالباً ما يصحبه صوت رهيب يمكن سماعه .

اما المفسرون الذين لا يمكنهم التصديق بأن جهنم كائن حي يرى ويدرك ويعرف المجرمين ، فقد اضطروا الى القول بأن هناك شيئاً مقدراً فقالوا: المقصود هو رؤية خزنة النار بينما نعلم ان التقدير خلاف القاعدة ولا حاجة له هنا ، فما المانع ان يكون لجهنم والجنة روح وانهما تدركان الحوادث التي تقع فيهما ؟ حتى ان بعض الروايات ذكرت «يخرج عنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول وكُلت بكل من جعل مع الله إلهاً آخر فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه»^(١) .

ونحن نرى امثلة مصغرة لهذه المسألة في الدنيا منها ما يمثّل في وضع العيون والأذان الالكترونية المرتبطة باجهزة (الكامبيوتر) في البنايات المختلفة ، فتقوم تلك الاجهزة بمشاهدة وسماع الكثير من الاشياء والحوادث وتبدي ازاءها رد الفعل المناسب رغم ان البناية لا تدرك شيئاً ، ولعل رد فعل جهنم ازاء المجرمين هو من هذا الطراز أو من طراز أرفع ، اي يكون مصحوباً بالادراك .

نرى في الآية السابعة صورة اخرى من الآلام النفسية لأصحاب جهنم فهي

١ - تفسير القرطبي ، وروح المعاني : في ذيل الآية موضع البحث .

تخاطب المؤمنين بقولها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾.

يثبت من هذا التعبير ان نار الآخرة تختلف كثيراً عن نار الدنيا، سواء كان المقصود من «الحجارة» الاصنام الحجرية أو ما هو اشمل من ذلك، وسواء كان المقصود هو النار التي تخرج من داخل ذرات تلك الأحجار أم كان المقصود شيئاً آخر، فكل ما هو موجود نار ينبثق بعضها من داخل ذات الانسان؛ من معتقداته ونواياه الباطنية القبيحة وجوارحه الملوثة بالذنوب، أو الاحجار التي كانت آلهة له أو من وسائل المفاخرة والتباهي كالقصور وما شابه ذلك.

ثم تضيف الآية الشريفة: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

فوجود مثل هؤلاء الملائكة القساة الأشداء يضاعف الآلام النفسية لأصحاب جهنم، ويسدّ عليهم كل منافذ الحياة.

فقد كان هؤلاء في حياتهم الدنيا يعاملون من هم تحت سلطانهم بكل قسوة، وكان عمّالهم الجناة يعاملون الناس بغلظة وشدة وبلا أية رحمة أو شفقة، فوقعوا اليوم ضحية لمثل ذلك السلوك.

ومما يلفت الانتباه هو ان الآية التالية لها تخاطب الكفار قائلة: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال بعض المفسرين الذين لا يسعهم تصوّر اندلاع النار من داخل الاحجار بأن المقصود من الاحجار تلك الاحجار الكبرى التي ينبعث منها الشرر اثناء ارتطامها بالحديد، بينما نعلم اليوم بأن الطاقة الذرية الكامنة في كل كائن مادي بإمكانها بعث مقادير عظيمة من النار.

الفلاظ جمع «غليظ»، و«الشداد» جمع «شديد» وكلاهما لمعنى واحد، وقد يكون ذكرهما سوية من باب التأكيد، لكن البعض يقول ان «الفلاظ» تعني الخشونة

في القول و«الشداد» تعني الخشونة في الفعل أو تعني الأولى الخشونة الخلقية والثانية الخشونة الخلقية، وعلى كل حال فهو لاء الملائكة ملزمون بحكم الله لا يعصون له أمراً.

وقالوا أحياناً ان وضع الانسان بمنزلة الحطب الى جانب الاحجار يُعتبر بحد ذاته استهانة بهم وعقوبة روحية ومعنوية^(١).

وتمر علينا في الآية الثامنة والأخيرة محادثة مذهلة بين اصحاب الجنة واصحاب النار تكون سبباً لأيداء اصحاب النار: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾.

فأجابوا وقد استحوذ عليهم الحياء والانكسار: ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ وفي هذه الأثناء: ﴿فَإِذْ مَوْذَنٌ بَيْنَهُمْ أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

فيغدو هذا الحديث كالملح على جراحات اصحاب النار فيلهب نفوسهم بمشاعل من النار.

نعم انهم كانوا قوماً يصدّون الناس عن سبيل الله (كما تصرّح بذلك الآية اللاحقة) ولهذا فهم اليوم يُبعدون عن رحمة الله (لأن اللعنة تعني الطرد من الرحمة الالهية).

ولكن من هو هذا المؤذن الذي يمتلك هذه السيطرة على الجنة والنار فيسمع الكل نداءه ويتحدث عن الله؟ ورد في الكثير من الروايات المنقولة عن الشيعة والسنة بأنه امير المؤمنين (عليه السلام) الذي كان يجاهد الظلمة طوال حياته.

والعجب ان بعض المتعصّبين حاول التقليل من اهمية هذه الفضيلة، فقال: ولا يفهم من هذا العمل أنه فضيلة لعلي (عليه السلام).

بينما تقضي البداهة بأن هذا المؤذن المهيمن على الجنة والنار المبلغ نداء الله في ذلك اليوم، ينبغي ان يكون له مقام سامٍ ورفيع.

والخلاصة هي ان الانسان مؤلف من جسم وروح ، والمعاد ايضاً يتحقق بهذين البعدين وهذا ما يستلزم الثنائية ايضاً في العقاب والثواب وبناءً على ما ذكرنا فأهل النار لا يتألمون من العذاب الجسماني فقط ، بل ويعانون كذلك من العذاب النفسي والروحي وهو أشد وطأة عليهم ، فهم يعيشون في ألم وهمّ وحزن غير متناهٍ ، وتلازمهم الفضيحة والندامة مما مضى ، ولو قارنوا انفسهم بأهل الجنة لكانت المعاناة اشد لاسيما بوجود الملائكة الغلاظ وما يواجهونه من انواع الاستهانة والتوبيخ والاحتقار ، وهذه كلها من العوامل التي تؤذيهم نفسياً وتجعلهم يعيشون في عذاب مرير .

ومن المؤكد ان هذه العقوبات تنسجم مع عملهم في هذه الدنيا حين كانوا يعاملون المظلومين بأنواع العذاب والعقاب وكانوا كثيراً ما يستهزئون بآيات الله ويسخرون من عباده ويستخفون بالمؤمنين ويتفاخرون على الآخرين .
فهل هنالك عجب لو انهم واجهوا تجسيد اعمالهم هناك ووقعوا في مغبة نتائجه ، ليحصدوا في الآخرة كل ما زرعه في مزرعة الدنيا؟ .



خلود العقاب

٦ - خلود العقاب

تمهيد:

هنالك تناسب بين «الجريمة» و«العقاب» دائماً فكلما كانت الجريمة اعظم كانت العقوبة اثقل ، هذا في مجال العقوبات الجزائية .
أما في الآثار الوضعية والطبيعية لأعمال الانسان فالقضية تأخذ منحى آخر فقد يتعرض الانسان - نتيجة لتساهله وتجاهله ولو لحظة واحدة - لحادثة لا يتيسر له جبرها أو علاجها ، وربما تكون حصيلة الجهل والتساهل فادحة جداً كأن تؤدي مثلاً الى اصابة عضو من اعضاء الجسد بالنقص أو الشلل الى الأبد وهذا ما يحتم دفع كفارة ذلك وتحمل تبعاته الى نهاية العمر ، مع ان الخطأ ارتكب لحظة واحدة .
يفهم من آيات القرآن الكريم وبكل وضوح بأن فريقاً من الناس يبقى في العذاب الأبدي أو يتعبير آخر يخلد في جهنم ، وقد اثارت مسألة «الخلود» هذه تساؤلات شتى ، وطرحت في تفسيرها آراء مختلفة سنأتي عليها لاحقاً باذن الله .
نقرأ اولاً الآيات الشريفة التالية التي تتضمن كل واحدة منها تعبيراً جديداً عن خلود العذاب :

١- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

٢ - ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ المائدة-٣٧.

٣ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهْمٌ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ هود-١٠٦-١٠٧.

٤ - ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾ الزخرف-٧٧.

٥ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَتَنْتَبِرًا مِنْهُمْ كَمَا تَنْتَبِرُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ البقرة-١٦٧.

جمع الآيات وتفسيرها

عذاب الخلد:

تطالعنا الآية الأولى بكلمة «الخلود» المعروفة ، فتقول : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

هذا في وقت صرّحت فيه بعض الآيات القرآنية الأخرى بكلمة «الأبدية» بعد كلمة الخلود وهو ما يعبّد تأكيداً لها ، ومن جملة ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْلَمِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ سورة الجن-٢٣.

وجاء نفس هذا المعنى أيضاً في الآية (٤٥) من سورة الأحزاب ، حيث اقترنت كلمة الأبدية بكلمة الخلود .

وقد وردت كلمة الخلود لنار جهنم في آيات كثيرة من القرآن الكريم فمنها ماورد وصفاً مثل «خالدون وخالدين» ، ومنها ماورد على صيغة الفعل كما في الآية (٦٩) من سورة الفرقان التي اشارت الى مضاعفة العذاب على المشركين والقتلة والزناة وقالت : ﴿ويخلد فيه مهاناً﴾ .

وورد هذا العنوان احياناً كقيد للعذاب ، كما جاء في الآية (٥٢) من سورة يونس : ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ .

وجاءت كلمة «الخلود» بصيغها المختلفة (فعلاً، ووصفاً، ومصدرًا) بخصوص عذاب النار أكثر من ثلاثين مرّة في القرآن الكريم، وتأكيداً على هذه الكلمة له مفهوم خاص سيّضح سببه في البحوث القادمة بمشيئة الباري عز وجل. وقد وردت هذه الكلمة ايضاً بخصوص نعم الجنّة في آياته كثيرة من القرآن الكريم والتي تمت الاشارة اليها في بحث نَعَم الجنّة.

لنرى الآن ما معنى «الخلود» في اللغة، وما معناه عند المفسّرين:
فَسَّر لسان العرب كلمة الخلود بمعنى دوام البقاء في دار لا يخرج منها واطلق
للاخرة (دار الخلد) لبقاء اهلها فيها.
وفي مقاييس اللغة ذكر معنى واحداً لأصل الكلمة وهو الثبات والبقاء والتلازم.

وورد نفس هذا المعنى ايضاً في «صحاح اللغة» وكتب اخرى.
لكن الراغب قال في «المفردات» ان معناها الأصلي هو تبرّي الشيء من عروض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود، ويقال للذي يبقى مدة طويلة، وفيه قيل: رجل مخلّد لمن ابطأ عنه الشيب.

وعلى كل الاحوال نستخلص من مجموع كلمات اصحاب اللغة رأيين مختلفين؛ الاول: هو المعنى الدال على الدوام والبقاء والأبدية، وان اطلق على طول العمر فهو من باب التشبيه ليس الآ. والثاني طول العمر، واذا أُطلق على الدوام والأبدية فهو من باب البيان المطلق.

وللمفسرين ايضاً آراء مختلفة في هذا الصدد.

فقد صرّح بعضهم ان «الخلود» هنا يعني الاستمرار والدوام الذي لا انتهاء له مطلقاً^(١).

وقال آخرون ان معناه الحقيقي هو الاستمرار والتواصل والدوام ومعناه المجازي المدة الطويلة ، أمّا الاستخدام القرآني للكلمة فهو بالمعنى الأول^(١) .

وذكر بعضهم نفس هذا المعنى بتعبير آخر وهو ان الخلود في اللغة يعني المكث الطويل كما هو الحال في قولنا للسجن المؤبد والفترات الطويلة الأمد فنقول مثلاً خُلد فلان في السجن ، اما في لسان الشرع فيعني الابدية^(٢) .

وجاء في تفسير المنار ان فتح باب تأويل الخلود أدّى الى جرئة اصحاب استقلال الفكر في هذا الزمان على الدخول فيه والقول بأن معنى خلود الكافرين في العذاب طول مكثهم فيه ، لان الله الرحمن الرحيم ، الذي سبقت رحمته غضبه ما كان ليعذب بعض خلقه عذاباً باق لا نهاية له^(٣) .

ويقول البعض أيضاً: رغم ان الكفرة والمعاندين الطغاة المتمردون الذين استشرت الذنوب في صميم كياناتهم يبقون في النار، الا ان جهنم لا تبقى دوماً على حال واحدة فلا بد ان تبلغ اليوم الذي تخمد نارها ويرتاح اهلها .

وقد احتمل أيضاً ان اهل النار سيعتادون بمرور الزمن على شدة حرارة النار وكثرة العذاب ويتلاءمون بالتدرج مع وضع جهنم فلا يبقى لديهم اي شعور بالألم ! الا ان امثال هذه الاحتمالات مرفوضة من قبل علماء الاسلام ومفسري القرآن لأنها تتعارض وصريح الآيات القرآنية ، اضافة الى ان الآيات التي قرأناها لم تقتصر عباراتها على ذكر كلمة الخلود فحسب حتى تتحمل مثل هذه التأويلات بل توجد اضافة اليها تعابير اخرى وردت وهي لا تتحمل مثل هذه التأويلات . (فتأمل) .

وخلاصة القول هي ان العجز عن حل مشكلة الخلود في العذاب ، قد دفع البعض فيما يبدو الى الميل لمثل هذه التأويلات الخاطئة ، والآفة لالة الآيات القرآنية

١ - تفسير القرطبي: المجلد ١ الصفحة ٢٠٧ .

٢ - تفسير المراغي: المجلد ١ الصفحة ٦٩ .

٣ - المنار: المجلد ١، ص ٣٦٤ .

وفي العبارة الثانية نلاحظ وجود كلمة «الاقامة» حيث تقول الآية الشريفة: ﴿يُرِيدُونَ
 أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَا فِيهَا مِنْ خَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.
 ان وصف كلمة العذاب بـ «المقيم» يدل بوضوح على ان هذه العقوبة بالنسبة
 لهم قائمة ومتواصلة.



العذاب الابدي :

طرحنا الآية الثالثة مسألة أبدية العذاب في جهنم لفئة من اصحاب الجحيم ،
 ولكن بتعبير آخر يمتاز بصراحة اكثر ، فتقول : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ
 وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ . وفي الختام تستثني فتقول : ﴿إِلَّا
 مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ .

(من البديهي ان السماء والارض لن يكون لهما وجود آنذاك ، وان السموات
 والارض اللتان تتحدث عنها الآيات القرآنية ، تقومان بعد زوال الارض والسماء
 الحالية ، وهما خالدتان الى الأبد).

قال البعض ان هذا التعبير في اللغة العربية كناية عن الأبدية ، اذ يوجد في
 اللغة العربية الكثير من التعابير المستخدمة بمعنى الأبدية . مثل «ملاح كوكب» او
 مثل ماورد في كلامه (عليه السلام) حين اعترض عليه الجهلة بسبب تقسيمه بيت المال
 بالتساوي وكانوا يطمعون في ان يميز بين الناس بالعطاء كما كان يفعل الخليفة الثالث
 ظناً منهم ان هذا الاسلوب سيُسهم في تثبيت ركائز حكمه ، فقال لهم الامام (عليه السلام) :
 «اتأمرني ان اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ، والله لا اطور به ما سمر سمير وما
 أمّ نجم في السماء»^(١).

ويلاحظ في شتى اللغات تعابير من أمثال هذه وفيها دلالة على الاستمرارية

ويلاحظ في شتى اللغات تعابير من أمثال هذه وفيها دلالة على الاستمرارية والدوام والأبدية .

ويبقى هنا سؤال واحد وهو ان كانت الآية اعلاه تعني أبدية العقوبة فما مفهوم الاستثناء الوارد في نهايتها وهو «الآ ماشاء ربك» ؟ فالذي يبدو من ظاهر هذا الاستثناء على اقل تقدير هو عدم ابدية العذاب لفئة معينة منهم ، بل ويحتمل ايضاً شموله لهم جميعاً ، وستكون النتيجة معكوسة في مثل هذه الحالة .

وقد قام بعض المفسرين من امثال المفسر الكبير المرحوم الطبرسي في مجمع البيان بنقل عشرة اوجه لهذا الاستثناء عن علماء التفسير . الا اننا تجنبنا نقلها هنا لضعفها وعدم اهميتها (والظاهر ان المرحوم الطبرسي لم ينقلها لاقتناعه بها ولكن من باب ذكر جميع الآراء) ونكتفي بذكر ما يستحق الاهتمام منها فقط وهو :

أولاً: ان الهدف من ذكر هذا الاستثناء هو تبيان حاكمية الله وقدرته المطلقة ومشيبته الكاملة ، فلا تظنوا ان هذا الخلود يتحقق بدون ارادته . وان شاء فهو على كل شيء قدير ولكن ارادته قضت بتخليد هذه الطائفة من اهل جهنم فيها .

ولهذا ورد نفس هذا التعبير بشأن اهل الجنة في الآيات السابقة لها . فتقول الآية في نفس الوقت : «عطاء غير مجذوذ» .

وتُظهر هذه الجملة بوضوح بأن المقصود من الاستثناء من الاشياء ليس هو قطع العذاب أو النعمة بل لمجرد تبيان قدرة الله .

وثانياً: ان المقصودين بالاستثناء هم الذين لا يستحقون الخلود في العذاب كالمؤمنين المذنبين الذين يبقون في النار لمدة من الزمن ، فيتطهرون من ذنوبهم ، ومن ثم يذهبون الى الجنة ، وجملة «الآ ماشاء الله» هنا تختص بهذه الطائفة ، اما الكفرة فسيقون في العذاب (وهم كما يُقال جزء من المستثنى منه لا المستثنى) .

ونفس هذا الاعتبار يُطرح أيضاً بشأن اصحاب الجنة ، فهم ايضاً خالدون فيها الا المؤمنين المذنبين منهم والذين كانوا سابقاً في جهنم ثم جاؤا الى الجنة .

وعلى كل حال فهذا الاستثناء لا يخلق أية مشكلة في دلالة الآية على أبدية العذاب .

تصرّح الآية الرابعة بمسألة الخلود وعدم تخفيف العذاب للمجرمين وتؤكد أيضاً ان الله سبحانه وتعالى لم يظلم بل هم الذين ظلموا انفسهم : ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُثُونَ﴾ .

كلمة المكث جاءت هنا بشكل مطلق وغير محدود وهذه دلالة أخرى على خلود عذابهم ^١ .

لذلك يصرّح المرحوم الطبرسي في مجمع البيان بأن كلمة «ما كثون» هنا تعني «دائمون» ، ورغم ان الآية المذكورة لم تبين هل ان مالكا أجابهم مباشرة ام بعد مدّة من الزمن ، إلا ان جماعة من المفسّرين قالوا ان هذا الجواب يأتيهم بعد مدّة للامعان في تحقيرهم والاستخفاف بهم . فقال بعضهم ان الجواب يرد بعد أربعين عاماً ، وقال آخرون بعد مائة عام ، وثقل عن ابن عباس انه قال ان هذا الرد السلبي يأتيهم بعد ألف عام ^(١) ، من اجل ان يظلّوا في الانتظار لمدّة اطول ويتحمّلوا العناء وذل الاستهانة ! وتظهر الآية بوضوح عدم وجود الموت في ذلك العالم ، بل هم دوماً أحياء يعيشون في الألم والعذاب .

ويطالعنا في الآية الخامسة عشرة تعبير يتحدث عن «عدم الخروج من النار» بشكل مطلق ، وهو تعبير آخر يحكي حقيقة خلود العذاب ، وتصف الآية نفور المتّبعين من المتّبعين في قولها : ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ .

نعم هؤلاء لا يتأتّى لهم سوى الندم على ماضى ، والحسرة على ما كانوا

ج - «المكث» يعني البقاء المصحوب بالانتظار «كما قال الراغب في مفرداته» ، وكلمة المكث تطلق ايضاً على التوقف المؤقت ، إلا انها عندما تذكر مطلقة وبلا قيد او شرط فهي تعني التوقف الدائم .

١ - تفسير الفخر الرازي : المجلد ٢٧ ، الصفحة ٢٢٧ ، وتفسير القرطبي : المجلد ٩ الصفحة ٥٩٣٧ ، نقل ايضاً في تفسير مجمع البيان / مسألة الاربعين عاماً والالف عام .

يقومون به من تقليد أعمى وطاعة مطلقة لقادة الضلال ، والتأسف على العمر الذي مرَّ هدرًا . وعلى الاموال التي جُمعت من الحرام وتُرِكَت يتنعم بها الآخرون ، وعدم استغلال فرص التوبة التي أُتيحت ، ولكنها حسرة وندم لا طائل من ورائهما لأن فرص العودة قد مضت وامكانية التعويض لن تأتي ثانية .

يقول المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان ، عند تفسيره لهذه الآية : وهذا دليل ضد من يعتق بانقطاع عذاب جهنم .

النتيجة :

نستخلص من مجموع التعابير الخمسة التي مرّت بأن عذاب جهنم أبدي كما ان نعم الجنة أبدية ، اما الذين يعتقدون بانقطاع العذاب فهم يرون خلافاً لما تنص هذه الآيات (وأمثالها) ، ويفسّرون القرآن على طريقة (التفسير بالرأي) . صحيح أن الاعتقاد بخلود العذاب - وان كان لفئة خاصة من اهل النار - له مشكلاته وتعقيداته ، ولكن بالنظر لصراحة الآيات القرآنية في هذا الصدد ، ينبغي حل تلك التعقيدات عن طريق المنطق والاستدلال ، لا عن طريق تجاهل وانكار اصل الموضوع .

ايضاحات :

من هم المخلدون في النار ؟

ذكرت الآيات القرآنية اشخاصاً واقواماً بالخصوص يخلدون في النار ومن

جملتهم :

١- الكفار :

بمن فيهم المنكرون للمبدأ والمعاد والمشركون والمكذّبون بآيات الله واعداء الله

ورسوله (ﷺ) والمرتدون، وهم الذين ذكرتهم الآيات القرآنية وقالت بأنهم سيخلدون في النار، من جملة ذلك الآية (١١٦) من سورة آل عمران التي نصّت على: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

٢- المنافقون:

رغم انهم ينخرطون في الظاهر في سلك اهل الايمان ويُعدّون في زمرة المؤمنين، إلا انهم من المخلدين في جهنم، كما دلّت على ذلك الآية (١٧) من سورة المجادلة فقد اشارت أولاً الى اعمالهم وسلوكهم ثم قالت: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وتقول الآية (١٤٠) من سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾.

٣- الفارقون في الذنوب:

يلحظ في الآية (٨١) من سورة البقرة عبارة في وصف المذنبين، وهي غنية المعنى تقول: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ويقارب هذا المعنى ماورد في الآية (٢٧) من سورة يونس، وجاء فيها: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَالَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

١ - هنالك آيات كثيرة اخرى تتحدث عن هذا الموضوع أيضاً من امثال: الاعراف-٣٦ وهي بشأن المكذّبين بآيات الله، وسورة البينة-٦ التي تعتبر المشركين واهل الكتاب مخلّدين في النار، وسورة التوبة-١٧ وفيها ذكر لخلود المشركين، وسورة البقرة-٢١٧، وسورة آل عمران-٨٨، التي تتحدث بخصوص المرتدين، وسورة فصلت-٢٨ والتي تشير الى خلود اعداء الله في النار.

ولكن هل ان المؤمنين من مرتكبي الكبائر يخلدون في العذاب أم لا؟ هذا ما سنُجيب عنه في بحث مفصل بعد تفسير هذه الآيات بإذن الله .

٤- القتل والجُناة:

يُفهم من آيات القرآن ان مرتكبي قتل العمد يخلدون ايضاً في العذاب ، كما تنص على ذلك الآية (٩٣) من سورة النساء: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَآعَدَ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ .

وقد عُرِضت هنا اربع عقوبات لقاتل العمد وهي :

الخلود في النار، والغضب الالهي ، والطرْد من رحمة الله ، والاستعداد للعذاب العظيم .

ولكن هل ان هذه العقوبات تصدق في حالة عدم التوبة وجبران مافات ، ام انها في رقابهم في جميع الاحوال .

يبدو الاحتمال الثاني مستبعداً جداً، وذلك لأن اكبر الذنوب وهو الشرك يمحى بالتوبة ، فالمشركون كذلك يعفى عنهم بدخولهم الاسلام ، فكيف يمكن القبول بأن قتل النفس يفوق كل هذا ، اضافة الى ذلك ما ورد في تاريخ الاسلام من ان النبي (ﷺ) عفا عن وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب وقَبِلَ توبته وكذلك عفا الكثير من المسلمين عن قتلة آبائهم وأبنائهم واخوانهم ، بعد دخولهم الاسلام . ومن نافلة القول ، ان التوبة عن مثل هذا الذنب ليست بالامر الهين ولا تنتهي القضية بالاستغفار بالقول بل ينبغي الانقياد للقصاص أو ارضاء اولياء القتيل بالدية أو غيرها وجبران ماضى بعمل الخير في المستقبل .

جاء في حديث عن الرسول محمد (ﷺ) انه قال : (لزوال الدين و ما فيها اهن على الله من قتل مؤمن ولو ان اهل سمواته واهل ارضه اشتركوا في دم مؤمن

لأدخلهم الله تعالى النار^(١).

أما كيف يمكن خلود قاتل العمد في النار مع ان البحث الذي سنعرضه في المستقبل يدل على ان الكفار وحدهم سيخلدون في النار، فللمفسرين اجوبة مختلفة في ذلك

ف قيل أن اشخاصاً كهؤلاء لا يكتب لهم نصيب من التوبة أو قليلاً ما يوفقون لبلوغها، فيغادرون الدنيا في نهاية المطاف بلا ايمان ولهذا فهم يستحقون الخلود في النار.

وقيل ان هذا هو جزاء من يقوم بالقتل العمد وهو منكر لتحريمه، وهذا الامر يستلزم الكفر بذاته.

وقيل ان كلمة الخلود تعني هنا المدة الطويلة لا العذاب الأبدي. يبدو ان التفسيران الاول والثاني أنسب الى واقع الحال.

٥ - آكلو الربا:

هددت الآيات القرآنية آكلي الربا أيضاً بالعذاب الابدي، فقالت: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة-٢٧٥.

وهنا يعترضنا أيضاً سؤال وهو: كيف يخلد هذا الفريق في النار بينما الذنب الكبير لا يستوجب لوحده الخلود في النار؟

الإجابة عن هذا السؤال هنا أبسط وذلك لأن نص الآية (في الجمل السابقة) يشير الى منكري تحريم الربا، الذين كانوا يقولون: ما الفرق بين البيع والربا، ولما أحل الله احدهما وحرم الآخر، في حين ان الفارق بينهما واضح، فالبيع والشراء والتجارة والاعمال المشابهة لها تصب في مصلحة المجتمع، وهي من النشاطات الاقتصادية

السليمة ، اما الربا فهو ضار بالمجتمع ، ولهذا الموضوع شرح واسع تطرقنا اليه في مكانه المناسب .

٦- الظالمون :

الفريق الآخر الذي اعتبره القرآن الكريم مستحقاً للعذاب هو الظالمون ، وهو ماورد في الآية (٤٥) من سورة الشورى وجاء فيها : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ . يتبين من هذا التعبير ان عاقبة الظلم ، الخلود في النار .

وقد اكّدت الآيات التي سبقت هذه الآية مراراً على العذاب الأليم للظالمين (الشورى -٤٢) ، وعلى ندمهم الشديد وهم يتعذبون في نار جهنم (الشورى -٤٤) .

هل المقصود من الظلم هنا هو ظلم عباد الله والمستضعفين ام هو ظلم النفس من خلال الشرك ، لأن الشرك كما تصرّح الآية (١٣) من سورة لقمان بأنه : ﴿ظَلَمَ عَظِيمٌ﴾ وجاء أيضاً في الآية (٢٥٤) من سورة البقرة : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

رجّح بعض المفسرين المعنى الثاني ، ولعل جملة ﴿قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ دليل على هذا المعنى أيضاً وان المؤمنين المظلومين قد واجهوا ظلماً كبيراً على يد الكفار الظالمين وهم -اي المؤمنون - الذين يتحدثون بهذا الكلام في يوم القيامة .

وتنص الآية (١٧) من سورة الحشر بعد الاشارة الى خلود الشيطان واتباعه في النار : ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ .

ولكن لو علمنا ان هذا الحديث يدور حول الشيطان واتباعه الكافرين وما ورد في الآية السابقة وهو : ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ لأدركنا بأن المقصود من الظلم في هذه الآية مصداقه الأثم يعني الكفر .

٧- الذين خَفَّت موازينهم:

يُستفاد من بعض الآيات القرآنية بأن ثقل ميزان العمل في يوم القيامة يدل على الفوز والنجاة، أما خفة ميزان العمل فهي دالة على عدم قيمته وهذا ما يؤدي الى الخلود في النار، جاء في الآيتين (١٠٢- ١٠٣) من سورة المؤمنون: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. .

وعبارة: «خسروا انفسهم» اشارة لطيفة الى ان اكبر رأس مال يمتلكه الانسان هو وجوده وعمره وحياته، وان هؤلاء قد خسروا رأس مالهم في سوق تجارة الدنيا من غير ان يحصلوا مقابله على شيء ذي اهمية .

وقد يكون هذا التعبير اشارة الى الكفرة، لأن المؤمن مهما ارتكب من ذنوب فلا بد ان يحتوي ميزان عمله على شيء ما ولا يبقى خفيفاً تماماً وذلك لأن الايمان والمعتقد الحق له بذاته وزن لا يُستهان به، وعلى هذا فان خفة ميزان اعمال هذه الفئة وخلوه من اية حسنة دليل على كفرها. كما يتضح هذا المعنى من الآية (١٠٥) من سورة الكهف: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ .

٨- المجرمون بشكل عام:

يُفهم من بعض الآيات بأن المجرم بشكل مطلق مخلد في جهنم، تقول الآية (٢٣) من سورة الجن: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنْتَ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ وجاء نفس هذا المعنى أيضاً مع اضافة اخرى في الآية (٤١) من سورة النساء: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ .

وورد تعبير يشابه هذا في الآية (٧٤) من سورة الزخرف: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ .

ولكن لو التفتنا إلى الآيات السابقة كآية (٢٠) من سورة الجن والتي يدور فيها الكلام عن دعوة النبي (ﷺ) إلى التوحيد وتقويض الشرك، وما جاء في الآية (٢٤) من نفس السورة) التي نقلت كلام مشركي قريش الذين كانوا يعنفون النبي (ﷺ) لعدم وجود الانصار والاعوان المتنفذين، لتبين لنا بأن المقصود من «العصيان» هنا هو الكف عن الدعوة إلى التوحيد والميل إلى الشرك والكفر، وعلى هذا فهي لا تتضمن أية دلالة على خلود جميع المجرمين في النار.

ويلاحظ وجود قرينة في ذيل الآية (٧٤) من سورة الزخرف دالة على هذا المعنى لأنها تتحدث عنّ كانوا يضمرون العداء الشديد للدعوة، وكانوا يظنون ان الله غير مطلع على سرهم ونجواهم، ويُعتبر هذا بذاته من معالم الكفر. (فتأمل).
وقد صرح الكثير من المفسرين عند تعرّضهم للآية المذكورة بأن المقصود من العصيان فيها هو العصيان في التوحيد^(١).

الآن هذا الاحتمال - وهو ان المقصود من الخلود هنا هو العذاب الطويل - يبدو مُستبعداً جداً، وذلك لأن تأكيد كلمة «الخلود» بكلمة «ابداً» دالٌّ على ان المقصود هو خلود العذاب الالهي.

* * *

النتيجة:

لقد ادركنا من خلال النقاط الثمان مارة الذكر وجهة نظر القرآن في موضوع المخلّدين في النار، ولكن يتّضح من خلال النظرة الاجمالية للآيات المارة ان خلود الكفار في النار أمرٌ بديهي لا مفر منه، الا انه غير مُسلّم به لجميع العاصين، ويستثنى من ذلك كون المعصية او الذنب على درجة كبيرة بحيث تدفع الانسان إلى

١- راجع تفسير مجمع البيان: المجلد ٩ و ١٠ الصفحة ٣٧٣، تفسير الميزان: المجلد ٢٠ الصفحة ٥٢، وتفسير روح البيان: المجلد ١٠، الصفحة ٢٠٠، وتفسير روح المعاني: المجلد ٢٩، الصفحة ٩٤.

الكفر والخروج عن خط الايمان ، أو ان يغادر هذه الدنيا وهو غير مؤمن ، وسنصل الى شرح مفصل عن هذا الموضوع قريباً .

* * *

سؤال : هل ان مرتكبي الكبائر مخلدون في النار ؟

هناك فرقة اسلامية تعرف بـ «الوعيدية» (وهي من فرق الخوارج) تعتبر أي ذنب من الكبائر موجباً للكفر وتعتقد ان مرتكبه يخلد في النار، ويقف في مقابل هذه الفرقة «المرجئة» الذين يقولون بأن الايمان لا تضر معه المعصية (احدهما تتصف بالافراط والآخرى بالتفريط !).

قال العلامة الحلبي (رحمته الله) في (شرح التجريد) بعد ان نقل اجماع واتفاق المسلمين على العذاب الأبدي للكفار: يختلف المسلمون في مرتكبي الكبيرة، فالوعيدية يعتبرونهم كالكفار، لكن الشيعة وكثير من المعتزلة يعتقدون ان عذابهم له نهاية، ثم اقام الأدلة التي تثبت هذا المعنى.

يقول الشيخ المفيد في «أوائل المقالات»:

«اتفقت الامامية على ان الوعيد بالخلود في النار متوجه الى الكفار خاصة دون مرتكبي الذنوب من اهل المعرفة بالله تعالى والاقرار بفرائضه من اهل الصلاة، ووافقهم على هذا القول كافة المرجئة واصحاب الحديث قاطبة، واجمعت المعتزلة على خلاف ذلك وزعموا ان الوعيد بالخلود في النار عام في الكفار وجميع فساق اهل الصلاة^(١).

ويستدل هذا الفريق ببعض الآيات القرآنية لإثبات رأيه، وبالخصوص تلك الآيات القائلة بخلود مرتكبي القتل العمد وآكلي الربا في نار جهنم وامثالها من الآيات، ومن اوسع تلك الأدلة شيوخاً هي الآية (٢٣) من سورة الجن والتي مرّ علينا

تفسيرها مسبقاً وهي: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا أَبَداً﴾ .
ولكن هناك قرائن كثيرة في هذه الآيات وفي غيرها تدل على انها (هذه الآيات) تختص بأولئك الذين تنتهي بهم ذنوبهم الى الكفر وانكار المعاد أو النبوة أو ضرورة من ضرورات الدين ، ومن جملة تلك القرائن آية : ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ سورة يونس-٢٧. وبالنظر الى ان هذا الوصف قد ورد في القرآن هنا بحق الكفار ، حيث يقول تعالى : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ عبس-٤٠-٤٢.

فهذا دليل على ان المقصود في الآية موضع بحثنا هم الكفار ايضاً .
ولهذا جاء في الرواية عن الامام الباقر (عليه السلام) انه قال : هؤلاء اهل البدع والشبهات والشهوات يسود الله وجوههم ثم يلقونه يقول الله : ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ ، يسود الله وجوههم يوم القيامة ويلبسهم الذل والصغار يقول الله : ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١) .

والقرينة الأخرى هي عبارة «احاطت به خطيئته» الواردة في الآية (٨١) من سورة البقرة والتي تشير الى ان ارتكاب الذنب الكبير وحده لا يؤدي الى الخلود في النار، بل ان احاطة الذنب بكل وجود الانسان هي السبب في طرح مثل هذا الموضوع لأنها تسوقه نحو الكفر. والسبب في ذلك - كما تفيد الروايات - ان الايمان يظهر في القلب على هيئة نقطة مضيئة ، وكلما ازدادت اعمال الخير التي يؤديها كلما اتسعت تلك النقطة حتى تحيط بقلبه كله . وكلما ارتكب ذنباً ومعاصي كلما ختم الظلام على قلبه حتى يحيط بقلبه كله ويجعله قلباً اسوداً (ينطفئ فيه نور الايمان) لاسيما وان بعض تلك الروايات تستدل بقوله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الطغفين-١٤^(٢) .

وبعض تلك الآيات تؤكد على تعمّد الذنب (كآية القتل)، ولعل المراد منها

١ - تفسير علي بن ابراهيم : ج ١ ، ص ٣١١ .

٢ - اصول الكافي : المجلد ٢ الصفحة ٢٧٣ ، باب الذنوب الحديث ٢٠ .

تقصّد مخالفة امر الله والعناد امام الحق ، وهذا من اوضح مصاديق الكفر .
والاستشهاد الآخر هو الوارد في الآية (١٠) من سورة الروم ، وجاء فيه: ﴿ثُمَّ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُا السُّوْأَىٰ اَنْ كَذَّبُوْا بِآيَاتِ اللّٰهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُوْنَ﴾ .
يُظهر هذا التعبير ان الاصرار على الذنب والاستمرار عليه يؤدّي بالنتيجة الى
الكفر وتكذيب آيات الله وهو ما يؤدّي الى الخلود في النار .
اضافة الى كل هذا فان آية ﴿اِنَّ اللّٰهَ لَا يَغْفِرُ اَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ﴾ والتي تكررت مرّتين في سورة النساء (الآية ٤٨ ، والآية ١١٦ منها) هي دليل
آخر واضح على هذه الحقيقة وهي ان المشركين (الكفر بأنواعه ايضاً ملحق بالشرك)
لا يغفر لهم ويخلدون في جهنم ، واما المجرمين الآخرين فيمكن ان يغفر لهم وهذا
ما يدل على ان حسابهم يختلف عن حساب الكفار ولا يمكن ان يعدّوا ضمن صنف
واحد .

لا يتوهم احد ان هذه الآية تعطي الضوء الاخضر للمجرمين ، لانه لم يصدر
وعد قطعي بالعتق عنهم بل هو وعد احتمالي مرتبط بمشيئة الله . ولما كانت مشيئة
الله وارادته مرتنه بحكمته ، وحكمته تقتضي ان تكون هذه المقوّمات كلها معايير
للعفو ، اذن فالحال يوجب على المجرمين عدم قطع علاقاتهم بالله واوليائه والابقاء
على جسور العودة قائمة .

ورد في الروايات ان هذه الآية هي اكثر الآيات التي تبعث الأمل والرجاء في
النفوس ، كما جاء عن امير المؤمنين علي (عليه السلام) انه قال : «ما في القرآن آية ارجى
عندي من هذه الآية»^(١) .

ولطرح مزيد من التوضيح ، ينبغي الالتفات الى ان الآية المذكورة لا تشمل
مرتكب الصغائر طبعاً لأن القرآن قد وعد بغفران الذنوب الصغيرة لمن يتورّع عن
اجتناب الكبائر منها ، وهي ايضاً لا تشمل الذنوب الكبيرة بعد التوبة لأن التوبة سبب

١ - يمكن مراجعة «التفسير الامثل» ، المجلد ٣ الصفحة ٤٠٩ للاطلاع على شروحات اوسع .

لغفران جميع الذنوب حتى الشرك . وعلى هذا فالمفهوم الوحيد المتبقي لهذه الآية هو انها مّيزت بين الشرك وارتكاب الذنوب الكبيرة ، فالأول لا يغفر لأن وجود الشرك يقضي على جميع مقوّمات العفو، أمّا الثاني فالعفو فيه محتمل ولكن بشروط اشير اليها في جملة «لمن يشاء» .

والشاهد الآخر على هذا الادّعاء هو الآيات القرآنية العديدة التي تقول :
﴿فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله ان الله بصير بالعباد﴾ المؤمن-٤٤ . و**﴿فمن يعمل مثال ذرة خيراً يره﴾** سورة الزّال-٧ .

كذلك آيات الشفاعة لأن الصغائر تُمحى في ظل اجتناب الكبائر، والكبائر أيضاً يُعفى عنها بالتوبة ، واستناداً الى ما ذكر فالشفاعة تختص فقط بمرتكبي الكبائر الذين لم يتوبوا فإن كانوا يستحقّون الشفاعة يُعفى عنهم .

فإن كان الحال كذلك ، فكيف نعتبر مرتكبي الكبائر كالكفار والمشرّكين ونقول بخلودهم في النار؟

كيف يمكن ان تقضي الحكمة بتخليد انسان في النار قضى عمراً في الايمان والعمل الصالح لارتكابه ذنباً كبيراً كأن يكون كذب لمرة واحدة في حياته، نحن لانقول هنا بعدم عقابه بل نرى ان عذاب الخلد لا ينطبق على مثل هذا الشخص .

هناك روايات كثيرة وردت عن المعصومين (عليهم السلام) تنفي قول «الوعيدية» بتخليد مرتكبي الكبيرة في النار^(١) .

والحقيقة ان هذه الفرقة المتطرفة من الخوارج قد انحدرت في هذا الوادي السحيق بسبب التعصب والعناد وعدم الالمام بآيات القرآن واحاديث النبي (صلى الله عليه وآله) والمعصومين (عليهم السلام) ، وعدم الأخذ بالأدلة العقلية البينة ، والخوارج ككل قد ابتلوا

١ - للاطلاع على ايضاحات اكثر يمكن مراجعة كتاب بحار الانوار: المجلد ٨ الصفحة ٣٥١-٣٧٦ الباب ٢٧ ، وتفسير الفخر الرازي: المجلد ٣ الصفحة: ١٤٤ وما بعدها .

بعواقب جهلهم وتعصبهم وماضيهم في التاريخ الاسلامي افضل دليل على ذلك^(١).

* * *

ايضاحات

اعتراضات على 'خلود العذاب':

طرحت اسئلة مختلفة بشأن العقاب الأبدي لفئة خاصة من المجرمين يبدو ان البحث فيها ضروري هنا.

١- فناء المادة:

هناك من يقول ان المادة ليست خالدة حتى تكون ثواباً أبدياً أو عقاباً أبدياً. وبعبارة اخرى ان فناء المادة لا يتناسب وخلود الثواب والعقاب.

وليس هناك صعوبة كبيرة للرد على هذا الاعتراض فلا يوجد شيء في العالم - سوى ذاته المقدسة - ابدى بالذات. بل ان كل ذرات العالم (سوى ذاته) فانية والبقاء لا يصح إلا لها، لكن ذلك لا يمنع ان تكون الموجودات الامكانية ابدية بالغير. اي ان الله تعالى يمدّها دوماً بأسباب البقاء وكلما استهلكت تجددت أو كما يُعبّر عنه في الفلسفة ان «الامكان بالذات» لا يتنافى مع «الوجوب بالغير». (تأمل جيداً).

اي كما ان الله سبحانه وتعالى يمد الجنة والنار دوماً بأسباب الوجود ويجعلهما باقيتان قائمتان دائماً، فكذلك تكون اجسام اهل الجنة واهل النار مشمولة بهذا القانون اذ تبقى قائمة دوماً بالامداد الالهي حتى تلقى جزاءها الأبدي من عقاب أو ثواب وخلاصة القول ان الفناء يحصل في حالة عدم وجود امداد خارجي وانعدام التجدد.

* * *

١ - لغرض الاطلاع على ايضاحات اكثر في هذا الصدد يمكن مراجعة كتاب بحار الانوار: المجلد ٨ الصفحة ٣٥١ الى ٣٧١ الباب ٢٧، وتفسير الفخر الرازي: المجلد ٣ الصفحة ١٤٤ وما بعدها.

٢- هل يمكن للعرضي ان يصير دائماً؟

يلاحظ في بعض كلمات الفلاسفة بأن «الاصول الحكمية دالة على ان القسر لا يدوم على طبيعة، وأن لكل موجود من الموجودات الطبيعية غاية ينتهي اليها وقتاً وهي خيره وكماله، وأن الواجب جل ذكره اوجد الاشياء على وجه تكون مجبولة على قوة يتحفظ بها خيرها الموجود وتطلب بها كمالها المفقود، ألا ان يعوق له عن ذلك عائق ويقسر قاسر، لكن العوائق ليست اكثرية ولا دائمة والأل بطل النظام وتعطلت الاشياء وبطلت الخيرات، فعلم ان الاشياء كلها طالبة لذاتها للحق مشتاقة الى لقاءه بالذات، وأن العداوة والكراهة طارية بالعرض، فمن احب لقاء الله بالذات احب الله لقاءه بالذات ومن كره لقاء الله بالعرض لأجل مرض طار على نفسه كره الله لقاءه بالعرض، فيعذبه مدة حتى يبرء من مرضه ويعود الى فطرته الاولى»^(١).

والاجابة عن هذه المقولة ليست صعبة لأن الاخطاء والانحرافات قد تتجذر أحياناً في وجود الانسان الى درجة تغدو معها ذات طبيعة ثانوية مثلما يحصل في هذا العالم حين يبلغ المجرم مرحلة من الانحراف حتى يصبح يلتذ بجرائمه، وتستهو به الامور التي ينفر منها الانسان السوي طبيعياً وفطرياً، كما يلاحظ عند الاشخاص الذين اعتادوا ارتكاب الاعمال القبيحة التي تسمئز منها النفوس.

وحيثما يبلغ الانسان مثل هذه المرحلة من الطبيعة الثانوية لا يبقى له اي طريق للعودة. وهذا هو نفس الشيء الذي عبّرت عنه الآيات السابقة بتعبير «احاطة الخطيئة» الذي يسبب انقلاب الطبيعة الانسانية.

٣- ألا يعتاد اهل النار على العذاب:

قيل احياناً: ان اصحاب الحجيم يُعذّبون بعد دخولهم في نار جهنم بمقدار

١- الاسفار: المجلد التاسع الصفحة ٢٤٦ (مع التلخيص). لقد نقل صدر المتألهين هذا الموضوع بأعتباره وجهاً.

المدة التي قضوها وهم مشركون في هذه الدنيا ، ولكن بعد انتهاء هذه المدة يتحول عذاب جهنم الى نعيم بالنسبة لهم لأنه يصبح امراً متناسباً مع طبيعتهم حتى انهم لو دخلوا الجنة شعروا بعدم الارتياح ، والسبب في ذلك هو عدم تناسبها مع طبيعتهم . انهم يتلذذون بما هم فيه من نار وزمهرير وما فيها من لدغ الحيات والعقارب كما يلتذ اهل الجنة بظلال اشجار الجنة والحدور والقصور وطوبى والكوتر ، وفي هذا العالم نرى البلب يطربه اريج الزهور في حين ان بعض الحشرات القدرة يلتذ وينتشي بروائح القمامة الكريهة ^(١) .

هذا الوهم يشكل نقطة مقابلة للوهم السابق ايضاً ويتناقض معه ، وهو في نفس الوقت لا يتسق مع أي من الآيات التي تؤكد خلود العذاب ، لاسيما وان بعضها قد صرحت بأنه كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليدوقوا عذاب ربهم والتهديد بالخلود في النار هو تهديد بالعذاب الدائم ، ولو انه تحول الى نعمة خالدة لما كان يتصف بالتهديد .

ان مثل هذه التفسيرات بشأن الخلود تدل على ان اصحابها لم يجهدوا أنفسهم بالقيام بدراسة دقيقة أو حتى دراسة اجمالية لتلك الآيات القرآنية . ولو اننا أعدنا قراءة تلك الآيات لتبين مقدار التناقض بينها وبين هذا الكلام الفارغ القبيح .

اضافة الى ذلك ، يجب الالتفات الى ان اعتياد الانسان على الآلام له حدود ، فبعض الآلام طفيفة يعتاد عليها الانسان بمرور الزمن . لكن لو نقص الماء في جسم الانسان مثلاً فانه يعاني العطش ، ويتعذر عليه عندئذ الاعتياد على ذلك ، اي لا يمكنه عدم معاناة العطش مع قلة نسبة الماء .

١ - هذا الكلام نقلناه بشيء من التلخيص عن كتاب الاسفار نقلاً عن محي الدين بن العربي في الفتوحات المكية (الاسفار: المجلد ٩، الصفحة ٣٤٩) .

٤- هل ان الخلود نوعي ام شخصي :

يلاحظ ان البعض اعتبر الخلود «خلوداً نوعياً» لا شخصياً، ومعنى ذلك ان نوع «الانسان الكافر» يبقى في النار الى الابد، لكن الاشخاص يتبدلون، أي ان كل واحد منهم يقضي مدة معينة في عذاب جهنم، وبما انه يعطي مكانه الى آخر، فان بقاء الانسان في جهنم سيبقى أبدياً.

ومفهوم هذا الكلام أن خلقاً آخر يأتي الى الدنيا في المستقبل، وينحرف منهم جماعة أيضاً، فيكونون وقوداً لنار جهنم، ويتصادف دخولهم فيها مع خروجهم الخلق السابق منها^(١).

وهذا التفسير لا ينسجم مع آيات خلود العذاب المتعلقة بالكفار، ويكفي قليل من التدقيق في الآيات السابقة لفهم ذلك التناقض وعدم الانسجام، لأن تلك الآيات تصرح بالخلود الشخصي، وهذه التأويلات لا تتعدى السبب الذي ذكرناه سابقاً وهو ان العجز عن حل المشاكل في بحث الخلود قد دفعهم الى التشبث بمثل هذه التأويلات.

٥- هل ينسجم الخلود مع العدل الالهي ؟!

ان اهم اعتراض يُطرح في مسألة الخلود -وهو في الحقيقة الاعتراض الأساس فيها- هو عدم التناسب بين الذنب وبين العقوبة. فيقال كيف نرضى بأن يتعذب الانسان الذي اساء في كل حياته وهي مائة عام على اكثر تقدير وكان خلالها يتخبط في الكفر والمعاصي ويعاقب مدة ألف مليون عام؟

هذه القضية لا تثير أي اعتراض طبعاً في ما يخص النعم الالهية الخالدة في الجنة اذ لا عجب من فضل الله ورحمته وجزائه الاوفى، فرحمته قد وسعت كل عالم

١- هذا التفسير موجود في حاشية المجلد التاسع من الاسفار في صفحة ٣٤٨.

الوجود ، أمّا في مجال العقاب فينبغي ان يكون هناك تناسباً بين الجريمة والعقاب ، وان اختل ذلك التناسب والتوازن فذلك مالا يتسق والعدل الالهي ، والخلاصة ان مائة سنة من الكفر والذنوب تستوجب مائة عام من العقوبة لا أكثر .

ان استعصاء هذا الاعتراض على الحل قد دفع ببعض الجماعات الى تأويل آيات الخلود واعتباره يعني طول المدة أو انه الخلود النوعي لا الشخصي او انه الاعتياد على تلك الاوضاع وامثال ذلك مما سبق القول فيه . لكن وكما قلنا سابقاً فان هذه التأويلات واهية جداً ولا يمكن التعويل عليها ولا تنسجم قطعاً مع آيات الخلود .

الجواب :

ان الذين يطرحون هذا الاعتراض يغفلون نقطة اساسية وهي الفارق الموجود بين العقوبة الوضعية والعقوبة التكوينية التي هي النتيجة الطبيعية للاعمال أو الحياة في محيط تلك الاعمال .

وتوضيح ذلك ان المقنن : قد يسنّ احياناً قانوناً يقول فيه ان من يرتكب المخالفة الفلانية فعليه ان يدفع مقداراً من المال كغرامة مالية او يُسجن مدة من الزمن ، فمن البديهي في مثل هذا الموقف ان يكون هناك تناسب بين «الجريمة» و«العقاب» ، فلا يمكن ان تُقرّر مثلاً عقوبة الاعدام أو السجن المؤبد للمخالفة البسيطة وبالعكس ذلك فمن غير المعقول تحديد عقوبة القتل بسجن يوم واحد ، فالحكمة والعدالة تستوجب التناسب الكامل بين تلك الحالات .

لكن العقوبات التي هي في الحقيقة الآثار الطبيعية للعمل وتعتبر من خاصيته التكوينية أو نتيجة حضور ذات العمل امام الانسان ، لا تفر مثل هذه الأقوال سواء بشأن آثار العمل في هذا العالم أم في العالم الآخر .

فلو قيل مثلاً ان من يخالف تعليمات المرور ويقود سيارته بسرعة عالية ويتسابق بلا مبرر ويجتاز المناطق الممنوعة قد يتعرض -وبسبب عدّة لحظات من المخالفة - الى اصطدام عنيف يؤدي الى كسر يديه ورجليه ويبقى مقعداً طوال عمره فمنها لا يستطيع احد ان يقول ان هذه النتيجة المريرة غير عادلة ازاء هذه المخالفة البسيطة لان من المسلّم به ان امثال هذه العقوبات ليست من وضع ادارة المرور حتّى يؤخذ بنظر الاعتبار التناسب بين المخالفة والعقوبة ، بل هو الأثر الطبيعي للعمل الذي فعله الانسان بارادته وواقع نفسه فيه .

وكذلك الحال، اذا قيل بضرورة اجتناب المشروبات الكحولية أو المخدرات لأنها تتلف القلب والمعدة والمخ والاعصاب خلال فترة وجيزة ، ولكن لو تعدد احد تناولها واصيب بضعف الاعصاب الشديد وبأمراض القلب والشرابين والقرحة كل ذلك في مقابل الفسق والمجون لأيام معدودة ، او يبقى الى آخر عمره يقاسي من شدّة الألم والعجز والضعف ففي مثل هذا الحال لا يمكن لأحد ان يتحدث عن عدم التناسب بين الذنب وعقوبته .

ولو افترضنا أنّ هذا الشخص قد عمّر في هذه الدنيا بدل المائة عام الف عام أو مليون عام ، فينبغي عليه تحمل العذاب والألم طوال هذه المدة المديدة ازاء عدّة ايام قضاها في اللهو والمجون .

اما في ما يخص العقوبات الأخروية فالمسألة أعمق من هذا بكثير ، فالآثار التكوينية للاعمال ونتائجها بالغة الأهمية قد تبقى ملازمة للانسان الى الأبد ، بل ان ذات العمل (كما ذكر في موضوع تجسّد الاعمال) يتجسد امام الانسان وبما ان ذلك العالم خالد ، فان الاعمال الصالح منها والطالح تبقى خالدة مع الانسان وتكون وسيلة اما لشقائه أو لسعادته .

ذكرنا سابقاً بأن ثواب وعقاب يوم القيامة يتصف بالآثار التكوينية وخواص

العمل الذي أتى به الانسان في الدنيا ، كما يقول القرآن الكريم : ﴿وَبَدَأْ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَاعْمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الجاثية-٣٣.

وجاء في الآية (٥٤) من سورة يس : ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .
وورد نفس هذا المضمون مع قليل من الاختلاف في آيات اخرى عديدة .
وبناءً على هذا لا يبقى هناك اي مجال لطرح هذا التساؤل وهو لماذا لم يؤخذ
بنظر الاعتبار التناسب بين الذنب والعقوبة ؟

ينبغي ان يحلّق الانسان في سماء السعادة بجناحي «الايمان» و«العمل
الصالح» لينال بنعيم الجنّة الأبدى ولذّة القرب الالهي . فان كان قد كسر جناحيه في
لحظة من لحظات المجون أو خلال المائة سنة التي قضاها في هذه الدنيا ، فعليه ان
يعيش الى الأبد في الذلة والشقاء ، فالقضية هنا ليست قضية الزمان والمكان وحجم
الجريمة ، بل هي قضية العلة والمعلول آثاره قصيرة المدى وبعيدة المدى ، وقد
يكفي عود واحد من الثقاب لاحراق مدينة بأكملها . وقد يؤدي غرام واحد من بذور
الشوك الى تغطية صحراء واسعة بالاشواك بعد مدة وجيزة ويكون سبباً دائماً في
ايذاء الانسان ، كما قد تكفي عدّة غرامات من بذور الورد الى تغطية صحراء شاسعة
بأجمل الورد واشذاها رائحة تفوح منها العطور فتملأ النفوس والقلوب بهجة
وارتياحاً .

فان قال قائل ما التناسب بين عود الثقاب واحراق مدينة بأكملها ؟ وما العلاقة
التناسبية بين عدّة بذور من الشوك أو من الورد وبين الصحراء الفسيحة ؟
فهل ان هذا السؤال منطقي ؟ من المؤكد ، لا .

فاعمالنا الصالحة والطالحة على هذا النمط أيضاً ، فقد تخلف وراءها آثاراً
خالدة واسعة وكبيرة (فتأمل) .

والمسألة المهمة هنا هي ان القادة الربانيين والانبياء العظام واوصيائهم كانوا

يحذروننا باستمرار من ان نتيجة امثال هذه الذنوب هي العذاب الأبدي ، ونتيجة الاعمال الصالحة هي النعمة الأبدية الخالدة . تماماً كالبستاني الماهر الذي يبين لنا مسبقاً الآثار الواسعة التي تنتج عن بذور الورد أو الشوك ، ونحن الذين نختار مسارنا بوعي خلال هذا الطريق .

فهل نلوم احداً في هذه الحال ؟ ولمن نؤاخذ ؟ وعلى من نعترض سوى على
انفسنا ؟

الى هنا ينتهي موضوع الثواب والعقاب وجوانبه المختلفة .



القرآن الكريم والشفاعة

القرآن والشفاعة

تمهيد :

ان العقوبات الالهية يوم القيامة ليست ذات طابع انتقامي سواء كانت عابرة أم طويلة الامد او ابدية ، وسواء كانت جسمية أم روحية وسواء اعتبرناها كأثار طبيعية للعمل أو وضعية ، وقد وضعت بهدف تربية الانسان او كضمانة لتنفيذ القوانين الالهية الرامية الى تنمية الكمال الانساني .

ولهذا السبب ، نرى سبل النجاة مشرعة أمام الانسان - في نفس الوقت الذي نرى فيه القرآن الكريم يصف العقوبات الالهية بالشدة - وتمنح الفرصة للمذنبين للرجوع عن الخطأ واصلاح أنفسهم وسلوك الطريق المؤدي الى الله تعالى .

وتعتبر الشفاعة واحدة من هذه الوسائل لأنها تعني في المفهوم الصحيح للكلمة انذاراً للمذنبين بعدم هدم جسور العودة بأجمعها والحفاظ على خطوط الاتصال مع اولياء الله ، وان وقعوا في بعض الذنوب فلا يأسوا ، وعليهم الشروع بالعودة حيثما كانوا والمسارة نحو رحمة الله الواسعة .

ان بحث الشفاعة بجميع تفاصيله ونقاطه التربوية المثيرة التي وردت في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، يصب في هذا السياق .

ومن الافضل الاكتفاء بهذا التمهيد الموجز، ومن ثم نعود الى القرآن الكريم
لنتعرف من خلاله على حقيقة ومفهوم الشفاعة وعلى جميع الامور المتعلقة بها.
نستمع فيما يلي خاشعين الى الآيات التالية التي قُسمت الى عدة مجاميع
وبالشكل الآتي:

- ١ - ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ الدثر-٤٨.
- ٢ - ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ البقرة-٤٨^(١).
- ٣ - ﴿مَالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ السجدة-٤^(٢).
- ٤ - ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الزمر-٤٤.
- ٥ - ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ البقرة-٢٥٥.
- ٦ - ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ طه-١٠٩^(٣).
- ٧ - ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ يونس-٣.
- ٨ - ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ النجم-٢٦.
- ٩ - ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الزخرف-٨٦.
- ١٠ - ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ الانبياء-٢٨.
- ١١ - ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ مريم-٨٧.
- ١٢ - ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ المؤمن-١٨.

١ - جاء نفس هذا المضمون مع اختلاف ضئيل في الآية (٢٥٤) من سورة البقرة.

٢ - جاء نفس هذا المعنى أيضاً في الآيتين (٥١ و ٧٠) من سورة لانعام.

٣ - ورد نفس هذا المعنى مع وجود بعض الاختلاف في الآية (٢٢) من سورة سبأ.

جمع الآيات وتفسيرها

المجاميع الخمسة لآيات الشفاعة:

متى ما وُضعت الآيات الاثنتا عشرة المذكورة أعلاه اضافة الى الآيات الاربعة المذكورة في الهامش الى بعضها، تحل بكل وضوح جميع المشاكل الموجودة في موضوع الشفاعة، ويقدم الجواب المناسب لكل سؤال يُطرح في هذا الصدد.

لكن عدم الاهتمام بالتفسير الموضوعي لهذه الآيات، والنظر الى بعضها واهمال البعض الآخر في الدراسات العامة لموضوع الشفاعة قد أثار مشاكل عديدة وانتهى احياناً الى الضلال والى اضلال الآخرين أيضاً، ويُعد هذا تقصير من قبل أولئك الذين اداروا ظهورهم للتفسير الموضوعي وحاولوا حل مثل هذه البحوث -التي لاتحل الآ به- من خلال الاستناد الى آية واحدة أو عدة آيات، أو حتى يحتمل فيهم سوء النية في اختيار الآيات التي تحقق بها مقاصدهم.

فالآيات المذكورة تُقسم في الحقيقة الى خمسة اقسام محددة يهدف كل واحد منها الى غرض معين.

القسم الاول:

الآيات التي تنفي الشفاعة بشكل قاطع كآية الأولى والثانية.

وصنفت الآية الأولى بعض احوال المجرمين الذين لم يكونوا مؤمنين، وادّعاءهم في جهنم وحديثهم مع اهل الجنة ثم قالت: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾.

ان هذه الآية وان كانت تنفي أي نوع من الشفاعة بحق هذا الفريق (بما في ذلك شفاعة الأنبياء والأوصياء والملائكة والصديقين والشهداء والصالحين)، إلا ان وجود كلمة «الشافعين» وهي ظهور الفعلية، تثبت وجود شافعين ومشفعين في ذلك اليوم وان شفاعتهم لا تنفع هؤلاء الذين كانوا يكذبون بيوم الدين ولم يكونوا يصلّون ولا يطعمون المسكين.

وكذلك تعبير «فما تنفعهم» يدل ايضاً على ان احوالهم واعمالهم ومعتقداتهم هي التي جلبت اليهم هذا الحرمان .

وعلى هذا الاساس فان هذه الآية وان كانت من الآيات النافية للشفاعة ، إلا ان نصّها يثبت ضمناً وجود الشفاعة .

ونفت الآية الثانية الشفاعة ايضاً وقالت : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصرون﴾ .

رغم ان المخاطبين في هذه الآية هم اليهود - بقرينة الآية السابقة لها - إلا ان حكمها يتسم بالعمومية ويسدّ جميع المنافذ امام المخالفين واشارت اثناء ذلك الى أربعة طرق مهمّة تُعتبر وسيلة للنجاة في هذه الدنيا لكثير من المجرمين :

الأول : ان تُجرى نفس عن نفس ، والثاني : ان يشفع لها شفيع ، والثالث : لو دفعت غرامة لجزت عن العقوبة ، والرابع : ان يهب قوم لنصرتها وانقاذها من مخالف العذاب . لكن أياً من هذه الطرق ليس لها وجود يوم القيامة ، والحديث هنا يدور حول نفي الشفاعة هناك نفيّاً قاطعاً ، ولكن هل يختص ذلك باليهود الذين سلكوا طريق الكفر والعناد ومجانبة الحق ، وقتل الأنبياء ، وبهذا فهي لا تتنافى مع آيات الشفاعة والروايات المتواترة الدالة على ان النبي (ﷺ) وسائر المعصومين يشفعون لمذنبى هذه الأمة ؟

ام ان هذه الآية تشير الى ظن اليهود الذين كانوا يتوهمون بأن آباءهم يشفعون لهم يوم القيامة ، فالآية تبطل هذا الوهم وتجعلهم في بأس منه ؟ ام ان ظاهر الآية مطلق وينفي اي نوع من الشفاعة لأي احد ؟

وتشير الآيات الأخرى التي ستأتي لاحقاً وكذلك الروايات المتواترة واجماع الأمة بأن الآية السالفة تخص الكفار والاشخاص الذين لا تشملهم الشفاعة بسبب ثقل ذنوبهم ، وعلى هذا فالآية المذكورة ذات طابع عمومي ، والآيات الأخرى ذات صيغة مختصة ، وترفع اي غموض في هذا المجال .

سيأتي شرح هذا الكلام عن قريب ان شاء الله .

القسم الثاني :

الآيات « التي تعتبر الشفاعة خاصة بالله »

ومنها الآية الثالثة التي قالت بعد الاشارة الى خلق السموات والارض وحاكمية الله على كل شيء : « مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ » .
وبناءً على هذا فان الشفيع هو الخالق المدبر لعالم الوجود لأن الشفاعة هي ايضاً نوع من التدبير والربوبية والتربية ، ومعنى هذا وجوب عدم التعلق بالأوثان والالتجاء الى سوى ذاته المقدسة . وان وضع احد من الانبياء والأولياء على مقام الشفاعة فهو مستمد منه بالتأكيد ، كما ان مقام الحاكمية وهداية وتربية الناس ممنوح لهم من قبل الله تعالى .

وورد نفس هذا المعنى في الآية الرابعة من آيات البحث ، ولكن بصورة أخرى ، اذ تقول لعبدة الاوثان الذين اتخذوها شفعاء لهم : « قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً » .
ثم تؤكد ان سبب ذلك هو ان : « لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .
فمن البديهي ان من يمتلك حق العفو عن المذنبين وحق الشفاعة أو قبول شفاعة الشافعين هو الخالق والمالك لكل الموجودات التي بدأ وجودها منه ثم تعود اليه في نهاية المطاف .

وعلى هذا فإن الشفيع في الأساس هو الله تعالى ، لا منافس له في ذلك بل يستمد الآخرون منه مشروعية شفاعتهم . ومن الواضح ان انحصار حق الشفاعة به تعالى دون سواه لا يتنافى ابداً مع مشروعيته للآخرين ، كما ان الملكية والحاكمية له دون سواه ، ويمكن للآخرين الملك والحكم باذنه وبأمره وفي حدود خاصة .

وما يسترعي الاهتمام هنا هو ان الآية السابقة لها قالت حين نفت شفاعة الأوثان : « قُلْ أَوْلَوْكَائُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ » .

وهذا التعبير دليل واضح على أن الشفاعة من مختصات المالكية والحاكمية ،
وإنما اختص بها الله تعالى لأنه هو المالك والحاكم الأصل في عالم الوجود
والآخرون يقتاتون على قُتات مائدة نعمته .

القسم الثالث :

الآيات التي تجعل «الشفاعة منوطة باذن الله» وهي في الحقيقة مكملة لآيات
القسم الثاني . ولذا ورد في الآية الخامسة استفهام انكاري ينص على : «من يملك
الشفاعة إلا باذنه» .

وبناءً على ما ذكر فإن الانبياء وأولياء الله والشفعاء يستمدون مشروعية
شفاعتهم يوم الجزاء من الله تعالى ، ويشفعون باذنه ، ومن البديهي أن اذنه منبثق من
حكيمته أي وفق أسس محسوبة . فإن كان هناك شخص لا يستحق الشفاعة فلا يؤذن
بالشفاعة له (احفظوا هذا الكلام جيداً فسيأتي شرحه في الظرف المناسب) .
من الجدير بالملاحظة أن الآية المذكورة (وهي آية الكرسي) قد اكّدت هذه
الجملة بعد أن أقرت مقام القيمومة والمالكية لله تعالى على كل ما في السموات
والارض . وعلى هذا فإن هذه الشفاعة منبثقة من مالكيته وحاكميته وقيمومته .
وبهذا فهي تبطل معتقدات عبدة الاوثان الذين يتذرّعون بعبادتها بدعوى أنها
تشفع لهم عند الله .

وورد نفس هذا المعنى بصورة أخرى في الآية السادسة ، اذ قالت : «يومئذ لا
تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورّضى له قولاً» .

ولكن من المقصود من : «من أذن له الرحمن» ؟ هنالك احتمالان الأول : هم
الشفعاء باذن الله ، والثاني : هم الذين تشملهم الشفاعة باذن الله .

الآن الاحتمال الأول يبدو هو الأصح لأنه يتسق ومضمون الآية السابقة (آية
الكرسي) فهناك كان الحديث يدور حول الاذن للشفعاء ، وتمثل الآية اللاحقة

شاهداً آخر على صحة هذا القول . ولهذا السبب اختار الكثير من المفسرين هذا المعنى .

وينعكس كلا المعنيين في جملة «ورضى له قولاً» ، الاول: إنها تعود على الشفعاء أي تقبل شفاعة من رضى الله قوله وشفاعته، وعلى هذا فإن الجملتين تؤكد احدهما الأخرى .

والثاني : ان المقصود هو المشفوع له من الذين رضى الله قولهم ، وبعبارة اخرى هو الذي كان عمله وكلامه ومعتقده صالحاً وصار موضعاً لرضى الله لكي يُشفع له ، ولكن بما ان الجملة الاولى تقصد الشفعاء ، فمن الأنسب ان تكون الجملة الثانية اشارة الى ذلك أيضاً ، لتكون عودة الضمائر على وتيرة واحدة .
وعلى جميع الاحوال تشكّل الآية دليلاً واضحاً على وجود الشفاعة باذن الله ، لفريق من المؤمنين .

وتمّ في الآية السابقة تبيان نفس ذلك المعنى بصورة أخرى اذ قالت : «ما من شفيع إلا من بعد إذنه» فلماذا تعبدون الأصنام ؟ «ذلّكم الله ربّكم فاعبّدوه أفلا تذكرون» .

وجاء نفس هذا المعنى في الآية الثامنة بشأن شفاعة الملائكة ، اذ تؤكد ان شفاعتهم تقبل باذن الله ايضاً ، اذ ورد فيها : «وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى» .

فالمكان الذي لا يستطيع فيه ملائكة السماء وبكل مألديهم من عظمة من الشفاعة الأبادنه ، فماذا نتوقع من الأوثان التي لا شعور لها ولا تمتاز بأية قيمة معنوية ؟ أليس من المخجل ان يقولوا نعبدها لتكون شفيعة لنا عند الله ؟ !

والمثير هنا هو استخدام كلمة «كم» للتعبير عن اهمية الموضوع ، وهو ما يُستخدم عادة للكثرة وهو موسوم هنا بطابع العموم . وجاء في الآية كذلك تعبیر «في السموات» وهو دلالة على علو مقامهم . ووردت كذلك كلمة «شفاعتهم» بصيغة

الجمع لكي يفهم ان شفاعتهم جميعاً لا أثر لها إلا باذن الله ورضاه .
ولعل التأكيد على الملائكة دون بقية الشفعاء جاء هنا لأن فئة من العرب كانت
تعبد الاوثان أو ان المقصود : فان كانت شفاعه الملائكة غير مجدية إلا باذن الله ،
فماذا يتوقع من الأصنام الجامدة ؟
والفارق بين «الاذن» و «الرضا» هو ان الأذن يُقال حين يُعلن المرء عن رضاه ،
لكن الرضا منوط بالباطن ، وانطلاقاً من ان الرضا قد يكون مفروضاً احياناً وعارٍ عن
الرضا الباطني ، فقد ورد الاثنان سوياً في هذا الموضع ليتم تأكيد الغرض رغم ان
الفرض على الله لا يمكن تصويره (جل وعلا) وان رضاه مستوسق مع اذنه . (فتأمل) .
هل انّ هذا الإذن مرتبط بالشفعاء ام بالمشفع لهم ؟ فالآية التي نحن بصدددها
تحتمل المعنيين ، رغم ان معناها العام يبدو اكثر اختصاصاً بالشفعاء اي ان الله يأذن
ويرضى لهم بالشفاعة .

القسم الرابع :

الآيات «التي حددت بعض الشروط للشفيع والمشفوع له» من جملة ذلك
الآية التاسعة التي تنفي بقولها : «وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ» ثم انها
استثنت منهم فريقاً فقالت : «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» .
يبدو ان الصفة الاولى للشفعاء هي الشهادة بالحق ؛ فلا بد ان يكون الشفيع
موحداً ، اي لا تتحقق الشفاعة الا في ظل التوحيد ونبذ الأصنام والاستعانة بلطف
الله .

قال بعض المفسرين : ان هذا الوصف للمشفوع لهم . اي ان الشفاعة لا تشمل
الآ من يقر بحقانية الله ووحدانيته ، فهي لا تشمل المشركين مطلقاً .
لكن ظاهر الآية ، دال على التفسير الأول ، لأن التفسير الثاني يحتاج الى

التقدير^(١)، والتقدير خلاف للظاهر.

اما الوصف الثاني: «وهم يعلمون» فقد ورد كلا التفسيرين بشأنه ايضاً، فان كان الوصف للشفعاء فسيكون معنى الجملة: أولئك الذين يشهدون بالحق عن علم ووعي، وإن كان المقصود هم المشفوع لهم فيكون المعنى حينئذ انهم يعرفونهم ويعلمون لمن ينبغي ان تكون الشفاعة.

فإن كان الوصف للمشفوع لهم؛ يجب ان يكون مفهومها هو ان الشفاعة تشمل من ينطقون بحق كلمة التوحيد ويقولونها عن علم ووعي انطلاقاً من الدليل والبرهان وهي غير مقصورة على اللسان.

وجاء نفس هذا المعنى بصورة اخرى في نفس هذه الآية التي نحن بصدددها، فبعد استنكار الآية ورفضها لقول عبدة الأوثان الذين يظنون ان الملائكة ابناء الله تقول لهم بأنهم عباد الله وانهم «لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى» وفي الحقيقة «وهم من خَشِيتِهِ مُشْفِقُونَ».

وعلى هذا فعبادة الملائكة لأجل نيل شفاعتهم (وهي عقيدة المشركين) لا طائل من ورائه. فهم يأتُمرون بأمره تعالى ولا يشفعون إلا لمن يرتضي، اي للموحد فقط.

وعلى هذا تكون جملة «لمن ارتضى» إما اشارة الى رضاه عن دينهم وتوحيدهم وايمانهم، وأما كونه راضياً عن الشفاعة لهم، وكلاهما يرجعان الى معنى واحد.

وانطلاقاً مما ذكر فان شفاعة غير الله لا تكون إلا باذنه، واذنه يختص بالمؤمن والموحد.

ويطالعنا في الآية التاسعة تعبير جديد يجري في نفس هذا المجرى، فالآية تتحدث عن سوق المجرمين نحو جهنم ثم تقول: «لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ

١ - ينبغي ان يكون تقدير الآية على هذه الشاكلة: «الآ لمن شهد بالحق».

عند الرحمن عهداً^(١).

وهذا الوصف لمن يُشفع لهم (بقرينة الآية السابقة لها والتي نتحدث عن المجرمين).

ومن المؤكد ان المقصود بالعهد هنا هو الايمان بالله والاقرار بوحدانيته وتصديق الأنبياء وقبول ولاية الاوصياء ، وقد أضاف البعض الى كل ذلك العمل الصالح.

ورغم كثرة الاحتمالات التي طرحها المفسرون في تفسيرهم لكلمة «العهد» ، إلا انه يتضح خلال التمعن فيها انها تعود الى المعنى الذي اشرنا اليه آنفاً. واحتمل بعض المفسرين الكبار ان يكون هذا الوصف للشفعاء وان المقصود بـ «العهد» هنا هو نفس ما ورد في الآية (٨٦) من سورة الزخرف ؛ اي «الشهادة بالحق»^(١).

ولكن بما ان الضمير في «لا يملكون» ينبغي ان يعود على صريح مذكور في الآية السابقة وان كلمة «المجرمين» هي المذكورة في الآية ، يبدو هذا الاحتمال مستبعداً ، والظاهر ان الوصف يخص المشفوع لهم.

وعلى هذا الاساس يجب ان تكون هناك علاقة بين الشفييع والشفوع له قائمة على الايمان والعمل الصالح لأن الشفاعة هناك محسوبة ولا تعني مطلقاً التوسط لمن لا يستحق.

جاء في حديث عن النبي (ﷺ) انه قال : «من ادخل على مؤمن سروراً فقد سرّني ومن سرّني فقد اتّخذ عند الله عهداً»^(٢).

من المؤكد ان عبداً لو ادخل السرور على المؤمن لأجل ايمانه ، فهو من ذوي الايمان والعمل الصالح وذلك مما يوثق علاقته بالله من اجل قبول شفاعته.

١- الميزان: المجلد ١٤، ذيل الآية (٨٦) من سورة مريم.

٢- الدر المنثور: (وفقاً لنقل تفسير الميزان في الآية موضع البحث في الصفحة ١١٤).

القسم الخامس:

(وهو القسم الأخير من الآيات التي ندرسها) ويشير إلى الأشخاص الذين لاتنالهم الشفاعة بسبب ما ارتكبه من اعمال . ومفهومها ان الشفاعة تشمل فئات اخرى ، تقول احدهما : «**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**» . اذن فغير الظالمين بشكل عام يستحقون الشفاعة .

ولكن ما المقصود بالظالمين ؟ قال البعض من امثال المحقق الطبرسي في مجمع البيان انهم المشركون والمنافقون . لأن اسوأ الظلم هو الشرك والنفاق ^(١) . وصرح الفخر الرازي بأن المقصود بـ «الظالمين» هنا الكفار ^(٢) .

والآيات السابقة لهذه الآية ، ومطلع نفس هذه الآية الذي يحذّرهم من عذاب يوم القيامة وكذلك الآيات الواردة بعدها والتي تذكر مصير الكفار السالفين الذين اصبحوا عبرة من خلال تعرضهم للعذاب الالهي ، هي ايضاً شاهد ودليل على هذا المعنى .

وقال بهذا الرأي كل من صاحب تفسير روح البيان ، وصاحب روح المعاني والمراغي .

وعلى كل حال فان نفي الشفاعة عن الظالمين بالخصوص (وبغض النظر عن المعنى الذي تُفسر فيه كلمة الظالمين) دليل على اثباتها لأقوام آخرين . وهذا ما اكدناه مرّات عديدة، فالشفاعة لا تحصل اعتباراً بل تحتاج إلى نوع من الاستحقاق والتأهيل . اي ان المذنبين على صنفين : صنف يستحق الشفاعة وصنف لا يستحقها .



١ - مجمع البيان : المجلد ٧ ، ٨ الصفحة ٥١٩ .

٢ - تفسير الفخر الرازي : ٢٧ ، الصفحة ٥٠ .

النتيجة :

نظراً لكثرة وتنوع الآيات الآتفة الذكر، واقسامها الخمسة المخصص كل واحد منها الى جانب من جوانب الشفاعة، وبالالتفات الى الوجهة العامة لها وتفسيرها بالاستعانة ببعضها وهو ماأشرنا اليه سابقاً، يتضح لدينا حقيقة ومفهوم الشفاعة وكذلك شروطها وفلسفتها وأهميتها ودورها البناء، ويمثل ايضاً اجابات عن الاعتراضات المختلفة التي يطرحها الناس غير الواعين بسبب عدم احاطتهم بمجموعة الآيات المتعلقة بموضوع الشفاعة.

لكن اهمية المسألة تقضي بفصل كل واحد من هذه المواضيع عن بعضها وتفسيرها مفردة من اجل ان تتم الاستعانة بالآيات القرآنية والتحليل المنطقي لازالة الصدا عن هذه المرآة، واليكم فيما يلي الايضاحات المهمة في موضوع الشفاعة



الايضاحات :

١ - مفهوم الشفاعة :

لو فكّرنا في المفهوم اللغوي الصحيح لكلمة الشفاعة لاستطعنا الحصول على مدلولها الاسلامي لأن كلمة الشفاعة مأخوذة من المصدر «شَفَعَ» ويعني «ضم الشيء الى مثله»، ومن هنا تتضح ضرورة وجود نوع من التشابه بين الاثنين رغم الفروقات الموجودة بينها.

ولهذا السبب فالشفاعة بمفهومها القرآني تعني ان الشخص المذنب الذي يتصف ببعض الجوانب الايجابية (كالايمان أو العمل الصالح) يشبه اولياء الله، وهم بدورهم يبذلون له العون ويسوقونه نحو جادة الكمال ويطلبون له المغفرة من الله تعالى.

ويمكن وصف حقيقة الشفاعة بصيغة اخرى فهي عبارة عن وقوف كائن اقوى

وأفضل إلى جانب آخر اضعف ليعينه على طي مراتب الكمال .

ان الشفاعة للأشخاص المخطئين موجودة في المجتمعات البشرية على مر العصور، وربما كان الأشخاص المتنقذون يشفعون للمخطئين عند اصحاب السلطة قبل نزول القرآن بآلاف السنين ، إلا ان الشفاعة السائدة بين اوساط الناس تختلف عن الشفاعة في منطق القرآن والأديان السماوية بفارق واحد مهم وواضح وهو: ان الشفاعة في المجتمعات الانسانية غالباً ما يُقصد بها قبول شخص متنقذ للحاجة اليه في وجه من الوجوه ، ولذلك تقبل شفاعته للشخص المخطيء ، لكي يستفيد من الشخص في الظرف المناسب لبلوغ غاياته !

فالملوك مثلاً كانوا يقبلون شفاعة حواشيهم ورجال دولتهم في بعض المجالات لكي يعظمونهم ويمجدونهم وليستفيدوا منهم في انجاز اعمالهم في الوقت المناسب .

وكذلك كان الشفعاء يأخذون بنظر الاعتبار علاقتهم الشخصية بالمشفوع له ، وليس اهليته ومدى استحقاقه لها .

ولكن لما كان الله غنياً بالذات وغير محتاج على الإطلاق ، فالشفاعة لديه تأخذ طابعاً آخر وهو ان الشفعاء لديه ينظرون إلى المخطئين ليروا مَنْ مِنْهم ينال رضا الله بسبب بعض النقاط الايجابية لديه كالايمان والعمل الصالح ، فيشفعون له عند الله لأجل هذه الجوانب الايجابية ، وهذا هو الفارق الشاسع بين الشفاعة المتداولة بين الناس وشفاعة أولياء الله لديه ، اذ ان الاولى قائمة على العلاقات في حين ان الثانية قائمة على الضوابط والاستحقاقات .

ومن هذا المنطلق يمكن الرد على بعض المنتقدين الجهلة الذين يرون الشفاعة نوعاً من الوساطة أو انها بمثابة الضوء الأخضر للمذنبين ، وقارنوها بشفاعة حواشي الملوك المتجبرين فالأسس التي تقوم عليها الشفاعة في مفهومها الشرعي تعتبر بناءة ومبنية على عوامل اللياقة والاستحقاق ، في حين تنبع الشفاعة المتعارفة

بين الناس في اغلب اشكالها من الحاجة المتبادلة بين الطرفين وعلى العلاقات الخاصة والشخصية غير المنطقية .

فالشفاعة الالهية تربوية ، والشفاعة المتعارفة تكون سبباً للاجترأ على ارتكاب الذنب احياناً .

وتمثل الآيات التي ذكرت سابقاً شاهداً حياً على هذا المعنى ، لأنها تحدد خصائص للمشفوع لهم تقوم على الجوانب الايجابية والتأهيل والاستحقاق ، وكثيراً ما تكون الأسس المقبولة للاستحقاق هي العمل الصالح .



٢ - انواع الشفاعة (الشفاعة التكوينية والشفاعة التشريعية) :

لو القينا نظرة على الشفاعة لوجدناها من زاوية المصداق الخارجي واسعة الى حد انها تشمل كل عالم الوجود ، لأن مساعدة الكائنات الاقوى للكائنات الاضعف على العيش والنجاة والحياة مشهودة في جميع مجالات الحياة .

فحين تنفلق البذرة وتخرج منها نبتة ضعيفة تهيء لها الارض المواد الغذائية اللازمة ، وترسل عليها الشمس اشعتها وحرارتها وطاقتها الخفية ، وتسقط عليها الغيوم قطرات متواصلة من المطر ، لكي يشتد هذا الكائن الضعيف ويجتاز العقبات ليفقد في نهاية المطاف شجرة ضخمة محملة أغصانها بالثمار . هذا مشهد واضح للشفاعة التكوينية .

وهناك مشاهد اخرى للشفاعة التكوينية تتمثل في وقوف الوالدين الى جانب المولود الضعيف ، والبستاني الى جانب البزاعم ، والمعلم الى جانب الطفل الذي يتعلم حروف الهجاء ، وعلى هذا يمكن اعتبار كل عالم الاسباب والعلل والمعلول مشاهد متنوعة لهذه الشفاعة .

ان الشمس والرياح والمطر والارض لا تهرع بالتأكيد لأعانة خشبة يابسة ، فهي

حطب ولا مصير لها سوى الاحتراق ، بل تهب لمساعدة النبتة المتفتحة تَوّاً والبراعم الضعيفة، وباختصار كل كائن يمتلك مقومات الكمال والنمو .

ولو نقلنا هذا المثال الواضح من عالم التكوين الى عالم التشريع أي الى شفاعة الانبياء والاولياء للمذنبين ، سيتضح لنا المفهوم الحقيقي للشفاعة القرآنية ، ويكون ذلك ردّاً على انتقادات الناس غير الواعين ، وهنا تبرز لنا الشفاعة مفهومها التربوي على اكمل وجه .

وردت في نهج البلاغة كلمة للامام امير المؤمنين علي (عليه السلام) ضمن كلماته القصار، جملة تعكس هذا المعنى بأسلوب جذاب جداً يقول فيها: «الشفيع جناح الطالب»^(١).

فكما ان الطيور صغيرة السن لا يمكنها الطيران الاّ باعانة من الأب والأم وكأنهما يمثلان اجنحتها التي بها تطير الى ان تكبر، فكذلك الشفعاء يساعدون المشفوع لهم ليخلقوا في سماء السعادة والكمال .(فتأمل).



٣- فلسفة الشفاعة :

لقد اتضحت لدينا فلسفة الشفاعة من خلال ما قيل في تفسيرها وكذلك من خلال الاشارات العديدة التي اوردناها في تفسير الآيات .

فالشفاعة لا هي تشجيع على الذنب، ولا هي بالضوء الأخضر لركوب المعاصي، ولا هي من اسباب التخلف، ولا هي شيء يشبه الوساطة في مجتمعات عالم اليوم ، بل هي مسألة تربوية تحضى بأهمية بالغة ، ولها آثار ايجابية في الجوانب المختلفة من جملة ذلك :

أ- بعث الأمل ومواجهة روح اليأس:

كثيراً ما يتغلب هوى النفس على الإنسان ويدفعه لارتكاب الذنوب الكبرى، فتغلب من بعد ذلك روح اليأس عليه، مما يدفعه لارتكاب المزيد منها حتى يغدو غارقاً في الذنوب لأنه يتصور أنه قد تجاوز الحد وغرق فماذا يفرق أن انغمس في الماء لقامة واحدة أو لمائة قامة!

لكن الاعتقاد بشفاعة أولياء الله يقدم له الأمل، فلو وقف عند هذا الحد واصلح نفسه، فقد يُعفى عما سلف منه وذلك عن طريق شفاعة الأبرار والصالحين، وعلى هذا فإن الأمل بالشفاعة يساعد على الكف عن ارتكاب المزيد من الذنوب والعودة إلى الصلاح والتقوى.

ب - إيجاد العلاقة المعنوية مع أولياء الله:

لو أمعنا النظر في ما قيل سابقاً في تفسير مفهوم الشفاعة لتوصلنا وبكل سهولة إلى نتيجة مفادها أن الشفاعة مرهونة بوجود نوع من العلاقة بين الشفيع والمشفوع له، وهي رابطة معنوية منبثقة من الإيمان وبعض الخصال الفاضلة وفعل الحسنات. ومن المؤكد أن مرتجي الشفاعة يسعى دوماً لإقامة نوع من العلاقة مع الشفعاء وفعل ما يرضيهم ولا ينسف جسور العودة من خلفه، ولا يفسخ عرى الصداقة والمحبة عن آخرها. وسيكون مجموع هذه الإجراءات عوامل مؤثرة في تربيته، وسبباً لابتعاده عن صف المجرمين بالتدرج، أو أن يقوم على أقل تقدير ببعض الأعمال الصالحة إلى جانب المعاصي والذنوب، لانقاذ نفسه بالتدرج من الوقوع في حبال الشيطان.

ج - نيل شروط الشفاعة:

وردت في الآيات التي جئنا بتفسيرها سابقاً شروط مختلفة للشفاعة وأهمها

استحصال الإذن من الله بذلك ، ومن البديهي ان من يرتجي الشفاعة لابد وان يحاول التمهيّد للحصول على الإذن ، اي يفعل ما يُرضي الله .

فقد ورد في بعض الآيات السابقة ان الشفاعة يوم القيامة لا تنفع الا من رضي الرحمن قوله وأذن له بالشفاعة (ط / ١٠٩) .

وجاء في الآية (٢٨) من سورة الانبياء انهم : ﴿لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ ، وتقول الآية (٨٧) من سورة مريم ان الشفاعة لا تكون الا لمن ﴿اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ، وكما قلنا سابقاً فان هذه المقوّمات لا تتحقق الا في ظل الايمان بالله وبمحكمته العادلة والاعتراف بحُسن العمل الصالح وقبح السيئات والاقرار بصحة جميع القوانين والتعليمات الالهية .

بالاضافة الى ذلك فقد ورد في بعض الآيات المارّة ان الشفاعة لا تشمل الظالمين ، وبناءً على هذا يتوجّب على من يرتجي نيل الشفاعة الخروج من صف الظالمين (بغض النظر عن المعنى الذي تفسر به كلمة الظلم) .

ومن مجموع هذه العوامل يتعيّن على كل من يأمل الفوز بالشفاعة اعادة النظر في اعماله السالفة واتخاذ القرارات الافضل بشأن سيرته المستقبلية . وهذه ايضاً تعتبر بذاتها نقطة ايجابية ومن العوامل التربوية الفاعلة .

د - الاهتمام بسلسلة الشفعاء :

تُعتبر الاشارات الواردة بخصوص الشفعاء في الآيات الشريفة ، وكذلك التصريحات التي نقلتها لنا الروايات ، دليلاً آخر على الأبعاد التربوية للشفاعة .

جاء في حديث عن النبي (ﷺ) انه قال : «الشفعاء خمسة : القرآن ، والرّجيم ، والأمانة ، ونبيّكم ، واهل بيت نبيّكم» ^(١) .

وجاء في مسند احمد حديث آخر عن النبي الكريم (ﷺ) قال فيه : «تعلموا

القرآن فإنه شافع يوم القيامة»^(١).

وورد نفس هذا المعنى في نهج البلاغة في كلام مولى المتقين امير المؤمنين (عليه السلام) قال فيه: «فإنه شافع مشفع»^(٢).

ويستفاد من عدة روايات أخرى بأن افضل الشفاعة التوبة، فعن علي (عليه السلام) قال: «لا شفيع أنجح من التوبة»^(٣).

وصرحت بعض الأحاديث أيضاً بشفاعة الانبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة، كالحديث المنقول عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه: «الشفاعة للانبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة، وفي المؤمنين من يشفع مثل ربيعة ومضر، واقل المؤمنين شفاعة من يشفع ثلاثين انساناً»^(٤).

وجاء في حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال: «إذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد، فاذا وقفا بين يدي الله عز وجل قيل للعابد: انطلق الى الجنة، وقيل للعالم: قف تشفع للناس بحسن تأديبك لهم»^(٥).

يظهر من هذه التعابير وخاصة الأخير منها ان الشفاعة نتاج العلاقة المعنوية القائمة مع الصالحاء والابرار والمؤمنين والعلماء.

أمّا عن الشهداء فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال: «ويشفع الرجل منهم في سبعين ألفاً من اهل بيته وجيرانه»^(٦).

وحتى ان بعض الروايات اشارت الى أنّ: «شافع الخلق، العمل بالحق ولزوم الصدق»^(٧).

١- مسند احمد: المجلد ٥، الصفحة ٢٥١ (طبعة بيروت دار صادر).

٢- نهج البلاغة: الخطبة، ١٧٦.

٣- نهج البلاغة: الكلمات القصار، الكلمة ٣٧١.

٤- بحار الانوار: المجلد ٨، الصفحة ٥٨ الحديث ٧٥.

٥- بحار الانوار: المجلد ٨ الصفحة ٥٦، الحديث ٦٦.

٦- مجمع البيان: المجلد ٢ الصفحة ٥٣٨، (ذيل الآية ١٧١ من سورة آل عمران).

٧- غرر الحكم.

وصفوة القول التي يمكن استخلاصها من مجموع هذه الروايات وغيرها الواردة في المصادر الإسلامية ان الشفاعة من المسائل التربوية المهمة في الاسلام والتي تعكس القيم الإسلامية السامية من خلال الاهتمام بنوع الشفعاء، وتحت جميع المسلمين للالتزام بهذه القيم والصفات التي يتمتع بها الشفعاء، وتشجع على تقوية وتوثيق العلاقات معهم، وتجلو عنها كل تفسير خاطيء وكل تحريف باطل^(١).

* * *

٤- متى تكون الشفاعة ؟

لاشك ان احد الأوقات التي تتحقق فيه الشفاعة هو يوم القيامة، وذلك لأن الكثير من آيات الشفاعة تختص بذلك اليوم. ولكن هل تحصل الشفاعة أيضاً في عالم البرزخ أو في عالم الدنيا؟ وهل هناك شفاعة في الآخرة وقبل انتهاء الحساب أم لا؟ هناك آراء في ذلك منها:

للعلامة الطباطبائي بحث مفصل في هذا الصدد، وفي ختامه يستنتج ما يأتي:

ان الشفاعة تكون في آخر موقف من مواقف يوم القيامة باستيهاب المغفرة بالمنع عن دخول النار، أو اخراج بعض من كان داخلاً فيها، باتساع الرحمة أو ظهور الكرامة.

ويشير في بعض كلماته الى عالم البرزخ وما يدل على حضور النبي (ﷺ) والائمة (عليهم السلام) عند الموت وعند مسائلة القبر واعانتهم اياه على الشدائد.

١- ذكر في تفسير الميزان: وبعد ان وضح الشفاعة بأنها تأثير الأسباب في المسببات - أن الشفعاء يقسمون الى فريقين في عالم التشريع وعالم التكوين، فن جملة الشفعاء التشريعيين: التوبة والعمل الصالح والايمان والقرآن والأنبياء والملائكة والمؤمنين ويستدل في هذا الصدد بالآيات الدالة على تأثير هذه الامور في هؤلاء الاشخاص في غفران الذنوب (رغم ان عنوان الشفاعة غير موجود فيها) كآية (٥٤) من سورة الزمر، والآية (٢٨) من سورة الحديد، والآية (٩) ومن سورة المائدة، والآية (١٦) من سورة المائدة والآية (٦٤) من سورة النساء، والآية (٧) من سورة المؤمن، والآية (٢٨٦) من سورة البقرة.

ويضيف : فليس من الشفاعة عند الله في شيء وانما هو من سبيل التصرفات والحكومة الموهوبة لهم باذن الله سبحانه ^(١) .

والغريب في الأمر انه عندما يتحدث عن حقيقة الشفاعة يعطيها من الشمولية بحيث يعتبر اي نوع من تأثير الاسباب في عالم التكوين والتشريع مشمولاً بالشفاعة ، ولكنه لا يعتبر هنا مساعدة اولياء الله لجماعة من المؤمنين لانقاذهم من مشكلات القبر والبرزخ ، مصداقاً للشفاعة .

وعلى اية حال يستشف من مجموع الآيات والروايات ان الشفاعة - بالمعنى الواسع للكلمة - تتحقق في العوالم الثلاث (الدنيا والبرزخ والآخرة) رغم ان الموضع الاصل لها والأثر المهم هو في يوم القيامة لغرض النجاة من عذاب النار .

جاء في الآية (٦٤) من سورة النساء : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ .

وهل أن استغفار الرسول (ﷺ) للمؤمنين المذنبين يعني شيئاً سوى الشفاعة ؟!

وجاء نفس هذا المعنى في موضع آخر من القرآن الكريم في قصة يعقوب وابنائهم اذ طلبوا من أبيهم ان يستغفر لهم ربهم (يوسف - ٩٧) .

وحصل في هذه الدنيا الكثير من ذلك حيث نجا اشخاص أو اقوام من عذاب الدنيا بسبب شفاعة الانبياء واولياء الله ، ولم يكن ذلك إلا شفاعة .

ولدينا روايات كثيرة ايضاً تفيد ان اعمال الانسان الصالحة كالصلاة والصوم والولاية وامثالها أو حضور اولياء الله تكون سبباً في تخفيف عقوبات وآلام الشخص في عالم البرزخ كما يؤدي دفن انسان صالح لديه حسنات كثيرة في مقبرة ما الى تخفيف ذنوب من دفن فيها .

وهذه كلها اشارات الى وجود الشفاعة في عالم البرزخ .

وحتى ان صلاة الميت وماتضمنه من الاستغفار له لاتخلو من التأثير، وهي نوع من الشفاعة ايضاً.

وعلى هذا فليست الشفاعة محدودة في عالم خاص، بل تضم العوالم الثلاثة الا ان المكان الاصل لها هو القيامة والوقوف على مشارف العذاب الالهي.

سؤال:

قد يقال ان روايات عديدة وردت عن الائمة المعصومين (عليهم السلام) تؤكد خوفهم على شيعتهم من عذاب البرزخ كما نقل عن الامام الصادق (عليه السلام) قوله: «والله ما اخاف عليكم الا البرزخ، فاذا صار الامر اليها فنحن اولى بكم»^(١).

ونقرأ عنه (عليه السلام) حديثاً آخر يتضمن وعداً منه بالشفاعة للمؤمنين المخطئين يقول فيه: «ولكنني والله اتخوف عليكم من البرزخ». يقول الراوي: فقلت له: ما البرزخ قال: القبر منذ حين موته الى يوم القيامة»^(٢).

ولكن يحتمل ان تخص هذه الروايات مرحلة معينة من البرزخ، أو أن لها بعداً استثنائياً ومحدوداً قد يتحقق في ظل مجاورة احد اولياء الله وهي غير شاملة لجميع من يستحقون الشفاعة.

* * *

٥- الاعتراضات الأساسية المطروحة بشأن الشفاعة:

كما قلنا في تفسيرنا لمعنى الشفاعة في رأي القرآن الكريم والاسلام بأن لها مفهوماً فيهما يختلف كلياً عما هو متعارف بين اوساط الناس، وان تشابههما هو السبب في بروز الكثير من الاعتراضات والاختلاف في هذا المجال، والحقيقة ان

١- بحار الانوار: المجلد ٦، الصفحة ٢١٤، الحديث ٢.

٢- بحار الانوار: المجلد ٦، الصفحة ٢٦٧، الحديث ١١٦.

الاجابة عن اغلب تلك الاعتراضات تكمن في التفسير الصحيح لمفهوم الشفاعة في الاسلام.

نكتفي بهذا التمهيد الموجز ونعود لطرح تلك الاعتراضات ونجيب عنها:

أ- ألا تُعتبر الشفاعة تشجيعاً على ارتكاب الذنوب؟

الأ يكون الأمل بالشفاعة والاتكاء اليها سبباً لكي يعتبره البعض بمثابة الضوء الاخضر لارتكاب المعاصي ، فيوغلون في ممارسة انواع الذنوب والجرائم متأملين انقاذ الشفعاء لهم من العذاب الالهي في يوم الجزاء وبهذا تكون اذهانهم في راحة تامة أمام التهديد الرباني ؟ أو بتعبير آخر: ربما تكون عقوبات القيامة ضماناً إجرائياً لتنفيذ القوانين الالهية واجتناب معصيتها؛ أقلاً تُعتبر الشفاعة اختراقاً لهذه الضمانات؟

الجواب:

كما قيل سابقاً فان الشفاعة بمفهومها القرآني لا تحت على ارتكاب الذنب ، وليس هذا فقط بل انها عامل ردع قوي أيضاً يحول دون ذلك ، لأنها تجعل الاشخاص يتوقفون في أي مرحلة كانوا ولا يوغلون في طريق المعصية اكثر من ذلك ، ويشرعوا بالعودة تدريجياً .

وبتعبير آخر ، يمكن القول ان الشفاعة بمفهومها الاسلامي تعتبر نتاجاً لنوع من العلاقة بين الشفيع (اولياء الله والقرآن او...) والمشفوع له ، وهي رهينة باذن الله وتستلزم أرضية الهية ، وبناءً على هذا فان أمل الشفاعة يقول للانسان : يجب عليك اقامة علاقة ايمان وعمل مع اولياء الله ، وان تعمل ما من شأنه جلب رضا الله ، ليكون لك مدافعاً في ذلك اليوم العصيب وسبباً للشفاعة عندهم .

ولهذا السبب يكون امل الشفاعة رادعاً عن ارتكاب الذنب من جهة وعاملاً

لإعادة النظر في ما ارتكب من سيئات في الماضي .
ولا يخفى ايضاً ان احداً لم يتسلم ضماناً بالشفاعة من اي ولي من اولياء الله ،
ولا يمكن لأي مذنّب ان يطمئن الى قول الشفاعة فيه ، بل انها مطروحة كاحتمال
وأمل بوهذا ايضاً مشروط بالشروط المذكورة آنفاً . وعلى هذا فهي لاتدفع مطلقاً على
التجرؤ على الذنب .

ب - لمن الشفاعة ؟ .

هل هي للشخص النادم على الذنب ؟ فهذا في غنى عن الشفاعة لأن التوبة
تعني الندم وهي سبب الخلاص . واذا وجدت التوبة فما الحاجة للشفاعة ؟ وان
كانت لمن هو غير نادم على الذنب ، بل يقف امامه بكل صلافة وجسارة ، فمثل هذا
الشخص لا يستحق الشفاعة وهو ليس مصداقاً لقوله «من ارتضى» في الآية (٢٨) من
سورة الانبياء .

الجواب :

أولاً : ان للتوبة شروطها . وكثيراً ما يخفق الانسان في انجاز كل تلك الشروط .
لأن عدداً من الآيات القرآنية نصّت على ان التوبة اصلاح الماضي . اي لو ان احداً
كان يرتكب الذنوب لسنوات متمادية ويدخل باب التوبة نادماً، يجب عليه اصلاح
ما مضى سواء كان حق الله بعمل الخير ، واذا كان حق الناس فيجب عليه اداؤه عن
آخره ، وعلى هذا فالتوبة وخلافاً للتصور السائد لاتقتصر على الندم لوحده .

وما اكثر الناس الذين يفشلون في تحقيق هذا الاصلاح ، بينما هو غارق في
الندم فان لم تتعلق به الشفاعة يسقط في اليأس من الغفران ، وان هو يأس توغل اكثر
في ارتكاب الذنب .

ثانياً : قد يكون الشخص قد ارتكب الكثير من الذنوب الا ان الحظ لم يحالفه

في التوبة والندم ، فان شعر بإمكان الأخذ بيده يوم القيامة على يد الشفعاء شريطة هجر بقية الذنوب أو القيام بأعمال الخير ، فهذا سيشجعه على اقل تقدير الى ترك الذنوب الأخرى وفعل عمل الخير .

ج - هل تتناسب الشفاعة مع العدل الالهي ؟

كيف تقع لعدد من المذنبين المتشابهين مع بعضهم في الذنوب .
كيف تنجو طائفة من العذاب الالهي بالشفاعة ، وتقع الأخرى في مخالاب ذلك العذاب ؟ الا يُعتبر هذا التمييز منافياً لعدل الله ؟
وقد يطرح هذا الاعتراض احياناً بصيغة اخرى ؛ فيقال : ان كان العقاب الرباني للمذنبين عدلاً : اذن فطلب اولياء الله الشفاعة هو تعطيل للعدل ، وان لم يكن متسقاً مع مبدأ العدل ، فينبغي ان لا تجرى تلك العقوبة من الاساس .
والجواب على هذا الاعتراض يمكن استخلاصه من بين طيات البحوث السابقة ، للاسباب الآتية :

اولاً : ان الشفاعة لا تتحقق بغير الارضية المناسبة . فكل من يستحقها ينالها وكل من لا يستحقها فهو مُستبعد عنها ، وعلى هذا لا يوجد فيها اي تمييز .
ثانياً : ان مجازاة المذنب هي عين العدل ، اما قبول الشفاعة فهو نوع من التفضل لأجل ما يمتاز به المشفوع له من ارضية صالحة من جهة ، وتكريماً واحتراماً للشفيع وما قام به من عمل صالح من جهة اخرى .

د - ألا تتعارض الشفاعة مع ارادة الله ؟

قد يُتصور احياناً بأن الشفيع يعوق ارادة الحاكم العادل ، ويُنقذ من العقوبة الشخص الذي ينوي الحاكم معاقبته . إلا ان هذا الكلام لا يصدق بحق الله جلّت

عظمته .

فهذا التصور الخاطيء ناتج من اعتبار الشفاعة التي يطرحها القرآن مماثلة للشفاعة المتعارفة بين يدي الجبارين والحكام الظالمين فالاشخاص المتنفيذين عند هؤلاء الحكام يحاولون استنقاذ المذنبين الذين يرتبطون معهم بصلة ما، خلافاً للاصول المرعية، فيضطر الحاكم أو السلطان النزول عند رغبة هؤلاء المتنفيذين - لحاجة اليهم - وقبول شفاعتهم والتغاضي عن معاقبة المذنب وقد تكون خلافاً لرغبته احياناً .

الآن هذه المسائل وكما قلنا سابقاً لا تصدق على الله تعالى ولا تنطبق على الشفاعة بين يديه ، فالشفاعة هناك لها طابع آخر، فأولياء الله يطلبون الشفاعة باذن الله لمن لديهم ذنوب ليست ثقيلة، ولديهم في مقابل تلك الذنوب اعمال صالحة أيضاً . وطرح هذا الموضوع يُعتبر في الحقيقة تربية للنفوس وتطهيراً لها .

هـ - عقوبات القيامة هي الأثر التكويني للأعمال ، فكيف يمكن ازالتها بالشفاعة ؟

وهذا أيضاً واحد من الاعتراضات التي طرحت على الشفاعة، فالذي يتبادر الى الأذهان ان الشفاعة يمكن تطبيقها على العقوبات التشريعية والوضعية فقط، فيكون الشفيع سبباً لايقاف تنفيذ الحكم على المشفوع له . ولكن عندما ندعن الى ان عقوبات القيامة هي في الغالب من الآثار الوضعية والطبيعية للأعمال وهي بذلك تشبه فعل السم في قتل الانسان ، فهذا الأثر ليس بالشيء الذي يمكن تغييره بالشفاعة .

الجواب : لو اننا لاحظنا ما ذكرناه سابقاً في كون الشفاعة على نوعين تكوينية وتشريعية ، لاتضح لنا جواب هذا السؤال جلياً . لأن العقوبات ان كان لها بُعد تكويني، فإن وقوف اولياء الله باعتبارهم كيانات اقوى وافضل الى جانب المشفوع له وكمال

إستعداده الناقص بواسطة إمدادهم المعنوي، ويتغلبون بالنتيجة على الآثار التكوينية للذنب، مثلما تُنمي الشمس النباتات ذات الاستعداد للنمو وتنقذها من الآفات. اما اذا كانت تلك العقوبات وضعية، فَتُطَلَّبُ الشفاعة من الله تعالى ليغفر لمن يستحق غفران الذنب وفي جميع الاحوال فان المقام المعنوي للشفيع يكون سبباً في تأثير تلك الشفاعة باذن الله.

ويمكن تكرار نفس هذا الكلام بخصوص تجسّد الاعمال لأنه شبيه ايضاً بالآثار الوضعية والتكوينية للعمل. (فتأمل).

و- أليس الاعتقاد بالشفاعة من عوامل التخلف؟

ويبدو هذا الوهم لبعض الناس أيضاً وهو: ألا يكون الاعتقاد بالشفاعة سبباً يحدو ببعض الناس الى عدم الاتكال على عملهم، فلا يظهرون مآلديهم من قابليات وكفاءات كامنة؟

الجواب؟

يبدو من هذا التعبير أن ذهنية المعترضين لا تختلف عن ذهنية الناس العاديين وتصورهم عن الشفاعة ومفهومها الدنيوي، في حين طرح هذا الموضوع بالأدلة في بداية هذا البحث، من أن الشفاعة في مفهومها القرآني الاسلامي لا تُعتبر عامل تخلف، بل وحتى انها تعتبر دعوة فاعلة لاصلاح الذات وترك الذنب والتعويض عما مضى والاستبشار بالمستقبل والتّحرك نحو الخير والصلاح. وبما ان هذا الموضوع قد تم تبيانه بالتفصيل، فلا نرى ضرورة لتكراره هنا.

ز- ألا تتعارض الشفاعة مع التوحيد؟

ان التصور بوجود تعارض بين الشفاعة والتوحيد هو واحد من الاشكالات

المعروفة بشأن موضوع الشفاعة، ومَرَدُّ ذلك هو الاعلام المكثف الذي وظَّفه الوهابيون ضد هذه المسألة، ولهذا ينبغي الالتفات اليها جيداً:

تدور عقائد الوهابيين بشكل اساسي حول عددٍ من المحاور، واكثرها وضوحاً هي مسألة التوحيد في الافعال والتوحيد في العبادة. فهم يفسِّرون فرعي التوحيد هذين وكأنَّهما يتعارضان مع موضوع الشفاعة والتوسل بأرواح الانبياء والأولياء وشفاعتهم بين يدي الله، ولهذا السبب فقد اعتبروا جميع فرق المسلمين التي تعتقد بهذه الامور (باستثناء الوهابيين) مشركة، ولا تعجبوا لو قلنا إنهم يعتبرون أرواح غيرهم واموالهم واعراضهم مباحة مثلما كان يفعل عرب الجاهلية المشركون.

وانطلاقاً من هذا المعتقد فقد أراقوا دماء الكثير من المسلمين من الحجاز والعراق، ونهبوا أموالهم، وارتكبوا جرائم كثيرة لم يسبقهم إليها أحد في الاسلام.

ولمؤسس هذه الفرقة وهو محمد بن عبد الوهاب (المتوفى عام ١٢٠٦) كتابٌ يعرف باسم «رسالة القواعد الأربع» يقول فيه حول هذا الموضوع:

ان الخلاص من الشرك يكون بمعرفة اربع قواعد:

الاولى: ان الكفار الذين قاتلهم رسول الله (ﷺ) يَقْرُون بان الله تعالى هو الخالق الرزاق المدبر ولم يدخلهم ذلك في الاسلام لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ سورة يونس - ٣١..

الثانية: انهم يقولون مادعوننا الاصنام وتوجهنا اليهم إلا لطلب القرب والشفاعة ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. سورة يونس - ١٨.

الثالثة: انه (ﷺ) ظهر على قوم متفرقين في عبادتهم فبعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم الانبياء والصالحين، وبعضهم الاشجار والاحجار، وبعضهم الشمس والقمر، فقاتلهم ولم يفرق بينهم.

الرابعة: ان مشركي زماننا اغلظ شركاً من الاولين، لأن أولئك يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة وهؤلاء شركهم في الحالتين لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكَ دَعَا اللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ»^(١).

والغريب في الامر هو تمسكهم بهذه الأقاويل التي لا تعدوا ان تكون مجرد سفسطة ومغالطة، فيسيحون وبهذه البسطة أرواح واموال خصومهم، ويجيزون قتلهم، كما يقول الشيخ «سليمان» وهو من زعماء هذه الفرقة الضالة في كتابه «الهدية السنية» بأن الكتاب والسنة يشهدان على أن كل من يجعل الملائكة والانبياء أو بعض الاصحاب واهل البيت كابي طالب وابن عباس واسطة بينه وبين الله عز وجل ليشفعوا له عند الله تعالى لقربهم منه كما يشفع الى السلاطين بواسطة المقربين منه فمثل هذا الشخص كافر ومشرک، ومباح دمه وماله حتى لو كان يشهد الشهادتين ويصلي ويصوم^(٢).

لقد اثبتوا تمسكهم بهذا الحكم القبيح والمخزي اي اباحة دماء واموال المسلمين من خلال الاحداث التاريخية المختلفة ومنها الحادثة المشهورة لقتل اهالي الطائف في الحجاز قتلاً جماعياً وذلك (في صفر عام ١٣٤٣)، والقتل الجماعي لأهالي كربلاء في العراق (في ١٨ ذي الحجة عام ١٢١٦) وهذا ماورد في الكثير من التواريخ.

النقاط الخاطئة في هذا الاستدلال:

١- ان الآيات الاثنتي عشرة التي اوردناها في بداية البحث بشأن موضوع الشفاعة وفسرنا مفهومها تثبت لنا هذه الحقيقة وهي ان الشفاعة مبدأ اسلامي وقرآني بديهي الا انها تضمنت شروطاً للشفيع وللمشفوع له. وعلى هذا فلا يمكن لأحد ان يتحدث باسم الاسلام والقرآن وينكر هذا المبدأ بجميع دلائله البيّنة، واننا لنعجب كيف انهم يعتبرون انفسهم مسلمين وينكرون هذا المبدأ الذي يُعدُّ من ضرورات الاسلام والقرآن، فهل ينكر المسلم ضرورات الاسلام واحكام القرآن؟

١- «رسالة الاربع قواعد» تأليف محمد بن عبد الوهاب زعيم الوهابيين: من الصفحة ٢٤ الى الصفحة ٢٧ وفقاً لما نقله كتاب كشف الارتباب الصفحة رقم ١٦٣.
٢- الهدية السنية: الصفحة ٦٦.

٢- إن الشفاعة التي ذكرها القرآن وذُبَّ عنها، شفاعة يرتبط خطؤها الأصيل بـ«إذن الله» ومالم يأذن بالشفاعة فلا يحق لشفيح ان يشفع، وبتعبير آخر فإن هذه الشفاعة صادرة من الاعلى ومشروطة بإذن الله، وهي ليست كشفاعة حاشية السلاطين الجائرين، فهي صادرة من الاسفل وقائمة على اساس العلاقات الشخصية.

إن شفاعة كهذه تُعد تأكيداً لمسألة التوحيد لأن خطؤها الاصيل يصدر عن الله تعالى وهذا هو التوحيد البعيد عن اي لون من ألوان الشرك. لكن الوهابيين الذين تشابهت عليهم الشفاعة القرآنية مع الشفاعة الشيطانية لحواشي السلاطين انكروا هذا المبدأ واعتبروه مضاداً لاصل التوحيد. وفي الحقيقة انهم قد اعترضوا على اوهامهم في هذا الطرح، لا على مبدأ الشفاعة القرآنية.

٣- الشفاعة في حقيقتها سبب للنجاة، كما هو الاعتقاد بوجود الأسباب في عالم الخلقة والتكوين (كتأثير اشعة الشمس وتساقط المطر في نمو الاعشاب) لا يتنافى مطلقاً مع مبدأ التوحيد. لأن تأثير هذه الاسباب يتحقق بأذن الله وأمره، وفي الحقيقة ان عملها هو نوع من الشفاعة التكوينية، كما ان وجود مثل هذه الاسباب في عالم الشريعة للمغفرة والنجاة بأن الله لا يتعارض مع التوحيد بل هو تأكيد له، وهذا هو ما نطلق عليه اسم الشفاعة التشريعية.

٤- إن الشفاعة التي يرفضها القرآن في عبادة الأصنام هي انهم كانوا يجعلون كثيراً من الاشياء الخالية من أية ميزة أو خاصية شفيعة لهم الى الله؟ ولذا صرّح مطلع الآية (١٨) من سورة يونس وهي الآية التي يستندون عليها بالخصوص: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ هذا من جهة؛

ومن المؤكد ان هذا لا علاقة له بشفاعة الانبياء والأولياء، فهذا الكلام يخص الاصنام وهي الاحجار العارية عن اي عقل وأحاسيس.

ومن جهة اخرى، فالقرآن يذم الشفاعة القائمة على أساس الاعتقاد باستقلال الشفيح، وتأثيره في مصير الناس بلا إذن من الله، ولذا جاء في الآية (٣) من سورة الزمر

وهي من الآيات التي يستندون اليها: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا مِنَ اللَّهِ زُلْفًا إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

ووفقاً لهذه الآية فانهم كانوا يعتبرون معبوديهم اولياء، وقيمين وحماة وحافظين لهم، فكانوا يعبدونهم، وكلا هذين الفعلين (إعتبارهم أولياء وعبادتهم) شرك.

أما اذا لم يعبد أولياء الله وانبياءه وملائكته، بل يحترمهم ويكرمهم ويرى فيهم شفعاء له بين يدي الله وبأذنه، فهو غير مشمول بهذه الآية قطعاً.

وبسبب عدم احاطة الوهابيين بالآيات القرآنية الواردة بخصوص الشفاعة، ومسألة الكفر والايان والشروط التي حددها الله للشفيع والمشفوع له، فقد اشتبهت عليهم هذه المسألة مع ما كان يعتقد به عبدة الاوثان، وبهذه الشاكلة التَبَسَتْ عليهم الحقيقة.

٥- اما قول الوهابيين بأن عبدة الاوثان العرب كانوا يعتقدون بان كل شيء بما فيه المالكية والرازقية لله تعالى، وكانت مشكلتهم تتمثل فقط في شفاعة ووساطة الاوثان، فهو خطأ آخر من أخطائهم الناتجة عن الافتقار العلمي وعدم المامهم بالآيات القرآنية. وذلك لأنهم -اي عبدة الاصنام- كانوا ينسبون بعض هذه الصفات للاصنام كما يفهم هذا المعنى من الآيات الشريفة ومن جملتها الآية (٦٥) من سورة العنكبوت التي جاء فيها: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

يتبين من هذا التعبير انهم كانوا في الأوضاع العادية يتوسلون بالاصنام لحل مشاكلهم، وفي الشدائد يتعلّقون بالله فقط.

الآية (٤٩) من سورة الرعد فيها امر للنبي (ﷺ): ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾

لو كان المشركون يعتقدون بتفرد الله في الخالقية وينظرون الى الأصنام نظرة الشفيع

فلا معنى لهذا السؤال، لانهم سيقولون في الجواب: إننا لا نعتبرهم خالقين، ونعدّهم واسطة

فقط بين الخالق والمخلوق، وهل يجب في الواسطة ان يكون خالقاً او شريكاً في الخلق؟

لفضح اكاذيبهم ان يسألهم ماذا خلقوا؟

تبين الآية (١١١) من سورة الاسراء انهم كانوا يظنون اصنامهم انداداً لله في المالكية والحاكمية على العالم، وحتى انهم كانوا يعتقدون ان الأصنام تعين الله في بعض المشاكل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

تمثل كل واحدة من هذه الجمل الثلاث نفيًا لواحد من معتقدات عبدة الاوثان، الذين كانوا يظنون أن: (الملائكة بنات الله)، (يرجى الالتفات الى ان كلمة الولد تعني كلا المعنيين البنت والولد أي الذكر والانثى)^(١) وأنهم شركاء له في الخلق وانهم اعوانه وأولياؤه. ومن الواضح ان هذه المعتقدات لو لم يكن لها وجود في تلك البيئة، لما كان لهذه التعابير القرآنية أي مفهوم.

ومما يسترعي الانتباه ان القرآن الكريم وصف عبدة الاوثان بـ «المشركين» واعتبر عملهم «شركاً»، فلو لم يكونوا يعتقدون بنوع من الشراكة بين الله والاصنام وكانوا يحسبونها شفعاء فقط بين يدي الله، اذن لما كان هذا التعبير صحيحاً بشأنها، لأن كلمة «الشرك والمشارك» دالتان على انهم كانوا يعتبرون الأصنام شركاء لله في الربوبية، وحل المشاكل والخلقة وامثال ذلك، «كانت الاصنام الحجرية والخشبية في عقيدتهم رمزاً ومظهراً للصالحين والملائكة».

وبعبارة اخرى كانوا يقولون بنوع من الاستقلال لتلك الاصنام في تدبير شؤون العالم، وبتعبيرهم كانوا يعتبرونها أنداداً لله، لا مجرد وسطاء بين يديه. والتعابير الواردة في الآيات القرآنية المختلفة تكشف لنا عن هذا الموضوع بكل وضوح، جاء مثلاً في الآية (٢٢) من سورة العنكبوت: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وهذه اشارة لاعتقاد المشركين بان الاصنام اولياؤهم وانصارهم (من دون الله)، كما

١- الولد بمعنى المولود وتُطلق على الصغير والكبير والذكر والانثى والمفرد والجمع (راجع مفردات الراغب).

تُصرح بذلك الآية (١٠) من سورة الجاثية: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ .

تكرر في القرآن الكريم تعبير «من دون الله» في وصف معتقدات المشركين، وهذا دليل على أنهم كانوا يتخذون موجودات من دون الله لتكون لهم انصار واولياء، وهذا شرك في الربوبية لا مسألة شفاعاة .

وصفوة القول ان القرآن الكريم قد اورد في آياته المختلفة اعتراضين رئيسيين على المشركين، وهما اولاً: أنهم اعتبروا هذه الكائنات الفاقدة للاحساس والسمع والبصر مصدراً مؤثراً، وثانياً أنهم يرون فيها انداداً لله في التدبير والربوبية .

وقد كان لعبدة الاصنام في العصر الجاهلي آراء وكلها متناقضة طبعاً. فهم لا يطرحون أقوالهم بلا اي تناقض أو تهافت، شأن اي انسان منطقي وواع. لذا فهم في نفس الوقت الذي يعتبرون الاصنام شركاء لله في حل المشاكل ويصورونها وكأنها اولياء وانصار لهم من دون الله، فانهم كانوا يطرحون ايضاً قضية الشفاعاة بين يدي الله، وهذا لا يدل مطلقاً على عدم الاعتقاد بالشرك في الافعال .

وهذا ما يستخلص من دراسة مجموعة الآيات، واستقراء جميع احوالهم، ثم أنهم لا يعتبرون الشفاعاة مطلقاً منوطة ورهينة باذن الله .

وبناءً على هذا فاننا نستنتج وبكل ثقة لو ان الانسان تمسك بأولياء الله فقط (لا الاصنام الحجرية والخشبية) واعتبرهم -دون غيرهم- شفعاء له بين يدي الله (لا شركاء له في الولاية والنصرة والتدبير) وان شفاعتهم لا تحصل الا باذن الله (لا بصورة مستقلة عنه) فلا اعتراض عليه ابدأ في مثل هذه الحالة. وانما يرد الاعتراض حينما يغفل المرء عن واحد من هذه المبادئ الثلاثة أو بأجمها، ويسلك الطريق الخاطيء .

أَيْنَ الْأَعْرَافِ وَمَنْ
هُمْ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ

اين الأعراف ومن هم أصحاب الأعراف؟

تمهيد:

توجد في القرآن الكريم سورة باسم سورة «الأعراف» تختص اربع آيات منها بموضوع الاعراف، يستشف من هذه الآيات بشكل عام ان الاعراف مكان بين الجنة والنار وفيه بعض المؤمنين الذين يعرفون اهل الجنة واهل النار.

ولكن ماهي مهمة هؤلاء المؤمنين؟ وماهو الهدف الذي يسعون اليه؟ وماهي مكانة الاعراف في القيامة؟ وهل يوجد سوى هؤلاء الرجال الالهيين المكلفين بمهمة خاصة في الاعراف، اشخاص آخرون هناك من ضعفاء المؤمنين وامثالهم، أم لا؟

هذه المسائل ينبغي ايضاحها في ظل تفسير الآيات الأربع في سورة الاعراف، وكذلك الروايات الواردة في تفسيرها في المصادر الاسلامية المهمة.

نعود بعد هذا التمهيد الموجز الى القرآن الكريم لنستمع خاشعين الى الآيات التالية

الواردة في هذا المجال:

١- ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ

الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ الأعراف-٤٦.

٢- ﴿وَإِذَا صُْرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف-٤٧.

٣- ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ

جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ الاعراف-٤٨.

٤- ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ الاعراف-٤٩.

جمع الآيات وتفسيرها

موضع بين الجنة والنار :

تتضمن الآية الاولى اشارة الى الآيات التي سبقتها وتحدث عن الجنة والنار، واصحاب الجنة واصحاب النار ثم تقول : ﴿وبينهما حجاب﴾ .

وهذا الحجاب يمنع إلتقاء هذين الفريقين مع بعضهما ، ولكن لا يمنع من سماع الطرفين لأصوات بعضهما ، لأن الآيات السابقة تنقل لنا حديث اصحاب الجنة واصحاب النار مع بعضهما اذ يُنادي اصحابُ الجنة اصحاب النار ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، قالوا نعم .

ولا عجب في هذا فكثيراً ما يتحادث الجيران من وراء الجدار ويتساءلون عن احوال بعضهم بينما لا يرى بعضهم الآخر أو لا يوجد بينهما طريق للالتقاء وورد شبيه هذا المعنى في سورة الحديد حيث يقول المنافقون للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم ، فيقولون لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، وفي هذه الأثناء ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُم بِسُورَةٍ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾ الحديد-١٣-١٤.

فهل إنَّ هذا السور العالي هو الأعراف أم شيء آخر؟ سنجدُ جواب هذا السؤال لاحقاً.

ثم تضيف الآية : ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ .

ولما كانت كلمة «الأعراف» تعني في اللغة الموضع المرتفع ، فيتبيّن ان هؤلاء الرجال اصحاب منزلة وشخصية ، إذ يشرفون من ذلك المقام المرتفع على كلا الفريقين ويرون كلا

الفريقين ويعرفون كلاً بسيماهم .

لماذا هذه المعرفة ؟

يُستفاد من مجموع القرائن الموجودة في الآيات موضوع البحث - والتي سيأتي شرحها مفصلاً في البحوث القادمة - وكذلك من الروايات الكثيرة الواردة في المصادر الإسلامية بخصوص الاعراف، بأنه يوجد فيها فريقان: فريق من رجال الله والشخصيات البارزة والمقرّبة الى الله وفريق آخر من المستضعفين ومن الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فبعضهم غلبت حسناتهم سيئاتهم وبعضهم سيئاتهم فاقت حسناتهم، وفي الحقيقة هم حائرون بين الجنة والنار.

وهنا يعرف أولئك الرجال هذا الفريق من سيماهم، فيقولون لمن يستحق الشفاعة والمغفرة، ويستمد من معدن اولياء الله: اذهبوا الى الجنة، ثم يسوقون الباقي الى جهنم. وهذا هو افضل تأويل وتفسير يوضح مجموع الآيات المتعلقة بالاعراف، وكذلك الآيات السابقة واللاحقة لها ويخلصنا من اي نوع من الكلام الزائد، ويشكل قاسماً مشتركاً وحلقة اتصال بين الكثير من اقوال وتفاسير المفسرين.

فقد نقل المرحوم العلامة الطباطبائي - على سبيل المثال - اثني عشر قولاً بخصوص من على الاعراف (نقل بعضهم فقط عشرة اقوال أو سبعة، مثل تفسير القرطبي والتفسير الاثني عشري) وبهذا الترتيب:

١ - إنهم اشراف الخلق الممتازون بكرامة الله .

٢ - انهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم ترجع حسناتهم حتى يدخلوا الجنة، ولا غلبت سيئاتهم حتى يؤمروا بدخول النار، فأوقفهم الله تعالى على هذه الاعراف لكونها درجة متوسطة بين الجنة والنار.

٣ - انهم اهل الفترة .

٤ - انهم مؤمنو الجن .

٥- انهم اولاد الكفار الذين لم يبلغوا في الدنيا اوان البلوغ.

٦- انهم اولاد الزنا.

٧- انهم اهل العجب بأنفسهم.

٨- انهم ملائكة والتعبير عنهم بالرجال لأنهم يتشكلون بأشكال الرجال.

٩- انهم الانبياء (عليهم السلام) يقامون عليها تمييزاً لهم على سائر الناس ولأنهم شهداء

عليهم.

١٠- انهم عدول الامم الشهداء على الناس يقومون عليها للشهادة على امهم.

١١- انهم قوم صالحون فقهاء علماء.

١٢- انهم العباس والحمة وعلي وجعفر يجلسون على موضع من الصراط، يعرفون

محبهم ببياض الوجوه، ومبغضهم بسوادها...»^(١).

وورد في الكثير من الروايات المنقولة عن اهل البيت (عليهم السلام): عن هلقام، عن ابي

جعفر (عليه السلام) قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا

بِسِيَّمَاهُمْ﴾ ما يعني بقوله ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾؟ قال: أستم تعرفون عليكم عرفاء،

وعلى قبائلكم ليعرف من فيها من صالح أو طالح؟ قلت: بلى، فقال فنحن أولئك الرجال

الذين يعرفون كلًّا بسِيَّمَاهُمْ»^(٢).

ولكن كل تلك الاقوال الاثني عشر أو الثلاثة عشر مجموعة في الحقيقة في التفسير

الذي ذكرناه سالفاً، الا وهو وجود فريقين في الاعراف: فريق من الابرار والصالحين

وأولياء الله وفي طليعتهم «محمد وآل محمد» (عليهم السلام) ومن ثم الانبياء والملائكة، وجماعة من

الصالحين والعلماء والفضلاء، وفريق من المستضعفين ومن اصحاب الاعمال الصالحة

والاعمال السيئة، او الذين ليست لديهم اعمال صالحة ولا سيئة (كالابناء غير البالغين

١- تفسير الميزان: المجلد ٨ الصفحة ١٢٦ ذيل الآيات موضع البحث.

٢- أورد المرحوم العلامة المجلسي هذه الرواية في بحار الانوار، المجلد الثامن، الصفحة ٣٣٦، و٣٣٧ ونقلها أيضاً المرحوم الكليني في اصول الكافي، المجلد ٢، الصفحة ٤٠٨.

للكفار والجهلة القاصرين وأهل الفترة).

ان الروايات التي ذكرناها آنفاً تؤيد بصراحة وجود هذين الفريقين في الاعراف .
ولهذا تواصل الآية الأولى الكلام عن الفريق الثاني فتقول: ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ .
وبهذا السياق يشير صدر الآية وذيلها الى هذين الفريقين المختلفين المذكورين فيما
سبق .

وتضيف الآية الثانية: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا
تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

تعود الضمائر في هذه الآية (الضميرين في كلمتي «ابصارهم» و«قالوا»)، كما هو
الحال في ذيل الآية السابقة، الى الفريق الثاني، بينما يدور الكلام في مطلع الآية الأولى عن
الفريق الأول .

وهذا هو فقط الخلاف الظاهر الذي نراه نحن في تفسير هذه الآية، اي ان نفصل مَرَدَّ
هذه الضمائر، لكن القرائن المتعددة لهذا الخلاف الظاهري موجودة في الآية الاولى، وكذلك
في الآيات اللاحقة، لأن الرجال الموجودين على الاعراف ويعرفون الكل بسيماهم،
ويأمرون هناك وينهون، ويلومون اهل النار، ويرسلون الى الجنة من يستحقها بفضل الله،
هم ليسوا ممن تشملهم جملة: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ .

وصفة القول هي ان في هذه الآيات تعابير دالة على وجود رجال ذوي مقام رفيع
على الاعراف، ويبيدهم الامر والنهي . وهم اصحاب المقام الرفيع في معرفة اصحاب الجنة
 واصحاب النار (حتى قبل دخولهم فيها) . وكذلك توجد تعابير في هذه الآيات تدل على
وجود فريق حائر على الاعراف وعليهم آثار القلق البالغ خوفاً على مصيرهم .

فهم طامعون في الجنة وخائفون من النار، وينبئ بمجموع هذه القرائن عن وجود
هذين الفريقين على الاعراف . ويمكن في ظل هذا التفسير حل جميع المشاكل العالقة في
تفسير هذه الآيات .

وتعود الآية الثالثة الى الفريق الأول مرّة ثانية فتقول: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُم جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ويعكس هذا اللوم والتوبيخ الشديد الصادر من اصحاب الاعراف الى اصحاب جهنم احد المؤشرات الجليّة على سموّ مقامهم، فهم يعاقبونهم بسياط الملامة والتعنيف مثلما يفعل الملائكة معهم.

وفي الآية الرابعة يتحدث نفس اصحاب المقامات السامية في الاعراف، وهم يشيرون الى جماعة من ضعفاء المؤمنين من جهة، وموجهين الخطاب من جهة اخرى الى المستكبرين من اصحاب النار، وبأسلوب التوبيخ، قائلين لهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾.

ثم يلتفتون في نفس الوقت الى ضعفاء المؤمنين فيقولون لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

يظهر هذا التعبير وبوضوح وجود فريقين هناك وهما: فريق ذوي المقام الرفيع، وفريق الحيارى من ضعاف المؤمنين الذين تشملهم الرحمة الالهية في ختام المطاف، ويُساقون بأمر ذوي المقام الرفيع الموجود في الاعراف، نحو الجنة.



إيضاحات:

١- الأعراف في اللغة والتفسير:

«الاعراف» جمع «عُرف» «على وزن كلمة قُفل» وهو بمعنى المكان المرتفع العالي. ومأخوذة في الاصل من «عرف الفرس» و «عرف الديك» ويُقال ايضاً إنها مشتقة من اصل المعرفة والعرفان الذي يعني المعرفة بالاشياء والاطلاع على خصائصها لأن الاراضي المرتفعة اكثر وضوحاً واقرب الى المعرفة من الاراضي المنخفضة. (ومن فوقها يمكن الاطلاع على كل مكان والتعرّف عليه).

ويقال أيضاً أن الاعراف هي مقامات الاشخاص ذوي المكانة الرفيعة والدرجة السامية^(١).

أما بخصوص مكان الاعراف اين يقع؟ وماهي كفيته؟ ففيه اقوال عديدة، أورد من بينها صاحب الميزان ستة:

١- موضع يشرف على اهل الجنة واهل النار.

٢- سور له تاج خاص كعرف الديك.

٣- تل بين الجنة والنار.

٤- هو السور الذي يفصل بين المؤمنين والمنافقين، وقد اشير اليه في القرآن الكريم في الآية (١٣) من سورة الحديد بقوله تعالى: «فَضْرَبَ بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب».

٥- الاعراف بمعنى الصراط والجسر الممتد فوق جهنم.

٦- الاعراف بمعنى المعرفة بأوضاع الناس.

ولكننا نعتقد لو اننا أمعنا النظر في الآيات الاربع المذكورة التي تتحدث عن الاعراف، لما بقي اي غموض في معنى «الاعراف»، حيث يفهم منها وبكل وضوح بأن الاعراف موقع يشرف على الجنة والنار، وفيه طائفة من اولياء الله ذوي المنزلة الرفيعة، وطائفة أخرى من ضعيفي الايمان بهذا في الوقت الذي ذهب فيه المؤمنون المخلصون الى الجنة، والكفرة المذنبون الى النار، اما الفئة الأخرى من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولديهم نقاط ايجابية في جانب ونقاط سلبية في جانب آخر، فهم باقون على الاعراف ينتظرون الموقف الذي يتخذه بحقهم رجال الاعراف المؤمنون.

وأما بخصوص هذين الفريقين الموجودين على الاعراف ومن هما؟ فقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل ضمن تفسير الآيات.

ومن هنا يتضح بأن مهمة رجال الاعراف المؤمنين تمثل في الحقيقة نوعاً من

١- التحقيق، وجمع البيان، وغيرها من القواميس والتفاسير.

الشفاعة، لِمَنْ: «خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً»، وهم في حالة اضطراب وقلق دائم، فحينما ينظرون من الاعراف الى اصحاب الجنة يتمنون أن يكونوا معهم، وحين تقع ابصارهم على اصحاب النار يضطربون ويرجون ألا يُحشروا معهم.

ومن هنا تتوضح فلسفة وجود الاعراف ضمناً وهي اظهار الدرجات الرفيعة لأولياء الله، واخذهم بيد المغلوبين على امرهم، وكذلك تبيان مصير فئة من المذنبين الذين تشملهم في خاتمة المطاف شفاعة هؤلاء الرجال ذوي المكانة السامية.

٢- الاعراف في منظار العقل والمنطق:

من الواضح أننا لا نمتلك أي دليل عقلي يثبت وجود الاعراف، لأن العقل يثبت فقط العموميات المتعلقة بالحساب والكتاب والثواب والعقاب، وذلك لأن عدم وجودها لا يتسق وحكمة الله وعدالته.

اما موقف القيامة، ومراحل الثواب والعقاب، وكيفية دخول اصحاب الجنة فيها، واصحاب النار فيها والصراط والاعراف وماشابه ذلك من التفاصيل الجزئية للقيامة، فهي من المسائل التي لا تثبت إلا بالدليل النقلي.

ولكن بما أن الشفاعة تنبثق ايضاً من حكمة الله تعالى (كما ورد في موضوع الشفاعة)، وان الشفعاء يجب ان يكونوا من ذوي الدرجات الرفيعة والمكانة العالية حتى يأخذوا بأيدي الضعفاء، يمكن نتيجة لذلك العثور على اشارة واهية في اعماق حكم العقل بخصوص مسألة الاعراف (فتأمل).

٣- الاعراف في الروايات والاحاديث:

تحتوي المصادر الاسلامية الشيعية منها والسنية على روايات كثيرة بخصوص الاعراف واصحاب الاعراف، ومتى ما وضعناها الى جانب بعضها بشكل صحيح لاستنتاجنا منها ما استنتجناه من تفسير الآيات المذكورة.

وهي في الحقيقة اخبار كثيرة حتى أن البعض قال إنها تربو على (٢٨) حديثاً^(١).
تختص بعض تلك الاحاديث بموضوع الاعراف، وبعضها بالرجال الذين على
الاعراف ويتحدث بعضها عن طائفة الحيارى من ضعيفي الايمان الموجودين هناك ونحن
نكتفي هنا بالاشارة الى بعض الامثلة المهمة منها:

- ١- نقل عن الامام الصادق (عليه السلام) إنه حين سُئِلَ عن معنى الآية الشريفة: «وبينهما
حجاب وعلى الأعراف رجال» قال: «سور بين الجنة والنار»^(٢).
وجاء في تفسير الطبري نفس هذا المعنى عن الامام الباقر^(٣).
- ٢- جاء في حديث للامام الباقر (عليه السلام) يفسر فيه قوله تعالى: «وعلى الأعراف
رجال» قال: «نزلت في هذه الأمة، والرجال هم الائمة من آل محمد (عليه السلام). قلت:
فالأعراف قال: صراط بين الجنة والنار، فمن شفع له الامام متاً من المؤمنين المذنبين نجاً،
ومن لم يشفع له هوى»^(٤).

فهذا الحديث اوضح معنى الاعراف وكذلك الفريقين الموجودين عليه.

- ٣- وجاء في حديث آخر نقله المرحوم الطبرسي في مجمع البيان عن الامام
الصادق (عليه السلام) قال فيه: «الاعراف كثنان بين الجنة والنار، فيقف عليها كل نبي وكل خليفة
نبي، مع المؤمنين من اهل الزمان كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده»^(٥).
- وجاء في آخر هذا الحديث شرح يبين ان الحسين يذهبون مُسبقاً الى الجنة، فيقول
رجال الاعراف المؤمنون للمذنبين الذين بجانبهم انظروا الى اخوانكم المحسنين سبقوكم
ودخلوا الجنة، وهنا ينظر اليهم المذنبون ويسلمون عليهم وهذا هو ما ذكره القرآن في قوله:
«ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون».

١- تفسير الاثني عشري: المجلد ٤، الصفحة ٧٥.

٢- تفسير البرهان: المجلد ٢، الصفحة ١٨ الحديث ١٠.

٣- تفسير الطبري: المجلد ٨ الصفحة ١٣٧ طبعة بيروت.

٤- تفسير البرهان: المجلد ٢ الصفحة ١٨ الحديث ٨.

٥- مجمع البيان: المجلد ٣، ٤، الصفحة ٤٢٣.

فهؤلاء المذنبون لم يدخلوا الجنة ويأملون دخولها ببركة شفاعة النبي (ﷺ) والإمام (عليه السلام)، ثم يفسر بقية الآيات على هذا المنوال وبالشكل الذي لا يبق مع غموض في معنى الاعراف والفريقين الموجودين عليه. ويعرض بدقة نفس التفسير الذي بيناه سابقاً بشأن آيات الاعراف الاربع وعلاقتها مع بعضها^(١).

٤ - جاء في الدر المنثور حديث آخر عن الرسول (ﷺ) أنه قال: «يُجمع الناس يوم القيامة، فيؤمر بأهل الجنة الى الجنة ويؤمر بأهل النار الى النار، ثم يقال لأصحاب الاعراف: ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أمرك، فيقال لهم: ان حسناتكم تجاوزت بكم النار ان تدخلوها، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم، فادخلوا الجنة بمغفرتي ورحمتي»^(٢).
طبعاً سبب دخول الجنة هنا هي شفاعة الشفعاء والرجال المؤمنين في الاعراف وبأذن من الله.

٥ - جاء في حديث آخر في الدر المنثور منقول عن ابي سعيد الخدري بان رسول الله (ﷺ) سئل عن أصحاب الأعراف فقال: «هم رجال قُتِلوا في سبيل الله، وهم عُصاة لا بآئهم فنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار، ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة، وهم على سور بين الجنة والنار.. فاذا فرغ الله من حساب خلقه فلم يبق غيرهم تغمدهم منه برحمة فأدخلهم الجنة برحمته»^(٣).

وكما قلنا سابقاً لا يوجد أي مانع من شمولهم برحمة الله في ظل شفاعة الانبياء والاولياء.

خاتمة بحث المعاد:

وبانتهاء موضوعي الشفاعة والاعراف، نصل الى ختام بحوث المعاد، وكما نوهنا

١ - مجمع البيان: المجلد ٣، ٤، الصفحة ٤٢٣.

٢ - الدر المنثور: المجلد ٣، الصفحة ٨٧.

٣ - الدر المنثور: المجلد ٣ الصفحة ٨٨.

سابقاً، كان من المؤمل تكريس جميع بحوث المعاد في مجلد واحد، الا ان اتساع الابحاث القرآنية في هذا الصدد دفعنا الى تقسيمها على مجلدين ثم إن المواضيع التي عرضناها تمثل أمهات مسائل المعاد وبحوثه الأساسية، والآ فان هذه البحوث تضم بين طياتها مسائل اخرى متنوعة صرفنا النظر عنها حالياً تجنباً للاطالة الى ان تحين فرصة اخرى.

اللهم لا تدعنا لَوْحِدنا في هذا السفر الملىء بالخوف والمخاطر، وفي نفس الوقت مليء بالرحمة والبركة، وخذ بأيدينا ونجنا من مواقف الخطر ومواضع العذاب، وأوصلنا الى جوار رحمتك.

إلهي: إنَّ أيدينا خالية، وأعمالنا قليلة وذنوبنا كثيرة، وكتاب أعمالنا خفيف وكواهلنا مثقلة بأعباء المسؤوليات، وفي هذه الاحوال آمالنا معقودة عليك.
ربَّنَا: إنَّ رحمتك لواسعة، وألطافك غير متناهية، وكرمك غير محدود، اللهم نُقسمُ عليك بأوليائك الكرام أنْ تشملنا برعايتك في ذاك اليوم، وتجعلنا ممن يسعد بلفظك ولا تحرمنا رؤيتك.

ختام بحث المعاد في القرآن

ونهاية المجلد السادس

آمين يارب العالمين

التاريخ ٢١ / ٣ / ١٣٧٠ هجري شمسي الموافق ٢٧ ذي القعدة ١٤١١ هجري قري.

الفهرست

الفهرست

الموضوع الصفحة

المقدمة	٥
ماهو التفسير الموضوعي وماهي المشكلات التي يعالجها؟	٥
مزايا التفسير الموضوعي	٧
منازل الاخرة	٩
أشراط الساعة	١٥
ظهور علامات القيامة	١٦
اقترب الساعة	١٧
العلامات التي تنذر بنهاية هذا العالم	٢٥
تلاشي الجبال	٢٥
انفجار البحار	٢٧
الزلازل العظيم المدمر	٢٨
ذهاب ضوء الشمس والقمر والكواكب	٢٩
انشقاق الاجرام السماوية	٣١
علامات بدء القيامة	٣١
نفخة الصور	٤٣
نفخة الموت ونفخة الحياة	٤٥
المراد ب نفخة الصور ؟	٥٦

- ٥٨..... تأثير الامواج الصوتية على الانسان وسائر الموجودات
- ٥٩..... إجابات حول نفخة الصور
- ٦٠..... من الملك المأمور بنفخة الصور ؟
- ٦١..... ما الفاصلة بين النفختين ؟
- ٦٢..... فلسفة نفخة الصور
- ٦٧..... كتاب الاعمال
- ٦٩..... جمع الآيات وتفسيرها.
- ٧٢..... الكتاب الذي يتكلم
- ٧٥..... كتب في عليين وآخرى في سجين
- ٧٦..... الملائكة المراقبون
- ٧٨..... كتاب صحيفة الاعمال
- ٧٩..... كتاب الاعمال في اليمين أو في الشمال
- ٨٣..... كتاب اعمالنا امام انظار الجمع
- ٨٤..... كتب الاعمال في الروايات الاسلامية
- ٨٦..... ماهية كتب الاعمال
- ٨٩..... فلسفة كتاب الاعمال
- ٩١..... اقسام كتب الاعمال
- ٩٢..... خصائص كتاب الاعمال
- ٩٧..... تجسيد الاعمال
- ٩٩..... جمع الآيات وتفسيرها.
- ٩٩..... يومئذ يرى كل عمله
- ١٠٧..... جزاؤكم هو أعمالكم

١٠٩.....	ذكر تجسم الاعمال في الروايات الاسلامية
١١٢.....	تجسم الاعمال في منطق العقل
١١٤.....	تجسد اخلاق وسجايا الانسان
١١٩.....	محكمة العدل الالهي
١٢١.....	جمع الآيات وتفسيرها
١٢١.....	الجميع محضرون في تلك المحكمة العظمى
١٢٣.....	شهود المحشر
١٢٩.....	ميزان الاعمال
١٣٢.....	السرعة في الحساب
١٣٧.....	منظر عام للمحكمة الكبرى
١٣٨.....	شهود يوم القيامة
١٤٠.....	ماهو ميزان العمل؟
١٤٢.....	ماهي الاعمال الثقيلة في الميزان ؟
١٤٤.....	المسائل التي يسأل عنها يوم القيامة
١٤٦.....	اليسر والعسر في حساب المحشر
١٥١.....	الصراط والمرصاد
١٥٢.....	جمع الآيات وتفسيرها
١٥٢.....	طريق الجنة يمر عبر جهنم
١٥٧.....	ماهي حقيقة الصراط ؟
١٦٣.....	الجنة وأصحابها
١٦٥.....	موجبات دخول الجنة في المنظور القرآني
١٦٥.....	الايمان والعمل الصالح
١٦٧.....	التقوى

١٧٩.....	الاحسان
١٧٠.....	الجهاد والشهادة
١٧١.....	نهي النفس عن الهوى
١٧٣.....	السابقون الى الايمان
١٧٤.....	الهجرة والجهاد
١٧٦.....	الصبر والتحمل عند الشدائد
١٧٧.....	الايمان والاستقامة
١٧٩.....	إطاعة الله ورسوله (ﷺ)
١٧٩.....	الاخلاص
١٨١.....	الصدق
١٨٢.....	تزكية النفس
١٨٣.....	الانفاق والاستغفار
١٨٤.....	الخوف من الله
١٨٥.....	التولي والتبري
١٨٦.....	الاهتمام بالصلاة
١٨٨.....	الخلاصة
١٨٩.....	النعم الجسمانية في الجنة
١٩١.....	الجنان
١٩٢.....	ظلال الجنة
١٩٣.....	قصور أهل الجنة
١٩٥.....	الفرش والارائك
١٩٩.....	اطعمة اهل الجنة
٢٠٢.....	الشراب الطهور

٢٠٦.....	افضل شراب اهل الجنة
٢٠٨.....	الاولاني (الصحاف والاكواب)
٢١٠.....	الالبسة والحلي
٢١٣.....	حلي الجنة
٢١٤.....	الحور العين
٢١٩.....	الخدم والسقا
٢٢٢.....	المستقبلون
٢٢٤.....	النُّزل
٢٢٥.....	النعم الغير قابلة لعة الصور
٢٣١.....	اللذات الروحية
٢٣٢.....	الاحترام الخاص
٢٣٤.....	اجواء الامن والسلام
٢٣٧.....	الأمان بعد الخوف
٢٣٨.....	الأخلاء والاصدقاء الاوفياء
٢٤١.....	العلاقات الطيبة
٢٤٣.....	الانشراح النفسي
٢٤٥.....	الشعور برضا الله
٢٤٧.....	نظر الله اليهم ونظرهم اليه
٢٥٠.....	لهم ما يشتهون
٢٥٢.....	النعم التي لا يدركها التصور
٢٥٤.....	خلود نعم الجنة
٢٥٧.....	ابواب الجنة
٢٥٨.....	جمع الآيات وتفسيرها

- ٢٥٨..... الجنة في الانتظار
- ٢٥٩..... ابواب الجنة في الاحاديث الاسلامية
- ٢٦..... المكتوب على ابواب الجنة
- ٢٦٧..... سعة الجنة
- ٢٦٨..... جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٦٨..... كعرض السموات والارض
- ٢٧٥..... هل الجنة مخلوقة
- ٢٧٦..... جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٧٦..... اعدت للمتقين
- ٢٨١..... آراء العلماء المسلمين في خلق الجنة والنار
- ٢٨١..... الوجود الحالي للجنة والنار في الروايات الاسلامية
- ٢٨٥..... جواب على اعتراضين
- ٢٨٦..... اين الجنة ؟
- ٢٩٦..... درجات الجنة
- ٢٩٦..... جمع الآيات وتفسيرها
- ٢٩٦..... جنة ام جنتان
- ٣٠٧..... عدد من الاسئلة حول الجنة
- ٣٠٧..... أليست الرتبة مملة ؟
- ٣١٠..... أتعرف قيمة اللذة بفقدانها ؟
- ٣١٢..... هل يوجد في الجنة تكامل ؟
- ٣١٧..... النار واصحاب النار
- ٣١٧..... لمن النار ؟
- ٣١٨..... الكفار والمنافقون

٣١٨.....	الصد عن سبيل الله
٣١٩.....	ترك طاعة الله وشق عصا المسلمين
٣١٩.....	الاستهزاء بآيات الله
٣٢٠.....	عدم استخدام العقل والعين والأذن
٣٢١.....	اتباع الشيطان
٣٢٢.....	الطغيان والاستكبار
٣٢٣.....	الظلم والاعتداء
٣٢٣.....	الركون الى الظالمين
٣٢٤.....	نسيان الآخرة
٣٢٥.....	حب الدنيا
٣٢٥.....	اكتناز الذهب
٣٢٧.....	الفرار من الزحف
٣٢٧.....	قتل الابرياء
٣٢٨.....	ترك الصلاة
٣٢٩.....	عدم ايتاء الزكاة
٣٣٠.....	أكل مال اليتيم
٣٣١.....	أكل الربا
٣٣٢.....	كفران النعم الالهية
٣٣٣.....	المطففين
٣٣٤.....	الهمز واللمز والغيبة
٣٣٥.....	الاسراف والتبذير
٣٣٦.....	الجرائم والذنوب
٣٣٧.....	تعدي حدود الله

٣٣٨.....	الخلاصة
٣٤١.....	ماهية جهنم
٣٤٢.....	جمع الآيات وتفسيرها
٣٤٢.....	تعبير القرآن بشأن جهنم
٣٤٩.....	اوصاف جهنم
٣٥٠.....	فلسفة وجود النار
٣٥٧.....	ابواب جهنم ودركاتها
٣٥٨.....	جمع الآيات وتفسيرها
٣٥٨.....	ماهو المقصود من ابواب جهنم ؟
٣٥٨.....	العذاب الجسدي لأصحاب النار
٣٦٥.....	شدة عذاب اصحاب النار
٣٦٦.....	جمع الآيات وتفسيرها
٣٧٠.....	الطعام والشراب القاتل لأصحاب النار
٣٧٢.....	جمع الآيات وتفسيرها
٣٨٠.....	ثياب اهل النار
٣٨٢.....	سائر العذاب الجسدي لاهل النار
٣٨٣.....	جمع الآيات وتفسيرها
٣٨٣.....	رياح مهلكة، وضلال محرقة
٣٨٦.....	ونزانات جهنم الانفرادية
٣٩٠.....	لماذا يكون العذاب الالهي شديداً الى هذا الحد ؟
٣٩٥.....	العذاب الروحي
٣٩٦.....	جمع الآيات وتفسيرها
٣٩٦.....	الحزن والهم القاتل والحسرة اللامتناهية

٣٩٨.....	كثرة اللوم والتقريع.
٤٠٧.....	خلود العقاب.
٤٠٨.....	جمع الآيات وتفسيرها.
٤٠٨.....	عذاب الخلد.
٤١٤.....	من هم المخلّدون في النار؟
٤١٤.....	الكفار.
٤١٥.....	المنافقون.
٤١٥.....	الغارقون في الذنوب.
٤١٦.....	القتلة والجناة.
٤١٧.....	آكلو الربا.
٤١٨.....	الظالمون.
٤١٩.....	الذين خفّت موازينهم.
٤١٩.....	المجرمون بشكل عام.
٤٢١.....	سؤال : هل ان مرتكبي الكبائر مخلصون في النار؟
٤٢٨.....	هل ان الخلود نوعي ام شخصي؟
٤٢٨.....	هل ينسجم الخلود مع العدل الالهي؟
٤٢٩.....	الجواب.
٤٣٥.....	القرآن الكريم والشفاعة.
٤٣٧.....	جمع الآيات وتفسيرها.
٤٣٧.....	المجاميع الخمسة لآيات الشفاعة.
٤٣٧.....	القسم الاول.
٤٣٧.....	القسم الثاني.
٤٣٩.....	الآيات التي تعتبر الشفاعة خاصّة بالله.

٤٤٠.....	القسم الثالث
٤٤٢.....	القسم الرابع
٤٤٥.....	القسم الخامس
٤٤٦.....	النتيجة
٤٤٦.....	مفهوم الشفاعة
٤٤٨.....	انواع الشفاعة (الشفاعة التكوينية والشفاعة التشريعية)
٤٤٩.....	فلسفة الشفاعة
٤٥٠.....	بعث الأمل ومواجهة روح اليأس
٤٥٠.....	ايجاد العلاقة المعنوية مع اولياء الله
٤٥٠.....	نيل شروط الشفاعة
٤٥١.....	الاهتمام بسلسلة الشفعاء
٤٥٧.....	متى تكون الشفاعة ؟
٤٥٥.....	سؤال
٤٥٥.....	الاعتراضات الأساسية المطروحة بشأن الشفاعة
٤٥٦.....	الجواب
٤٥٧.....	لمن الشفاعة ؟
٤٥٧.....	الجواب
٤٥٨.....	هل تتناسب الشفاعة مع العدل الالهي ؟
٤٥٨.....	ألا تتعارض الشفاعة مع ارادة الله ؟
٤٥٩...	عقوبات القيامة هي الأثر التكويني للأعمال، فكيف يمكن ازالتها بالشفاعة
٤٦٠.....	أليس الاعتقاد بالشفاعة من عوامل التخلف
٤٦٠.....	ألا تتعارض الشفاعة مع التوحيد ؟
٤٦٢.....	النقاط الخاطئة في هذا الاستدلال

فهرست..... ٤٩٣

أين الأعراف ومن هم أصحاب الأعراف؟..... ٤٦٩

جمع الآيات وتفسيرها..... ٤٧٠

موضع بين الجنة والنار..... ٤٧٠

لماذا هذه المعرفة..... ٤٧١

الأعراف في اللغة والتفسير..... ٤٧٤

الأعراف في منظار العقل والمنطق..... ٤٧٦

الأعراف في الروايات والأحاديث..... ٤٧٦

خاتمة بحث المعاد..... ٤٧٨